الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي

الإنسان

منتدى إقرأ الثقافي

من الميلاد إلى البعث

www.iqra.ahlamontada.com

في القرآن الكريم

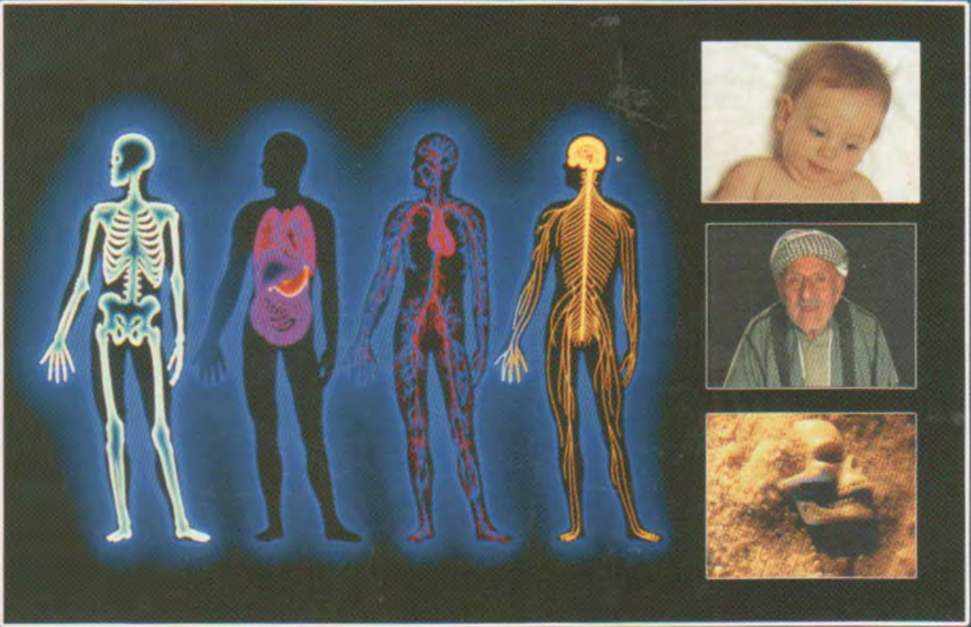

دار المعرفة
بيروت ـ لبنان

لمزيد من الكتب وفي جميع المجالات

زوروا

منتدى إقرأ الثقافي

الموقع: HTTP://IQRA.AHLAMONTADA.COM/

فيسبوك:

HTTPS://WWW.FACEBOOK.COM/IQRA.AHLAMONTADA/

منتدى إقرأ الثقافي

للكتب (كوردى - عربي - فارسي)

www.iqra.ahlamontada.com

الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي

الإنسان

مِنَ الميلادِ إلى البعث في القرآنِ الكريم

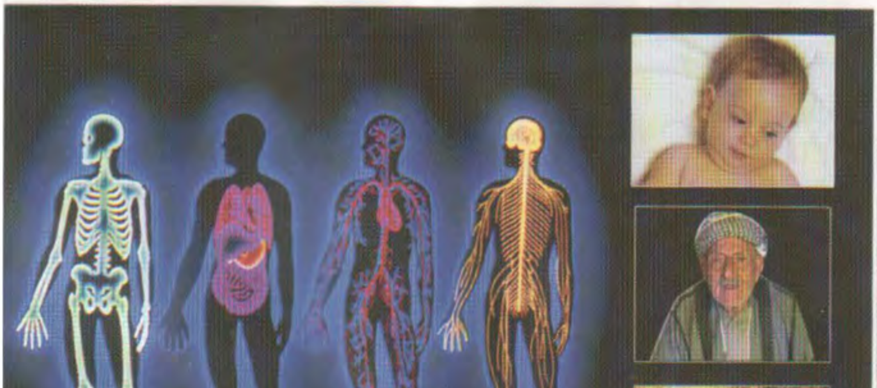

دار المعرفة
بيروت لبنان

الإخراج الفني والصور العلمية: محمد ابراهيم فولادكار

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار المعرفة بيروت ـ لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنفيذ الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة
كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Copyright© All rights reserved
Exclusive rights by **Dar El-Marefah** Beirut - Lebanon.
No part of this publication may be translated, reproduced,
distributed in any form or by any means, or stored in a data base or
retrieval system, without the prior written permission of the publisher

ISBN 9953-85-139-5

الطبعة الأولى

1428هـ ـ 2008م

DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

جسر المطار ـ شارع البرجاوي ـ ص.ب: ٧٨٧٦ ـ هاتف: ٨٣٤٣٠١ ـ ٨٥٨٨٣٠ ـ فاكس: ٨٣٥٦١٤ بيروت ـ لبنان
Airport Bridge, P.O.Box: 7876, Tel: 834301, 858830, Fax: 835614, Beirut-Lebanon
http//:www. marefah.com
E.mail: info@marefah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الأستاذ الدكتور زغلول راغب محمد النجار

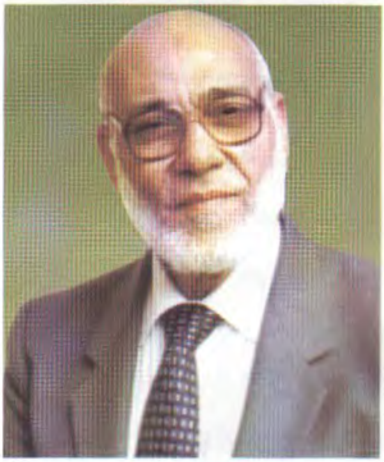

أ - التفاصيل الشخصية:

- أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والأجنبية.
- رئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ج.م.ع.
- زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.
- ولد الدكتور زغلول النجار في قرية مشال، مركز بسيون بمحافظة الغربيّة في 17 نوفمبر عام 1933م.

ب - المؤهلات العلمية:

- تعلم القرآن الكريم منذ الصغر في كتّاب القرية ثمّ على يد والده (رحمه الله تعالى).
- تخرج من جامعة القاهرة عام 1955 حاصلاً على درجة بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف، وكان أول دفعته فمنحته الجامعة جائزة بركة للجيولوجيا وكان أول الحاصلين عليها.
- حصل على درجة الدكتوراه في علوم الأرض من جامعة ويلز/ بريطانيا عام 1963م ومنحته الجامعة درجة زمالتها فيما بعد الدكتوراه، كما حصل على منحة روبرتسون للأبحاث المتقدمة فيما بعد درجة الدكتوراه، وتدرج في وظائف هيئة التدريس حتى حصل على درجة الأستاذية سنة 1972.

جـ - الوظائف:

- عمل بشركة صحاري للبترول، وبالمركز القومي للبحوث بالقاهرة، وبمناجم

الفوسفات بوادي النيل، ومناجم الذهب بالبرامية - صحراء مصر الشرقية - وبمشروع الفحم بشبه جزيرة سيناء، وبكل من جامعات عين الشمس (القاهرة)، الملك سعود (الرياض)، ويلز (بريطانيا)، الكويت (الكويت)، قطر (الدوحة)، والملك فهد للبترول والمعادن (الظهران) وعمل أستاذاً زائراً بجامعة كاليفورنيا - لوس أنجيليس بالولايات المتحدة الأميركية - كما عمل مديراً لمعهد ماركفيلد للدراسات العليا ببريطانيا، ورئيساً للجنة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - مصر.

د - الجوائز العلمية:

- منح جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، وتم اختياره الشخصية الإسلامية الأولى على مستوى العالم لعام 1427هـ/ 2006م.
- منح جائزة رئيس جمهورية السودان التقديرية، ووسام العلوم والآداب والفنون الذهبي عن سنة 1426هـ/ 2005م.
- حصل على جائزة أفضل البحوث المقدمة لمؤتمر البترول العربي 1970م، وعام 1972م.
- حصل على جائزة أفضل البحوث المقدمة لمؤتمر الأحافير الدقيقة الكافية بكل من جنيف (سويسرا) 1967م، وروما (إيطاليا) سنة 1970م.
- حصل على درجة زمالة جامعة ويلز فيما بعد الدكتوراه - بريطانيا سنة 1963م.
- حصل على منحة روبرتسون للأبحاث فيما بعد الدكتوراه - جامعة ويلز - بريطانيا سنة 1963م.
- حصل على جائزة مصطفى بركة لعلوم الأرض - جامعة القاهرة سنة 1955م، وكان أول الحاصلين عليها.
- حصل على جائزة مسابقة التوجيهية، وزارة التربية والتعليم - مصر سنة 1951م، وكان ترتيبه الأول على مستوى الدولة.

هـ - الإنتاج العلمي:

- له أكثر من 150 بحثاً علمياً منشوراً وأكثر من خمسة وأربعين كتاباً.

- أشرف على أكثر من أربعين رسالة علمية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات العربية والأجنبية، كما كان عضواً في لجان تحكيم العديد من الرسائل للحصول على هاتين الدرجتين العلميتين.

و - الأنشطة العلمية والثقافية:

- عضو في العديد من الجمعيات العلمية المحلية والعالمية، وعضو هيئة تحرير عدد من الدوريات العلمية المتخصصة.
- زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.
- شارك في العديد من المؤتمرات العربية والإسلامية والدولية.
- عضو سابق هيئة تحكيم جائزة اليابان الدولية للعلوم.
- مستشار في شؤون التعليم العالي بالمعهد العربي للتنمية.
- عضو مؤسس للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية وعضو مجلس إدارتها.
- عضو مؤسس للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة برابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة وعضو مجلس إدارتها.
- عضو مجلس أمناء الهيئة الإسلامية للإعلام - لندن - بريطانيا.
- عمل مستشاراً علمياً لكل من مؤسسة روبرتسون للأبحاث العلمية (ويلز - بريطانيا)، ومستشارو النفط العرب (الكويت)، وشركة الزيت العربية (الخفجي - المملكة العربية السعودية)، وبنك دبي الإسلامي (دولة الإمارات العربية المتحدة).
- له مقال أسبوعي بجريدة الأهرام المصرية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة صدر منه حتى الآن أكثر من مائتين وخمسين مقالاً.

الفهرس

الموضوع — الصفحة

مقدمة 13

1 - ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا...﴾ [الأحقاف: 15] 31

2 - ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ...﴾ [البقرة: 233] 51

3 - ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: 14] 59

4 - ﴿... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ...﴾ [هود: 61] 68

5 - ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: 17-18] 83

6 - ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ...﴾ [النمل: 64] 93

7 - ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: 55] 107

8 - ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾ [الملك: 2] 123

9 - ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: 60] 141

10 - ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: 3-4] 151

11 - ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: 23] 161

12 - ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: 41] 171

13 - ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11] 189

14 - ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: 50] 205

15 - ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54] 215

16 - ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: 68] 231

17 - ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36] 245

18 - ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ...﴾ [البقرة: 222] 253

19 - ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: 1-4] 261

20 - ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: 28] 275

21 - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98] 285

22 - ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: 62] 301

23 - ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: 4] 311

24 - ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: 22] 325

25 - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ...﴾ [فاطر: 28] 333

26 - ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: 11] 345

27 - ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ﴾
[الكهف: 18] 357

28 - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا
لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56] 363

29 - ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: 16] 369

30 - ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا
تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46] 377

31 - ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ...﴾ [الأحزاب: 4] 391

32 - ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ
لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النحل: 81] 407

33 - ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4] 415

34 - ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41] 429

35 - ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ
عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42] 441

36 - ﴿... وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ...﴾ [النساء: 119] 451

37 - ﴿... أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ
ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: 16] 459

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونثني عليه الخير كله، ونصلي ونسلم على كافة أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونخصُّ منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين: سيدنا محمد بن عبد الله، وآله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته، واستَنَّ بسنته، وجاهد في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمته في الأرض حتى أتاه اليقين.

فقد ختم الله - تعالى - النبوة ببعثة سيدنا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - وأتم برسالته هداية رب العالمين لعباده، فأكمل الدين، وأتم النعمة، ورضي لعباده الإسلام ديناً. وتعهَّد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظ رسالته الخاتمة تعهداً مطلقاً بقوله العزيز: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. فحفظ القرآن الكريم كما حفظت السنة النبوية المطهَّرة في نفس لغة الوحي - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية حفظاً كاملاً، وسوف يظل هذا الحفظ مستمراً إلى ما شاء الله - تعالى - تحقيقاً لوعده الذي قطعه لرسالته الخاتمة ولم يقطعه لرسالة من الرسالات السابقة أبداً، والتي ترك حفظها لأصحابها فضيَّعوها.

وحفظ الرسالة الخاتمة منطلق من العدل الإلٰهي الذي لخَّصه ربنا - تبارك وتعالى - بقوله العزيز: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: 15].

وهذا الحفظ المطلق يمثِّل بقاء الرسول الخاتم بين أظهر الناس إلى قيام الساعة، وقد بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح البشرية كلها، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين. فنحمد الله - الحافظ - على حفظه لكتابه ولسنة خاتم أنبيائه ورسله، ونسأله - تعالى - أن يجزي هذا النبي والرسول الخاتم خير ما جازى به نبيًّا عن دعوته، وخير ما كافأ به رسولاً على حسن تبليغ رسالته، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة، والدرجة العالية الرفيعة من الجنة، إن ربي لا يخلف الميعاد (آمين).

أما بعد:

فقد صدر لي من السلسلة المعنونة: «**من آيات الإعجاز العلمي في كتاب الله**»، حتى

اليوم خمس مجلدات هي: «**السماء في القرآن الكريم**»، و«**الأرض في القرآن الكريم**»، و«**النبات في القرآن الكريم**» و«**الحيوان في القرآن الكريم**» و«**خلق الإنسان في القرآن الكريم**» وهذا هو المجلد السادس بعنوان «**خلق الإنسان في القرآن الكريم: من الميلاد إلى البعث**».

والقرآن الكريم هو هداية الله - تعالى - للإنسان، ولذلك فإن محوره الرئيس هو ذلك المخلوق العاقل، المكرم، المكلف، ومهما كتب الكُتَّاب في موضوع «الإنسان في القرآن الكريم» فلن يوفوه حقه، لتشعب قضايا الإنسان في كل آية من آيات هذا الكتاب العزيز، سواء المتعلق منها بقضايا العقيدة أو العبادة أو الأخلاق أو المعاملات، أو المشير إلى عدد من الأمم السابقة وكيفية تعاملها مع نبيِّها أو رسولها، وماذا كان جزاؤها من ثواب أو عقاب، أو المتعامل مع قضايا تربية الإنسان، وأحواله النفسية، أو مع أموره الاقتصادية والإدارية، أو قضاياه العلمية والمستقبلية، وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالإنسان، وما أكثرها في كتاب الله!.

وقد جاءت الإشارة إلى الإنسان في القرآن الكريم في أكثر من ثمانمائة وإحدى وثلاثين (831) نصاً بصيغ مختلفة نختار منها ما يلي:

1 - إحدى وتسعين (91) مرة بلفظة «**إنسان**»، وخمس (5) مرات بلفظة «**أناس**»، ومرة واحدة بكل من الألفاظ «**أناسي**» و«**إنسياً**» و«**مستأنسين**». والمرأة يقال لها «**إنسان**» ولا يقال لها «**إنسانة**».

وفي تعريف مدلول اللفظ قيل أن «الإنسان» سمي بذلك لأنه خلق خلقة لا قوام لها إلا بأنس بعضهم ببعض ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم منفرداً بجميع أسبابه، وقيل: سمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألفه، وقيل: من كثرة نسيانه انطلاقاً من قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ **[طه: 115]**.

و«**الإنس**» هم البشر، وهم خلاف الجن، والواحد «**إنْسِيٌّ**» و «**أنسِيٌّ**» والجمع «**أناسِيٌّ**»، وتصغير إنسان «**أنيسيان**». و «**الأُناس**» بالضم لغة في الناس، وهو الأصل.

يقال: «**استأنس**» بفلان و «**تَأَنَّس**» به بمعنى واحد لأن «**الأنس**» خلاف النفور، و «**الإنسي**» منسوب إلى «**الإنس**»، ويقال ذلك لمن كثر «**أُنْسُه**» ولكل ما «**يؤنس**» به، و «**الأنيس**» و«**المؤانس**» كل ما «**يؤنس**» به.

يقال: ما بالدار «**أنيس**» أي أحد، و«**آنسه**» بالمد أبصره، و«**آنس**» منه رشداً أي علمه، و«**آنس**» الصوت سمعه. و«**الإيناس**» خلاف الإيحاش وكذا «**التأنيس**». وكانت العرب تسمي يوم الخميس «**مؤنساً**».

و«**الأَنَسُ**» بفتحتين لغة في «**الأنس**» وهو أيضاً ضد الوحشة، وهو مصدر «**أَنِسَ**» به «**يأنِس**» «**أُنْساً**»، أو «**أَنِسَه**»، وبأسلوب الاستعارة يعبر بلفظة «**الإنسي**» من كل شيء على ما يلي الإنسان منه، والوحشي ما يلي الجانب الآخر منه.

قال - تعالى -: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: 6] أي: أبصرتم وقال على لسان نبيه موسى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: 10] أي أبصرت أنساً بها، وقال - عز من قائل -: «**حتى تستأنسوا**» أي: تجدوا «**إيناساً**» ومنها «**مستأنسين**».

2 - كذلك جاءت الإشارة إلى الإنسان في كتاب الله بتعبير «**الناس**» في واحد وأربعين ومائتين (241) من المواضع.

3 - وجاءت الإشارة إلى ذلك المخلوق المكرم بتعبير «**بشر**» وتصريفاته في سبعة وثلاثين (37) موضعاً.

4 - وجاءت الإشارة إليه بتعبير «آدم» وتصاريفه في خمسة وعشرين (25) موضعاً.

5 - وبتعبير «**رجل**» بتصريفاته سبعة وخمسين (57) مرة، وبتعبير «**المرء**» وتصريفاته إحدى عشرة (11) مرة.

6 - وبتعبير «**امرأة**» وتصاريفها ستة وعشرين (26) مرة، وبتعبير «**النساء**» و«**نسوة**» وتصاريفهما تسعاً وخمسين (59) مرة.

7 - وجاءت الإشارة إلى الإنسان بتعبير «**النفس**» وتصاريفها في خمسة وتسعين ومائتين (295) من المواضع.

ومن هذه الإشارات التي تصل في مجموعها إلى إحدى وثلاثين وثمانمائة (831) اخترنا هنا سبعة وثلاثين منها تتعلق بالجوانب العلمية البحتة المتعلقة بالإنسان، أما باقي الإشارات إلى هذا المخلوق المكرم فسوف تناقش إن شاء الله - تعالى - تحت عناوين من مثل: «الإعجاز النفسي»، «الإعجاز التشريعي»، «الإعجاز التاريخي»، «الإعجاز الاقتصادي»، «الإعجاز الإداري»، «الإعجاز التربوي»، «الإعجاز الرقمي»، «الإعجاز الإنبائي» وغيرها.

وتعتبر الآيات القرآنية المتعلقة بالإنسان ذات أهمية خاصة، لأن من مآسي عصرنا أن التقدم المعرفي فيه قد أخذ بعداً مادياً محضاً منذ بدايات عصر النهضة الأوروبية وحتى اليوم. فانحصرت المعارف المكتسبة كلها عن الإنسان في الأطر المادية البحتة، المجردة عن الروح، وعن جميع المعنويات المتعلقة بهذا المخلوق المكرم، فضلّت تلك المعارف ضلالاً بعيداً، وبضلالها انحط إنسان هذا العصر - في غالبيته - إلى مستويات من السلوك تأباها الحيوانات العجماوات، وظل يتهاوى في أوحال تصوراته الخاطئة وتصرفاته الشاذة إلى حضيض لم تعرفه البشرية من قبل حتى كاد أن يقضي على جنسه قضاء مبرماً بتقدمه العلمي والتقني المذهل، وانحساره الديني والأخلاقي والسلوكي المشين الذي أفقده إنسانيته بالكامل أو كاد، وأدى إلى تزايد مخزونه المتنامي باستمرار من أسلحة الدمار الشامل، وإفساده المادي والمعنوي المتواصل في الأرض حتى كاد أن يدمر مختلف بيئاتها تدميراً كاملاً، والمظالم الكثيرة التي تقترفها الدول الصناعية الكبرى في حق دول العالم الثالث - وفي زمرتها دول المسلمين - أوضح دليل على المستوى المتدني من السلوك الذي انحط إليه إنسان اليوم.

وضلال الإنسان المعاصر في قضايا الدين - ومن ركائزه: العقيدة، والعبادات، والأخلاق والمعاملات - أفقده العديد من الحقائق المتعلقة بذاته، وفي مقدمتها حقيقة خلقه، والغاية من وجوده، وتفاصيل رسالته في هذه الحياة الدنيا، وحتمية مصيره من بعدها.

ولما كانت هذه القضايا مما لا يخضع لإدراك الإنسان كان هذا المخلوق المكرَّم محتاجاً فيها دوماً إلى الهداية الربانية عن طريق وحي السماء أي إلى الدين. ولما كان الدين الوحيد الذي تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظ وحيه هو الدين الخاتم الذي بعث به النبي الخاتم ﷺ، والمحفوظ في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ كانت أهمية استعراض آيات الإنسان في القرآن الكريم، لأن هذه الآيات هي المصدر الوحيد الصحيح الذي يحدد للإنسان تفاصيل قصة خلقه، ويعرِّفه بخالقه، وبشيء من صفات هذا الخالق العظيم، ويحدد له الغاية من وجوده على هذه الأرض، وتفاصيل رسالته في هذه الحياة الدنيا، وكيفية تحقيقه لهذه الرسالة على الوجه الذي يرضي خالقه عنه، ثم حتمية مصيره بعد هذه الحياة.

وهذه القضايا مما يثير تساؤلات الإنسان بغض النظر عن عمره، وثقافته، ومستواه الاجتماعي. وإذا لم يجد الإجابات الشافية لها فإنه لا يمكنه أن يحيا على هذه الأرض

حياة مستقرة، أو أن ينعم في هذه الحياة الدنيا بشيء من السعادة أو الرضا، أو أن يتفهم حقيقة رسالته فيها أو مصيره من بعدها، أو أن يحقق لنفسه شيئاً في هذين المجالين.

والحضارة المادية المعاصرة التي تجتاح أغلب سكان الأرض اليوم قد ضلت عن الوصول في هذه القضايا المصيرية إلى إجابات شافية فشقيت وأشقت أتباعها على الرغم من التقدم العلمي والتقني المذهل الذي حققته، ومستوى الإغراق المادي الذي تعيش فيه. ومن هنا سلّطت كل طاقاتها المادية لمحاربة القلة المؤمنة بدين الله الحق، في محاولة يائسة لإخراجها عن دينها، وفرض القيم المادية الهابطة عليها، والفارق بينهما كبير جداً، وصدق الله العظيم القائل: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122].

فالحضارة المادية المعاصرة تنظر إلى الإنسان باعتباره حيواناً شيطانياً نتج عن عملية التطور العضوي من المادة والطاقة إلى الجزيء البروتيني الأوّل، الذي نتج بتفاعل أشعة الشمس مع طين الأرض بعفوية وعشوائية بالغيْن، ثم ظل ينقسم هذا الجزيء البروتيني الأول المفترض لابتداء الخلق بعشوائية كذلك حتى وصل إلى بناء الخلية الحية الأولى التي أخذت بدورها في الانقسام العشوائي حتى أنتجت سلسلة المخلوقات المتتالية التي بدأت قليلة في العدد، وبسيطة في التركيب، ثم أخذت في الترقي التدريجي حتى وصلت إلى مرحلة الإنسان الذي ضموه مع القردة في رتبة واحدة.

وإنسان هذا شأنه، وهذه نشأته، لا بد وأن يكون قد بدأ جاهلاً كافراً كما يعتقد أغلب أساتذة الدراسات الإنسية، ثم أخذ في التعلم التدريجي مما حوله من المخلوقات السابقة على وجوده، كما أخذ في التدين التدريجي خوفاً من الظواهر الكونية المتعددة والتي كثيراً ما هددت أمنه وسلامته كما يدعون. وإنسان هذه قصته لا بد وأن يكون قد بدأ أبكم دون أدنى قدرة على النطق فاستخدم لغة الإشارة، ثم تعلم النطق بالتدريج بتقليد أصوات الحيوانات من حوله - خاصة الطيور - كما يدعي أغلب المتخصصين في علم دراسة الإنسان (Anthropology) من أمثال «مايكل س. كورباليس» (Michael C. Corballis) الذي نشر كتاباً في سنة 2002 من منشورات جامعة «برنستون» بعنوان «في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم».

وقد ترجم الكتاب مؤخراً في سلسلة «عالم المعرفة» التي تصدر من دولة الكويت وقام على ترجمته الأستاذ محمود ماجد عمر. والكتاب مليء بالمخالفات الشرعية،

والمغالطات العلمية العديدة لأنه يناقض قول ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]. وقوله - سبحانه -: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمٰن: 1-4].

وفي مقابل هذه الصورة المهينة للإنسان والتي تبنتها الحضارة المادية المعاصرة، نجد القرآن الكريم يضع الإنسان في أعلى مقامات التكريم للمخلوقين، وذلك بالتأكيد على أن الله - تعالى - خلقه بقدرته، وسواه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وعلمه الأسماء كلها، واستخلفه في الأرض، وسخر له ما في السمٰوات وما في الأرض، وأشهد ذريته وهم في عالم الذر بحقيقة الربوبية وقال - تعالى - في حق هذا المخلوق المكرم عشرات الآيات القرآنية التي منها ما يلي:

1 - ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

2 - ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ (٧٥)﴾ [صٓ: 71-75].

3 - ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤)﴾

[البقرة: 30-34].

4 - ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ
خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ
فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

[السجدة: 6–9].

5 - ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾

[الأعراف: 172].

6 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا
كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

7 - ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى
عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: 1–5].

8 - ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾

[الرحمٰن: 1–4].

9 - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ
﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا
ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ
لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: 12–16].

وهكذا اهتم القرآن الكريم بالإنسان اهتماماً بالغاً باعتباره المقصود الأول بوحي السماء الذي تكامل في الرسالة الخاتمة التي بعث بها النبي الخاتم ﷺ إلى درجة أن إحدى سور هذا الكتاب العزيز سميت باسم «**الإنسان**».

والمتأمل في آيات القرآن الكريم يدرك تمام الإدراك أن الإنسانية في الإنسان ليست بقامته المنتصبة، ولا ببنائه الجسدي المعقَّد، ولا بحجم جمجمته، ولا بأبعاد أطرافه ولا

بغير ذلك من صفاته الجسدية والتشريحية، ولكن الإنسانية فيه هي بقدرته على فهم رسالته في هذه الحياة، وعلى القيام بها على الوجه الذي يرتضيه الله - تعالى -، وعلى حمل أمانة التكليف التي عرضها عليه الله - تعالى - وقَبِلَ حملها، والتي يصفها ربنا - تبارك وتعالى - بقوله العزيز:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: 72-73].

والمتأمل في آيات القرآن الكريم يدرك تمام الإدراك كذلك أن أحد الأهداف الرئيسة من خلق الإنسان هو ابتلاؤه واختباره في هذه الحياة الدنيا، ومن هنا قال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7] وذلك ليتيح لكل إنسان الفرصة كاملة لإثبات جدارته بالجنة أو استحقاقه للنار، فينال الأولى بتعرفه على رب هذا الكون ومليكه من خلال تأمل الإنسان في ذاته وفي الخلق من حوله، وعن طريق تقبل الهداية الربانية التي منَّ الله - تعالى - بها على عباده عبر مائة وعشرين ألف نبي، وثلاثمائة وبضعة عشر رسالة حملها ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً اصطفاهم الله - تعالى - من بين هذا العدد الكبير من الأنبياء، ثم أتم نعمته على عباده وهدايته لخلقه بالرسالة الخاتمة التي بعث الله - تعالى - بها خاتم أنبيائه ورسوله - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين -، وتعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظ رسالته الخاتمة تعهداً مطلقاً في القرآن الكريم وفي سنة هذا النبي الخاتم - صلوات الله وسلامه عليه - حتى تبقى حجّة على الناس أجمعين إلى يوم الدين.

ومن خلال هذه الهداية الربانية يتعرف العبد منا على شيء من صفات خالقه العظيم الذي أوجده من العدم، وأرسله إلى هذه الحياة وهي دار اختيار وابتلاء لفترة قصيرة هي عمره ليثبت من خلال عمله طوال هذه الفترة جدارته بالخلود في الجنة أو استحقاقه للخلود في النار. ومن خلال وحي السماء يتعرف الإنسان على شيء من أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، الدالة على كمال علمه وحكمته المحيطين بكل شيء، وتمام

جلاله وسلطانه المهيمنين على كل شيء، وطلاقة قدرته على إبداع خلقه للكون بجميع ما فيه ومن فيه، ولذلك قال - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: 12].

وقال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: 56-57].

ومن عديد الآيات القرآنية الكريمة تتضح رسالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا وهي رسالة ذات بعدين:

أولهما: عبادة الله - تعالى - بما أمر، **وثانيهما**: حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة شرع الله وعدله فيها، ومعاملة الناس بالإحسان والفضل والقصد، والاستعداد دوماً ليوم الرحيل عن هذه الحياة الدنيا، وما يتبعه من أهوال لا ينجو منها إلا من حقق رسالته على الأرض بما يرضي الله - تعالى -.

وتؤكد آيات القرآن الكريم على ضرورة تنزيه الله - تعالى - عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل ادعاء الشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة والولد وهذه جميعها من صفات المخلوقين، والخالق منزه عن جميع صفات خلقه ولذلك أمر - تعالى - خاتم أنبيائه ورسله، ومن بعده كل مؤمن برسالته إلى يوم الدين بإعلان شهادته بذلك فقال - عز من قائل -: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: 1-4].

فمنطق الحق والعدل يقتضي أن يكون الخالق ﷻ مغايراً لجميع خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] فلا يحده أي من المكان أو الزمان لأنه - تعالى - هو خالقهما، ولا يُشكله أي من المادة أو الطاقة لأنه - سبحانه - هو مبدعهما وموجدهما من العدم. والإنسان محدود في معرفته بالأشياء المادية المحكومة بكل من المكان والزمان، وبحدود كل من حواسه وقدرات عقله، وبحدود مكانه في بقعة من الأرض في كون شاسع الاتساع، وبحدود زمانه أي عمره في كون يقدر عمره بقرابة خمسة عشر ملياراً مما نعد من السنين. ومن هنا يعجز الإنسان عن معرفة ذات خالقه لأنه عاجز عن معرفة ذاته هو، وهي المحكومة بكل من المكان والزمان والمشكَّلة من كل من المادة والطاقة لأنه لا يعرف كنه روحه التي وهبته كل ملكاته التي يحيا بها، والتي تميزه عن كثير من الخلق الذين

يتواجدون من حوله. وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: 85].

والإنسان المفطور على الإيمان بالله - تعالى - والذي شهد بذلك وهو في عالم الذر إذا تناسى هذا الإله الواحد الأحد، وهو - تعالى - أحق حقائق الوجود، وجعل الدنيا كل همه، وجعل متعه المادية وشهواته الحيوانية كل مقصده، فإنه ينحط بنفسه إلى ما دون الحيوانية، وحينئذٍ يحيد عن الهداية الربانية فيكفر بالله - تعالى - أو يشرك به، وينكر البعث والحساب والجنة والنار فيفقد كل ضوابط السلوك والأخلاق، ويفسد في الأرض إفساداً كبيراً، وبذلك يخسر الدنيا والآخرة، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ [طه: 124-126] وصدق الله - تعالى - إذ يقول: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾ [القيامة: 5-6].

وينعكس هذا الخسران على جميع استنتاجات الإنسان الكلية في هذه الحياة وفي مقدمتها قضية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان، وهذه من القضايا الغيبية التي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: 51].

وعلى الرغم من أن أيًّا منا لم يشهد خلق السمٰوات والأرض ولا خلق أي من أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام، ولا خلق نفسه. فإن القرآن الكريم يدعونا بإلحاح إلى التفكير في تلك القضايا الهامة والمصيرية في حياة الإنسان وذلك من مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: 190-191].

وقوله - عز من قائل - ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [العنكبوت: 20].

والجمع بين هاتين الآيتين وأمثالهما في كتاب الله يشير إلى أنه على الرغم من غيبيَّة عملية الخلق بأبعادها الثلاثة (خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان) غيبة مطلقة إلا

أن الله ﷻ قد ترك لنا في أجسادنا وفي كل من صخور الأرض وصفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان - بحسه المحدود وقدرات عقله المحدودة - على الوصول إلى تصور ما عن كيفية خلق كل من الكون، والحياة، والإنسان، ويبقى هذا التصور دائماً في مجال الفروض والنظريات التي تتعدد بتعدد خلفية واضعيها من قضايا الإيمان بالله أو الكفر أو الشرك به. ومن قضايا الجد أو الهزل، والاستقامة أو الانحراف واطمئنان النفس أو اضطرابها.

ويبقى للمسلم نور من الله - تعالى - في آية قرآنية كريمة أو في حديث نبوي صحيح يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة، لا لأن العلوم المكتسبة قد وصلت فيها إلى مرتبة الحقيقة، ولكن لمجرد وجود إشارة لتلك النظرية في كتاب الله - تعالى - أو في حديث صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ. وذلك نظراً لقصور العلوم المكتسبة عن الوصول في قضايا الخلق إلى الحقيقة الكاملة، ولمحدودية معارف الإنسان الذي لا يكاد يدرك في زمن تفجر المعارف العلمية والتقنية الذي نعيشه إلا أقل من (10 %) مما يراه في صفحة السماء الدنيا، على الرغم من تكدس وتسارع الاكتشافات الجديدة، وتعدد التقنيات المتطورة في كل يوم، وذلك لأن الإنسان لا يصل في تعرّفه على العديد من أشياء الكون إلى معرفة كنهها، وإن تعامل مع ظواهرها وآثارها. وهنا تتضح حاجة الإنسان إلى وحي السماء ليعرف من أسرار هذا الوجود ما تقصر حواسه ويقصر عقله عن إدراكه، وفي مقدمة ذلك تعرف العباد على خالقهم ﷻ، وعلى حقوق هذا الخالق العظيم عليهم، وعلى حقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة، وعلى مصيره من بعدها. وفي ذلك يخاطب الحق - تبارك وتعالى - خاتم أنبيائه ورسله ومن بعده كل مؤمن برسالته فيقول: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: 1 - 5].

ويقول - عز من قائل -: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: 85].

ويقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255].

ويقول ربنا سبحانه وتعالى عن شيء من صفاته العليا: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: 110].

ويقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7].

ويقول: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10].

ويقول: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129].

ولكي يعين الله سبحانه وتعالى عباده على الاستمتاع بحياتهم الدنيا أحلَّ لهم الزينة المحتشمة الوقورة، والطيبات من الرزق، وحرَّم الإسراف في كل شيء وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: 31–32].

وقال – عز من قائل –: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: 77].

وفي المقارنة بين مصائر أهل الإيمان والعمل الصالح – من جهة – ومصائر الذين كفروا – من جهة أخرى – يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: 12].

وذلك لأن الإنسان في الإسلام مخلوق عاقل، مُعَلَّمٌ، مُبَلَّغ، مكلف، مسؤول عن أعماله وأقواله ومحاسب عليها، ومطالب دوماً بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالاجتهاد في إنجاز الأعمال الصالحة، والنطق بالكلمة الطيبة، والسعي الحثيث الجاد في إعمار الأرض، وإقامة شرع الله وعدله فيها، والمبادرة بمعاونة غيره من الخلق.

ويقول ربنا – تبارك وتعالى – عَنْ تبليغ الإنسان بوحي السماء:

1 – ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 47].

2 - ﴿مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

3 - ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24].

وأما عن تكليف الإنسان وهو المخلوق المكرَّم فهو على قدر الطاقة لقول ربنا - تبارك وتعالى - :

1 - ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ . . .﴾ [البقرة: 286].

2 - ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: 39-41].

3 - ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: 7-8].

ويؤكد القرآن الكريم على وحدة الجنس البشري في أخوَّة ينتهي نسبها إلى أبوينا آدم وحواء - عليهما رضوان الله - وعلى الأخوة بين الأنبياء، وعلى وحدة رسالة السماء، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

1 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

2 - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98].

3 - ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ﴾ [الأعراف: 189].

4 - ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . .﴾ [الزمر: 6].

5 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: 13].

6 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (51) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ (52)﴾ [المؤمنون: 51-52].

7 - ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19].

8 - ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

والقرآن الكريم يصف الإنسان ذلك المخلوق العاقل، الحر، المخَيَّر، المكلف، المسؤول، بأنه يستطيع إذا التزم بمنهج الله أن يرقى باختياره الواعي، وإرادته الحرة في مدارج الكمال البشري المقدور له حتى يصل إلى أعلى درجاته، فيحقق الإيمان والتقوى، والعدل والإنصاف، والإحسان والعفاف، وغير ذلك من مكارم الأخلاق؛ أما إذا انحرف عن منهج الله فإنه يبدأ في الانحطاط باختياره وإرادته الحرة أيضاً حتى يغرق في بحار الكفر، أو الشرك، أو الشك والضلال، ويندفع في تيارات الظلم والفجور والطغيان، والجور والخسران حتى يهلك الحرث والنسل ويهلك نفسه وغيره.

والقرآن الكريم يميِّز الإنسان بقدرته على إنجاز ما كُلِّفَ به في حياته الدنيا من عبادة الله - تعالى - بما أمر، وحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة شرع الله وعدله فيها. ولذلك يتردد كثيراً خطاب العقل إليه بكل أوصافه ووظائفه من التفكير إلى التدبر، إلى التذكر، إلى التأمل، إلى النظر والاستنتاج واستخلاص الدروس والعبر، وذلك لأن العقل هو من أجلِّ نعم الله - تعالى - على الإنسان، وقيام الإنسان على توظيفها إلى أقصى طاقاتها هو من قبيل الشكر على هذه النعمة الجليلة، ولذلك يقول القرآن الكريم:

1 - ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219 و266].

2 - ﴿. . . وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . . ﴾ [آل عمران: 191].

3 - ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176].

4 - ﴿. . . إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21، الزمر: 42، الجاثية: 13].

5 - ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟. . . ﴾ [سبأ: 46].

والإنسان في القرآن الكريم جسد وروح لا انفصام بينهما، والعقل حكم بينهما، على الرغم من أن لكل منهما مطالبه وغاياته، ودوافعه واحتياجاته، ويعبر عن الجسد ونوازعه أحياناً بالنفس، ولذلك يعبر عن الذات الإنسانية بالروح والنفس والعقل. والنفس بغرائزها تمثل القوة الحية في الذات الإنسانية، والعقل هو مركز الحواس والتفكير والذاكرة والإرادة، وكذلك القلب، وإن غمض على الإنسان فَهْمُ الرابط بينهما. أما الروح فهي غيب من علم الله - تعالى -، ويتوسط العقل بين الروح والنفس (أو الجسد الحي الذي تنعكس عليه إشراقات الروح وأعمال الجوارح) فالعقل هو وازع الغرائز والمتحكم فيها، ومستلهم الهداية من الروح، وعلى ذلك فالإنسان يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه.

ولكن من مآسي الحضارة المادية المعاصرة إنكار الروح وإهمالها، وقصر الإنسان على جسده المادي فقط، واقتصار النفس على الغرائز والشهوات مما انحط بالإنسان في الحضارة المادية المعاصرة إلى ما دون الحيوان من مدارك، وإن اعتبروه زوراً أرقى الحيوانات ذهناً وبناءً جسدياً.

من هنا كانت أهمية إبراز الصورة القرآنية للإنسان، ذلك المخلوق المكرم، الذي خلقه الله - تعالى - بقدرته، وسواه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له الملائكة، وسخر له ما في السمٰوات وما في الأرض واستخلفه فيها، وأشهد ذريته وهم لا يزالون في صلبه على حقيقة الربوبية، وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلاً. وهذه الصورة القرآنية للإنسان تختلف تماماً عن الصورة الحيوانية التي وضعته فيها الحضارة المادية المعاصرة وأدت إلى انحطاطه وتحلله، وفساد طباعه وخراب مجتمعاته، وخلوها من الدين والأخلاق والقِيَم، على الرغم من التقدم العلمي والتقني المذهل الذي حققه.

والصورة القرآنية للإنسان هي أصدق الصور عن ذلك المخلوق المكرم، لأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق - في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وهو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظ بين أيدي الناس على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية في نفس لغة وحيه - اللغة العربية -؛ في الوقت الذي تعرضت كل صور الوحي السابقة إلى الضياع التام، وما بقي من بعضها من ذكريات نُقِلَتْ شفاهاً لعدة قرون بعد موت النبي الذي تلقَّى الوحي أو رفعه، وحينما دونت تم لها ذلك في لغات غير لغة الوحي، وبأيدي أناس مجهولين، ليسوا بأنبياء ولا بمرسلين، وظلت تلك التراجم تتعرَّض للتبديل والتغيير، وللتحرير تلو التحرير، وللتحريف والتزوير الذي أخرجها عن إطارها الرباني وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها فضلوا في قضية خلق الإنسان ضلالاً بعيداً، كما ضلوا عن فهم حقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا حتى فقدوا تلك الرسالة بالكامل.

وبالإضافة إلى تصحيح رؤية الإنسان لذاته من خلال حديث خالقه عنه، فإن الآيات المختارة في هذا المجلد، والتي يصل عددها إلى ثنتين وثلاثين آية كريمة تحتوي على كم من الحقائق العلمية التي تثبت لكل ذي بصيرة بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) وحفظه كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وتعهد بهذا الحفظ تعهُّداً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على الناس أجمعين وحجة عليهم إلى قيام الساعة.

وما جاء في الآيات الثنتين والثلاثين المعروضة هنا من حقائق علمية عن الإنسان، لم تصل العلوم المكتسبة إلى معرفة شيء عنها إلا في خلال القرنين الماضيين، ولم تصل إليها إلا بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء لعشرات من السنين، وهو ما يجعل كل عاقل يتوقف عندها طويلاً، ويسأل: ألا يعتبر ذلك جانباً من جوانب الإعجاز العلمي في كتاب الله متمثلاً في سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك الحقائق - من قبل ألف وأربعمائة سنة - بصياغة تبلغ من الدقة والشمول والكمال ما لم تبلغه العلوم المكتسبة في زمن تفجر المعارف العلمية والتقنية الذي نعيشه؟ ذلك لأن هذا الكتاب الموحى به إلى نبي أمي - صلوات الله وسلامه عليه - في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي زمن لم يكن ممكناً لأحد من البشر أن يصل إلى شيء من ذلك الحق العلمي لافتقار

العصر إلى أبسط الأدوات اللازمة لذلك من مثل أجهزة الاختبار، وأدوات التكبير والتصوير والفحص؟ والجواب بالقطع نعم.

وفي إثبات هذا الجانب العلمي من جوانب الإعجاز العديدة في القرآن الكريم تثبيت للمؤمنين على إيمانهم، ودعوة لغير المسلمين أن يدركوا دليلاً مادياً على صدق القرآن الكريم، - وقد شككوا في ذلك كثيراً - باللغة الوحيدة التي يفهمها أهل عصرنا وهي لغة العلم.

وإذا سلموا بذلك سهل عليهم التسليم بما جاء به هذا الكتاب العزيز من أمور الغيب التي يرفضها الفكر المادي البحت الذي دفن أغلب أهل عصرنا في ماديات الكون، وحرمهم من نعمة الحكمة، ومن العلم الحقيقي الذي في ذروته قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ . . .﴾ [محمد: 19]

هذا فضلاً على أن مثل هذه الآيات العلمية في كتاب الله لا يمكن أن تفهم فهماً كاملاً في إطار اللغة العربية وحدها - على أهمية ذلك وضرورته - بل لا بد من توظيف الأبعاد العلمية حتى يتم فهم تلك الآيات فهماً صحيحاً، لأن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه ونعمل به. وبعد الفهم الصحيح يتم إثبات سبق القرآن الكريم لجميع المعارف المكتسبة بالإشارة إلى تلك الحقائق العلمية وهو ما يعرف باسم «**الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**» وهو منهج أثبت نجاحه في الدعوة إلى دين الله في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه، ولذلك اجتهدت في إبراز هذا الجانب في عدد من آيات الإنسان في كتاب الله، فإن أصبت في ذلك فبتوفيق من الله وهدايته وفضله، وإن قصرت فأسأله - تعالى - المغفرة والعون على جبر هذا التقصير، والله هو الموفق والمستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه
زغلول راغب محمد النجار

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 - ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا...﴾ [الأحقاف: 15]

هذا النص القرآني الكريم جاء قبل منتصف سورة «الأحقاف» بقليل، وهي سورة مكية، وآياتها خمس وثلاثون بعد البسملة، وسميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى الأحقاف التي كانت قبيلة عاد قد أقامت بها منازلها، والأحقاف من صيغ منتهى الجموع لأنها جمع (حقاف)، و(حقاف) جمع (حقف)، **والحقف** هو ما استطال من الكثبان الرملية واعوج، والأحقاف هي من رمال الجزء الجنوبي الشرقي من الربع الخالي بين كل من حضرموت وعمان وباقي أجزاء الجزيرة العربية.

وقبيلة عاد كانوا قوم نبي الله هود - على نبينا وعليه من الله السلام - وكانوا من أشد الناس في زمانهم قوة، ومن أكثرهم ثراءً وترفاً، وبدلاً من شكر الله - تعالى - على نعمه، والخضوع لجلاله بالطاعة والعبادة، عصوا رسول الله إليهم، وكفروا بنعم الله عليهم، وأشركوا في عبادته ما لم ينزل به سلطاناً، وسخروا من وعيده لهم، فأرسل الله - تعالى - عليهم ريحاً صرصراً عاتية فيها عذاب أليم فدمرتهم وقضت عليهم، ونجّى الله سبحانه وتعالى نبيه هوداً والذين آمنوا معه.

وافتتحت سورة الأحقاف بحرفين من الفواتح الهجائية هما (حم) وقد تكررا بمفردهما ست مرات في القرآن الكريم، ومرة سابعة بإضافة ثلاثة حروف أخرى ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى: 1، 2] وتعرف هذه السور في مجموعها باسم الحواميم وتشمل سور:

«غافر»، «فصلت»، «الشورى»، «الزخرف»، «الدخان»، «الجاثية»، و«الأحقاف»، وأرقامها في المصحف الشريف (40-46).

والفواتح الهجائية افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم، وقيل فيها أنها قد تكون رموزاً إلى معانٍ أو أعداد معينة في السورة التي استهلت بها، وقد تكون أسماء لتلك السور، أو قد تكون صورة من صور التحدي للعرب وإثبات عجزهم عن الإتيان بشيء من مثل القرآن الكريم وهو لم يجاوز حروف لغتهم، وقد تكون وسيلة من وسائل قرع الأسماع والقلوب كي تتنبه لتلقي كلام رب العالمين، كما أنها دليل ناصع على صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ، وذلك لنطقه بأسماء الحروف وهو الأمي، ومن الثابت أن الأمي ينطق بأصوات الحروف ولا يعرف أسماءها. وقد يكون كل ذلك وغيره من أسرار تلك الفواتح الهجائية.

وبعد هذا الاستفتاح جاء التأكيد على أن القرآن الكريم منزّل بالوحي من لدن رب العالمين، وذلك بقوله - عز من قائل -:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: 2].

وإن هذا الإلٰه العظيم وصف ذاته العلية بالعزة التي لا ترام، والغلبة على الوجود كله، وبالحكمة البالغة في الأقوال والأفعال، والظاهرة في خلقه ظهور العيان لكل ذي بصر وبصيرة، ومن ذلك خلق السمٰوات والأرض وما بينهما على نواميس ثابتة، وإلى آمادٍ محددة تؤكد حتمية الآخرة على الرغم من إعراض الكافرين عن إنذار الله - تعالى - لهم بها، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾

[الأحقاف: 3،4].

وتستنكر الآيات شرك المشركين بالله - تعالى - وضلالهم بدعاء معبودات غافلة عنهم، لا تسمع دعاءهم ولا تستجيب لهم، ولا تملك من أمرهم شيئاً، وتتنكّر لهم يوم القيامة، ولعبادتهم الخاطئة، وتقف منهم موقف الاستهجان والمعاداة والإنكار.

وهؤلاء الكفار والمشركون إذا تتلى عليهم آيات القرآن الكريم قالوا من فُجرهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أو تطاولوا على خاتم الأنبياء والمرسلين بالادعاء الباطل أنه كتب القرآن الكريم، وافترى نسبته إلى رب العالمين - نزَّهه الله تعالى عن ذلك وزاد من تشريف قدره - كما لو كان هو أول رسل الله، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف: 8-10].

والآية العاشرة تشير إلى عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وكان من أحبار يهود يثرب فَمنَّ الله - تعالى - عليه بالإسلام وشهد بوجود صفة المصطفى ﷺ فيما بقي بين أيدي اليهود من كتابات. وتشير الآية الحادية عشرة إلى أن الكافرين والمشركين من استعلائهم وكبرهم وصلفهم يدّعون أنه لو كان ما جاء به سيدنا محمد ﷺ حقاً، ما سبق الفقراء والمستضعفون في مجتمعاتهم إلى الإيمان به، مشيرين إلى أنهم هم أصحاب السيادة والذكاء ورجاحة العقل، ويضيفون إلى هذا الكبر صلفاً آخر مؤداه أنهم ما داموا هم لم يهتدوا به - وهم كبراء القوم ووجوهه - فلا بد من الطعن فيه زوراً بوصفه أنه كذب من أساطير الأولين.

وتأكيداً لحقيقة الوحي السماوي الذي استمر من آدم إلى محمد ﷺ تقول الآيات: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: 12].

وفي المقابل تمتدح الآيات المؤمنين بالله سبحانه وتعالى، الموحِّدين لجلاله، المستقيمين على منهجه فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: 14،13].

ثم تنتقل الآيات إلى توصية كل إنسان بالإحسان إلى والديه فتقول:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ

﴿شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٥) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (١٦)﴾ [الأحقاف: 15،16].

وفي المقابل تصف الآيات نموذجاً للانحراف والضلال والفسوق بالكافر العاق لوالديه المؤمنين، الذي قال لهما حين دعواه إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر متضجراً منهما، ومنكراً عليهما دعوتهما: أف لكما، أتعدانني بالبعث بعد الموت، وقد مضت الأمم من قبلي ولم يبعث من القبور أحد..!! ووالداه يستغيثان الله إشفاقاً عليه من فداحة كفره قائلين له: هلكت إن لم تؤمن، لأن وعد الله بالبعث حق، فيرد مكابراً: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: 17].

وترد الآيات عليه وعلى أمثاله من الضالين لتقول:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾ [الأحقاف: 18-20].

ومن قبيل تثبيت الله - تعالى - لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ في وجه المكذبين لبعثته الشريفة، ومن أجل إنذار كفار قريش وتذكيرهم بالأمم السابقة التي أهلكها الله - تعالى - من حولهم تنقلنا الآيات (من 21 إلى 28) بسرعة خاطفة إلى قصة سيدنا هود - على نبينا وعليه من الله السلام - مع قومه (قوم عاد) الذين سكنوا منطقة الأحقاف، فدعاهم إلى الإيمان بالله - تعالى - وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وحذّرهم من الكفر بالله - تعالى - أو الشرك به، وأنذرهم بحتمية العودة إلى الله، وبأهوال البعث بعد الموت، والعرض الأكبر أمام الله تعالى، والحساب، والميزان، والصراط، والخلود في الحياة الآخرة إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً، ولم يكن في زمانه نذير لهم من الله - تعالى - غيره، وقد مضت الرسل من قبله، فكذبوه، وأنكروا عليه قوله، وسخروا من إنذاره، فدمرهم الله تعالى بريح فيها عذاب أليم، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا
تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ
وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ
مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا
فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: 21-25].

ومع استمرار الحديث عن قوم عاد ينتقل الخطاب إلى كفار قريش ليقول لهم رب العزة والجلال منبهاً من أخطار الشرك بالله، ومنذراً بعقاب الأمم من حولهم:

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ
سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا
كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ
﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ
إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: 26-28].

ثم تنقلنا الآيات في سورة الأحقاف نقلة أخرى سريعة إلى أحد عوالم الغيب وهو «عالم الجن» وهم خلق مكلفون، ولكننا لا نراهم، منهم المؤمنون ومنهم الكافرون، ولذلك تحركت قلوبهم بالاستماع إلى تلاوة من القرآن الكريم، وفي ذلك توبيخ لكفار قريش الذين كذبوا رسول الله ﷺ بعد أن كانوا قد نعتوه بالصادق الأمين، وكفروا بالقرآن الكريم، وجحدوا أنه منزل من رب العالمين، وقد عجزوا عن معارضته، وهم أهل اللسان العربي الذي نزل به هذا الكتاب العظيم، وتنكروا لرسول الله ﷺ وهو من دمهم ولحمهم، وسليل أشرافهم، وآمنت به طائفة من الجن وهم ليسوا من جنسه، وفي ذلك توجه الآيات الخطاب إلى رسول الله ﷺ فتقول:

﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ
إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا

بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: 29-32].

وتستشهد الآيات في ختام سورة الأحقاف بخلق السمٰوات والأرض على طلاقة القدرة الإلٰهية في تحقيق البعث بعد الموث، وتهدد الكافرين بيوم عرضهم على النار، وتوصي خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بالصبر كما صبر أسلافه من أولي العزم من الرسل مؤكدة قصر الحياة الدنيا فتقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: 33-35].

من ركائز العقيدة في سورة «الأحقاف»:

1 - الإيمان بالله - تعالى -، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبأنه ﷻ هو العزيز الحكيم، الغفور الرحيم، الخالق، البارئ المصور، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الشرك به كفر به، لأنه - تعالى - ليس له شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد.

2 - اليقين بأن القرآن الكريم هو كتاب منزل من لدن رب العالمين على قلب خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ هداية لأهل الأرض أجمعين، وإن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم لا يتبع إلا ما يوحى إليه به.

3 - التسليم بخلق السمٰوات والأرض وما بينهما بالحق وإلى أجل مسمى، أي بقوانين ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ولا تتوقف إلى ما شاء الله - تعالى -، وأن الكون له نهاية حتمية تشهد بها جميع مكوناته من مختلف صور المادة والطاقة والمخلوقات الحية، وإن أنكر الكافرون حتمية البعث وضرورته.

4 - التصديق بالبشارات العديدة بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ والموجودة بين ما بقي من حق عند بعض أهل الكتاب، رغم تحريف كتبهم وتزويرها، ونقلها إلى لغات غير لغات الوحي بعد ضياع جميع أصولها.

5 - الإيمان بأن بر الوالدين من صميم الدين، ومن وصايا رب العالمين لعباده أجمعين، وأن عقوقهما من الكبائر ومن أسباب الخسران في الدنيا والآخرة.

6 - اليقين بأن من حقوق الله على العباد التوبة من الذنوب والشكر على النعم، وأن من أفضل أدعية العباد الدعاء بصلاح كل من الأعمال والذرية.

7 - التصديق بعوالم الغيب ومنهم الملائكة وهم خلق من نور مسخرون، ومنهم الجن وهم خلق من نار مكلفون مخيرون، ذوو إرادة حرة كالإنس.

8 - التسليم بأن من لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض، وليس له من دون الله أولياء.

9 - الإيمان بحقيقة كل من الجنة والنار، وبحتمية الخلود في الحياة الآخرة إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً، وبأنه لا يهلك إلا القوم الفاسقون.

من الإشارات الكونية في سورة «الأحقاف»:

1 - الإشارة إلى خلق السمٰوات والأرض وما بينهما بالحق وأجل مسمى، والعلوم المكتسبة تؤكد اليوم أن الكون له بداية يحاول العلماء حسابها، وكل ما له بداية لا بد وأنه ستكون له في يوم من الأيام نهاية لا يعلمها إلا الله. والعلوم المكتسبة تؤكد كذلك على أن الكون الشاسع الاتساع دقيق البناء، محكم الحركة، مبني على أسس منضبطة، وسنن وقوانين ثابتة، وهذه البينية الفاصلة بين السمٰوات والأرض تشير إلى مركزية الأرض من السمٰوات وهو ما لا تستطيع العلوم المكتسبة إثباته.

2 - التأكيد على وجود عدد من البشارات بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فيما بقي من حق عند بعض أهل الكتاب وفي كتبهم المزورة على الله.

3 - تحديد فترتي الحمل والفصال للوليد بثلاثين شهراً في هذه السورة المباركة سورة «الأحقاف»، وتحديد فترة فصال الوليد في عامين كما جاء في الآية الرابعة عشرة من سورة «لقمان»، وبذلك تكون أقصر مدة للحمل في أنثى الإنسان هي ستة أشهر، وهو ما أثبته علم الأجنة مؤخراً.

4 - الإشارة إلى قوم عاد، وإلى سكناهم في «الأحقاف»، وإلى نبيهم هود عليه السلام وهو من أنبياء الله الذين لم يرد لهم ذكر عند أهل الكتاب، وعرض قصته مع قومه، مع إيراد شيء من صفاتهم، ووصف الوسيلة التي دمروا بها ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: 24]. والكشوف الأثرية الحديثة تؤكد صدق ذلك بينما لم يكن معروفاً عنهم شيء في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده، ولا جاء ذكر لهم عند أهل الكتاب فيما بقي بين أيديهم من ذكريات.

5 - الاستشهاد بخلق السمٰوات والأرض وما بينهما على إمكانية البعث وعلى أن الله - تعالى - على كل شيء قدير.

وكل قضية من هذه القضايا الخمس تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثالثة من القائمة السابقة والتي جاءت في الآية الخامسة عشرة من سورة الأحقاف، وقبل البدء بمناقشة ما فيها من إشارات علمية أرى ضرورة استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرحها.

من أقوال المفسرين:

في قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ . . .﴾ [الأحقاف: 15].

● ذكر ابن كثير - يرحمه الله - ما مختصره: . . . وقال عز وجل هٰهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما، . . ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً، من وحم وغثيان وثقل وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته، ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وقد استدل بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: 14]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح، . . . وقال ابن عباس: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهركفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولان كاملان، لأن الله - تعالى - يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.

● وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما مختصره: «﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال... لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد، ويلهث بالأنفاس! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه، وصورة الوضع وطلقه وآلامه. ويتقدم علم الأجنة، فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة حسية مؤثرة.. ثم الوضع، وهو عملية شاقة، ممزقة، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة، ولا تنسى الأم حلاوة الثمرة. ثمرة التلبية للفطرة، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش وتمتد بينما هي تذوي وتموت! ثم الرضاع والرعاية، حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية. وهي مع هذا وذلك فرحة سعيدة، رحيمة ودودة، لا تمل أبداً ولا تكره تعب هذا الوليد. وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو. فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد! فأنّى يبلغ الإنسان في جزاء هذه التضحية، مهما يفعل. وهو لا يفعل إلا القليل الزهيد؟ وصدق رسول الله ﷺ وقد جاءه رجل كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل رسول الله ﷺ: هل أديتِ حقها؟ فأجابه: «**لا، ولا بزفرة واحدة**». رواه الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن بريدة عن أبيه»[1].

● وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن - رحم الله كاتبها - ما نصه: «﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ أمرناه أن يحسن إليهما إحساناً، ويبرهما بصنوف البر في حياتهما وبعد مماتهما. والإحسان: خلاف الإساءة. وقرئ (حسناً). نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: 16] في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وهو مثل رفيع في الجمع بين التوحيد والاستقامة في الدين».

● وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما موجزه: «ووصينا الإنسان بوالديه أن يحسن إليهما إحساناً عظيماً، حملته أمه حملاً ذا مشقة، ووضعته وضعاً ذا مشقة، ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهراً قاست فيها صنوف الآلام....».

وجاء بالهامش ما يلي: أقل مدة للحمل ستة أشهر لقوله تعالى: «﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: 14] وقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ

(1) أخرجه البزار في «مسنده» (الحديث: 1872).

﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: 233] فبإسقاط مدة الفصال من مدة الحمل والفصال، يبقى للحمل ستة أشهر. وهذا يتفق مع ما ثبت علمياً من أن الطفل إذا ولد لستة أشهر فإنه قابل للحياة».

● وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما مختصره: «﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ لما كان رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما حث - تعالى - العباد عليه، والمعنى: أمرنا الإنسان أمراً جازماً مؤكداً بالإحسان إلى الوالدين. ثم بيَّن السبب فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي حملته بكره ومشقة ووضعته بكره ومشقة ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ أي ومدة حمله ورضاعه عامان ونصف العام، فهي لا تزال تعاني التعب والمشقة طيلة هذه المدة...».

من الإشارات العلمية في النص القرآني الكريم:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾:

يعيش جنين الإنسان في بطن أمه فترة تتراوح ما بين الستة والتسعة أشهر معتمداً على جسدها اعتماداً كلياً، مستمداً جميع احتياجاته الغذائية والتنفسية والمناعية من دمها ومن ذلك مثل الأحماض الأمينية، والمواد البروتينية (من مثل مكونات خلايا العضلات والجلد والخلايا الدهنية) والكربوهيدراتية (من مثل المواد السكرية كالجلوكوز وغيره)، والفيتامينات، والهرمونات، والأملاح (من مثل الكالسيوم، والفوسفور، والحديد، وغيرها)، والأوكسجين، وخلايا المناعة وغيرها، ويأخذ جسم الأم الحامل من جنينها كل السموم التي يفرزها جسمه من مثل البولينا، وثاني أوكسيد الكربون وغيرهما. ومن الثابت أن جسد الأم الحامل يضحي لجنينها بكامل احتياجاته على حساب احتياجاته هو ولو أدى ذلك إلى فقر دمها وإمراضها، ولذلك قال رب العالمين: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾.

ومن الأعراض التي تطرأ على جسد الحامل اضطراب الجهاز الهضمي المصاحب عادة بالقيء، والغثيان، وسوء الهضم، والحموضة الزائدة، ونقص الشهية، والرغبة الشديدة في بعض الأطعمة الخاصة أو المواد الغريبة التي يحتاجها هذا الجسد، بالإضافة إلى ضغط الرحم على كل من المعدة والكبد خاصة في الشهور الأخيرة من الحمل. وما يتحمله كل من القلب وأوردة وشرايين الجهاز الدوري من جهد زائد لأجل ضخ الدم إلى جسم الجنين، فيرتفع ما يضخه القلب من (6500 لتر يومياً) قبل الحمل

إلى (15,000 لتر يومياً) بعد الحمل. وقد يؤدي ذلك إلى إجهاد عضلة القلب، وإلى اضطراب ضغط الدم، أو إلى تمدد الأوردة وتعرجها (مرض دوالي الأرجل والأقدام)، وغير ذلك كثير مما تعانيه الأم في أثناء حملها.

كذلك فإن تزايد نمو الجنين في شهوره الأخيرة قد يؤدي إلى مزيد من الضغط على كل من الحجاب الحاجز والرئتين مما يعيق عملية التنفس. كما أن كثرة إفراز الهرمونات المتعلقة بعملية الحمل قد يزيد كمية الماء المختزن في الجسم ويظهر على هيئة تورم في القدمين، وقد يؤدي إلى الاضطراب في وظائف عدد من الغدد الصماء مثل الغدة الدرقية.

وقد تصاب بعض الحوامل بشيء من لين العظام أو هشاشتها لنقص الكالسيوم في جسمها نظراً لسحب الجنين كميات زائدة من كالسيوم دم الأم أثناء تكوّن عظام جسده.

تزايد نمو الجنين في الأشهر الأخيرة من الحمل يؤدي إلى صعوبات جسدية ونفسية كبيرة للأم الحامل.

ومع مصاحبة كل ذلك لشيء من زيادة وزن الأم حوالي عشرة كيلو جرامات في المتوسط يتضح جانب مما تكابده الأم الحامل من مشاق في حالات الحمل الطبيعي، وتتضاعف هذه المشاق أضعافاً كثيرة في حالات حمل التوائم، أو الحمل خارج الرحم مما يعرف باسم الحمل غير الطبيعي. والذي قد يؤدي إلى وفاة كل من الجنين والأم معاً.

وإذا أضفنا إلى هذه الصعوبات الجسدية ما تكابده الأم الحامل من معاناة نفسية تتأرجح بها بين الرجاء والخوف، والتفاؤل والتشاؤم، والفرح والحزن، والاطمئنان والقلق، وحاجتها إلى العناية الشديدة من المحيطين بها وإلى غمرها بمزيد من العطف والحنان الذي قد لا تجده في أغلب الأحوال؛ وسط هذه الأمواج المتلاطمة من الوهن الجسدي والاضطراب النفسي والحساسية الشديدة وسرعة التأثر والانفعال، والمشاعر المتضاربة، تتضح لنا روعة التعبير القرآني الذي يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أي بمشقة شديدة.

و(**الكُره**) و(**الكَره**) واحد، وقيل (**الكُره**) المشقة تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه، و(**الكَره**) ما يناله من ذاته وهو يعافه، وذلك على ضربين، **أحدهما**: ما يعاف من حيث الطبع، **والثاني**: ما يعاف من حيث العقل أو الشرع. وعلى ذلك فإن (الكره) بالضم المشقة وبالفتح الإكراه.

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾:

باكتمال الشهر الثالث من حياة الجنين فإنه يبدأ في اتخاذ وضع خاص في داخل رحم أمه، يكون فيه رأسه إلى أسفل، ومؤخرته إلى أعلى ويتم ذلك بانقباض عام في كل من جذعه وأطرافه على بعضها البعض، فينحني الجنين برأسه في اتجاه ركبتيه، ويثني ركبتيه في اتجاه رأسه **مع جعل وجهه في اتجاه ظهر أمه**، حتى إذا جاءت لحظة الميلاد كان أول ما يخرج منه رأسه، وبخروجه يسهل خروج باقي جسده وسائر أطرافه، وتمثل الولادة الطبيعية بخروج الرأس أولاً أيسر عمليات الوضع، إلا أن هناك العديد من حالات الوضع غير الطبيعية والمتعسرة. ويسبق الوضع آلام الطلق التي قد تفوق في شدتها أية آلام أخرى تتعرض لها الأم الحامل طيلة مدة حملها وقد تنتهي عملية الوضع في بعض الأحوال بوفاة الأم أو الجنين أو بوفاتهما معاً.

وقد تضطر الحامل إلى الولادة غير الطبيعية بالشفط أو باستخدام بعض الآلات الخاصة (مثل الجفت) أو حتى بعملية جراحية بشق البطن تعرف باسم العملية القيصرية،

وإلى غير ذلك من المخاطر. وعلى الرغم من أن التطور الطبي قد تمكن من خفض نسبة تلك المخاطر إلا أنه لم يتمكن بعد من القضاء عليها، فلا تزال حمى النفاس منتشرة بين كثير من الوالدات، ولا تزال حالات تسمم الحوامل وإصابتهن بالعديد من الأمراض الجسدية والنفسية من الأمور الشائعة خاصة في المجتمعات المتخلفة علمياً وتقنياً، وتكفي في ذلك الإشارة إلى ضخامة حجم المولود بالنسبة إلى ضيق عنق الرحم، ولولا رحمة الله - تعالى - ودقة تقديره بتهيئة الجهاز التناسلي للمرأة الحامل بهيئة خاصة تعينه على إفراز العديد من الهرمونات التي توسع عنق الرحم وتجعله على استقامة مع الرحم ذاته، والتي ترخي كلًّا من عظام الحوض وعضلاته لتيسير عملية الولادة وخروج المولود الجديد إلى عالم الحياة الدنيا بشيء من اليسر، لكانت عملية الولادة أمراً مستحيلاً.

كما تكفي في ذلك الإشارة إلى ما تتعرض له الوالدة من آلام أثناء عملية المخاض ومن بعده، ومن ذلك ما تشعر به من إجهاد شديد وقشعريرة بعد الولادة مباشرة، ثم ارتفاع في درجة الحرارة، وما تتعرض له من انخفاض في ضغط الدم، واضطراب في النبض، وتعرضها لإمكانية سقوط الرحم وإلى غير ذلك من الأمراض التي قد تصيبها، والمعاناة الجسدية والنفسية التي قد تصاحب تلك الأمراض حتى تشفى وتعود إلى حالتها الطبيعية.

وتكفي في ذلك الإشارة أيضاً إلى ما تتعرض له الوالدة من نزيف دموي طيلة فترة النفاس، والتي قد تمتد من لحظة الولادة إلى ستين يوماً (بمتوسط يقدر بحوالي الأربعين يوماً) وذلك لسقوط المشيمة مع المولود، وتركها للأوعية الدموية التي كانت تصل بينها وبين جدار الرحم مفتوحة كالجروح النازفة، ولولا رحمة الله - تعالى - بالوالدة، تلك الرحمة التي هيأت لها إفراز العديد من الهرمونات التي تعين الرحم على الانقباض انقباضاً شديداً بعد الولادة مباشرة لنزفت النفساء حتى الموت. وهذا الانقباض يعود بوزن الرحم (بدون محتوياته) من حوالي الكيلو جرام قبل الولادة مباشرة إلى حوالي الخمسين جراماً فقط في نهاية فترة النفاس، ويعود بحجمه من سبعة آلاف ميليلتر في المتوسط إلى حوالي الميليلترين فقط، ويعود بجدار الرحم من خمسة سنتيمترات إلى أقل من سنتيمتر واحد في السمك، وتستمر التغيرات في جدار الرحم، وفي بطانته حتى يعود إلى هيئته قبل الحمل عبر سلسلة من المعاناة الحقيقية التي تتحملها الأم الوالدة بالكثير من الصبر والاحتمال.

في نهاية الشهر الثامن

في الأسبوع الأول من الشهر التاسع

في الأسبوع الثاني من الشهر التاسع

في الأسبوع الثالث من الشهر التاسع

مراحل أوضاع الجنين في الأشهر الأخيرة من الحمل.

ولذلك قال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿... حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا...﴾.

وقال المصطفى ﷺ للرجل الذي حمل أمه على ظهره يطوف بها البيت الحرام وهي على ظهره، ثم سأله قائلاً: يا رسول الله، هل قضيت حقها؟ فقال له رسول الله ﷺ: «لا، ولا بزفرة واحدة»(1)، والزفرة (وجمعها زفرات) هي واحدة (الزفير) بمعنى إدخال النفَس إلى الرئتين، وعكسها (الشهيق)؛ وتشجع الوالدة أثناء الوضع على التنفس بطريقة خاصة تعينها على تحمل الطلق ويقال: (ازدفر) فلان كذا: إذا تحمله بمشقة فترددت فيه نفسه، وقيل للإماء الحاملات للماء (زوافر) لما يتعرضن له أثناء ذلك من مشقة.

ثالثاً: في قوله - تعالى -: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾:

درج الناس على أن مدة حمل الجنين البشري هي في حدود التسعة شهور قمرية أو (266) يوماً من لحظة الإخصاب، وعلى ذلك اتهموا كل وضع قبل تلك المدة بالزنا، كما حدث في الحادثة التي رواها محمد بن إسحاق عن معمر بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان رضي الله عنه فذكر له ذلك، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: ما يبكيك؟ فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط، فيقضي الله سبحانه وتعالى فيَّ ما يشاء. فلما أتي بها عثمان رضي الله عنه أمر برجمها، فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه فأتاه فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت لتمام ستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له علي رضي الله عنه: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قال: أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فلم نجده بقي إلا ستة أشهر، فقال عثمان رضي الله عنه: والله ما فطنت بهذا، عليَّ بالمرأة، فوجدوها قد فرغ منها. قال: فقال معمر: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلما رآه أبوه قال: ابني، والله لا أشك فيه....

وجاء علم الأجنة في القرن العشرين ليؤكِّد لنا أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر قمرية (أي 177 يوماً) من لحظة الإخصاب، وأن الجنين إذا ولد لستة أشهر فإنه قابل للحياة، لأن كافة أجهزة وأعضاء جسمه يكون خلقها قد اكتمل مع نهاية الأسبوع الثامن من لحظة الإخصاب (بعد 56 يوماً)، وإن مرحلة إنشائه خلقاً آخر تبدأ من اليوم السابع والخمسين

(1) أخرجه البزار في «مسنده» (الحديث: 1872).

من عمر الجنين وتستمر حتى لحظة ميلاده في فترة تتراوح ما بين ستة وتسعة شهور قمرية (أي 177 يوماً إلى 266 يوماً بعد لحظة الإخصاب) تتم خلالها عملية تحديد الملامح الشخصية للجنين (الحميل).

رابعاً: من حكمة تحديد الرضاعة بحولين كاملين:

يقول ربنا - تبارك وتعالى - في سورة البقرة:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ . . .﴾ [البقرة: 233].

ويقول ﷻ في سورة لقمان:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ . . .﴾ [لقمان: 14].

ويقول - تعالى - في سورة الأحقاف:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا . . .﴾ [الأحقاف: 15].

وجاء الفعل (حَمَلَ) بتصريفاته المختلفة بمعنى: حَمْلُ الأنثى للجنين في بطنها خمس عشرة مرة في القرآن الكريم، والأصل في (الحَمْلِ) هو (الحَمْلُ) على الظهر فاستعير للحبل لما تشعر الأنثى بثقل الحمل أثناء فترة حبلها. يقال (حَمَلَتْ) المرأة إذا حبلت، والحمل هو ما تحمل الإناث في بطونها، يقال: امرأة (حَاملٌ) و(حَاملةٌ) إذا كانت حبلى، وجمعها (حملة).

وواضح من الآيات القرآنية الثلاث أن تمام الرضاعة يكون في حولين كاملين، وأن أقصر مدة الحمل هي ستة شهور قمرية (أي 177 يوماً من لحظة الإخصاب)، وأن الحميل إذا ولد لستة أشهر فإنه يكون قابلاً للحياة إذا لقي الرعاية اللازمة، ومنها أن تطول مدة رضاعته لسنتين قمريتين كاملتين، وإن أتم مدة للحمل هي تسعة أشهر قمرية (أي 266 يوماً من لحظة الإخصاب)، فإن ولد الحميل لتسعة أشهر قمرية كان كافياً لإرضاعه واحد وعشرون شهراً قمرياً حتى لا يتجاوز مجموع فترتي الحمل والرضاعة ثلاثين شهراً قمرياً.

وعلى ذلك فإن إتمام إرضاع المولود من أمه أو من أم بديلة لمدة حولين كاملين ليس ملزماً، ولكن الملزم هو الثلاثون شهراً التي يجب أن تغطي فترتي الحمل والرضاعة.

وقد أثبتت الأبحاث الحديثة في مجال طب الأطفال [بورش نيلسون 1994م (Nelson, Borch, 1994) ومجاهد أبو المجد 1995م، 1999م] أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين اكتمال مدة الرضاعة الطبيعية من الأم وبين سلامة الرضيع من الإصابة بمرض الداء السكري من النوع الأول. وكان تعليل ذلك بأن تمكين الرضيع من لبن الأم أو الأم البديلة للمدة الكافية (من 21 شهراً قمرياً إلى 24 شهراً قمرياً) يمد الرضيع بحماية فطرية ضد العديد من العوامل التي قد تؤدي إلى تدمير أعداد من الخلايا الهامة في البنكرياس من مثل خلايا بيتا التي تقوم على إفراز مادة الأنسولين لدى الأطفال الرضع سواء كانوا مولودين باستعداد وراثي لمرض الداء السكري أو لم يكونوا كذلك. وثبت أيضاً وجود ارتباط قوي بين استبدال الرضاعة الطبيعية من لبن الأم بإرضاع الأطفال من منتجات الألبان الحيوانية المصنعة وغير المصنعة (خاصة لبن الأبقار) وبين انتشار مرض الداء السكري بين الأطفال الرضع.

الرضاعة الطبيعية من الأم تُكسب الرضيع مناعة ضد الكثير من الأمراض.

وثبت كذلك أن البروتين الموجود في لبن الأبقار هو بذاته عامل فعال ومؤثر في إصابة الأطفال الرضع بمرض الداء السكري إذا استبدلت الرضاعة الطبيعية بلبن الأبقار مصنعاً أو غير مصنع.

ويذكر الأخ الكريم الدكتور مجاهد أبو المجد أستاذ الأمراض الباطنة بكلية طب المنصورة أن دراسة أجريت تحت إشرافه في سنة (1995م) أثبتت وجود أجسام مناعية مضادة لبروتينات لبن الأبقار في مصل الأطفال الذين أرضعوا هذا اللبن (مصنعاً أو غير مصنع) إلى نهاية العام الثاني من أعمارهم. أما الذين تناولوا هذا اللبن بعد تجاوز العامين الأولين من أعمارهم فلم يثبت وجود هذه الأجسام المناعية عندهم. ويفسر ذلك بعدم اكتمال نمو الغشاء المبطن للجهاز الهضمي عند الرضيع، والذي لا يتم اكتمال نموه إلا بعد تمام العام الثاني بعد الميلاد، وبأن إنزيمات الهضم عند الرضيع لا تستطيع تكسير بروتينات ألبان الأبقار إلى مكوناتها من الأحماض الأمينية، فتمر تلك البروتينات المعقدة مباشرة إلى دم الرضيع مما يحفزه على تكوين أجسام مناعية مضادة تضر به.

ويستنتج من ذلك كله أن أقل مدة للحمل والرضاعة الطبيعية هي ثلاثون شهراً، وإن إتمام مدة الرضاعة للوليد هي حولين كاملين، وذلك يترك مدة ستة أشهر كأقل مدة للحمل، وهو ما أثبتته الدراسات الطبية مؤخراً.

كذلك ثبت أن إتمام مدة الرضاعة الطبيعية من الأم أو الأم البديلة إلى حولين كاملين يحمي الرضيع من مخاطر الإصابة بالعديد من الأمراض وفي مقدمتها مرض الداء السكري.

وثبت أيضاً أن إعطاء الرضيع الألبان الحيوانية المصنعة وغير المصنعة بديلاً للبن الأم في فترة السنتين الأوليتين من عمره يؤدي إلى إصابته بالعديد من الأمراض، وإلى تركيز العديد من الأجسام المناعية الضارة في جسمه، ولم يعرف ذلك إلا في أواخر القرن العشرين. لذلك أنزل ربنا - تبارك وتعالى - من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ . . .﴾[البقرة: 233].

وأنزل: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ . . .﴾ [لقمان: 14].

وأنزل: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا . . .﴾ [الأحقاف: 15].

وهذه الآيات الثلاث تشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية - ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً - وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً، حتى يبقى القرآن الكريم حجة على جميع الناس إلى قيام الساعة.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة سيد الأنام، إمام الموحدين، وقائد الغر المحجلين، الذي بعثه الله - تعالى - رحمة للعالمين بالرسالة الخاتمة وبالدين الخاتم، ولذلك تعهد بحفظه فحفظ في وقت ضاعت أصول الرسالات السماوية السابقة كلها، وتعرض ما بقي منها من ذكريات إلى التحريف تلو التحريف، والتحرير تلو التحرير، وإلى الإضافات والتبديل والتغيير مما أخرجها عن إطارها الرباني وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها. فالحمد لله على ما نحن فيه من نعمة وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

2 - ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ...﴾

[البقرة: 233]

هذا النص القرآني جاء في مطلع الخمس الأخير من سورة «البقرة» وهي سورة مدنية وعدد آياتها (286) بعد البسملة، وهي أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المعجزة التي أجراها ربنا - تبارك وتعالى - على يدي نبيه موسى على نبينا وعليه من الله السلام، حين تعرض شخص من بني إسرائيل في زمانه للقتل، ولم يعرف قاتله، فأوحى الله - تعالى - إلى عبده موسى أن يأمر قومه بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن قاتله إحقاقاً للحق، وشهادة لله - تعالى - بالقدرة على إحياء الموتى.

ويدور المحور الرئيس لسورة البقرة حول قضية التشريع الإسلامي في العبادات والأخلاق والمعاملات، وإن لم تغفل ركائز العقيدة الإسلامية.

وقد سبق لنا استعراض كل ذلك في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم (3) ولذلك نركز هنا على الدلالة العلمية للنص القرآني الكريم الذي اخترناه عنواناً لهذا المقال، وقبل الوصول إلى ذلك أرى ضرورة استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة وقضيتها المتعلقة بفترة الرضاعة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ...﴾ [البقرة: 233].

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما نصه: هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهما (سنتان) فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك، ولهذا قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾. وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم، قال رسول الله ﷺ: «**لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام**».

● وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما نصه: إن على الوالدة المطلقة واجباً تجاه طفلها الرضيع، واجباً يفرضه الله عليها ولا يتركها فيه لفطرتها وعاطفتها التي قد تفسدها الخلافات الزوجية، ويقع الغرم على هذا الصغير.. إذن يكفله الله ويفرضه له في عنق أمه، فالله أولى بالناس من أنفسهم، وأبر منهم وأرحم من والديهم. والله يفرض للمولود على أمه أن ترضعه حولين كاملين لأنه سبحانه يعلم أن هذه الفترة هي المثلى من جميع الوجوه الصحية والنفسية للطفل. ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ وتثبت البحوث الصحية والنفسية اليوم أن فترة عامين ضرورية لينمو الطفل نمواً سليماً من الجهتين الصحية والنفسية. ولكن نعمة الله على الجماعة المسلمة لم تنتظر بهم حتى يعلموا هذا من تجاربهم، فالرصيد الإنساني من ذخيرة الطفولة لم يكن ليترك يأكله الجهل كل هذا الأمد الطويل، والله رحيم بعباده، خاصة بهؤلاء الصغار الضعاف المحتاجين للعطف والرعاية.

من الدلالات الطبية والتشريعية في النص الكريم:

يؤكد هذا النص القرآني الكريم أهمية الرضاعة الطبيعية من الأم الوالدة لمدة أقصاها حولين كاملين (أربعة وعشرون شهراً قمرياً) ولذلك قال - تعالى -: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ...﴾ [البقرة: 233] وهذا النص فيه من الدلالات الطبية والتشريعية ما يمكن إيجازه فيما يلي:

أولاً: من الدلالات الطبية:

(1) أن لبن الوالدة مناسب في تركيبه الكيميائي وصفاته الطبيعية وكمياته لحاجة الرضيع طوال فترة الرضاعة، ومن معجزات الخالق تعالى أن هذا التركيب الكيميائي وتلك الصفات والكميات للبن الوالدة يتغير تلقائياً مع تغير أحوال الرضيع ووزنه وهل هو مكتمل العمر الرحمي أو مبتسر، ومع احتياجاته الغذائية وحالته الصحية بل مع مراحل

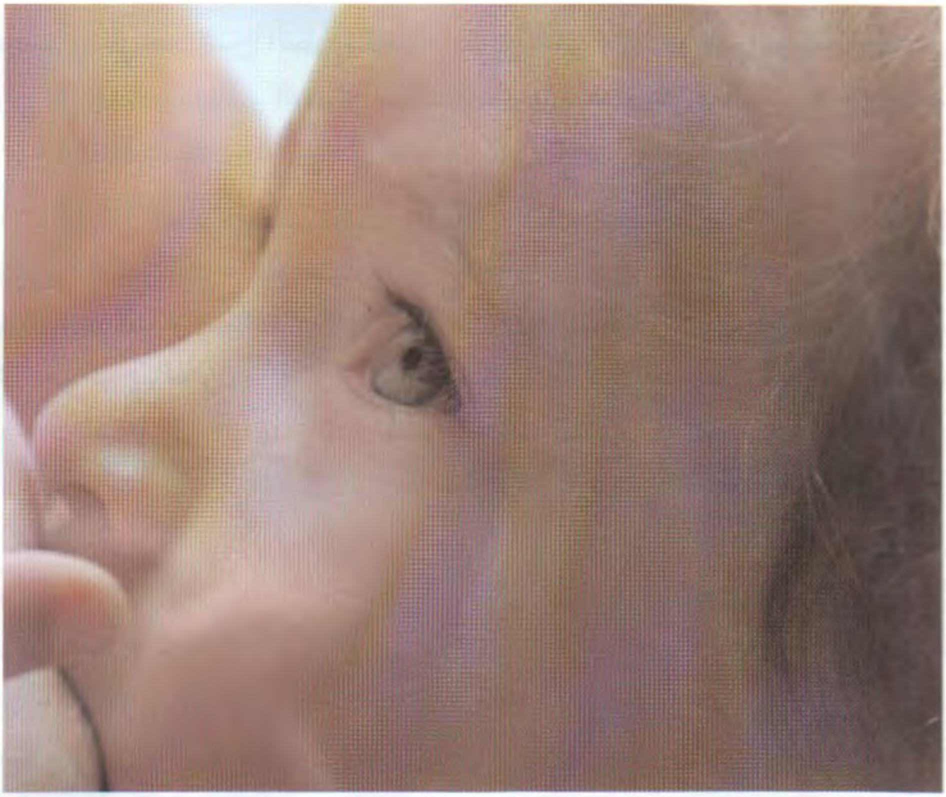

صورة لطفل رضيع يرضع من أمه تأكيداً على أن الرضاعة الطبيعية مفيدة لصحة كل من الطفل والأم على السواء.

الرضعة الواحدة من أولها إلى آخرها. ففي الأسبوع الأول من عمر الرضيع يحتوي لبن الوالدة على كميات أعلى من البروتينات، ومن كريات الدم البيضاء والفيتامينات خاصة فيتامين - أ، ومادة اللاكتوفرين المثبتة لعنصر الحديد حتى يستفيد منه الرضيع، وعلى كميات أقل من الدهون والمواد الكربوهيدراتية عن اللبن في الأسابيع التالية.

(2) أن الدهون في لبن الأم هي دهون ثلاثية بسيطة يسهل هضمها وامتصاصها مع كميات متدرجة من الأحماض الدهنية المشبعة والزيوت الدهنية الطيارة، وكذلك الكربوهيدرات وأغلبها سكر ثنائي بسيط يعرف باسم سكر اللبن أو اللاكتوز(**Lactose**) يسهل على معدة الرضيع هضمه وامتصاصه، ويحول بعضه إلى حمض اللبن (**Lacticacid**) في أمعاء الرضيع مما يساعد على امتصاص عنصر الكالسيوم اللازم لبناء عظامه. والأملاح في لبن الوالدة محددة بنسب يسهل امتصاصها وتمثيلها في جسد الرضيع،

والفيتامينات في هذا اللبن الفطري كافية لتلبية كل احتياجات الرضيع طوال الشهور الستة الأولى من عمره، وفيه من الخمائر الهاضمة ما يعين معدته على امتصاص ما في الرضعة من مركبات كيميائية.

(3) أن لبن الوالدة معقم تعقيماً ربانياً، ولذلك فهو خال تماماً من الميكروبات والفيروسات ومن غيرها من مسببات الأمراض خاصة إذا كانت الوالدة من صاحبات الأيدي المتوضئة والمحافظات على طهارة البدن والثياب والمكان، والحريصات على سلامة فلذات أكبادهن.

هذا بالإضافة إلى أن هذا اللبن الفطري جاهز للرضيع في كل زمان ومكان وطازجٌ دائماً، والوجود في درجة حرارة توائم المناخ المحيط به صيفاً وشتاءً.

(4) في لبن الوالدة من المضادات الحيوية النوعية ومن مقويات جهاز المناعة ما يحمي الرضيع من كثير من الأمراض خاصة أمراض الحساسية (التحسس) والإسهال، والنزيف المعوي، والمغص، وغيرها، وعلى ذلك فهو أفضل غذاء للوليد حتى تمام السنتين من عمره وإن كان بإمكان الأم إضافة قدر ملائم من الطعام المناسب ابتداء من الشهر السادس من عمر الوليد.

(5) أن الرضاعة الطبيعية ليست فقط مفيدة للرضيع بل للوالدة المرضعة أيضاً، لأن الرضاعة تساعد في تنشيط إفرازات الغدد المختلفة في جسدها مما يعين على استقرارها النفسي والجسدي، وعلى وقف نزيف ما بعد الولادة برجوع الرحم إلى حجمه الطبيعي وانطماره، هذا بالإضافة إلى أن الهرمونات المسئولة عن إدرار اللبن هي المسئولة عن عملية تثبيط عملية التبويض (إنتاج البيوضات) حتى لا تحمل الأم وهي لا تزال ترضع لما في ذلك من أخطار صحية عليها وعلى رضيعها، كما يريحها ذلك من آلام الطمث وهي في مرحلة الإرضاع، وفوق ذلك كله لوحظ أن الوالدات المرضعات هن أقل إصابة بالأورام السرطانية - خاصة في الصدر وفي المبيضين - عن كل من غير المرضعات، وغير الوالدات، وغير المتزوجات.

(6) أن نشاط مخ المرضعة أثناء الرضاعة هو من الأمور المتعلقة بنشاط وظائف الأعضاء في جسدها كله حيث تنبعث إشارات عصبية من الهالة الداكنة المحيطة بحلمة الثدي إلى الغدة النخامية بالمخ عن طريق العصب الحائر فتفرز هرمون البرولاكتين **(Prolactin)** اللازم لإنتاج اللبن في الثديين عن طريق الخلايا المختصة بذلك في كل

منهما، كما أن عملية الرضاعة ذاتها تنبه الغدة النخامية أيضاً لإفراز هرمون الأكسيتوسين (Oxytocin) المنشط لعضلات الثدي فتبدأ في الانقباض والانبساط من أجل إفراز اللبن وتوجيهه إلى الحلمة، وعدم استخدام هذه الأجهزة التي وهبها الله - تعالى - لجسد المرأة قد يكون فيه من الأضرار الصحية لها ما لا يعلمه إلا الله - تعالى -.

(7) أن الانعكاسات الإيجابية التي تحققها عملية الرضاعة الطبيعية على نفسية كل من الرضيع والمرضعة، والتي تتجلى في تقوية الصلة الروحية بينهما على أساس من التعاطف والحب والحنان والارتباط الوثيق هي من الأمور الفطرية التي أودعها

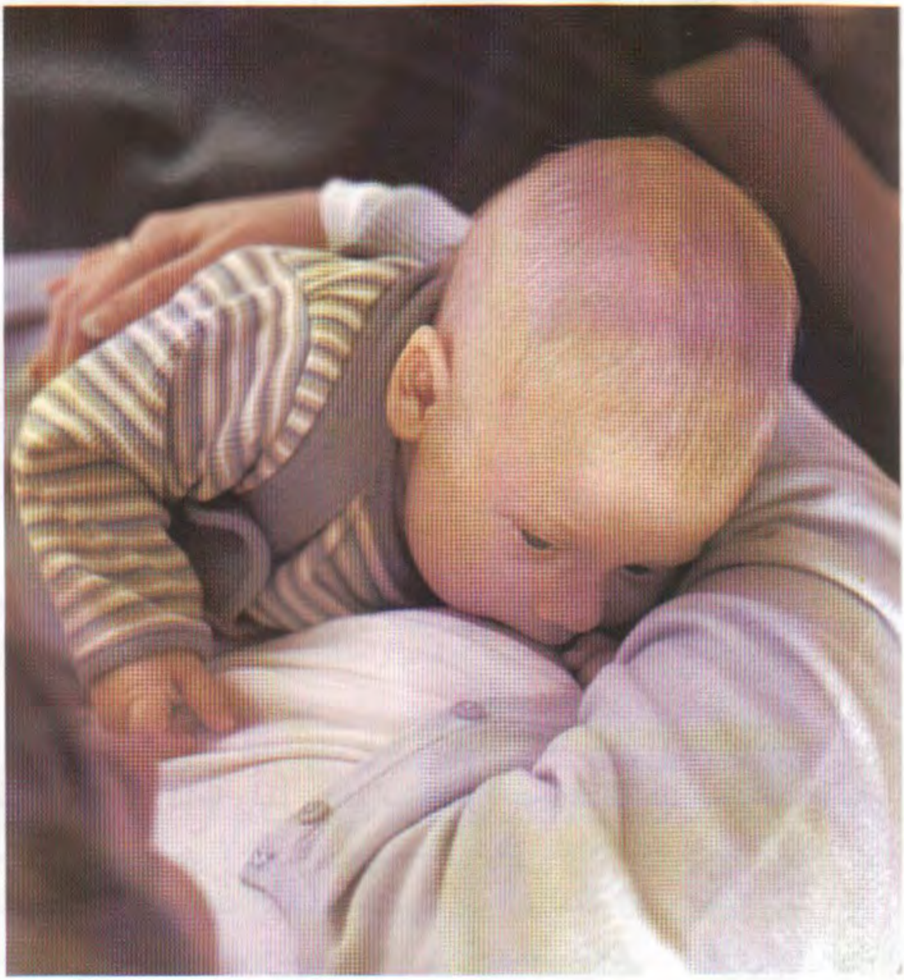

صورة لطفل يرضع من أمه رضاعة طبيعية.

الخالق ﷻ في قلب كل من الوالدة والمولود، وبفقدانها يفقد كل منهما مرحلة من مراحل حياته تهبه من أسباب التوازن النفسي والعاطفي ما يجعله مخلوقاً سوياً.

(8) ولما كان للرضاعة في الحولين الأولين من عمر الوليد تأثير على صفاته الوراثية أعطى القرآن الكريم الأولوية في إرضاع المولود للأم التي ولدته فقال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ. . .﴾ [البقرة: 233].

والأمر الإلٰهي بالإرضاع جاء بصيغة المضارع إقراراً لاستمرارية هذا الأمر لكل والدة أن ترضع مولودها تحقيقاً لدور الأمومة ولحقّ مولودها عليها. ولكن في بعض الظروف الخاصة التي لا تستطيع الوالدة أن ترضع فيها وليدها صرح القرآن الكريم بأن ترضع له أخرى مع بقاء الأولوية في الرضاعة للأم الوالدة فقال - تعالى -: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: 6].

(9) ويفهم من النص الكريم أن تمام مدة الرضاعة هو حولان كاملان (أربعة وعشرون شهراً قمرياً) ولكن ترك الأمر لتقدير الوالدين فقال - تعالى -: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ . . .﴾ [البقرة: 233] على أن تمام الرضاعة هو عامان وذلك في مقام آخر بقوله - تعالى -: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: 14] وذلك لتباين مدد الحمل بين ستة وتسعة أشهر قمرية (بين117 و266 يوماً) لقوله - تعالى -: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ. . .﴾ [الأحقاف: 15]. فإذا ولد الحميل لستة أشهر قمرية كان واجباً إتمام مدة الحمل والفصال ثلاثين شهراً قمرياً، ولكن إذا اكتملت فترة الحمل إلى تسعة أشهر قمرية كان كافياً لفترة الرضاعة التامة واحد وعشرون شهراً ليكمل فترتي الحمل والرضاعة إلى ثلاثين شهراً.

(10) أثبتت الأبحاث في مجال طب الأطفال (كما أشار الأستاذ الدكتور مجاهد أبو المجد) أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الرضاعة من منتجات الألبان الحيوانية المصنعة وغير المصنعة - خاصة لبن الأبقار - وبين انتشار مرض الداء السكري بين الأطفال الرضع، وانعدام ذلك في حالات الرضاعة الطبيعية من الوالدة. وكان تعليل ذلك أن البروتين الموجود في لبن الأبقار يؤدي إلى تكوين أجسام مناعية مضادة في دم الرضع دون العامين لأن إنزيمات الهضم عندهم لا تستطيع تكسير البروتينات المعقدة في ألبان

الأبقار، وأن هذه الأجسام المناعية تقوم بتدمير أعداد من الخلايا المهمة في بنكرياس الرضيع من مثل الخلايا التي تقوم بإفراز مادة الأنسولين.

ولكن بعد تجاوز العام الثاني من عمر الوليد فإن تناوله للبن الأبقار لا يسبب تكون مثل هذه الأجسام المناعية المضادة ويفسر ذلك باكتمال نمو الغشاء المخاطي المبطن للجهاز الهضمي عند الوليد والذي لا يتم اكتماله إلا بعد عامين كاملين من عمره، فتستطيع إنزيمات الهضم عنده تكسير البروتينات المعقدة في ألبان الحيوانات فلا تتكون أجسام مناعية مضادة لها، وهنا تتضح ومضة الإعجاز العلمي والطبي في قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ...﴾ [البقرة: 233].

(11) كذلك أثبتت الدراسات العلمية أخيراً أن ألبان الأنعام - خاصة ألبان الأبقار - تحتوي على عدد من الأحماض الأمينية تزيد بثلاثة إلى أربعة الأمثال على ما في لبن الأم مما قد يؤدي إلى ارتفاع نسبة تلك الأحماض في دم الرضيع فيعرضه للإصابة ببعض الإعاقات الذهنية، ويؤدي إلى رفع نسب وفيات الرضع الذين يتغذون أساساً على الألبان الحيوانية غير المصنعة والمصنعة.

ثانياً: من الدلالات التشريعية:

(1) في قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ...﴾ [البقرة: 233]. دليل على أن الأولوية في رضاعة المولود هي لأمه التي ولدته، وذلك لأن الدراسات المختبرية أكدت أن تفاصيل التركيب الكيميائي لألبان النساء يختلف من امرأة إلى أخرى. وهذا له تأثيره على نمو الوليد واتزانه العاطفي والنفسي، وأن الجهاز الهضمي للرضيع مهيأ أفضل تهيئة لهضم وامتصاص لبن أمه التي ولدته.

(2) ويفهم من النص الكريم أن الوالدات لَسْن فقط اللائي ولدن، ولكن تنزل المرضعة منزلة الوالدة فتصبح كل مرضعة والدة، مع بقاء الأولوية في الرضاعة للأم التي ولدت، ولما كانت المرضعة والدة كانت الحرمة من الرضاعة في الحولين الأولين من عمر الرضيع لقول الرسول ﷺ: «**يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب**»[1].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الشهادات، باب: الشهادة على الأنساب، الحديث (2645)، وأخرجه مسلم في كتاب: الرضاع، باب: تحريم الرضاعة من ماء الفحل، الحديث (1447).

ولقوله: «**لا رضاعة إلا ما كان في الحولين**»[1].

وقوله: «**لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام**»[2].

وقوله: «**لا يحرم من الرضاع إلا ما أنبت اللحم وأنشز العظم**»[3].

وقد أثبتت الدراسات العلمية أن تأثير الرضاعة على المولود طوال العامين الأولين من عمره في بناء جسده، وتكوين جهازه المناعي، وتشكيل شيء من صفاته الشخصية والوراثية ما يبقى معه إلى آخر عمره، ويبلغ من خطورته أنه يحلل له ويحرم من أمر الزواج وذلك بسبب انتقال بعض العوامل الوراثية والمناعية من حليب المرضعة إلى جسد الرضيع واندماجها مع سلاسل الموروثات في داخل خلاياه.

وهذه الحقيقة التي أثبتتها الدراسات المختبرية أخيراً قد سبق بها كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من قبل ألف وأربعمائة من السنين وذلك بتحريم الزواج بين الذين اشتركوا في الرضاعة من امرأة واحدة خلال العامين الأولين من العمر، واعتبرهم الشرع إخوة من الرضاعة، كما اعتبر مرضعتهم أمًّا لهم بالرضاعة تنسحب عليها كل حقوق الأمومة ما عدا الإرث، ويحرم من هذه الصلة ما تحرم الأمومة بالنسب لأن التقارب في الصفات الموروثة بين الزوجين يؤدي إلى شيء من الاضطراب الذي ينحّي بعض الصفات الإيجابية في المورثات أو يسود بعض الصفات السلبية مما يضر بالنسل ضرراً بليغاً.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام؛ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(1) قال ابن عبد البر: منقطع، ويتصل من وجوه، أخرجه الإمام مالك في الموطأ.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الرضاع، باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر...، الحديث (1152).

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في رضاعة الكبير، الحديث (2060).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

3 - ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾...

[لقمان: 14]

هذا النص القرآني الكريم جاء في خواتيم النصف الأول من سورة لقمان، وهي سورة مكية، وآياتها أربع وثلاثون (34) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها مرتين إلى لقمان الحكيم، وهو شخصية لايعرف المؤرخون كثيراً عنها، فقد قيل عنه إنه من أصول نوبية، أو سودانية، أو حبشية، أو عبرية، والله - تعالى - أعلم بحقيقته.

وغالبية الذين كتبوا عن لقمان الحكيم يجمعون على أنه لم يكن نبياً، وقليلون هم الذين يرجِّحون نبوته لذكر القرآن الكريم له بالاسم مرتين، ولتسمية هذه السورة المباركة باسمه. وعلى الرغم من عدم الإجماع على نبوته أو على عروبته، إلا أن هناك إجماعاً على أنه كان من بقايا الأحناف في زمانه، وذلك لما اشتهر به من التوحيد الخالص لله - تعالى - ونبذ للشرك والمشركين، وما عرف عنه من الحكمة وحسن الخطاب، ومن الدعوة إلى مكارم الأخلاق التي أوردت هذه السورة الكريمة طرفاً منها في مقام نصيحة لقمان لابنه.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، شأنها في ذلك شأن كل السور المكية. وقد سبق لنا استعراض هذه السورة المباركة، وما جاء فيها من ركائز العقيدة، وقواعد مكارم الأخلاق، والإشارات الكونية، في كتاب «خلق الإنسان» مقال رقم (28)، ولذلك سوف نركز هنا على الدلالة العلمية للنص الكريم الذي اخترناه عنواناً لهذا المقال.

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [لقمان: 14]:

في هذا النص القرآني الكريم لمحة إعجازية مبهرة، تتلخَّص في توصية الإنسان بوالديه، وهي توصية تكررت في القرآن الكريم لمرات عديدة، كما تكررت في أحاديث رسول الله ﷺ، ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا في حالات نادرة، مثل الحالة الشاذة التي سادت الجزيرة العربية أيام الجاهلية الأولى، وتجسدت في عادة وأد البنات، أو بعض حالات الفقر الشديد أو الخشية منه؛ وذلك لأن الفطْرة التي فطر الله - تعالى - العباد عليها تتكفل برعاية الوالدين لوليدهما الذي يريان فيه ذواتهما، وهو بضعة منهما.

ويريان فيه ضعف الإنسان وحاجته إلى رعاية من هو أقدر منه، كما يريان قوتهما في هزاله وضعفه، ويريان شخصيتهما في تدرج نمائه، حتى يصبح امتداداً لهما، ووارثاً لقدر من صفات كل واحد منهما، وأملاً لهما يحققان فيه ما لم يتمكن كلٌّ منهما من تحقيقه، وعوناً لهما في شيخوختهما وضعف قوتهما، إن أمهلهما الأجل حتى يبلغا ذلك.

وانطلاقاً من كل هذه المشاعر الفطرية النبيلة التي أودعها الخالق العظيم قلوب الآباء والأمهات، فإننا نجدهم يبذلون من النفس والجهد والمال، ومن كل ما يملكون من عزيز وغالٍ من أجل حسن التربية لأبنائهم بسعادة وغبطة لا يشوبهما ملل ولا سأم، مهما كان في ذلك من مشاق؛ لأن الفطرة التي أودعها الله - تعالى - قلوب الآباء قد تكفلت بذلك دون حاجة إلى وصية.

أما الأبناء فبمجرد بلوغهم يبدأ تركيزهم على ذواتهم، والخوف من مستقبلهم مما قد يستوعب كل تفكيرهم، وبمجرد زواجهم وإنجابهم يتجهون بكل عواطفهم إلى أزواجهم وذراريهم، ومن هنا كانوا في أمس الحاجة إلى التذكير المستمر بفضل والديهم عليهم، وبالجهد الذي بذله كل والدين في رعاية كل مولود لهما وتنشئته حتى وصل إلى ما وصل إليه من شباب وفتوة وقوة، ومن علم وأخلاق وقيم وتجارب صقلته وهذبت من نفسه، وزادت من إمكاناته، ومن قدراته على التعامل مع حياته.

ويبقى الأبناء في حاجة إلى هذا التذكير خاصة إذا كان الأجل قد امتد بوالديهم - أحدهما أو كلاهما - إلى أرذل العمر وما فيه من شيخوخة وضعف وحاجة إلى الرعاية والعناية والحنو والعطف ليسد الأبناء شيئاً مما طوقهم به الآباء على مدى سنوات الحمل

والرضاع والفطام والتنشئة، ومن هنا كانت توصية الإنسان بوالديه ومضة تربوية ونفسية بالغة الدقة وبالغة الإعجاز في آن واحد.

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: 14]:

يعيش جنين الإنسان في بطن أمه فترة تتراوح بين الستة والتسعة شهور قمرية معتمداً على جسدها اعتماداً كلياً، مستمداً جميع احتياجاته الغذائية والتنفسية والمناعية من دمها، وذلك مثل الأحماض الأمينية، والمواد البروتينية، والكربوهيدراتية، والفيتامينات، والهرمونات، والأملاح، والأوكسجين، وخلايا المناعة وغيرها، وتستقبل الأم الحامل من جنينها كل السموم التي يفرزها جسمه، مثل البولينا، وثاني أكسيد الكربون وغيرهما. ومن الثابت أن الأم الحامل تضحي لجنينها بكامل احتياجاته على حساب احتياجاتها هي، ولو أدى ذلك إلى فقد دمها وإمراضها، ولذلك قال رب العالمين: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: 14].

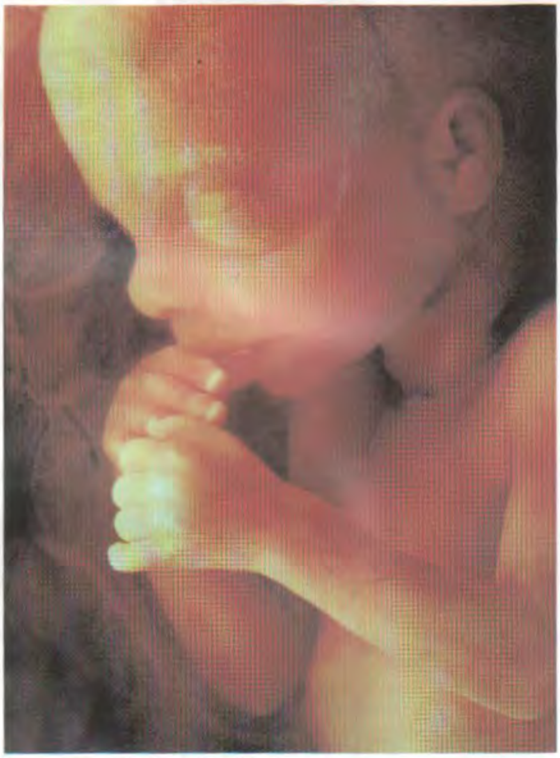

صورة لجنين بشري (20 أسبوعاً) وقد اكتمل خلقه وهو يعتمد في غذائه على أمه.

ومن الأعراض التي تطرأ على جسد الحامل: اضطراب الجهاز الهضمي المصاحب عادة بالقيء، والغثيان، وسوء الهضم، والحموضة الزائدة، ونقص الشهية، والرغبة الشديدة في بعض الأطعمة الخاصة أو المواد الغريبة التي يحتاجها هذا الجسد (أو ما يطلق عليه اسم الوحم)، هذا بالإضافة إلى ضغط الرحم على كلٍ من المعدة والكبد

خاصة في الشهور الأخيرة من الحمل وما يتحمله كل من القلب وأوردة وشرايين الجهاز الدوري من جهد زائد لأجل ضخ الدم إلى كلٍ من جسم الأم وجسم الجنين، فيرتفع ما يضخه القلب من (6500 لتر/ يومياً) قبل الحمل إلى (15000 لتر/ يومياً) بعد الحمل، وقد يؤدي ذلك إلى إجهاد عضلة القلب، وإلى اضطراب ضغط الدم، أو إلى تمدد الأوردة وتعرجها (مرض دوالي الأرجل والأقدام). كذلك فإن تزايد نمو الجنين في شهوره الأخيرة يؤدي إلى مزيد من الضغط على كلٍ من الحجاب الحاجز والرئتين، مما يعوق عملية التنفس.

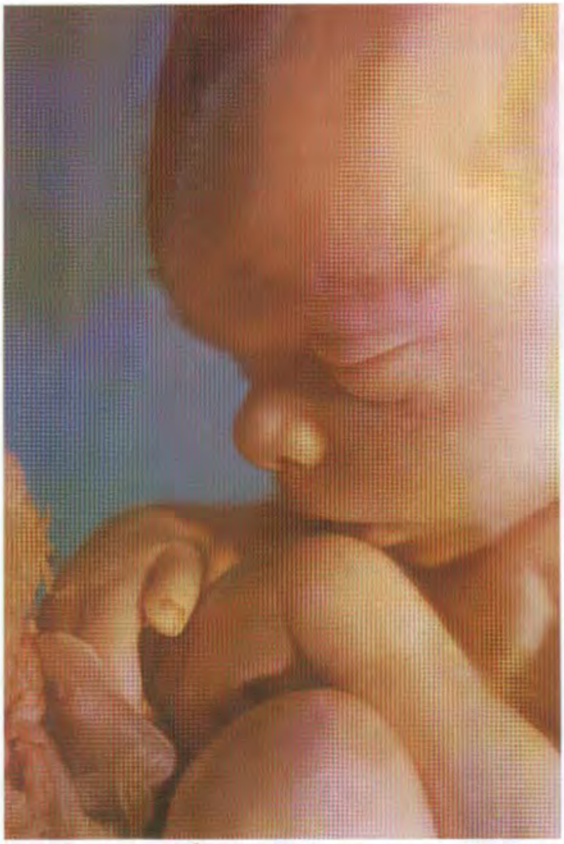

صورة لجنين بشري (24 أسبوعاً) يشكل عبئاً على الأم الحامل من ناحية الغذاء والحجم.

وكثرة إفراز الهرمونات المتعلقة بعملية الحمل قد يزيد كمية الماء المختزن في الجسم، ويظهر على هيئة تورم القدمين، كما قد يؤدي إلى الاضطراب في وظائف عدد من الغدد الصماء، مثل الغدة الدرقية في جسم الأم الحامل.

وقد تصاب بعض الحوامل بشيء من لين العظام أو هشاشتها لنقص الكالسيوم في جسمها ؛ نظراً لسحب الجنين لكميات زائدة من كالسيوم دم الأم أثناء تكون عظام جسده. ومع مصاحبة ذلك لشيء من زيادة وزن الأم (حوالي عشرة كيلو جرامات في المتوسط) يوضح جانباً مما تكابده الأم الحامل من مشاق في حالات الحمل الطبيعي، وتتضاعف هذه المشاق أضعافاً كثيرة في حالات حمل التوائم، أو الحمل خارج الرحم، مما يعرف باسم الحمل غير الطبيعي، والذي قد يؤدي إلى وفاة كلٍ من الجنين والأم معاً.

وإذا أضفنا إلى هذه الصعوبات الجسدية ما تكابده الأم الحامل من معاناة نفسية تتأرجح بها بين الرجاء والخوف، والتفاؤل والتشاؤم، والفرح والحزن، والاطمئنان والقلق، أدركنا حاجتها وسط هذه الأمواج المتلاطمة من الوهن الجسدي والحساسية الشديدة، وسرعة التأثر والانفعال، والمشاعر المتضاربة إلى العناية الشديدة من

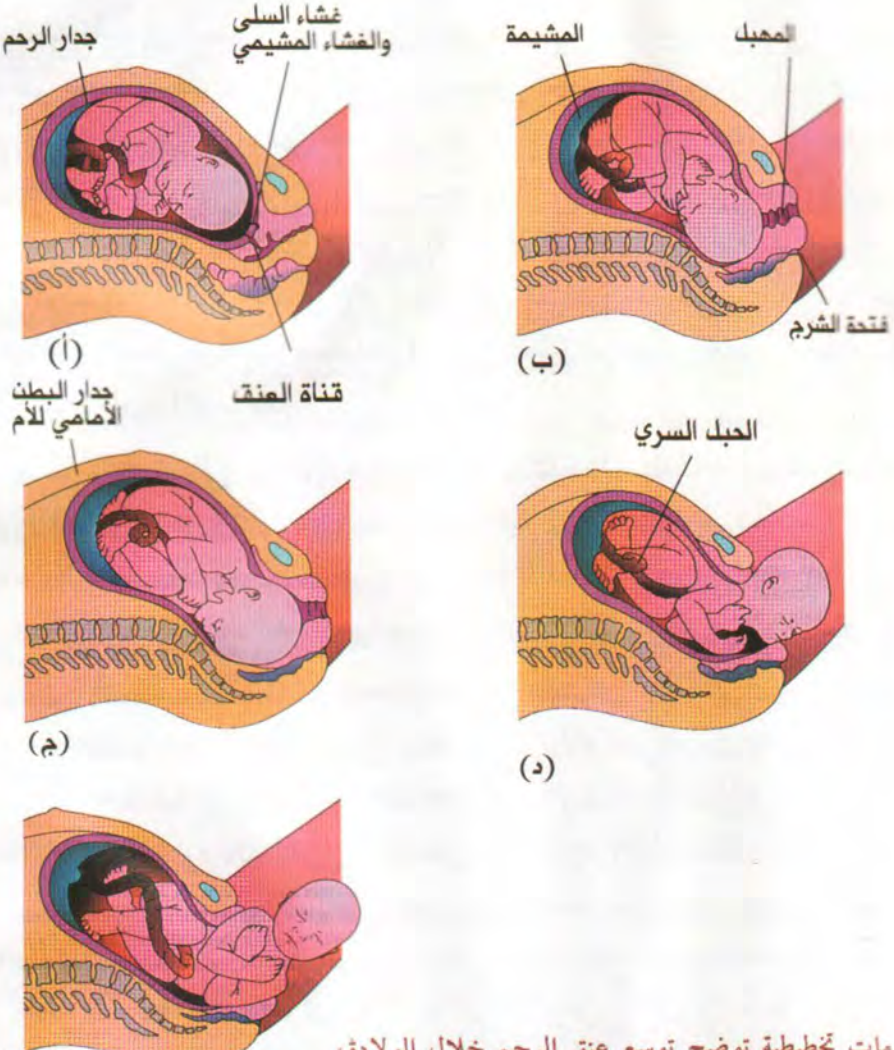

رسومات تخطيطية توضح توسع عنق الرحم خلال الولادة، وخروج الجنين من الرحم عبر سلسلة من الحركات الجسدية . وفي تحويل الرحم من وضعه العمودي بالنسبة إلى المهبل إلى وضع شبه مستقيم معه ليسهل عملية خروج الجنين من بطن أمه.

المحيطين بها، وإلى غمرها بمزيد من العطف والحنان الذي قد لا تجده في أغلب الأحوال، ومن ذلك يتضح لنا بجلاء روعة التعبير القرآني الذي يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: 14] أي ضعفاً على ضعف بازدياد ثقل الحمل إلى الميلاد، وذلك لا يتم إلا بمشقة شديدة، يتضح جانب من هذه المشقة بإدراك حقيقة أنه باكتمال الشهر الثالث من حياة الجنين، فإنه يبدأ باتخاذ وضع خاص داخل رحم أمه، يكون فيه رأسه إلى أسفل، ومؤخرته إلى أعلى، ويتم ذلك بانقباض عام في كل جذعه وأطرافه على بعضها البعض، فينحني الجنين برأسه في اتجاه ركبتيه، ويثني ركبتيه في اتجاه رأسه مع جعل وجهه في اتجاه ظهر أمه، حتى إذا جاءت لحظة الميلاد كان أول ما يخرج منه رأسه، وبخروجه يسهل خروج باقي جسده وسائر أطرافه، وتمثل الولادة الطبيعية بخروج الرأس أولاً أيسر عمليات الوضع، إلا أن هناك العديد من حالات الوضع غير الطبيعية والمتعسرة، ويسبق الوضع آلام الطلق التي قد تفوق في شدتها أية آلام أخرى تتعرض لها الأم الحامل طيلة مدة حملها، وقد تنتهي عملية الوضع في بعض الأحوال بوفاة الأم أو الجنين، أو بوفاتهما معاً.

وقد تضطر الحامل إلى الولادة غير الطبيعية بالشفط أو باستخدام بعض الآلات الخاصة - مثل الجفت - أو حتى بعملية جراحية لشق البطن تعرف باسم العملية القيصرية، وإلى غير ذلك من المخاطر.

وعلى الرغم من أن التطور الطبي قد تمكن من خفض نسبة تلك المخاطر إلا أنه لم يتمكن بعد من القضاء عليها، فلا تزال حمى النفاس منتشرة بين كثير من الوالدات، ولا تزال حالات تسمم الحوامل وإصابتهن بالعديد من الأمراض الجسدية والنفسية من الأمور الشائعة - خاصة في المجتمعات المتخلفة علمياً وتقنياً - وتكفي في ذلك الإشارة إلى ضخامة حجم المولود بالنسبة إلى ضيق عنق الرحم، ولولا رحمة الله - تعالى - ودقة تقديره بتهيئة الجهاز التناسلي للمرأة الحامل بهيئة خاصة تعينه على إفراز العديد من الهرمونات التي توسع عنق الرحم، وتجعله على استقامة مع الرحم ذاته، والتي ترخي كلاً من عظام الحوض وعضلاته لتيسير عملية الولادة وخروج المولود الجديد إلى عالم الحياة الدنيا بشيء من اليسر، لكانت عملية الولادة أمراً مستحيلاً.

كما تكفي في ذلك الإشارة إلى ما تتعرض له الوالدة من آلام أثناء عملية المخاض ومن بعده، ومن ذلك ما تشعر به من إجهاد شديد وقشعريرة بعد الولادة مباشرة، ثم

ارتفاع في درجة الحرارة وما تتعرض له من انخفاض في ضغط الدم، واضطراب في النبض، وتعرض لإمكانية سقوط الرحم وإلى غير ذلك من الأمراض التي قد تصيبها والمعاناة التي قد تصاحب تلك الأمراض حتى تشفى.

وتكفي في ذلك الإشارة أيضاً إلى ما تتعرض له الوالدة من نزيف دموي طيلة فترة النفاس، والتي قد تمتد من لحظة إلى ستين يوماً (بمتوسط يقدر بحوالي الأربعين يوماً)، وذلك لسقوط المشيمة مع المولود، وتركها للأوعية الدموية التي كانت تصل بينها وبين جدار الرحم مفتوحة تنزف كالجروح النازفة، ولولا رحمة الله - تعالى - بالوالدة، تلك الرحمة التي هيأت لها إفراز العديد من الهرمونات التي تعين الرحم على الانقباض انقباضاً شديداً بعد الولادة مباشرة، لنزفت النفساء حتى الموت. وهذا الانقباض يعود بوزن الرحم (بدون محتوياته) من حوالي الكيلو جرام قبل الولادة مباشرة إلى حوالي الخمسين جراماً فقط في نهاية فترة النفاس، ويعود جدار الرحم من خمسة سنتيمترات إلى أقل من سنتيمتر واحد في السُمْك، وتستمر التغيرات في جدار الرحم، وفي بطانته حتى يعود إلى هيأته قبل الحمل عبر سلسلة من المعاناة الحقيقية التي تتحملها الأم الوالدة بالكثير من الصبر والاحتمال، ولذلك قال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: 14]، وقال المصطفى ﷺ للرجل الذي حمل أمه على ظهره يطوف بها البيت الحرام وهي على ظهره، ثم سأله قائلاً: يا رسول الله: هل قضيت حقها؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**ولا بزفرة واحدة**» (رواه الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن بريدة عن أبيه)، والزفرة - وجمعها زفرات - هي واحدة (الزفير) بمعنى إدخال النفس إلى الرئتين، وعكسها (الشهيق). وتشجع الوالدة أثناء الوضع على التنفس بطريقة خاصة تعينها على تحمل الطلق. ويقال: (ازدفر) فلان كذا إذا تحمله بمشقة، فترددت فيه نفسه، وقيل للإماء الحاملات للماء (زوافر) لما يتعرضن له أثناء ذلك من مشقة.

ثالثاً: في قوله - تعالى -: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: 14]:

درج الناس على الاعتقاد بأن مدة حمل الجنين البشري هي في حدود تسعة شهور قمرية (أي266 يوماً) ولكن القرآن الكريم جاء فيه قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15].

وقوله - عز من قائل -: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: 14].

ومعنى هذين النصين القرآنيين الكريمين أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر قمرية كاملة (أي177 يوماً)، وهو ما أثبتته دراسات علم الأجنة مؤخراً. وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقيقة العلمية يؤكد ربانية هذا الكتاب الكريم، وصدق الرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ، ومما يحتمله النصان القرآنيان الكريمان أيضاً أن فطام الوليد يمكن أن يتم في فترة تتراوح بين21 شهراً قمرياً، و24 شهراً قمرياً حسب مدة حمله.

وكما أورد الأخ الدكتور مجاهد أبو المجد الأستاذ بكلية الطب بجامعة المنصورة، فإن الدراسات الطبية الحديثة قد أثبتت أنه كلما اقتربت مدة الرضاعة الطبيعية (من الأم أو المرضعة) من عامين قمريين قلَّ تركيز الأجسام المناعية الضارة بخلايا البنكرياس المتخصصة في إفراز مادة الإنسولين، وكلما قل مجموع مدتي الحمل والرضاعة عن ثلاثين شهراً قمرياً، أو استبدلت الرضاعة الطبيعية بألبان الحيوانات سواء كانت مصنعة أو غير مصنعة، كلما زاد تركيز الأجسام المناعية الضارة في جسم الطفل.

هذه الحقائق العلمية لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون عديدة من بعده، وورودها في كتاب الله بهذه الدقة والإحاطة، وبهذا الشمول والكمال، لمما يقطع لكل ذي بصيرة بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، ولم يقطعه لرسالة أخرى من قبل أبداً، وحفظه في نفس لغة وحية - اللغة العربية - وحفظه حفظاً كاملاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بذلك إلى أن يشاء سبحانه وتعالى.

إن ازدياد حجم الجنين وضيق المكان يشكلان مشقة شديدة للأم الحامل في الأشهر الأخيرة من الحمل.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الذي ختم الله ببعثته النبوات، وبرسالته جميع الرسالات السماوية، وأتمها وأكملها في القرآن الكريم، وفي هدي هذا النبي والرسول الخاتم. فصلِ اللهم وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

4 - ﴿... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ...﴾ [هود: 61]

هذا النص القرآني الكريم جاء في منتصف سورة «هود»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها مائة وثلاث وعشرون (123) بعد البسملة، وقد سميت باسم نبي الله هود عليه السلام الذي بعثه الله - تعالى - إلى قومه (قبيلة عاد). وقد سكنوا منطقة الأحقاف، في الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وكانوا عرباً أشداء، غلاظاً، جفاة، متكبرين، عتاة، متمردين، أشركوا بالله سبحانه وتعالى فعبدوا الأصنام والأوثان بدلاً من شكر الله على ما وهبهم من بسطة في الجسم، ووفرة في الرزق، فكانوا أول من عبد الأصنام من الأمم التي جاءت بعد طوفان نوح، وأفسدوا في الأرض إفساداً عظيماً، فأرسل الله - تعالى - إليهم نبيه هوداً عليه السلام الذي اصطفاه بعلمه من بينهم فدعاهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده، وإلى إقامة عدل الله في الأرض، وإلى حسن القيام بواجبات الاستخلاف فيها، فكذبوه، وخالفوه، وحاربوه، واضطهدوا الذين آمنوا معه، فسخَّر الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية أهلكتهم، ونجَّى هوداً والذين آمنوا معه فالتجأوا إلى مكة المكرمة يعبدون الله - تعالى - بما أمر عند أول بيت وضع للناس في الأرض حتى توفاهم الله سبحانه وتعالى، وكان من سلالاتهم قبيلة «ثمود» قوم نبي الله صالح عليه السلام والذين سكنوا منطقة «الحجر» إلى الشمال الغربي من مدينة رسول الله ﷺ وعلى الطريق القديم بينها وبين مدينة تبوك.

ويدور المحور الرئيس لسورة «هود» حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها التوحيد الخالص لله - تعالى - والخضوع لجلاله وحده

بالعبادة والطاعة كما أمر، وهذه كانت وصية كل نبي من أنبياء الله الذين جاء ذكرهم في هذه السورة المباركة إلى قومه:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: 2].

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: 26].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: 50].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾ [هود: 61].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾ [هود: 84].

وبالإضافة إلى التوحيد الخالص لله - تعالى - ركزت سورة «هود» على اليقين بحتمية البعث والحساب، والجزاء بالخلود في الجنة أبداً، أو في النار أبداً، والتصديق بوحي السماء، وبجميع أنبياء الله وكتبه ورسله، وببعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، وبالقرآن الكريم الذي حفظ الله ﷻ فيه الدين بكماله وتمامه وربانيته بنفس لغة الوحي التي أوحى بها - اللغة العربية - وتعهد بحفظه حفظاً مطلقاً.

وتبدأ سورة «هود» بالحروف الهجائية المقطعة الثلاثة (الٓر) - وسبق لنا مناقشة آراء المفسرين فيها - وعقب هذا الاستهلال مباشرة جاء التأكيد من الله - تعالى - على فضل القرآن الكريم، ومن هذا الاستفتاح إلى الآية الرابعة والعشرين من سورة «هود» جاءت الآيات إما على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في توجيهات صريحة لأهل مكة وللمؤمنين به من بعده، أو خطاباً موجهاً من الله - تعالى - إلى الرسول الخاتم ﷺ، وذلك من مثل قوله - تعالى -:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤)﴾ [هود: 1-4].

ثم تتحدَّث الآيات عن شيء من طبائع النفس الإنسانية في كل من حالات السعة والنعماء، وحالات الضراء والبأساء لتقول:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: 9-11].

وتعاود الآيات التأكيد على حجية القرآن الكريم، وربانيته والتحدي بعجز الخلق أجمعين عن الإتيان بشيء من مثله، والسخرية من الذين قالوا إن الرسول ﷺ قد افتراه، فتنطق بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: 13-14].

وتؤكد الآيات بعد ذلك أنه من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها وعمل لذلك مجتهداً فإن الله - تعالى - يؤته ثمار أعماله كاملة غير منقوصة، ولكن الذين يقصرون همهم على ماديات الدنيا فقط وينسون الآخرة (كالغالبية الساحقة من أهل الأرض اليوم) فهؤلاء ليس لهم في الآخرة إلا الخزي والعذاب والندم ساعة لا ينفع الندم لأنهم سوف يرون بأعينهم أن كل مكاسب الدنيا المادية إذا لم تكن قد وظفت في طاعة الله فإنها لا قيمة ولا وزن لها في الآخرة على الإطلاق.

وتقارن الآيات في سورة «هود» بين مصائر الضالين من أهل الأرض الذين يعيشون على ظهرها كالسائمة بلا هدف نبيل ولا غاية سامية، وبين مصائر المؤمنين الذين يفهمون حقيقة رسالتهم في هذه الحياة عباداً لله - تعالى - يعبدونه بما أمر، ويحسنون القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها، ومحاربة كل صور الظلم والفساد فيها، والعمل على إقامة عدل الله ﷻ في أرجائها، ويسيرون في الحياة الدنيا على بصيرة وهداية من ربهم، يرجون بكلماتهم وحركاتهم وسكناتهم وجه الله - تعالى -، ولديهم البرهان الجلي من ربهم - وهو القرآن الكريم - يشهد على حجية الإسلام العظيم كما تكامل في بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، وينطق بالإعجاز في كل أمر من

أموره، ويشهد له ما جاء من قبل في كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة الأصلية، وهي غير الكتب الخمسة المزورة في مطلع ما يسمى بالعهد القديم.

ومن قبيل الدعوة إلى النظر بعين البصيرة فيما يعتقد كل إنسان، تخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ والمراد بالخطاب كل مستمع له فتقول:

﴿... فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: 17].

وبعد أن بيّن الله - تعالى - حال المؤمنين المتَّصفين بالتزام أوامر الله، واجتناب نواهيه، بيّن أحوال الكافرين، وذكر من أوصافهم أربعة عشر وصفاً أولها افتراء الكذب على الله، وآخرها الخسران المبين في الآخرة، وتحذّر الآيات من جريمة الكذب على الله - تعالى -، وتصف هذه الجريمة بأنها من أبشع صور الظلم لأنها تصرف الناس عن دين الله الحق إلى العديد من العقائد الفاسدة، وتحرفهم عن طريق الله المستقيم إلى طرق على رؤوسها مختلف الشياطين الذين يكفرون بالآخرة وبما فيها من ثواب وعقاب، ويكرهون الاستماع إلى القرآن الكريم وما فيه من حق مبين، كما يكرهون النظر إلى آيات الله في الكون بعين البصيرة. وهؤلاء الضالون ليسوا بمعجزين في الأرض، وليس لهم من دون الله أولياء يعصمونهم من عذابه، والله - تعالى - قادر على مضاعفة العذاب لهم في الدنيا بالإضافة إلى عذاب الآخرة الواقع بهم لا محالة، وهؤلاء يصفهم القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [هود: 22،21].

وفي المقابل تعرض الآيات في سورة «هود» لموقف المؤمنين فتقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: 24،23].

وبعد هذه السلسلة من الترغيب في خيري الدنيا والآخرة، والترهيب من أهوال الآخرة، ينتقل السياق إلى استعراض سريع لقصص سبعة من أنبياء الله ولتفاعل أقوامهم

معهم وذلك للتأكيد على موقف الخلق من قضيتي الإيمان والكفر عبر التاريخ، وعلى حتمية هلاك المكذبين ونجاة المؤمنين بأمر الله - تعالى -. والأنبياء الذين جاء ذكرهم في هذه السورة المباركة هم:

1 - نبي الله نوح عليه السلام وقد سردت قصته مع قومه في خمس وعشرين آية قرآنية كريمة [هود: 25 - 49] حتى تم إغراق العاصين منهم بالطوفان، ونجّى الله - تعالى - نوحاً والذين آمنوا معه.

2 - نبي الله هود عليه السلام وقد جاء ذكر قصته مع قومه «قبيلة عاد» (وتعرف أيضاً باسم عاد الأولى) في إحدى عشرة آية [هود: 50 - 60]، وكان هلاك العاصين منهم بريح صرصر عاتية.

3 - نبي الله صالح عليه السلام وجاءت قصته مع قومه «قبيلة ثمود» (أو عاد الثانية) في ثماني آيات [هود: 61- 68]، وقد أهلك الله - تعالى - الكافرين منهم بالصيحة ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

4 - أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وقد جاءت قصته مع قومه في ثماني آيات [هود: 69 - 76].

5 - نبي الله لوط عليه السلام وجاء ذكر قصته مع قومه في سبع آيات [هود: 77 - 83] وقد عوقب المفسدون من قومه بخسف الأرض بهم، وإمطارهم بحجارة من سجيل منضود.

6 - نبي الله شعيب عليه السلام وجاءت قصته في اثنتي عشرة آية [هود: 83 - 95] وقد أهلك الظالمون من قومه بالصيحة ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، ونجّى الله - تعالى - شعيباً والذين آمنوا معه.

7 - كليم الله موسى عليه السلام وجاءت قصته مع فرعون مصر في خمس آيات [هود: 96 - 99، 110].

وبعد هذا الاستعراض المعجز لقصص هذا العدد من أنبياء الله ورسله، ولحركة الإيمان والكفر عبر حقبة طويلة من تاريخ البشرية امتدت من لدن نبي الله نوح عليه السلام إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - في زمن لم يكن زمن تدوين، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين يأتي الخطاب من الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله بالتثبيت فيقول - عز من قائل -:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: 100–102].

وتنتقل الآيات بعد ذلك للحديث عن اختلاف اليهود في التوراة من بعد موسى عليه السلام، وإلى تعرضها للتأويل حسب أهواء أحبارهم، مما أدى إلى تحريفها وخروجها عن أصلها الرباني، وعجزها عن هداية أتباعها حتى تفرقوا شيعاً، وانحرفوا عن الحق الذي أنزل على نبيهم، وانتهوا إلى مجموعة من شياطين الإنس الذين يكرهون غيرهم من الخلق، ويخونون معهم كل عهد، ولولا وعد سبق من الله - تعالى - بتأخير عقابهم إلى يوم القيامة لحلّ بهم عذاب الله - تعالى - في الدنيا قبل الآخرة.

ثـم تعـاود الآيـات فـي سـورة «هـود» توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليه - وإلى كل من آمن به فتقول:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: 112–115].

وتختتم سورة «هود» بخطاب من الله - تعالى - إلى سيدنا محمد ﷺ كما بدأت بخطاب على لسانه، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: 120–123].

من ركائز العقيدة في سورة «هود»:

1 - اليقين بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وأنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، ولذلك يتحدى به الله - تعالى - الخلائق أجمعين أن يأتوا بشيء من مثله، ولن يستطيعوا ذلك أبداً.

2 - الإيمان بالله ﷻ رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولاصاحبة، ولا ولد)؛ وتنزيهه - سبحانه - عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله؛ واليقين بأنه - تعالى - عليم بذات الصدور، وأنه هو الرزاق، ذو القوة المتين، وأنه على كل شيء حفيظ، وأن من صفاته - سبحانه - أنه هو الرحيم الودود، العزيز الغفور، وأنه - تعالى - هو المستحق للخضوع لجلاله بالعبادة والطاعة بما أمر، وبالتوكل عليه في كل حال، والإنابة إليه من كل ذنب، والصبر على المكاره طلباً لمرضاته.

3 - التسليم بحتمية البعث بعد الموت، وحتمية الرجوع إلى الله - تعالى - للحساب والجزاء والخلود في الحياة الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، والاستعداد جهد الطاقة لذلك.

4 - التصديق بأن دور كل من الأنبياء والمرسلين هو الإنذار والتبشير، دون إكراه أو إلزام، وأن الحسنات يذهبن السيئات، وأن الله - تعالى - لا يضيع أجر المحسنين، وأن من الإحسان إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وإقامة عدل الله في الأرض، والتواصي بوفاء الكيل والوزن بالقسط، والإصلاح في الأرض، والنهي عن الإفساد فيها.

5 - الإيمان بأن عدل الله المطلق يقتضي أن يوفي الناس أجر أعمالهم الصالحة، في الدنيا، ولا يبخس لهم حقاً أياً كانت عقائدهم، فإن كانت عقائدهم فاسدة فليس لهم في الآخرة جزاء كفرهم إلّا النار، وحبط ما صنعوا في الدنيا، وكان باطلاً بطلاناً كاملاً، وإن كانت عقائدهم صحيحة فأجرهم في الدنيا كامل غير منقوص، وأجرهم في الآخرة أوفى وأكمل.

6 - التصديق بجميع أنبياء الله وملائكته وكتبه ورسله، وبالرسالة الخاتمة التي اكتمل بها الدين، وتمت النعمة، ولذلك تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظها في القرآن الكريم وفي سنّة الرسول الخاتم ﷺ فحفظت في نفس لغة وحيها - اللغة العربية - على مدى

أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد ربنا - تبارك وتعالى - بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم حجة على جميع الخلق إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، وهذا هو الحق من رب العالمين، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187]، ومن يكفر بذلك فالنار موعده خالداً فيها.

7 - اليقين بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة خالدون فيها وأن الذين كفروا بالله أو أشركوا به، أو كذبوا بأنبيائه ورسله وبالقرآن العظيم وبخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، أو كذبوا على الله - تعالى - وحرفوا دينه، أو أنكروا الآخرة وما فيها من بعث وحساب وخلود فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

من الإشارات الكونية في سورة «هود»:

1 - الإشارة إلى إحاطة علم الله - تعالى - بكل شيء وذلك بذكر أنه يرزق كل دابة في الأرض، ويعلم مستقرها (أي مكان وجودها من الأرض واستقرارها فيها، أو موضع قرارها في سلاسل حاملات الوراثة في أصلاب آبائها قبل أن تخلق) ومستودعها (أي ما استودع الله ﷻ فيها من الصفات المميزة لها، أو ما استودع صلب كل واحدة منها من ذريات في شيفرتها الوراثية)، وأن الله - تعالى - أخذ بناصية كل حي (أي يملكه ويقهره)، وأن ذلك كله مدون عنده في كتاب مبين.

2 - التأكيد على خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام (أي ست مراحل) وعلى أن عرش الخالق العظيم كان على الماء، وأن الآخرة حتم لا ريب فيه، وكل ذلك من الغيوب المطلقة التي يحتاج فيها المرء إلى بيان من الله - تعالى -.

3 - وصف جانب من طبائع النفس البشرية التي تصاب بشيء من اليأس والقنوط في حالات الضيق والبأساء، وبشيء من الفرح والفخر والزهو في حالات السعة والنعماء.

4 - ذكر حقيقة تنوع الناس مع توحد أصلهم الذي ينتهي إلى أب واحد وأم واحدة، مما يشير إلى طلاقة القدرة الإلٰهية في إبداع الخلق.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: 118].

5 - الإشارة إلى غيوب السمٰوات والأرض، وإلى أن الأمر كله يرجع إلى الله - تعالى -، والعلوم المكتسبة تؤكد حقيقة تلك الغيوب، وذلك بتأكيدها على محدودية المعروف منها.

6 - تشبيه الموج الذي خاضته سفينة نبي الله نوح عليه السلام بأنه كالجبال [هود: 42]، ووصف انتهاء الطوفان بغيض الماء [هود: 44] وهي من الحقائق العلمية المؤكدة، وذلك باكتشاف السفينة على قمة «جبل الجودي» الذي يزيد ارتفاعه على ثلاثة آلاف متر فوق مستوى سطح البحر، وامتلاء المساحة من رأس هذا الجبل إلى رأس الخليج العربي برسوبيات تجمعت من مياه عذبة غاضت إلى ما تحت هذه الرسوبيات من طبقات عالية المسامية عالية النفاذية.

7 - سرد قصص سبعة من أنبياء الله ورسله، وتحقيق تفاعل أممهم معهم، وتسجيل ما أصاب تلك الأمم من عقاب أو ثواب بدقة بالغة، وفي تغطية رائعة لأغلب تاريخ الإنسان على سطح الأرض، وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي أمة لم تكن أمة علم أو تدوين، بل كانت في غالبيتها أمة وثنية أمية، خاصة وأن ما كان قد بقي بأيدي أهل الكتاب من ذكريات لم تسجل شيئاً عن اثنين من هؤلاء الأنبياء هما نبيا الله هود وصالح عليهما السلام، ولقد أثبتت الكشوف الأثرية صدق ما جاء في القرآن الكريم عن هذه الأمم وعما أصابها من عقاب الله - تعالى - للذين كفروا منهم، وجحدوا ربهم، وكذبوا أنبياءه ورسله، وهذا من أوضح جوانب الإعجاز التاريخي في القرآن الكريم.

8 - الإشارة إلى «قوم ثمود» بأن الله - تعالى - قد أنشأهم من الأرض واستعمرهم فيها.

9 - إثبات تحريف اليهود لتوراة موسى عليه السلام والدراسات العلمية الرصينة تؤكد ذلك وتدعمه.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الثامنة من القائمة السابقة والتي جاءت في الآية الحادية والستين من سورة «هود»، وقبل الوصول إلى ذلك أرى ضرورة المرور السريع بأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: 61].

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «﴿وَ﴾ لقد أرسلنا ﴿إلى ثَمُودَ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم ﴿أَخَاهُمْ

﴿صَـٰلِحًاۚ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده، ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ابتدأ خلقكم منها إذ خلق منها أباكم آدم، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي جعلكم عماراً تعمرونها وتستغلونها....».

● وجاء في (الظلال) - رحم الله كاتبها برحمته الواسعه - ما مختصره: «.... وذكرهم صالح بنشأتهم من الأرض، نشأة جنسهم، ونشأة أفرادهم من غذاء الأرض، أو من عناصرها التي تتألف منها عناصر تكوينهم الجسدي. ومع أنهم من هذه الأرض، ومن عناصرها، فقد استخلفهم الله فيها ليعمروها، استخلفهم بجنسهم واستخلفهم بأشخاصهم بعد الذاهبين من قبلهم. ثم هم بعد ذلك يشركون معه آلهة أخرى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ﴾ واطمأنوا إلى استجابته وقبوله: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾... والإضافة في (ربي) ولفظ (قريب) ولفظ (مجيب) واجتماعها وتجاورها ترسم صورة لحقيقة الألوهية كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة، وتخلع على الجو أنساً واتصالاً ومودة، تنتقل من قلب النبي الصالح إلى قلوب مستمعيه لو كانت لهم قلوب!!».

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

أولاً: الإثبات التاريخي لنبوة صالح عليه السلام:

الخطاب في هذا النص القرآني الكريم موجَّه إلى قبيلة «ثمود» من نبيهم صالح عليه السلام، والآثار الباقية عند أهل الكتاب لا تذكر شيئاً عن هذا النبي الصالح، ولا عن قومه، وهنا تسقط الحجة الكاذبة أن رسول الله ﷺ قد نقل هذا القصص النبوي عنهم، وبالذات عما جاء في الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وهي لا تحوي شيئاً عن اثنين من أنبياء الله هما: هود عليه السلام النبي المبعوث إلى قوم «عاد»، وصالح عليه السلام وقد بعث إلى قوم «ثمود».

والقبيلة سميت باسم جدهم (ثمود) وهو الحفيد الثالث لنبي الله نوح عليه السلام والذي اسمه (ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح). وقبيلة «ثمود» هي قبيلة عربية قديمة، من العرب العاربة التي سكنت الحجر (أو ما يعرف اليوم باسم مدائن صالح) الواقعة في وادي القرى، إلى الشمال الغربي من المدينة المنورة على الطريق القديم بينها وبين مدينة تبوك وبالقرب من مدينة العلا. وكان أبناء هذه القبيلة من الأشداء الذين نحتوا قصورهم في الجبال المحيطة بوادي القرى، وجاؤوا بكتل كبيرة من الصخر إلى بطن الوادي ونحتوها قصوراً.

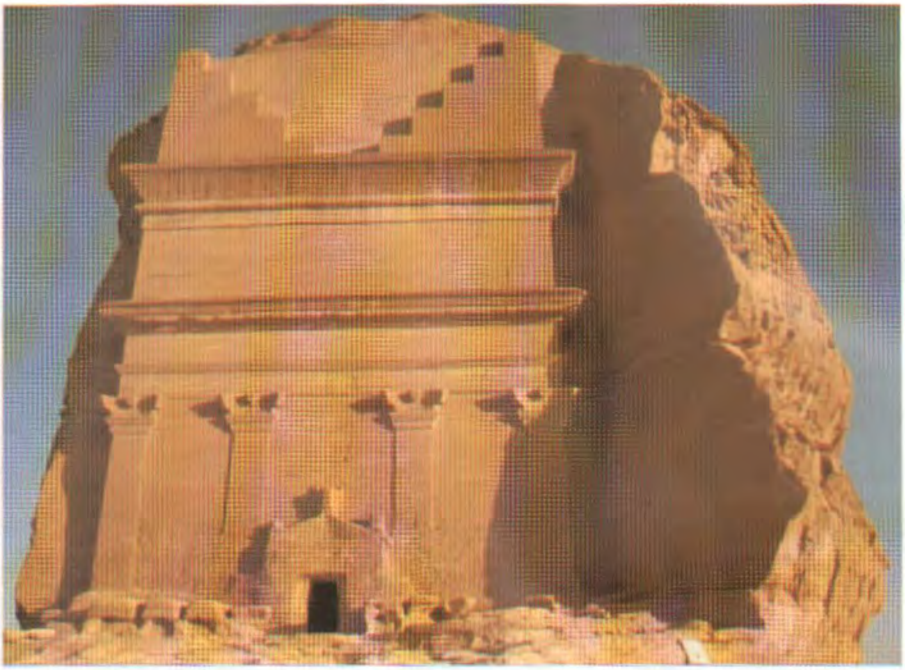

صورة لبعض آثار قوم ثمود الباقية إلى يومنا هذا لتكون عبرة للناظرين

وقد جاء ذكر قبيلة «ثمود» في نقوش تركها الملك الأشوري «سارجون» **(Sargon)** يرجع تاريخها إلى سنة 715 قبل الميلاد، وكان «سارجون» قد أخضع تلك القبيلة لنفوذه في فترة من الفترات.

والقرآن الكريم كثيراً ما يقرن بين ذكر عاد وثمود (كما جاء في كل من سور التوبة، إبراهيم، الفرقان، صّ، قّ، النجم، والفجر) ربما لتقاربهما الزمني، أو لكون ثمود ممن نجوا من إهلاك قوم «عاد» حتى ليطلق عليهم أحياناً اسم «عاد الثانية». وبقايا كتب أهل الكتاب لا تذكر شيئاً عن هاتين الأمتين، وإن أثبت القرآن الكريم معرفة موسى عليه السلام بهما كما جاء في سورة إبراهيم [8 و9].

وقبيلة «ثمود» في مرحلة من مراحل انحرافهم عن منهج الله - تعالى - عبدوا الأصنام فبعث الله - تعالى - إليهم نبياً منهم هو صالح عليه السلام، الذي اصطفاه الله تعالى من بينهم فاشتهر عندهم برجاحة العقل، واستقامة الفكر، وطهارة السلوك.

وهذا النبي الصالح كان الحفيد الرابع لمؤسس قبيلة «ثمود». وعندما آتاه الله - تعالى - النبوة، وبدأ في الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده، وإلى نبذ عبادة الأصنام والأوثان،

وإلى التطهر من دنس الشرك إلى شرف التوحيد، وإلى حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها بعد أن كان الظلم والانحراف والإفساد في الأرض قد شاع بين أبناء قبيلته. ولكن قومه عارضوه، وسخروا من دعوته، واتهموه بالسحر، وحاربوه وحاولوا قتله ولكنهم لم يفلحوا في ذلك، ثم طالبوه بالمعجزات والخوارق التي تشهد على صدق ما جاءهم به، وكان من بين ذلك أن طالبوه - من قبيل التعجيز - أن يخرج لهم من صخرة منعزلة عن الجبل ناقة بمواصفات خاصة وضعوها، فأخذ عليهم نبيهم العهود والمواثيق إن جاءهم بما طلبوا أن يؤمنوا بما جاءهم به، وعند استجابتهم لذلك شرع في الصلاة والدعاء لله - تعالى - حتى تمخضت الصخرة عن ناقة بالمواصفات التي طلبوها، ثم وضعت هذه الناقة فصيلاً يشبهها ضخامة وهيبة فآمن من آمن، وكفر من كفر، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40].

وقال لهم نبيهم: هذه ناقة الله لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، ولكن الكفار لم يصبروا على ذلك فعقروا الناقة بواسطة تسعة رهط من المفسدين، فأنذرهم نبيهم بعذاب عاجل من الله - تعالى - قائلاً لهم: لكل أمة أجل فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام ثم يأتيكم العذاب بعد ذلك. وفي ضحى اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم وهم في ديارهم جاثمين، ونجَّى الله ﷻ نبيه صالحاً والذين آمنوا معه فلجأوا أولاً إلى بلاد الشام ثم إلى مكة المكرمة حيث عبدوا الله - تعالى - حتى أتاهم اليقين. وكان من نسل الناجين كل من «الأنباط» في الشمال وقبيلة «ثقيف» التي سكنت جبال الطائف.

وكان في تسجيل القرآن الكريم لنبوة صالح عليه السلام ولقصته مع قومه شهادة صدق على ربانية القرآن الكريم وعلى نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - لأن أياً من آثار أهل الكتاب لم يشر إلى هذا النبي ولا إلى قومه، كما لم يشر إلى أسلافهم عاد الأولى ونبيهم هود عليه السلام.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ...﴾.

هذا الخطاب من نبي الله صالح عليه السلام إلى قومه من قبيلة «ثمود» يمنّ عليهم فيه أن الله - تعالى - قد أنشأهم من الأرض أي من عناصرها المختلفة، وهذه الحقيقة تنطبق على كونهم من نسل آدم عليه السلام، وكانوا جميعاً في صلبه لحظة خلقه، وقد خلقه الله ﷻ من تراب الأرض. كما تنطبق على كون أجسادهم - مثل أجساد كل المخلوقات - قد نمت أصلاً من عناصر الأرض كما سبق وأن وضحنا.

ولما كان الإنسان قد خلق أصلاً من تراب الأرض، ويحيا على خلاصة من عناصر الأرض تجهزها له النباتات في ثمارها وحبوبها، أو المباحات من الحيوانات ومنتجاتها التي تستمد أجسادها من عناصر الأرض عن طريق ما تأكله من نباتات أو ما تستخلصه من مياه البحار والمحيطات والأنهار والبحيرات، قال ربنا - وقوله الحق - ممتنًّا على العصاة المتجبرين من قوم «ثمود»: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾... بمعنى كيف تعصون الله - تعالى - ورسوله، وترفضون هدايته وقد خلقكم ونماكم من تراب الأرض؟! وهو سؤال تقريري تقريعي توبيخي يدرك كل إنسان حقيقة الإجابة عليه!!.

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿... وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ...﴾:

والخطاب هنا موجَّه إلى كفار ومشركي قوم ثمود، ويمتنُّ الله - تعالى - عليهم فيه بأن نجَّاهم من العذاب الذي أهلك به كفار ومشركي أسلافهم من قوم «عاد»، ومكَّنهم من الهجرة شمالاً إلى أرض منطقة الحجر بوادي القرى، وأعانهم على إعمارها بما هيأ لهم فيها من وفرة في الماء، وجودة في التربة، وتباين في التضاريس، وحماية طبيعية بإحاطة الجبال بهذا الوادي الحصين، وبما وهب صخور تلك الجبال الرملية من مسامية ونفاذية عاليتين لخزن الماء تحت سطح الأرض، وطراوة متوسطة مكنتهم من نحت بيوتهم فيها،

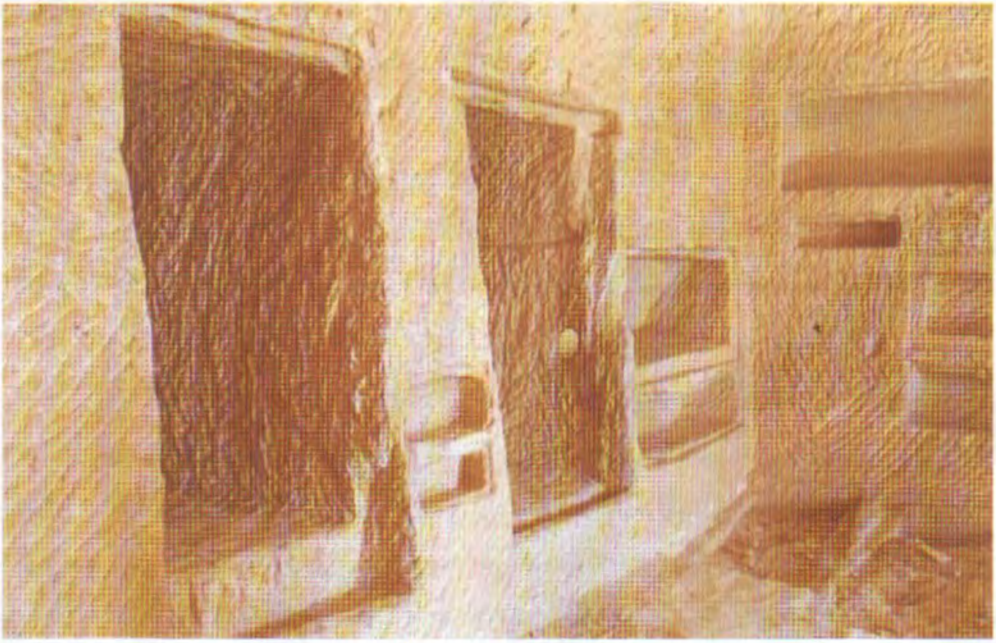

صورة لبعض بيوت قوم ثمود وقد نُحتت في الجبال.

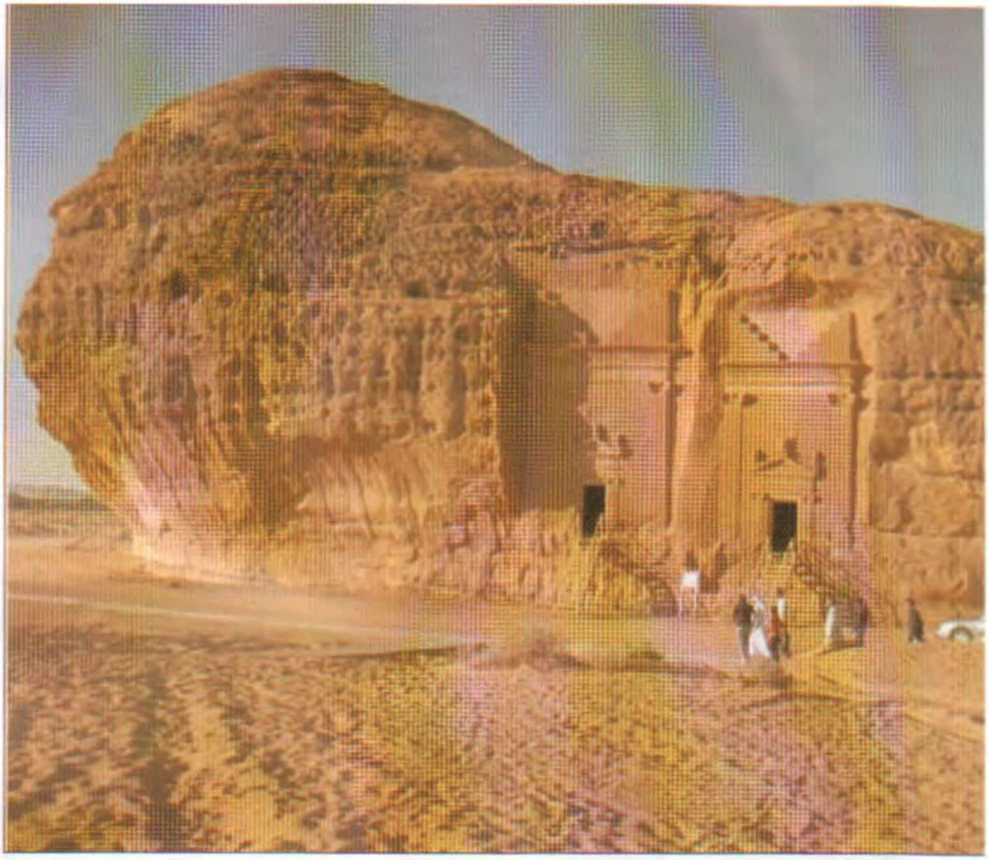

بقايا مدائن صالح عليه السلام، الواقعة إلى الشمال الغربي من المدينة المنورة على الطريق القديم بين المدينة وتبوك.

وفواصل طبيعية مكنت عوامل التعرية من تحريك كتل كبيرة من تلك الصخور إلى بطن الوادي لنحتها قصوراً فارهة، ويذكرهم الله - تعالى - بتلك النعم فيقول في غير سورة «هود»:

1 - ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

[الأعراف: 74].

2 - ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

[الحجر: 80-84].

3 - ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
(١٤٣) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِى
مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ
ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ
يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٥٩)﴾ [الشعراء: 141-159].

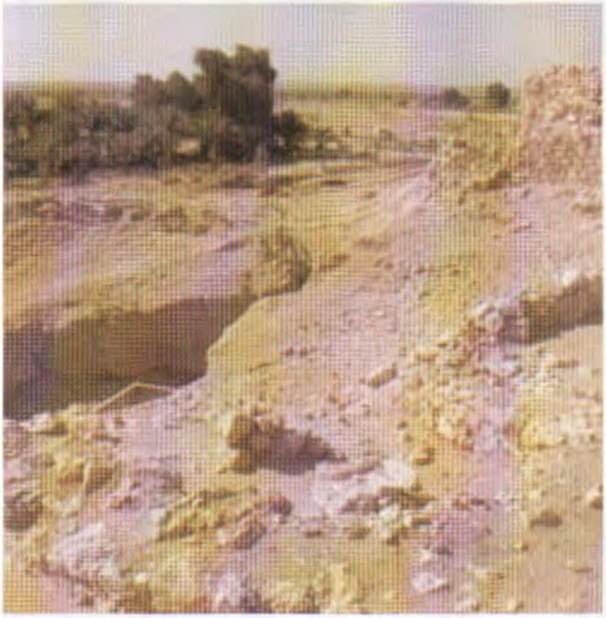

صورة للآثار المكتشفة للمدينة الضائعة «إرم» ذات العماد - قوم هود.

وهذه النصوص القرآنية الكريمة، مفردة ومجتمعة، ومعها النص الذي جاء في الآية رقم (61) من سورة هود تكفي للشهادة بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد بهذا الحفظ المطلق، حتى يبقى هذا الكتاب العزيز شاهداً على الناس أجمعين إلى يوم الدين بأن الله - تبارك وتعالى - حق، وبأن القرآن حق، وبأن سيدنا محمداً ﷺ حق، وأن الآخرة حق، وهذا ما نتمنى إيصاله إلى الناس جميعاً في زمن الضياع والفتن الذي يعيشه أهل الأرض أجمعون نتيجة لبعدهم عن هذا الدين الحق ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[يوسف: 21].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

5 - ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾

[نوح: 17-18]

هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في نهاية الثلث الثاني من «سورة نوح»، وهي سورة مكية وآياتها ثمان وعشرون (28) بعد البسملة وقد سميت باسم نبي الله نوح عليه السلام لأن المحور الرئيس للسورة يدور حول قصته مع قومه والدروس المستفادة منها.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، شأنها في ذلك شأن كل السور المكية. وقد سبق لنا استعراض هذه السورة المباركة، وما جاء منها من ركائز العقيدة، وأسس العبادة، والإشارات الكونية في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم «20». ولذلك سوف نركز هنا على الدلالة العلمية للنص القرآني، وقبل الوصول إلى ذلك أرى ضرورة استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح قضية الآيتين المتعلقة بإنبات الخلق من الأرض نباتاً، ثم إعادتهم فيها ومن بعده إخراجهم منها إخراجاً.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: 17-18].

● ذكر ابن كثير - يرحمه الله - ما مختصره: «﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ هذا اسم مصدر والإتيان به ها هنا أحسن، ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي إذا متم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة...».

● وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما مختصره: «... ثم عاد نوح فوجّه قومه إلى النظر في نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقدر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث... والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موحٍ وهو يُكرَّر في القرآن بصور شتى... وهو يشير في هذا إلى نشأة الإنسان كنشأة النبات... وهي ظاهرة تستدعي النظر، ولا ريب فهي توحي بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات، من عناصرها الأولية يتكون، ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو، فهو نبات من نباتها وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة وكلاهما من نتاج الأرض... والناس الذين نبتوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى ويعيدهم الله إليها كما أنبتهم منها فتختلط رفاتهم بتربتها وتندمج ذراتهم بذراتها كما كانوا فيها من قبل أن ينبتوا منها!! ثم يخرجهم الذي أخرجهم أول مرة وينبتهم كما أنبتهم أول مرة...».

● وذكر صاحب صفوة التفاسير - جزاه الله خيراً - ما مختصره: «... والمعنى خلقكم وأنشأكم من الأرض كما يخرج النبات وسلّكم من تراب الأرض كما يسلّ النبات منها، قال المفسرون: لما كان إخراجهم وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض كانوا من هذه الجهة مشابهين للنباتات التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض فلذا سمى خلقهم وإنشاءهم إنباتاً، أو يكون ذلك إشارة إلى خلق آدم حيث خلق من تراب الأرض ثم جاءت منه ذريته، فصح نسبتهم إلى أنهم أنبتوا من الأرض ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي: يرجعكم إلى الأرض بعد موتكم فتدفنون فيها ثم يخرجكم منها يوم البعث والحشر للحساب والجزاء، وأكده بالمصدر (إخراجاً) لبيان أن ذلك واقع لا محالة...».

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين:

يشبّه القرآن الكريم عملية خلق الإنسان بإنبات الأرض، ويشبّه عملية بعثه منها بإعادة الإنبات دفعة واحدة، لأن الخلق جميعاً سوف يبعثون في لحظة واحدة بمجرد النفخة الثانية في الصور.

ولخّص القرآن الكريم مراحل خلق الإنسان كلها بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: 17-18]. وهو قول معجز

لأن أحداً من البشر لم تكن له دراية بذلك في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده كما يفسره في النقاط التالية:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾:

الخطاب في هذه الآية الكريمة موجَّه إلى البشر جميعاً الذين كانوا في صلب أبيهم آدم عليه السلام لحظة خلقه من تراب الأرض، والذين تناسلوا من بعده من هذا التراب الأصلي وتنمو أجسادهم من عناصر الأرض بطريقة غير مباشرة، وذلك بالاغتذاء على المنتجات النباتية، والنباتات أعطاها الله - تعالى - القدرة على تصنيع غذائها بنفسها عبر امتصاص عدد من عناصر الأرض المذابة في الماء على هيئة العصارة الغذائية، وامتصاص ثاني أكسيد الكربون من الجو، ثم تحليل تلك المكونات إلى لبناتها الأولية مع إطلاق غاز الأوكسجين إلى الجو وإعادة تركيب ذرات الكربون والهيدروجين في سلاسل من الكربوهيدرات والزيوت والدهون التي يتغذى عليها كل من الإنسان والحيوان وذلك باستخدام طاقة الشمس.

ويتغذَّى الإنسان أيضاً على المباحات من الحيوانات ومنتجاتها والتي تزوده أساساً بالمواد البروتينية والدهنية اللازمة لبناء خلايا جسده وإحلال ما يفنى منها أو إصلاح ما يتلف. والحيوان يحصل على تلك المواد من عناصر الأرض عبر تغذيته على المنتجات النباتية.

تنمو الأشجار والنباتات بامتصاص كل من الماء من التربة وثاني أوكسيد الكربون من الجو عبر مسام أوراقها وتطلق غاز الأوكسجين وهكذا ينبت الله الإنسان من الأرض.

بناء سلاسل الطعام من عناصر الأرض:

أعطى الله - تعالى - النبات القدرة على امتصاص كل من الماء وما يناسبه من عناصر الأرض الذائبة في الماء (العصارة الغذائية) والتي يمتصها النبات من تربة الأرض بواسطة مجموعه الجذري، وتنتقل العصارة الغذائية بما تحمله من ماء وعناصر الأرض المذابة

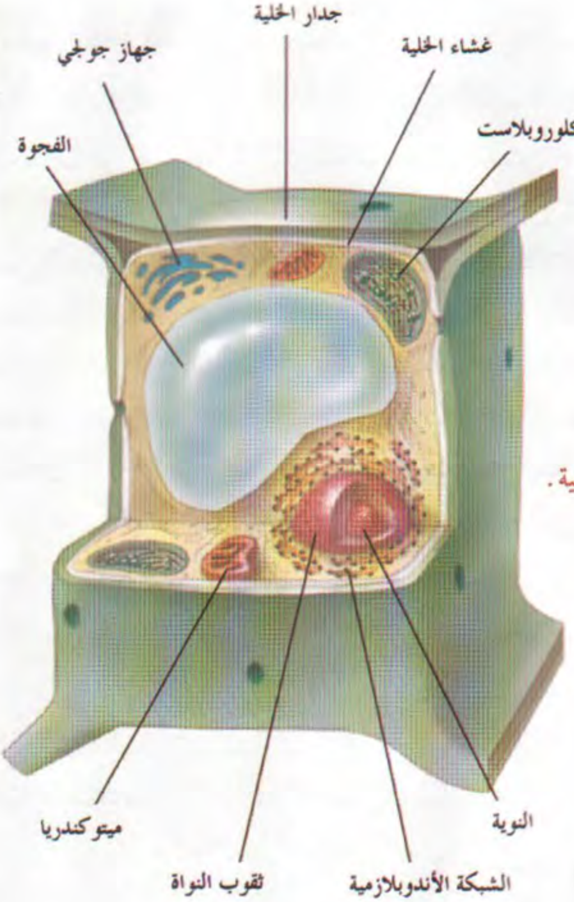

رسم تخطيطي لتركيب الخلية النباتية الحية.

إلى داخل النبتة الخضراء عبر خلايا الأوعية الخشبية التي تمتد متصلة من الجذور إلى كل ورقة من أوراق النبات حتى قمته.

وتحتوي أوراق النباتات على عدد من الأصباغ أهمها الصبغ الأخضر المعروف باسم اليخضور أو (الكلوروفيل) الذي أعطاه الله - تعالى - القدرة على امتصاص أطياف ضوء الشمس فيما عدا الطيف الأخضر الذي يعكسه، واستخدام تلك الأطياف في إتمام عملية التمثيل (التخليق) الضوئي.

ومن النباتات ما يستخدم أصباغاً أخرى بالإضافة إلى اليخضور ولذلك تبدو أوراقها بالألوان الحمراء الأرجوانية أو النحاسية أو البنية.

وينتشر على أسطح أوراق النباتات (خاصة على السطح السفلي منها) أعداد من المسام الدقيقة (الثغيرات) التي يتم عبرها دخول وخروج الغازات المختلفة من مثل ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين وبخار الماء.

وتقوم الأصباغ النباتية من اليخضور وغيره باحتباس جزء من طاقة الشمس لاستخدامه في إتمام سلسلة من التفاعلات الكيميائية التي يتم من خلالها تفكيك جزيئات الماء إلى مكوناتها الأساسية من الأوكسجين - الذي يطلقه النبات إلى الجو عبر ثغور أوراقه - والهيدروجين الذي يحتفظ به النبات، ثم يربطه مع جزيئات ثاني أكسيد الكربون التي يمتصها النبات من الجو عبر ثغوره أيضاً، وذلك لتكوين جزيء سكر الجلوكوز ويطلق الأوكسجين.

ويستهلك النبات قسماً من سكر الجلوكوز الناتج في القيام بأنشطة خلاياه المختلفة ويحول الباقي إلى أنواع أخرى من السكريات وغيرها من الكربوهيدرات من مثل النشا والسيلولوز التي يبني بها خلاياه المختلفة أو يخزنها في ثماره أو حبوبه أو أوراقه أو سوقه أو جذوره كي يأكلها كل من الإنسان والحيوان.

وقد أعطى الله ﷻ كل نبتة من النبات القدرة على اختيار ما يناسبها من عناصر الأرض المختلفة وعلى إفراز ما يذيب تلك العناصر إن لم تكن قابلة للذوبان في الماء بطريقة مباشرة، وعلى امتصاص هذه العصارة الغذائية الخاصة بواسطة مجموعها الجذري وضخها إلى مختلف أوراق النبات بواسطة كل من الضغط الجذري وعمليات النتح والضغوط التناضحية (الأسموزية) الناتجة عن التباين في تركيز المحاليل المختلفة في داخل مختلف أوعية النبات.

والماء الذي يتحرك مع العصارة الغذائية من جذور النبتة إلى سوقها وأغصانها وأوراقها وزهورها وثمارها إلى أعلى قمة فيها يتبخر جزء منه إلى الهواء بواسطة عملية النتح. وتفقد كل واحدة من الأشجار الكبيرة قرابة الألف لتر من الماء يومياً عبر ثغور أوراقها بواسطة عملية النتح التي تعمل كقوة سحب للعصارة الغذائية حتى أعلى قمة في الشجرة.

وبعد إنضاج العصارة الغذائية إلى مختلف أنواع الكربوهيدرات والزيوت والدهون في أوراق النبات يعاد ضخ هذه المنتجات الناضجة إلى مختلف أجزاء النبات من القمة إلى

صورة لقوس قزح توضح أطياف الجزء المرئي من ضوء الشمس، والكلوروفيل يمتصها جميعاً فيما عدا الطيف الأخضر.

الجذور خاصة إلى البراعم والثمار عبر نظام من الأوعية الأنبوبية المختلفة التي تؤلفها خلايا اللحاء الداخلي في اتجاه معاكس لاتجاه صعود العصارة الغذائية.

وفي بعض النباتات اللاطئة بالأرض لقصر سيقانها تفوق معدلات ضخ الماء والعصارة الغذائية من أسفل إلى أعلى معدلات فقد الماء بالبخر عبر ثغور أوراق النبات بواسطة عملية النتح، فتتكون قطرات من الماء حول أطراف الورقة في ظاهرة تعرف باسم ظاهرة الإدماع (أو النضح) النباتي يفقد بواسطتها النبات قدراً من الماء الزائد عن حاجته.

والهدف من هذه العمليات كلها هو تحويل جزء من عناصر الأرض الجامدة إلى غذاء

مناسب للنبات ينمو به بمختلف خلاياه ويختزن الباقي في ثماره وحبوبه على هيئة مخزون من الكربوهيدرات والزيوت والدهون تتغذى عليها أجنته حتى تظهر أوراقها بعد إنباتها أو يتغذى عليها كل من الإنسان والحيوان.

وكل كائن حي يحتاج إلى الغذاء الذي يحيا عليه وتنمو وتتجدد به خلايا جسده كلها، والغذاء مستخلص من المواد الأولية المستمدة أصلاً من عناصر الأرض، وذلك لأن كلاً من الإنسان والحيوان يعتمد في تغذيته أصلاً على النبات الذي أعطاه الله - تعالى - القدرة على تحويل عناصر الأرض إلى غذاء مقبول لكل حي، ولولا ذلك ما استقامت الحياة على سطح هذا الكوكب. والإنسان الذي يحيا على الأطعمة العضوية التي ركبها له النبات من عناصر الأرض وعلى منتجات الحيوان المباح له أكله، والحيوانات المباحة تأكل من نبات الأرض. وصيد البحر يأكل من أعشاب البحر أو يأكل بعضه بعضاً، وكل ذلك مستمد من عناصر الأرض المذابة في مياه البحار والمحيطات أو الأنهار والبحيرات ومن كل من النباتات وثمارها ومحاصيلها، والحيوانات المباحة ومنتجاتها توفر للإنسان كل ما يحتاج إليه جسمه من الكربوهيدرات والبروتينات والزيوت والدهون والفيتامينات المختلفة وغيرها من المركبات العضوية، وكلها مستمد أصلاً من عناصر الأرض، ومن هنا كان في قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: 17].

سبقاً علمياً حقيقياً لأن هذه المعلومات لم تكن معروفة لأحد من الخلق في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده.

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: 18].

(الموت) من أوضح حقائق الوجود وقد ذكره القرآن الكريم (165) مرة، منها ما يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى -:

1 - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ﴾ [آل عمران: 185].

2 - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 57].

3 - ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42].

ولذلك جاء التوكيد القرآني على تلكم الحقيقة التي لا يمكن لعاقل إنكارها، ألا وهي حتمية الموت والعودة إلى الأرض التي منها نبت، وفي ذلك يقول ربنا – عز من قائل –: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾.

أما حقيقة البعث التي عبَّر عنها القرآن الكريم بقول الله – تعالى –: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ فقد شك فيها كثير من الكفار والملاحدة والمتشككين الضالين الذين يصف القرآن الكريم تشككهم فيقول على لسانهم:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: 16].

وفي الرد على ذلك يشَبِّه القرآن الكريم خلق الإنسان ونموّه بإنبات النبات من الأرض، وشبَّه بعثه بعد موته بإعادة إنبات النبات من بذوره. ويفسر ذلك بقوله الشريف: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**»[1]. والحديث سبقت لنا مناقشته في الصفحات السابقة، ونكتفي هنا بالتأكيد على ما روي عن المصطفى ﷺ من أنه قال في عدد من الأحاديث الشريفة: إن جسد الإنسان يبلى كله فيما عدا (عجب الذنب) فإذا أراد الله تعالى بعث خلقه أنزل مطراً خاصاً من السماء فينبت كل مخلوق من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها. لذلك قال ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾

[نوح: 17–18].

وعلى غير علم بهاتين الآيتين الكريمتين يسمي علماء الأجنة عملية انغراس النطفة الأمشاج المنقسمة والتي تعرف باسم الأرومة المتكيسة في جدار الرحم باسم: **عملية الاستنبات أو الاستزراع (Implantation)**؛ وهذه الحقائق التي لم تكتشف إلا بعد الثلث الأول من القرن العشرين تشهد بأن القرآن الكريم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه – اللغة العربية – على مدى أكثر من أربعة عشر قرناً وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم حجة على جميع

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن، باب: ما بين النفختين (الحديث: 7342).

الخلق وإلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها وشاهداً للرسول الخاتم بالنبوة وبالرسالة وبما وصفه به رب العالمين فقال فيه:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ (٣) إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ (٥)﴾

[النجم: 3-5] .

فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

6 - ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ...﴾

[النمل: 64]

هذا النص القرآني الكريم جاء في بداية الثلث الأخير من «سورة النمل»، وهي سورة مكية، وآياتها ثلاث وتسعون (93) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى وادي النمل الذي مر به نبي الله سليمان عليه السلام وجنوده، فنطقت نملة بلغتها الخاصة آمرة بقية أفراد مستعمرتها من النمل بالدخول إلى مساكنهم ومحذِّرة إياهم من إمكانية أن يطأهم سليمان وجنوده بأقدامهم أو بحوافر خيلهم فيحطمونهم وهم لا يشعرون. وفي هذه الواقعة من الدلالات القاطعة على تملك النمل - كغيره من مخلوقات الله - لقدر من الوعي والإدراك، وقدرة على الفهم والتخاطب، والعلوم المكتسبة قد بدأت بالفعل في التوصل إلى إثبات شيء من ذلك.

وسورة النمل - كغيرها من العديد من سور القرآن الكريم من مثل سورة الشعراء السابقة عليها في المصحف الشريف، وسورة القصص اللاحقة بها - تستعرض قصص عدد من الأمم الهالكة لاستخلاص العبرة، والاستفادة بالتجربة، وتعلم الدروس، ومقارنة مواقف أبناء تلك الأمم البائدة بمواقف أمثالهم في مواجهة الرسالة الخاتمة في زمن الوحي وإلى زماننا الراهن حتى يوم الدين.

ويدور المحور الرئيس لسورة النمل حول قضية العقيدة الإسلامية، شأنها في ذلك شأن القرآن المكي كله.

وتبدأ سورة النمل بالحرفين المقطعين (طسّ) وهما من الفواتح

الهجائية التي بدأت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم، وقد سبق الحديث عنها في أكثر من مقال. وبعد هذا الاستهلال تستمر الآيات في امتداح القرآن الكريم ووصف رسالته، وامتداح النبي الخاتم الذي تلقاه ﷺ، وفي مدح المؤمنين به، والتمييز بينهم وبين غير المؤمنين إلى يوم الدين فتقول:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: 1-6].

ثم استعرضت السورة الكريمة لمحات من قصص عدد من الأنبياء، مؤكِّدة وحدة رسالة السماء التي تكاملت كلها في الرسالة الخاتمة التي بعث بها الرسول الخاتم ﷺ، ومن ذلك لمحة خاطفة من قصة نبي الله موسى - على نبينا وعليه من الله السلام - في الآيات من (7) إلى (14) حين ناجاه ربه ﷻ في البقعة المباركة من أرض سيناء، وكلفه بإبلاغ رسالته إلى فرعون وقومه، وأعطاه تسع آيات تشهد له بالنبوة وبالرسالة، ثم كيف كذب بها فرعون وملؤه، واعتبروها ضرباً من السحر - على الرغم من تيقنهم صدقها - وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤﴾ [النمل:13،14].

ثم جاءت الآيات على ذكر طرف من قصة نبي الله داود وولده النبي الملك سليمان - على نبينا وعليهما من الله السلام - وذلك في الآيات (15) إلى (44) والتي جاء في مطلعها قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٦﴾ [النمل:15،16].

وبعد ذلك انتقلت سورة النمل في الآيات من (45) إلى (53) إلى استعراض جانب

من قصة نبي الله صالح عليه السلام، وكان قومه من قبيلة ثمود في غالبيتهم من المفسدين في الأرض فدعاهم إلى الاستقامة على منهج الله، وإلى عبادته تعالى وحده ولكن كفار قومه عارضوه، ورفضوا دعوته، وسخروا منه، ومكروا به، وتآمروا عليه، على الرغم مما أيده الله - تعالى - به من معجزات شهدت بصدق نبوته، ولذلك دمرهم رب العالمين، ونجّى نبيه صالحاً والذين آمنوا معه، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

[النمل:50-53].

ثم عرجت هذه السورة المباركة إلى طرف من قصة نبي الله لوط عليه السلام في الآيات (54) إلى (58) ووصفت صدود الكافرين الشواذ المفسدين في الأرض من قومه عن دعوته، وتآمرهم عليه من أجل إخراجه ومن آمن معه من قراهم النجسة بدعوى أنهم أناس يتطهرون، فأنزل الله العزيز الحكيم عقابه الصارم بهم ونجّى نبيه لوطاً والذين آمنوا معه وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

[النمل:54-58].

وتتوجّه الآيات بعد ذلك بالخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الذي فحواه:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: 59].

وبعد ذلك مباشرة استعرضت الآيات من (60) إلى (65) عدداً من حقائق الكون لتدلل بها على وحدانية الله تعالى وكررت بعد كل آية من هذه الآيات هذا الاستفسار التقريري، التقريعي، التوبيخي لكل مشرك في الوجود من زمن الوحي إلى قيام الساعة

يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، ويأتي الجواب في كل مرة صادعاً، صادقاً، قوياً مؤثراً بقول الحق ﷻ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي يميلون عمداً عن الحق الواضح البيِّن، وهو التوحيد الخالص لله، أو يصفهم بالجهل الفاضح كما في قوله - عز من قائل -: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أو بعدم الاعتبار بما حدث للأمم من قبلهم كما قال لهم ﷻ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، أو دحضاً لافتراءاتهم فيقول - عز سلطانه -: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أو استنكاراً لفقدانهم الدليل في كل ما يدَّعونه من باطل فيقول لرسول الله ﷺ أن يطلب منهم الدليل بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وتعاود الآيات في سورة النمل إلى انتقاد موقف المنكرين للآخرة، والمتشككين في إمكان البعث، وتصفهم بالعمى لأنهم لا يرون الحق الأبلج الظاهر أمام أعينهم، وتطالب خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - بتذكيرهم بعواقب المكذبين من الأمم السابقة فتقول:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: 65-69].

وتواسي الآيات رسول الله ﷺ آمرة إياه بالتوكل على الله، ومؤكدة له أنه على الحق المبين، ومصبِّرة إياه في مواجهة المنكرين، مؤكدة له أنهم قد حرفوا دينهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، وأن على الذين يبحثون عن الحق منهم - إن بقي بينهم طالب حق - أن يرجعوا إلى القرآن الكريم ليعلموا هذا، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾

وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ
يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾
إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن
ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: 70-81].

وتصف الآيات في سورة النمل بعد ذلك عدداً من أحداث الآخرة، مؤكِّدة جحود أغلب الناس بآيات الله المقروءة في القرآن الكريم، والمخبوءة في ذوات أنفسهم، والمنظورة في الآفاق الرحبة من حولهم، وفي ذلك تقول:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا
يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ
عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل: 82-85].

وتنتقل الآيات إلى عرض عدد آخر من آيات الله في الكون وتعاود التذكير بيوم البعث وأهواله، وبعدد من الأحداث المصاحبة له، وتصف تمايز الناس في هذا اليوم العصيب إلى آمنين مطمئنين، وفزعين هالكين، وتحدد جزاء كل منهم فتقول:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ
دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ
شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ
ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: 87-90].

وتختتم سورة النمل بآيات على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وبتأكيد من الله تعالى على أن كنوز المعرفة الكونية في القرآن الكريم سوف تكتشف بعد زمن الوحي، مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، حتى يشهد كل عاقل في

هذا الوجود بصدق الوحي بالقرآن الكريم، مؤكداً مراقبة رب العالمين لعباده وفي ذلك تقول:

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: 91-93].

من ركائز العقيدة في سورة «النمل»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، ولا حاجة به إلى الصاحبة أو الولد، لأنه رب هذا الكون ومليكه، وصاحب الحول والطَول والقوة المطلقة فيه، ولا حول ولا طَول ولا قوة إلا به ﷻ، ولأنه هو الخلاق، الرزاق، الفتاح، العليم، الغفور الرحيم، العزيز الحكيم، رب العرش العظيم، واهب النعم ومجري الخيرات. لذلك كان توحيد الله - تعالى - هو الركيزة الأساسية لكل رسالة سماوية، والقاعدة الكبرى لكل دين صحيح.

2 - اليقين بأن الله - تعالى - منزَّه عن جميع صفات خلقه: في ذاته، وصفاته، وأسمائه، فلا يجوز دعاؤه بغير ما سمى به ذاته العلية، ولا يجوز وصفه إلا بما نعت به تلك الذات العلية، ولا يجوز إطلاق صفاته المطلقة على شيء من خلقه لأن الخالق مغاير للمخلوقين مغايرة تامة، ولا يجوز حده بمكان أو زمان لأنه - تعالى - خالق كل من المكان والزمان، ولا يجوز تجسيده في شكل مادة أو طاقة لأنه هو مبدعهما، والمخلوق لا يحد خالقه أبداً، ومن هنا كان ادعاء الشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة أو الولد من أبشع صور الكفر بالله ﷻ، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والخالق ﷻ منزَّه عن جميع صفات خلقه.

3 - الإيمان بوحي السماء، وبالأخوة بين الأنبياء، وبوحدة الرسالة السماوية التي أنزلت على ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، ثم جمعها الله ﷻ وأتمها وأكملها وحفظها في الرسالة الخاتمة التي بعث بها الرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ.

4 - التصديق بحقيقة الآخرة وبحتميتها وضرورتها، وبالعلامات التي أوردها الله - تعالى - عنها في القرآن الكريم والتي وصف رسول الله ﷺ لنا في أحاديثه الشريفة جانباً منها، والتي أوردت سورة النمل شيئاً من أحداثها.

5 - التسليم بالغيوب المطلقة التي جاء ذكرها في كتاب الله أو في سنة خاتم أنبيائه ورسله، لأن مثل هذه الغيوب لا يمكن الوصول إليها بواسطة الإنسان مهما كانت قدراته، ومهما تطورت أدواته وتقنياته.

6 - اليقين بأن القرآن الكريم هو كلام الله الحكيم العليم الموحى به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، والمحفوظ بين دفتي المصحف الشريف بنفس اللغة التي أوحى بها - اللغة العربية -، وهو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظ بين أيدي الناس اليوم بنفس لغة وحيه دون أدنى زيادة أو نقصان، وعلى ذلك فهو ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويقص على أهل الكتاب ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وإنه ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

7 - التصديق بجميع ما جاء في القرآن الكريم من قصص الأولين، وبالمعجزات التي أجراها الله - تعالى - على أيدي أنبيائه تأييداً لهم وتأكيداً على صدق رسالاتهم.

8 - التسليم بأن الله - جلت قدرته - هو خالق السمٰوات والأرض، ومنزل الماء من السماء، وهو الذي ينبت نبات الأرض وأشجارها بعلمه وحكمته وقدرته، وهو الذي ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾

[النمل: 61].

9 - الإيمان بأن الله ﷻ هو الذي ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ ويجعل الناس خلفاء الأرض، وأنه - تعالى - يهدي خلقه ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ و﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، وأنه ﷻ هو الذي ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهو الذي يرزق عباده من السماء والأرض، ويعلم وحده الغيب وهو - سبحانه - صاحب الفضل والمِنَّة على خلقه أجمعين، ويعلم ما تُكنّ صدورهم وما يعلنون، ويقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم، ولذا فهو المستحق للحمد والشكر والتوكل عليه.

10 - اليقين بأن الله - تعالى - يوم خلق السمٰوات والأرض حرّم مكة المكرمة،

وجعل حرمها حرماً آمناً إلى يوم القيامة، وأنه ﷻ هو رب السمٰوات والأرض ومن فيهن، وهو قيوم السمٰوات والأرض ومن فيهن فله كل شيء بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد، ومن هنا كانت ضرورة الخضوع لجلاله بالعبادة والطاعة.

11 - التصديق بأن الله - تعالى - سوف يُري خلقه عظيم آياته التي أنزلها في محكم كتابه، والتي أبرأها في الأنفس والآفاق وذلك باتساع دوائر المعرفة الإنسانية حتى يشهد كل ذي بصيرة أن القرآن الكريم هو كلام الله الحق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - وحفظه في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبذلك يبقى شاهداً على الخلق أجمعين إلى يوم الدين، وحجة الله البالغة بعد انقطاع الوحي وختم نبوة الأنبياء ورسالات المرسلين.

من التشريعات الإسلامية في سورة «النمل»:

1 - الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وبتحريم السجود لغير الله.

2 - تحريم كل صور الخروج على فطرة الله - تعالى - تحريماً قاطعاً، وفي مقدمتها مختلف صور الشذوذ الجنسي الذي ابتدعه المنحرفون من قوم لوط وانتشر في عالم اليوم انتشار النار في الهشيم إلى الحد الذي دفع العديد من الحكومات الغربية إلى التشريع له وبه في دساتيرها وقوانينها التي وصل بها الانحطاط إلى حد التشريع بزواج الأمثال من الشواذ، والسماح لهم بالتبني والتوارث مما أصبح يهدد مؤسسة الأسرة بالزوال في مجتمعاتهم، ويهدد الجنس البشري كله بالفناء.

3 - النهي عن الظلم لأنه من أخطر صور الإفساد في الأرض، ولأن الله - تعالى - قد حرمه على ذاته العلية وجعله على عباده محرماً، وأنذر بأن عواقبه وخيمة.

4 - الأمر بالحرص على صحبة الصالحين، وعلى مداومة الشكر لرب العالمين، وعلى استغفاره وطلب رحمته، وعلى جميل التوكل عليه طلباً لعونه.

5 - الحثّ على مداومة تلاوة القرآن الكريم، وعلى تدبُّر معاني آياته، والحرص على إلزام النفس بهدايته لأنه هو الكتاب المبين الذي أنزله الله - تعالى - بعلمه هدى ورحمة وبشرى للمؤمنين.

من الإشارات الكونية في سورة «النمل»:

1 - التأكيد على حقيقة الآخرة، والعلوم المكتسبة تؤكِّد حتمية وقوعها.

2 - ذكر عالمي الغيب والشهادة؛ وثابت علمياً اليوم أن الغيوب في الجانب المادي للكون تفوق المشاهد المدرك بتسعة أضعاف على أقل تقدير.

3 - الإشارة إلى أن كل مخلوق - مهما تضاءلت صورته - له قدر من الوعي والإدراك، والإحساس والشعور، والذاكرة، وقدرة الحكم على الأشياء والمواقف بمنهجية صحيحة، والتعبير عن ذاته، وانطباعاته، وأفكاره ومشاعره، وعلى مشاركة غيره في ذلك. وله قدر من الإيمان الفطري بالله، والتسبيح غير الإرادي، والعبادة التسخيرية، وأن الله - تعالى - يهب لمن يشاء من عباده القدرة على استيعاب ذلك وفهمه والتفاعل معه. والدراسات المستحدثة في علم سلوك الحيوان تشير إلى شيء من ذلك.

4 - الإشارة إلى سرعات فائقة تقترب من سرعة الضوء، وذلك من مثل السرعة التي تم بها نقل عرش الملكة بلقيس من أرض سبأ إلى بيت المقدس في أقل من طرفة عين، ومثل هذه السرعات الفائقة لم يعرف إلا في القرن العشرين.

5 - وصف بيوت قوم ثمود بأنها اليوم خاوية، وهي حقيقة أثرية قائمة.

6 - التأكيد على خلق السمٰوات والأرض بالحق، وإلى العديد من صفات الأرض، ومنها أن الله - تعالى - قد جعلها قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً، وكلها من الحقائق التي لم تتوصل إليها المعارف المكتسبة إلا مؤخراً.

7 - التلميح إلى هداية الله ﷻ لعباده في ظلمات البر والبحر بواسطة أضواء نجوم السماء ونور القمر، والإشارة إلى تصريف الرياح، وإلى دورة الماء حول الأرض، وإلى إنبات الأرض بمجرد نزول الماء عليها.

8 - التأكيد على أن الله - تعالى - يبدأ الخلق ثم يعيده، ويرزق عباده من السماء والأرض، والعلوم المكتسبة تدعم ذلك وتؤيده.

9 - الإشارة إلى جعل الليل للسكن والراحة ولذا كان مظلماً، وجعل النهار للكدح والعمل ولذلك كان مبصراً، والتلميح إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس يتبادل كل من الليل والنهار، وبمرور الجبال مر السحاب وهي تبدو للناظر إليها وكأنها جامدة راسخة في أماكنها.

10 - الإنباء بأن البشرية - في تطورها العلمي والتقني المطرد - سوف تتأكد من صدق القرآن الكريم في كل ما جاء به من حقائق علمية وتاريخية ودينية، وهذا ما بدأ تحققه في أيامنا هذه.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الثامنة من القائمة السابقة والتي يقول فيها الحق - تبارك وتعالى -:

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)﴾ [النمل: 64].

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾:

أجمع المفسرون على أن هذا النص الكريم يشير إلى الخلق الأول للكون والحياة والإنسان، ثم إلى إعادة بعث ذلك كله بعد إفنائه الحتمي قبل يوم القيامة، ولكن الفعل المضارع في قوله - تعالى -: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يشير إلى أنها عملية متكررة في حياتنا الدنيا، كما قد تشمل الخلق الأول والبعث بعد الإفناء. ونحن نرى عملية الخلق وإعادته جليَّة في دورة الحياة والموت والتي تقطعها عملية تكاثر الأحياء من أجل استمرارية الحياة إلى أن يشاء الله، فتأتي الموتة الكبرى التي يموت على إثرها كل حي ثم العودة الكبرى للحياة التي يبعث عندها كل ما كان قد مات.

1 - دورة الخلق والإعادة في الأحياء:

تعتبر القدرة التي وهبها الخالق ﷻ للأحياء على التكاثر بمعنى إعطاء نسل قادر على الاستمرار بالحياة ضرورة لبقاء الأنواع الحية إلى أن يشاء الله - تعالى -.

تتكاثر الخلايا الحية بالانقسام حيث تنقسم الخلية الواحدة إلى خليتين، ولما كانت الخلية الحية - على ضآلتها في الحجم - بناء يفوق في تعقيده أكبر المصانع التي أنشأها الإنسان بل التي فكر في إنشائها ولم يتمكن بعد من تحقيق ذلك، فإن عملية انقسام الخلية الحية لتكوين خليتين متماثلتين هي عملية بالغة التعقيد ولا يستطيعها إلا الخالق ﷻ، وتعرف باسم استنساخ أو مضاعفة الخلايا (**Cell Replication**). فالخلية

الحية لها عقل يعرف باسم النواة، وتحتوي النواة على عدد من الجسيمات الصبغية الدقيقة التي يتحكم عددها في نوع الحياة، وتحمل الجسيمات الصبغية أعداداً هائلة من المورثات التي تتحكم في كل صفات الخلية وأنشطتها المختلفة.

وهذه المورثات (التي يقدر عددها في الخلايا البشرية بحوالي الأربعين ألف مورث) عبارة عن وحدات محددة من الحمض النووي الريبي المنزوع الأوكسيجين (DNA) (**Deoxy Ribonucleic Acid**) الذي تنبني به الجسيمات الصبغية (الصبغيات). ويسمى مجموع جزيئات الحمض النووي الريبي منزوع الأوكسيجين في نواة الخلية الحية باسم المجين الوراثي (**Genome**) وتسمى القائمة المرتبة لجميع القواعد النيتروچينية الموجودة في مجين أي كائن حي باسم الخريطة الوراثية (**Genetic Map**).

ويحتوي المجين البشري على (302) بليون زوج من القواعد النيتروچينية (**Nitrogenous Bases or Base Pairs**) المرتبة ترتيباً دقيقاً يعطي لكل فرد من بني آدم بصمة وراثية خاصة به تميزه عن البلايين التي تملأ جنبات الأرض اليوم، والبلايين التي عاشت وماتت والذين سوف يعمرون الأرض من بعدنا إلى قيام الساعة.

ولما كانت كل قاعدة من هذه القواعد النيتروچينية تستند إلى جزيئين أحدهما من السكر والآخر من الفوسفور، فإن المجين البشري في الخلية الواحدة من خلايا جسم الإنسان والتي لا يتعدى طول قطرها في المتوسط (0,03 مم) يحتوي على (18,6) بليون من الجزيئات الكيميائية التي تمثل حروف الشيفرة الوراثية للإنسان، والميراث الذي يعاد بواسطته الخلق حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ولعل التبادل والتوافق بين هذا الكم الهائل من الحروف هو الذي يعطي لكل فرد من بني آدم شيفرته الوراثية المميزة له مهما بلغ عدد أبناء وبنات آدم عليه السلام.

وانطلاقاً من ذلك فإن عملية تكاثر الأحياء تعتمد على إعادة توزيع الصفات الوراثية المنحدرة من أبينا آدم عليه السلام إلى الأبوين بحيث يستلم كل فرد من بني آدم نصيبه من المخزون الوراثي الذي خلقه الله - تعالى - في صلب أبي البشرية، وبذلك يعاد الخلق، وتتم المحافظة على استمرارية الحياة من جيل إلى آخر إلى نهاية كل موجود في الحياة الدنيا. وجوهر عملية الانقسام الخلوي هو التسلسل المنتظم لعدد من الأحداث المعقدة التي تؤمن التوزيع المحدد للشيفرة الوراثية للخلايا الناتجة من أجل إيجاد كائن له صفات وراثية محددة مستمدة من الأصل الذي خلقه الله تعالى في صلب أبينا آدم عليه السلام.

وعملية انقسام الخلايا إما أن تتم بطريقة مباشرة تؤدي إلى إنتاج خليتين متطابقتين من الخلية الأم، وتعرف هذه الطريقة باسم الانقسام الفتيلي للخلية **(Mitotic Cell Division or Mitosis)** وفيه ينقسم كل جسيم صبغي طولياً ليعطي نظيراً له وذلك في عمليات النمو وعمليات ترميم المعطوب من الخلايا، وإما أن تتم عملية انقسام الخلية انقساماً اختزالياً (منصفاً) **(Meiotic Cell Division or Meiosis)** من أجل إنتاج خلايا التكاثر (النطفي) التي تحمل كل خلية منها نصف عدد الأجسام الصبغية المحدد للنوع. وذلك لكي يتكامل هذا العدد بالتزاوج الذي جعله الله الخالق سنة فطرية من سنن الحياة، وينتج عن التزاوج عملية إخصاب النطف وتكوُّن النطف الأمشاج التي تتخلق عنها الأجنَّة ويعاد الخلق، مع إتاحة الفرصة للتنوع المبهر عن أصل واحد، والتوزيع الحكيم للصفات المتوارثة الذي يعطي لكل فرد بصمته الوراثية المميزة له عن غيره.

وحتى في التكاثر غير الجنسي والذي يتم في كثير من النباتات وفي بعض الكائنات الحيوانية البسيطة، والذي يتم إما بالانشطار **(Fission)** الذي يوزع صبغياتها الهائمة في

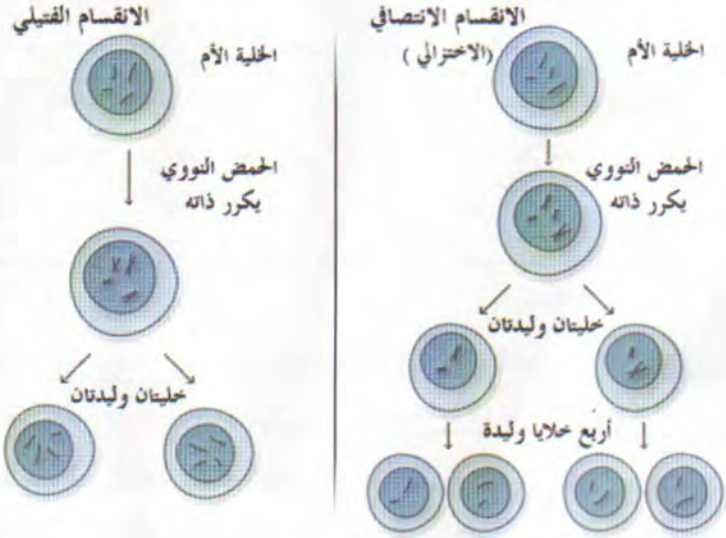

رسم يوضح عملية انقسام الخلايا الانقسام الفتيلي (Mitosis)
والانقسام الاختزالي (Meiosis) من أجل إنتاج خلايا التكاثر.

سائل الخلية بالتساوي، أو بالتبرعم (**Budding**) أو بالتجرثم (**Sporulation**) أو بالتكاثر الخضري (**Vegetative Reproduction**) مثل أشطاء القمح والشعير والذرة، ودرن البطاطا وغيرها.

وفي هذه الصورة البسيطة للتكاثر قد تكون هناك عوامل كامنة للزوجية لم تدرك بعد، كي تحقق توزيع الشيفرة الوراثية من الآباء للأبناء انطلاقاً من قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49].

وحتى في حالة الخنثى من الحيوانات التي تحمل الخلايا الذكرية والأنثوية في جسد واحد فإن عملية الإخصاب تتم بتبادل خلايا التكاثر الذكرية مع غيرها من أفراد نوعها وبذلك تتنوع الصفات الوراثية من فرد إلى آخر. ومن الكائنات الحية ما يمكن أن يتبادل طرائق التكاثر الجنسي وغير الجنسي بطريقة دورية أو شبه دورية ليعاد الخلق من جيل إلى آخر.

2 - دورة الخلق والإعادة في الجمادات:

نرى اليوم تخلق النجوم في صفحة السماء من دخان السدم، كما نرى انفجارها وتحولها إلى دخان السماء ليخلق منه نجم جديد.

ونرى الكواكب والكويكبات، والأقمار والمذنبات، والنيازك والشهب تتخلق عن نجوم السماء ثم تبتلعها الثقوب السوداء التي تظل تبتلع من مختلف صور المادة والطاقة حتى تصل إلى كتلة حرجة فتنفجر إلى دخان السماء.

ونرى العناصر تتخلَّق في داخل النجوم من غاز الإيدروجين بعملية الاندماج النووي حتى تصل إلى تحول قلب النجم بالكامل إلى الحديد، فينفجر النجم وتتناثر أشلاؤه في صفحة السماء لتصل إلى أجرام تحتاج إلى هذا الحديد ليدخل في دورة أخرى من دورات نشاطه الكيميائي، أو تبقى نوى ذرات الحديد معلقة في السماء تصطاد من اللبنات الأولية للمادة ما يرتقي بها إلى العناصر الأعلى في وزنها الذري، ومنها العناصر المشعة التي وهبها الله - تعالى - القدرة على التحلل التلقائي بمعدلات ثابتة حتى تصل إلى نظير ثابت أي غير متحلل إشعاعياً.

وهذه كلها صور من دورات الخلق والإعادة، وأمثالها على الأرض وفي السماء عديد من مثل دورة ثاني أوكسيد الكربون، ودورة الماء، ودورة الصخور وغيرها.

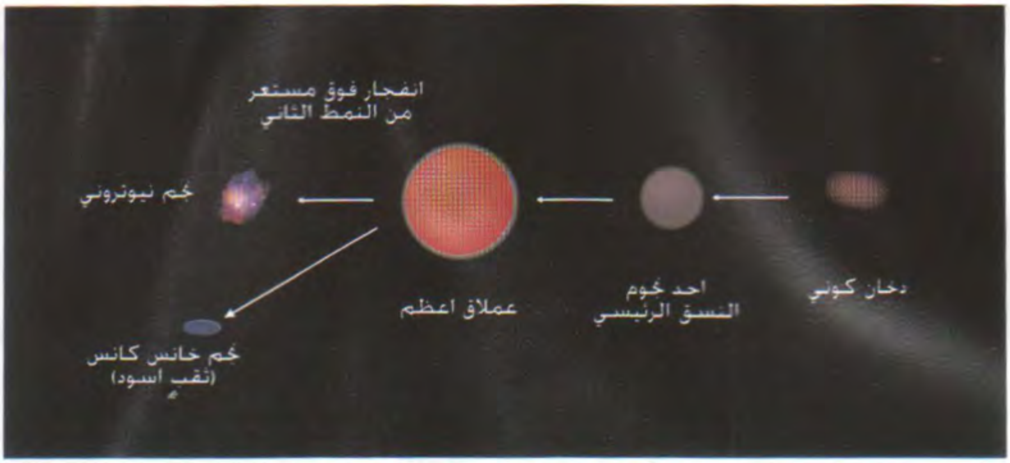

رسم تخطيطي يوضح دورة حياة النجوم.

هذه الدورات التي تشهد للخالق ﷻ بطلاقة القدرة وببديع الصنعة وإحكام الخلق هي من صور بدء الخلق وإعادته، وإشارة القرآن الكريم لها من قبل أن تصل العلوم المكتسبة إليها بألف وأربعمائة سنة لمِمَّا يشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، وحفظه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - حتى يبقى حجة الله على العباد إلى يوم الدين وشهادة صدق النبي والرسول الخاتم - صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وعلى من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

7 - ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾

[طه:55]

هذه الآية الكريمة جاءت في بدايات الثلث الثاني من «سورة طه»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (135) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم تكريماً لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، لأن (طه) يبدو أنه اسم من أسمائه أو لقب من ألقابه الشريفة بدليل توجيه الخطاب إليه - صلوات الله وسلامه عليه - مباشرة بعد هذا النداء، وإن اعتبر نفر من المفسرين هذين الحرفين (طه) من المقطعات الهجائية التي استهل بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم.

والخطاب من الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فيه من التكريم والتشريف ما يعجز البيان عن وصفه، خاصة وأن هذا النداء العلوي قد جاءه في وقت شدة تثبيتاً له، وتَسْرِيةً عنه، وتخفيفاً لثقل ما كان يلقاه من كفار قريش ومشركيها من إنكار لنبوته، وتكذيب لرسالته، وصد عن دعوته، وتجريح لشخصه الكريم، وهو الذي اشتهر بينهم بالصادق الأمين. لذلك جاءت هذه السورة المباركة من أولها إلى آخرها خطاباً من الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله يؤكِّد نبوته، ويؤيِّد صدق رسالته، ويهوّن كفر الكافرين وشرك المشركين عليه ﷺ بالتأكيد على أن مهمته محصورة في مجرد البلاغ عن الله - تعالى - والتبشير والإنذار، وترك الخيار للناس.. ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، وأمرهم متروك إلى الله - تعالى - وحده.. ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 284].

ويدور المحور الرئيس لسورة (طه) حول عدد من ركائز العقيدة الإسلامية، وفي مقدمتها الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، لا يشبهه أحد من خلقه، ولا يشاركه أحد في ملكه، ولا ينازعه أحد في سلطانه، وتنزيهه ﷻ عن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل الادعاء الباطل له بالصاحبة أو الولد، وهما من صفات المخلوقين، والله - تعالى - منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

ومن ركائز العقيدة الإسلامية كذلك: الإيمان بملائكة الله، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وبحقيقة الوحي، وحتمية البعث والنشور، والحساب والجزاء، ولذلك أوردت السورة الكريمة بعض مشاهد الآخرة، وفصَّلت ما فيها من أحداث البعث والحشر حتى يدخل أهل الجنة الجنة ويدخل أهل النار النار.

كذلك عرضت سورة «طه» لقصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون مصر، وما دار بينهما وبينه من حوارات وجدل انتهى بتحديه لهما بِسَحَرتِه، ثم هزيمة السَّحَرَة وخضوعهم لأمر الله - تعالى - وإيمانهم به، وتسليمهم بما جاء به موسى، وغير ذلك من تفاصيل سيرة هذا النبي الكريم، من مثل موقف المناجاة والتكليف بالتبليغ عن الله ﷻ، ثم غرق فرعون وجنوده، ونجاة موسى وصحبه، ثم فتنة بني إسرائيل من بعده بواسطة السامري.

وتؤكِّد السورة الكريمة حقيقة توحيد الله - تعالى - فتقول:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98].

وتعاود السورة الكريمة توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ محذِّرة الناس جميعاً من الإعراض عن قبول رسالته، فتقول:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾

[طه: 99-101].

ثم تستعرض الآيات بعد ذلك عدداً من مشاهد يوم القيامة حتى تنتهي إلى قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: 111–112].

وتمتدح سورة «طه» القرآن الكريم الذي أنزله الله - تعالى - بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله فتقول:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: 113–114].

وتنتقل السورة الكريمة بعد ذلك إلى جانب من قصة أبينا آدم عليه السلام، وإلى وسوسة الشيطان إليه، ومعصيته لأمر ربه، وتوبة الله - تعالى - عليه، وتضع دستوراً للحياة الدنيا، مؤكِّدة عداوة الشيطان للإنسان، وفي ذلك تقول:

﴿... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: 121–127].

وتُذَكِّر الآيات الناس بهلاك الضالين من الأمم السابقة، الذين كذبوا أنبياء الله وحاربوا رسالاته، حتى يتعظوا ويعتبروا وينيبوا إلى ربهم فتقول:

﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه: 128، 129].

أي: ولولا أن سبقت كلمة الله لكان عقاب كفار ومشركي قريش وعقاب أمثالهم من بعدهم على كفرهم وشركهم وجناياتهم لازماً عليهم في الدنيا، كما كان على الأمم

السابقة، ولكن قدر الله - تعالى - تأخير عذابهم إلى الأجل المسمى لهم وهو نهاية أعمارهم.

وتختتم سورة «طه» كما بدأت بتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ، ومن بعده إلى كل مؤمن برسالته أن يصبر على ما يقول الكفار والمشركون، وأن يغض الطرف عن حرمات الآخرين، وأن يسبّح قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن آناء الليل وأطراف النهار، وأن يأمر أهله بالصلاة وأن يصطبر عليها وهو متأكد أن العاقبة للتقوى، وأن ينفض يديه من الكفار والمشركين بعد أن يخبرهم بقرار رب العالمين الذي يقول فيه: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: 135].

من ركائز العقيدة في سورة «طه»:

1 - إن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ الذي أشارت إليه السورة المباركة باسم (طه)، وسميت باسمه، وأنزلت تكريماً له، وتذكرة لمن يخشى من عباد الله الصالحين.

2 - إن الله ﷻ هو خالق الأرض والسمٰوات العلى، وخالق كل شيء، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأنه ﷻ هو الرحمٰن على العرش استوى (استواءً يليق بجلاله)، وإن من صفاته ﷻ أنه لا يضل ولا ينسى - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -.

3 - التسليم بأن لله ما في السمٰوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وأنه ﷻ يعلم السر وأخفى، وأنه وسع كل شيء علماً، وأنه لا إلٰه إلا هو له الأسماء الحسنى.

4 - التصديق بأن الله - تعالى - خلق الناس من الأرض، وفيها يعيدهم، ومنها يخرجهم تارة أخرى.

5 - الإيمان بالله ﷻ وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وبضرورة الخضوع له بالطاعة والعبادة، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله، ومن ذلك الادعاء الباطل له - تعالى - بالصاحبة أو الولد، وهما من صفات المخلوقين، والله - تعالى - منزه عن جميع صفات خلقه، ومن لا يؤمن بذلك كافر، هالك في الدنيا ومعذّب في الآخرة.

6 - اليقين بحقيقة كلٍّ من الجنة والنار، وبأنها إما جنة أبداً أو نار أبداً، وأن الجنة

جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وأن النار جزاء كلٍّ من الكفار والمشركين، والظالمين المتجبرين على الخلق.

7 - التصديق بأن الله - تعالى - غفَّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، وأن من يحلُل عليه غضب الله فقد هوى.

8 - التسليم بأن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأن السحر من غوايات الشيطان للإنسان، وأنه من السبع الكبائر الموبقات المهلكات، وأنه لا يفلح الساحر حيث أتى، وأنه من أبشع أنواع الظلم وقد خاب من حمل ظلماً.

9 - التصديق بأن لكل إنسان محارمه، وأنه على كل من يريد الحفاظ على محارمه الشخصية ألا يمد عينيه إلى محارم غيره، وأن يرضى بما قسم الله له.

من الإشارات الكونية في سورة «طه»:

1 - إن الله - تعالى - هو خالق الأرض والسمٰوات العلى، وفي هذا تأكيد على أن الكون مخلوق مستحدث، وليس أزلياً، ولا أبدياً كما ادعى بعض المبطلين، ولكن له بداية يحاول العلم التجريبي حسابها، وكل ما له بداية فلا بد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية لا يعلمها إلا الله - تعالى -.

2 - التأكيد على أن لله ما في السمٰوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وهي إشارة ضمنية رقيقة إلى مركزية الأرض من السمٰوات، وإلى تمايز الغلاف الغازي للأرض عن مادتي كل من الأرض ودخان السماء، وتأكيد على ما تحت الثرى من صور الحياة ونشاطاتها والثروات المعدنية بمختلف ركازاتها، مما لم يدرك إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين. ويستحيل على الإنسان إثبات مركزية الأرض بالنسبة إلى الكون، ولكن البينية الفاصلة للأرض عن السمٰوات لا تتم إلا إذا كانت الأرض في مركز الكون.

3 - الإشارة إلى ثلاث مراتب من التعبير هي: (**الجهر**) الذي يعلمه صاحبه، ويعلمه كل من سمعه ويعلمه الله - تعالى -، و(**السر**) الذي حدَّث الإنسان به غيره في خفية، فيعلمه صاحبه ويعلمه من أسر به إليه من الخلق، ويعلمه الله ﷻ ويجهله من لم يسمع به من الناس، و(**الأخفى**) الذي لا يعلم به إلا صاحبه والله - تعالى -، وقد يشير ذلك إلى الخواطر التي تجيش بها النفس الإنسانية دون أن يحدث صاحبها بها، وهي ما يعرف

باسم (**حديث النفس**)، أو ما استقر في العقل الباطن دون أن يدري به صاحبه، ولكن الله ﷻ يعلمه لأنه - تعالى - علام الغيوب.

4 - إن السنن الحاكمة للكون ولجميع ما فيه ومن فيه هي من أمر الله - تعالى - وهدايته، تأكيداً على حقيقة الخلق، وعلى ربوبية الخالق الذي هو رب كل شيء ومليكه.

5 - الإشارة إلى تمهيد الأرض، وشق الفجاج والسبل فيها، وإلى إنزال الماء من السماء، وتدويره في دورة معجزة حول الأرض، وإخراج مختلف أنواع النبات في زوجية واضحة، ليأكل الإنسان من ثمار هذه النباتات، ويرعى أنعامه فيها، وهذه القضايا تقع من العلم في الصميم.

6 - التأكيد على حقيقة خلق الإنسان من الأرض، وعلى حتمية عودته إليها بعد الموت، ثم إخراجه منها يوم البعث.

7 - وصف نهاية الجبال في الآخرة بأنها سوف تنسف نسفاً حتى لا نرى فيها (عوجاً) ولا (أمتاً)، وهو وصف دقيق لوسائل تكوُّن الجبال في الحياة الدنيا بالطي (أي العوج)، أو بالتصدع (الأمت) وما يصاحبه من استقامة في الحدود ورفع أسطح الأرض وخفضها، وقد تشترك العمليتان في تشكيل العديد من جبال الأرض المعاصرة، وهي من الحقائق التي لم يدركها الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة السادسة فقط من القائمة السابقة والتي جاء ذكرها في الآية الخامسة والخمسين من سورة (طه)، وقبل الوصول إلى ذلك أرى لزاماً عليّ استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: 55]

● ذكر ابن كثير - يرحمه الله - ما مختصره: «. . . أي من الأرض مبدؤكم فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، أي: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ . . .».

● وجاء في تفسير الجلالين - رحم الله كاتبيه - ما نصه: ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الأرض

﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ بخلق أبيكم آدم منها ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ مقبورين بعد الموت ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ عند البعث ﴿تَارَةً﴾ مرة ﴿أُخْرَىٰ﴾ كما أخرجناكم عند ابتداء خلقكم.

● وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما مختصره: «. . . . من هذه الأرض خلقناكم وفي هذه الأرض نعيدكم، ومنها نخرجكم بعد موتكم، والإنسان مخلوق من مادة هذه الأرض، عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالاً، ومن زرعها يأكل، ومن مائها يشرب، ومن هوائها يتنفس، وهو ابنها وهي له مهد، وإليها يعود جثة تطويها الأرض، ورفاتاً يختلط بترابها، وغازاً يختلط بهوائها، ومنها يبعث إلى الحياة الأخرى، كما خلق في النشأة الأولى. . .».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾:

الضمير في قوله - تعالى - ﴿مِنْهَا﴾ يعود على الأرض وذلك للسياق الذي جاءت فيه الآية الكريمة، والذي جاء فيه قول ربنا - تبارك الله -: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)﴾ [طه: 53-55].

والأرض تَرِدُ في القرآن الكريم بثلاثة معان هي: الكوكب بأجمعه، أو صخور القارات التي نحيا عليها، أو قطاع التربة الذي يغطي تلك الصخور، وتفهم الدلالة من السياق، وذلك من مثل قوله - تعالى -:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: 39].

والذي يهتز ويربو هنا من الأرض هو قطاع التربة الذي يعلو صخور القارات وليست الصخور، وليس الكوكب بأجمعه، ولكن إذا قال ربنا - تبارك وتعالى - عن الأرض: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ انطبق ذلك على كل من قطاع التربة، وصخور القشرة، والأرض ككل، فقطاع التربة مستمد أصلاً من تجوية وتعرية صخور قشرة الأرض، وقشرة الأرض مستمدة من تمايز وتبرد وتجمد الصهير الذي نتجت عنه، ولذلك قال المصطفى ﷺ: «إن

صورة حقيقية لأرض طينية متشقّقة بالجفاف بعد مطر غزير.

الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»[1].

ولما كان الإنسان قد خلق أصلاً من تراب الأرض، ثم يحيا على نباتها (المعتمد في غذائه على عناصر الأرض)، وعلى بعض المباحات من المنتجات الحيوانية التي تحيا كذلك على نباتات الأرض، قال ربنا - وقوله الحق -: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ وكان هناك قدر من التشابه بين التركيب الكيميائي لكل من جسم الإنسان والتربة الزراعية، وأديم الأرض، مع غلبة الماء على جسم الإنسان، وتركيز كل من عناصر الكربون والنيتروجين والفوسفور فيه.

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿.. وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ..﴾:

بعد وفاة الإنسان ودفن جسده في تراب الأرض يبدأ هذا الجسد في التحلل إلى تراب

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (الحديث: 4693)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (الحديث: 2955).

الأرض بعملية معاكسة لعملية بنائه التي بدأت أصلاً من **تراب الأرض** الذي ارتوى بالماء فأصبح **طيناً**، وأذاب الماء من هذا الطين ما قَبِل الذوبان فيه من عناصر الأرض ومركباتها حتى تمايزت من بين حبات هذا الطين سلالة مذابة في الماء (**سلالة من طين**)، وبتبخير المحاليل المذيبة لتلك السلالة جزئياً ترسبت بعض العناصر والمركبات بين حبيبات المعادن الصلصالية فأصبح الطين (**طيناً لازباً**) أي لاصقاً بعضه ببعض، وبجفاف هذا الطين اللازب أصبح (**صلصالاً من حمإ مسنون**) أي أسود منتن، ثم زاد جفافه فأصبح (**صلصالاً كالفخار**)، ثم نفخ الله - تعالى - فيه من روحه فأصبح إنساناً (هو آدم أبو البشر)، ومن آدم خلقت زوجه (حواء) عليهما السلام بمعجزة أمر بها الله - تعالى -. ونسل آدم تسلسل منه ومن زوجه حواء عليهما السلام، من شيفرتيهما الوراثيتين التي خلقها الله - تعالى - وخلق فيها جميع نسله، وتغذى هذا النسل ونمت أجساده على عناصر الأرض التي يمتصها النبات مع عصارته الغذائية من طين الأرض، ثم بواسطة ما يأخذه النبات الأخضر من طاقة الشمس، وما يمتصه من غاز ثاني أكسيد الكربون من الجو، وبما وهبه الخالق سبحانه وتعالى من قدرات يحوّل النبات الأخضر ذلك كله إلى ثمار ومحاصيل يحيا عليها كل من الإنسان، وما يباح له أكله من الحيوان، وأصل ذلك كله من تراب الأرض.

ثم إذا مات ابن آدم وغادرت روحه جسده، فإن هذا الجسد يبدأ في اليبوس والتخشب حتى يصير كالتمثال الحجري أو (**الصلصال كالفخار**)، وبعد دفنه يبدأ في التحلل التدريجي الذي تقوم به البكتيريا والفيروسات، والفطريات والطحالب التي تعايشت مع

أواني من الفخار جافة ويابسة.

الجسد في حياته، والتي توجد في جو وتربة القبر الذي يدفن فيه، فيتغير لونه، وتنتن رائحته (أي تفسد) حتى يصير (**صلصالاً من حمإ مسنون**)، ثم يتحول إلى (**طين لازب**) بفقد جزء من محتواه المائي، وبفقد كل مائه يتحول إلى **تراب** يغيب في تراب الأرض فيما عدا فضلة واحدة سماها رسول الله ﷺ باسم: «**عجب الذنب**» ووصفها بأنها عظمة في حجم حبة الخردل توجد في نهاية العصعص، وأنها لا تبلى أبداً، وأن الإنسان يبعث منها في يوم القيامة - بعد إنزال مطر خاص - كما تنبت البقلة من بذرتها. وقد أيدت الدراسات المختبرية صدق هذا الوصف بأن عجب الذنب تخلق منه جميع أجهزة الجسم ثم ينسحب إلى نهاية العصعص، وأنه لا يبلى أبداً، وبذلك أيضاً تثبت صحة الإشارة القرآنية الكريمة التي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿.. وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ..﴾ فكل حي يستمد جسده من تراب الأرض، ويعود بعد موته إلى تراب الأرض، حيث يبلى الجسد كله إلا عظمة واحدة يعاد بعثه منها في يوم القيامة، فيخرجه الله - تعالى - من الأرض إخراجاً يشبه إنبات البقلة من بذرتها.

ثالثاً: في قوله تعالى: .. ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الفتن وأشراط الساعة) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**»(1).

وفي رواية أخرى أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «**يبلى كل عظم من ابن آدم إلا عجب الذنب، وفيه يركب الخلق يوم القيامة**».

كذلك أخرج الإمامين البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**ما بين النفختين أربعون.. ثم يُنزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»(2)، قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. ومعنى (أبيت) في كلام أبي هريرة هو: أبيت أن

---

(1) تقدم تخريجه سابقاً ص: 90.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ (الحديث: 4935)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن، باب: ما بين النفختين، (الحديث: 7340).

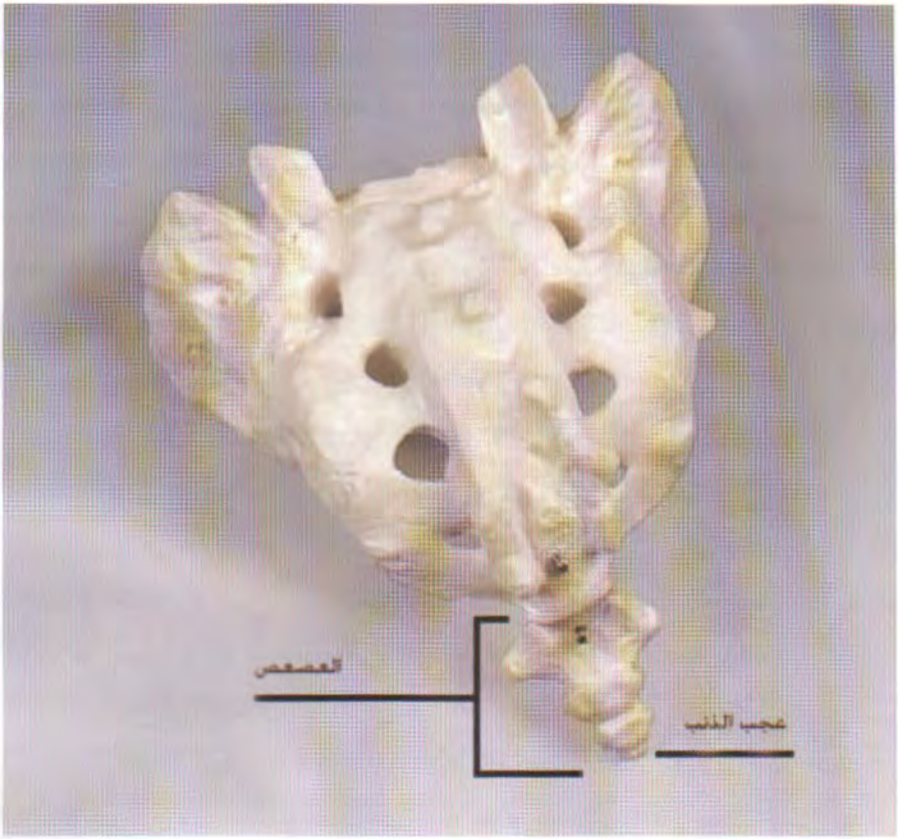

صورة لعظام نهاية العمود الفقري (العصعص) ويبدو في آخرها «عجب الذنب».

أجزم أن المراد بالفترة بين النفختين هو أربعون يوماً أو شهراً أو سنة، بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة، وقد جاءت أربعون سنة مفصلة في قول للإمام النووي.

وواضح الأمر من هذه الأحاديث النبوية الشريفة ومن غيرها أن بلي الأجساد هو حكم إلٰهي عام لا يستثنى منه إلا أجساد كل من الأنبياء والشهداء، والمؤذنين المحتسبين كما ذكر ابن حجر العسقلاني انطلاقاً من أقوال رسول الله ﷺ.

وأحاديث (**عجب الذنب**) تحتوي على حقيقة علمية لم يتوصل إليها علم الإنسان إلا بعد الثلث الأول من القرن العشرين في سلسلة من الأبحاث قام بها العالم الألماني هانز سبيمان (**Hans Spemann**) وعدد من زملائه والتي نال عليها جائزة نوبل في العلوم (سنه1935 م) لأبحاثه على عجب الذنب في البرمائيات، والذي أسماه باسم الشريط الابتدائي أو الأولي كما سبق وأن أوضحنا.

ومن نتائج تلك الأبحاث ما يلي:

1 - إن كلاً من الخيط الابتدائي (The Primitive Streak) والعقدة الابتدائية (The Primitive Node) التي يحملها في نهايته، يظهران على سطح النطفة الأمشاج (البييضة المخصبة) بعد فترة من انقسامها ينظمان عملية تخلق جميع أجهزة الجنين، ولذلك أطلق «سبيمان» عليهما اسم المنظم الأولي أو الأساسي (The Primary Organizer).

2 - إن هذا المنظم الأولي ينسحب إلى نهاية العصعص (الفقرة الأخيرة من العمود الفقاري) بعد إتمام تخلق جميع أجهزة الجسم.

3 - إن هذا الخيط والعقدة الابتدائيان لا يبليان أبداً، فبقطعهما من عدد من البرمائيات والقيام بعدة محاولات لسحقهما أو غليهما، ثم زرعهما في عدد من الأجنة لوحظ أنهما ينموان على محور جنيني آخر مختلف عن الجنين المضيف، علماً بأن كلاً من الخيط والعقدة الأولين في الحيوانات الفقارية ذات الأثداء (الثديية) يقابلها في البرمائيات ما يسمى باسم فتحة المعي الخلفية (Blastopore)، مما يؤكد أن خلاياهما لم تتأثر بأي من عمليتي السحق أو الغلي في الماء.

وفي شهر رمضان سنة 1424هـ قام الأخ الدكتور عثمان جيلان (من اليمن) بحرق الفقرتين الأخيرتين من خمسة عصاعص للأغنام بمسدس غاز لمدة عشر دقائق حتى

صورة حقيقية لتكون الخيط الابتدائي والعقدة الابتدائية وهما المنظم الأساسي لتخليق أجهزة الجنين.

تفحمت تماماً، وبفحصها بواسطة عدد من المتخصصين، اتضح أن خلاياها بقيت حية وإن احترق كل ما كان حولها من عضلات، وأنسجة دهنية، وخلايا النخاع.

وبتطبيق نتائج «سبيمان» ومدرسته على الإنسان أثبت عدد من المتخصصين في علم الأجنة أنه بعد إتمام عملية إخصاب البييضة تبدأ النطفة الأمشاج في الانقسام إلى وحدات أصغر فأصغر (خليتين ثم أربع ثم ثماني خلايا. . . وهكذا)، وتعرف هذه باسم القسيمات الأرومية **(Blastomeres)**، وبعد أربعة أيام من الإخصاب تتحول هذه القسيمات الأرومية إلى كتلة كروية من الخلايا تشبه ثمرة التوت الصغيرة ولذلك تعرف باسم التويتة (تصغير التوتة) أو **(Morula)**. وفي اليوم الخامس تنشطر التويتة إلى نصفين مكونة الكيسة الأرومية **(Blastocyst)**. وفي اليوم السادس من عمر النطفة الأمشاج تنغرس الكيسة الأرومية في جدار الرحم بواسطة خلايا رابطة تنشأ منها، وتتعلق بها في جدار الرحم لتتحول بعد ذلك إلى المشيمة، **ويظهر على سطح الكيسة الأرومية كل من الشريط والعقدة الابتدائيين في اليوم الخامس عشر من تاريخ الإخصاب**، فتكون العلقة ثم المضغة، ثم تخلق العظام، ثم تكسى باللحم ثم بالجلد، وتستمر هذه الأطوار من نهاية الأسبوع الثاني حتى نهاية الأسبوع الثامن من تاريخ الإخصاب، وأهم ما يميز هذه المراحل في تخلق الجنين هو التكاثر السريع للخلايا، والنشاط المتنامي في تكوين أجهزة الجسم المختلفة بواسطة كل من الشريط والعقدة الابتدائيين.

وفي الأسبوع السابع يكتمل للجنين بناء هيكله العظمي، الذي يأخذ في الاكتساء باللحم (العضلات والجلد) مع بداية الأسبوع الثامن من عمره إلى آخر فترة الحمل، حيث يتكامل بناء جميع أجهزة الجسم وأعضائه، وتبدأ في الانتظام بالعمل في توافق عجيب.

وتبدأ مرحلة النشأة في الأسبوع التاسع حين تتباطأ معدلات النمو حتى نهاية الأسبوع الثاني عشر، ثم تتسارع حتى نهاية فترة الحمل في حدود الأسبوع السادس والثلاثين أو الثامن والثلاثين (أي بعد 252 - 288 يوماً من تاريخ عملية الإخصاب). ويعتبر اكتمال كساء العظام باللحم هو الحد الفاصل بين مرحلتي الحميل **(Embryo)** والجنين **(Fetus or foetus)**.

وقد أثبت علم الأجنة الحديث أن جميع أجهزة الجنين تنشأ من الشريط الابتدائي، وأول ما ينشأ منه هو الجهاز العصبي، وبعد استكمال خلق أجهزة وأعضاء الجنين ينحسر

هذا الشريط المنظم إلى نهاية العمود الفقاري على هيئة عظمة في حجم حبة الخردل في نهاية العصعص **(Coccyx)** سماها رسول الله ﷺ باسم: «**عجب الذنب**»، قبل أن يعرفها الإنسان بأربعة عشر قرناً.

ومن نتائج نشاط الشريط الابتدائي ما يلي:

1 - تكوّن بدايات الجهاز العصبي من الطبقة الخارجية للمضغة بدءاً بالحبل الظهري **(Notochord)** والذي يمتد من العقدة الابتدائية **(Primitive Node)** في اتجاة النهاية الأمامية للمضغة، وذلك في نهاية الأسبوع الثالث من تاريخ الإخصاب.

ويبدأ تكون الجهاز العصبي بالصفيحة العصبية **(Neural Plate)** التي تمتد من جهة العقدة الابتدائية إلى الطرف الأمامي للمضغة، وتتثنى هذه الصفيحة العصبية لتكوين الطيات العصبية **(The Neural Folds)**، وتكون الجهة المنخفضة ما يعرف باسم الميزاب العصبي **(The Neural Groove)** الذي يلتف على ذاته مكوناً الأنبوب العصبي: **(The Neural Tube)** ويقفل طرفه الأمامي في اليوم الخامس والعشرين من عمر الجنين بينما يقفل طرفه الخلفي (الذيلي) بعد ذلك بيومين في اليوم السابع والعشرين، ويخلق الدماغ من الثلث الأمامي لهذا الأنبوب العصبي، بينما يخلق الحبل الشوكي بتفرعاته من الثلثين الباقيين.

2 - تتكثف أجزاء من الطبقة المتوسطة من جسم المضغة الملاصقة لمحور الجنين مكونة الكتل البدنية **(Somites)** والتي تشكل كلاً من العمود الفقاري وبقية الهيكل العظمي والعضلات، كما تخرج منها بدايات الأطراف العليا والسفلى.

3 - تتكثف الأجزاء الوسطى من الطبقة المتوسطة لتكون الجهاز التناسلي/ البولي.

4 - تتكثف الأجزاء الطرفية من الطبقة المتوسطة مكونة كلاً من أغشية البطن الداخلية، وأغشية الرئتين، وغشاء القلب، كما يتكون منها كل من القلب والأوعية الدموية، وعضلات الجهاز الهضمي.

5 - ينتهي الشريط الأولي من مهمة تخليق أجهزة وأعضاء الجسم في الأسبوع الرابع من عمر الجنين، ويبدأ في الانسحاب إلى نهاية العمود الفقري (العصعص) على هيئة أثر لا يكاد يرى بالعين المجردة (**عجب الذنب**)، وقد قال المصطفى ﷺ في عدد من أحاديثه الشريفة إن جسد الإنسان يبلى كله فيما عدا عجب الذنب، فإذا أراد الله - تعالى - بعث

خلقه أنزل مطراً خاصاً من السماء فينبت كل مخلوق من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها، وهذا تفصيل لقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

صورة حقيقية لذنب يظهر في الجنين البشري في الأسبوع الرابع من عمره.

هذه الحقائق العلمية التي لم تكتشف إلا بعد الثلث الأول من القرن العشرين، تشهد للقرآن الكريم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية -، على مدى أكثر من أربعة عشر قرناً وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم حجة على الخلق أجمعين إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها.

كما تشهد هذه الحقائق العلمية للرسول الخاتم والنبي الخاتم الذي تلقى القرآن المجيد من ربه الكريم، فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الناس إلى يوم الدين، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، تشهد له هذه الحقائق بالنبوة وبالرسالة وبما وصفه به رب العالمين فقال:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾

[النجم: 3-5].

فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على الدوام حتى نلقاه - تعالى - وهو راضٍ عنا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

8 - ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾ [الملك: 2]

هذه الآية الكريمة جاءت في بدايات سورة «الملك»، وهي سورة مكية، وآياتها ثلاثون (30) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بالشهادة لله - تعالى - بأنه هو الذي بيده الملك، وهو على كل شيء قدير، ومن أسماء هذه السورة المباركة أيضاً: (المانعة) و(المنجية) لأنها تمنع قارئها من عذاب القبر، وتنجيه منه، وذلك لقول رسول الله ﷺ عنها: «**هي المانعة، وهي المنجية، تنجي من عذاب القبر**»(1).

ويدور المحور الرئيس لسورة الملك حول قضية العقيدة الإسلامية، وتبدأ بقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: 1،2].

وفي هذا الاستهلال تعظيم لله الخالق سبحانه وتعالى، لأن من معاني (تبارك): تعالى وتعاظم، وكثر خيره، ودام إحسانه وفضله، وثبت إنعامه وكرمه على عباده وسائر خلقه ثبوتاً لا يزول ولا يحول أبداً،

(1) أخرجه الإمام الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة الملك (الحديث: 2890).

ومن معاني هذا التعظيم لله الخالق تنزيهه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله...!!

وفي هذا الاستهلال أيضاً تأكيد لتفرد الخالق ﷻ بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، لأن من معاني الملك: السلطان والقدرة ونفاذ الأمر، والذي له كل ذلك لا يجوز أن يشبهه أحد من خلقه، أو أن ينازعه أحد في ملكه، أو أن يشاركه أحد في سلطانه. (والله الواحد الأحد الفرد ﴿ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: 2-4]) ليس في حاجة إلى الصاحبة أو الولد، لأن هذه من صفات المخلوقين، والخالق منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

وانطلاقاً من تفرده ﷻ بالملك المطلق، وبالقدرة على كل شيء، كان إثبات ألوهيته، وربوبيته، ووحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه -، بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد -. وانطلاقاً من تقريره أنه - تعالى - خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً كانت الشهادة لجلاله بأنه هو العزيز الغفور، أي: الغالب الذي لا يقهر، والذي لا يعجزه شيء، ومع ذلك كله فهو ﷻ العفوّ عن تقصير عباده، الغافر لذنوبهم.

ومن دواعي تفرده ﷻ بكل ذلك صار واجباً ألّا يُعبَد غيره، ولا يقصَد سواه بدعاء أو رجاء أو طلب، ولا يُشرَكَ في عبادته أحد، وأن ينزَّه فوق كل وصف لا يليق بجلاله.

ويشهد لله الخالق بكل ذلك خلقه سبع سمٰوات طباقاً (أي: متطابقة حول مركز واحد هو كوكبنا الأرض، ويغلف الخارج منها الداخل) دون أدنى خلل، أو نقصان، أو اضطراب، وإلا ما استقام وجود الكون. ولولا هذا البيان الإلٰهي الذي تكرر في القرآن الكريم عشرات المرات، ما كان أمام الإنسان من سبيل لإدراك هذه الحقيقة الكونية، وذلك لأن كل ما يراه علماء الفلك في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه لا يتعدى جزءاً يسيراً من السماء الدنيا، وبما أن الكون دائم الاتساع فإن هذا الجزء المرئي من السماء الدنيا دائم التباعد عنا بسرعات لا يستطيع التطور العلمي والتقني المعاصر اللحاق به، وعلى الرغم من ذلك فإن الإنسان يستطيع بحسه المحدود، وقدراته المحدودة، وتقنياته المتطورة أن يدرك شيئاً من دقة بناء السماء، وتكوّرها على ذاتها، وإحكام خلق كل صغيرة وكبيرة فيها دون أدنى خلل، ولذلك تطالب الآيات كل ذي بصيرة بتكرار النظر في

السماء حتى يتحقق من بديع صنع الله فيها، مؤكدة أنه مهما نظر فلن يستطيع العثور على خللٍ واحدٍ.

وتستشهد سورة الملك على صدق ما جاء بها من أمور الغيب، ومن ركائز العقيدة الإسلامية بعدد آخر من آيات الله في الكون منها: النجوم التي جعلها الله - تعالى - زينةً للسماء الدنيا وسماها بالمصابيح، وهي تسمية في غاية الدقة العلمية، لأن النجوم هي أفران نووية كونية عملاقة وقودها هو نوى ذرات الإيدروجين التي تتضاغط في قلب النجم بأمر من الله - تعالى - وبتدبيره الحكيم فتتحد مع بعضها البعض منتجة نوى ذرات الهيليوم، ثم الليثيوم، ثم البريلليوم لتكوّن نوى ذرات أثقل باستمرار، مطلقةً كميات هائلة من الطاقة التي يقوم عليها نظام الكون، وتستقيم الحياة على الأرض. ولما كانت النجوم في دورة حياتها ينتهي بها المطاف إلى أجسام باردة كالكواكب التي تنفجر فينزل بعضها على الأرض شهباً ونيازك قال ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 5].

وتنتقل الآيات بعد ذلك إلى وصف جانب من عذاب الكفار في يوم القيامة، وإلى شيء من الحوار الذي سوف يدور بينهم وبين خزنة جهنم وفي ذلك تقول:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: 6-11].

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال فحواه أن الآخرة لم تحِنْ بعد، وأن أهل الجنة لم يدخلوها بعد، وكذلك أهل النار لم يساقوا إليها بعد، ولم تُلقَ أفواجهم في جحيمها بعد، فكيف أوردت الآيات هذا الوصف الدقيق لأفواج الكفار تلقى في نار جهنم، ولحوار خزنة جهنم مع الكفار، وردود الكفار عليهم؟ وللإجابة على ذلك أقول: إن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، ومن مخلوقاته كل من الزمان والمكان، والخالق يملك

مخلوقاته، ويحدها، ويحكمها بعلمه وحكمته وقدرته، والمخلوق لا يحكم خالقه أبداً، وعلى ذلك فإن الله ﷻ يحوي بعلمه وحكمته وقدرته كل الأماكن وكل الأزمنة، فلا يخرج عن علمه من ذلك شيء أبداً، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء أبداً، وعلى ذلك فإن الماضي والحاضر والمستقبل في علم الله - تعالى - كله حاضر، لا يخفى عليه منه شيء، ومن هنا جاء وصف المستقبل في الآخرة كأنه أمر قائم، حاضر، ظاهر، لا يخفى على الله - تعالى - منه شيء.

وبالمقابل تصف الآية الثانية عشرة من هذه السورة المباركة جانباً من فضل الله - تعالى - على الذين يخشونه بالغيب فيجتنبون معاصيه، ويقبلون على طاعاته فتقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: 12].

ثم تخاطب الآيات في سورة الملك الناس جميعاً مؤكدة أن الله - تعالى - يعلم السرَّ والجهر، ويعلم ما تخفي كلُّ نفس، لتقيم من الإنسان على نفسه رقيباً حسيباً، يراجعها في كل خطأ حتى تتوب، ويشجعها على كل خير فتستزيد، ويعينها على أن تعبد الله - تعالى - كأنها تراه ويُحيي مراقبة الله في هذه النفس حتى تستيقظ للحقيقة التي يغفل عنها الكثيرون: (أنَّ الله تعالى عليم بذات الصدور)، وحتى تتجرد لله - تعالى - وحده في الأعمال والنيات، وتتّقي نفثات الشياطين انطلاقاً من اليقين بأن الله - تعالى - يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: 13،14].

وبعد ذلك تستمر الآيات في استعراض عدد من نعم الله - تعالى - على عباده، وفي التذكير بحتمية الموت والبعث والرجوع إلى الله فتقول:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15].

أي أن الله - تعالى - هو الذي خلق الأرض وجعلها مهيّأة لحياة الإنسان عليها في سهولة ويسر، ولفظة (ذلولاً) تعني سهلة، مسخَّرة، مذلَّلة لكم يا بني آدم، من (الذُّلِ) وهو اللين وسهولة الانقياد، و(مناكب) الأرض هي جوانبها، وفجاجها وأطرافها،

والأمر من قبيل الحض على الاجتهاد في عمارة الأرض وإقامة عدل الله فيها، والحث على كسب الرزق الذي قدره الله - تعالى - لكل حي في الوجود، وكل ذلك من واجبات الاستخلاف في الأرض، فقال - تعالى -: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ لأن السعي في طلب الرزق واجب على كل مخلوق، وهذا السعي لا يتنافى أبداً مع حقيقة أن الرزق مقسوم سلفاً، ولا يتنافى أبداً مع ضرورة التوكل على الله وهو الرزاق ذو القوة المتين. وختمت هذه الآية الكريمة بالإشارة إلى حقيقة البعث، وحتمية الرجوع إلى الله ﷻ وذلك بقوله العزيز: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

وتعاود الآيات التهديد بعذاب الله - تعالى - للكفار والمشركين والعاصين من عباده في الدنيا قبل الآخرة فتقول:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك: 16-18].

وخسف الأرض من الظواهر المصاحبة لتصدع غلافها الصخري، على هيئة ما يعرف بالأغوار أو الأودية الخسيفة، وذلك من مثل حوض البحر الأحمر بخليجيه العقبة والسويس وغور وادي الأردن، كما قد يصحب تكوّن الأغوار هزات أرضية (زلزالية) أو ثورات بركانية مرعبة؛ وهذه وغيرها من الظواهر والأحداث الأرضية هي من جند الله التي يسخرها ربنا - تبارك وتعالى - عقاباً للعاصين، وابتلاءً للصالحين، وعبرة للنّاجين، وإذا لم تؤخذ بهذا المفهوم فلن يتعلم الإنسان أبداً.

و(**المَوْرُ**): هو الحركة جيئةً وذهاباً في اضطراب وتموّج شديدين، و(المور) و(الخسف) من أوصاف ما يتعرض له الغلاف الصخري للأرض في أثناء الهزات الأرضية التي تعتبر من أعنف الكوارث التي يبتلي بها الله - تعالى - عباده الصالحين، أو يعاقب الكفار والمشركين والعاصين منهم كما عاقب قارون وقومه من قبل، أو يتركها عبرة للناجين.

و(**الحاصب**) هي الريح الشديدة التي من عنف شدتها فإنها تثير الحصباء (الحصى) من على وجه الأرض، أو هي الحجارة المنزّلة من السماء على وجه من أوجه العقاب الإلٰهي للكفار والمشركين وللعصاة المذنبين، وهو إنذار شديد بعذاب من الله - تعالى -

لجماعة من أهل الأرض كما حدث لكل من أصحاب الفيل، وقوم لوط، وسوف يعلم المنذَرُون شيئاً عن صدق وعيد الله - تعالى - لهم حين يقع عليهم العذاب الذي وقع على أسلافهم. ولذلك حذَّرت الآية الثامنة عشرة من سورة «الملك» كل الناس مما وقع للأمم السابقة من العذاب فتقول:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: 18].

والإشارة هنا هي إلى الأمم السابقة على كفار ومشركي جزيرة العرب، الذين كذَّبوا رسل ربهم، وعصوا أوامره، فأنكر الله ﷻ ذلك عليهم، وأنزل عقابه الشديد الأليم بهم وترك آثار خرابهم ودمارهم عبرة لكل معتبر.

ثم تنتقل سورة «الملك» إلى استعراض آية أخرى من الآيات الدالة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق والتي تتلخص في إعطاء الطيور القدرة على ارتقاء الهواء، والسبح فيه بكفاءة عالية فتقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: 19].

وفي التأكيد على أنَّ الله - تعالى - هو الناصر، المعطي، الوهّاب، الرزّاق، ذو القوة المتين، تعتب الآيات على المشركين الذين عبدوا مع الله ﷻ غيره من المخلوقات أو المخلوقين، مبتغين منهم النصر أو راجين عندهم الرزق فتقول:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: 20-22].

وتشبّه الآية الأخيرة المؤمن بالذي يمشي سوياً على صراط مستقيم أي: على طريق واضح المعالم، بَيِّن النهاية في كل من الدنيا والآخرة حتى ينتهي به إلى جنات النعيم، بينما الكافر يمشي مكباً على وجهه، تائهاً، ضالاً، حائراً لا يدري أين يسلك، ولا كيف يسير، ولا يعرف لطريقه نهاية حتى يكبّه في نار الجحيم، وتسأل الآية الكريمة كل مستمع لها: أيهما أهدى سبيلاً؟

وتأمر الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يخبر الناس جميعاً بأن الله - تعالى - يمنُّ عليهم بإنشائهم من العدم، ومنحهم من الحواس والملكات ما يعينهم على الاستمتاع بوجودهم، ومن قبيل الشكر على هذه النعم وجوب استخدامها في طريق الخير إلى أقصى مدى لها، وحمد الله - تعالى - والثناء عليه في كل مرة تستخدم فيها حاسة من تلك الحواس، أو ملكة من تلك الملكات. ويمنُّ الله - تعالى - عليهم كذلك بنشر الجنس البشري في مختلف أرجاء الأرض مما يتبعه اختلاف الألوان والألسنة والعادات، ثم يجمعهم من هذا الشتات ليوم لا ريب فيه، يؤمن به أهل اليقين، ويتشكك فيه أهل الكفر والضلال، فيتساءلون عن موعده، وتأمر الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يجيب بأن علم هذا اليوم عند الله ولا يعلمه سواه، وإنه - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - بُعِثَ كما بعث غيره من أنبياء الله ورسله للإنذار بوقوع هذا اليوم على بينة من رب العالمين، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الملك: 23-26].

ثم تنتقل بنا الآية السابعة والعشرون عبر حجز الغيب، وكأنّ الساعة قد قامت، والكافرون يرون ما يوعدون به من العذاب رأي العين، ووجوههم يعمها الغم والحزن، وهم يسمعون من التقريع والتوبيخ ما دهاهم، وزاد فجيعتهم، وفي ذلك تقول الآية الكريمة:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: 27].

و(**زُلفةً**) حال من مفعول رأوه، وهو اسم مصدر لِـ (أَزلفَ) (إِزلافاً) بمعنى قَرُبَ قُرْباً، وقيل إن استعمال (الزلفة) هنا هو من قبيل التهكم كاستعمال البشارة ونحوها في منزلة العذاب. (**وسيئت**) بمعنى عمَّها السوء من الغم والحزن، و(تَدَّعون) أي: تطلبون في الدنيا وتستعجلون، إنكاراً واستهزاءً، من (الدعاء) بمعنى الطلب.

وهنا نؤكد مرة أخرى أن كلاً من الزمان والمكان من خلق الله - تعالى - القادر على طيّهما أو إلغائهما تماماً، وعلى ذلك فإن كلاً من الماضي والحاضر والمستقبل هو عند الله - تعالى - حاضر لا يحجبه عن علم الله حاجب، وهو سبحانه وتعالى قادر على أن يطوي كلاً

من الزمان والمكان لمن يشاء من عباده كما طواهما لخاتم أنبيائه ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.

وتختتم هذه السورة المباركة بخطاب موجَّه من الله - تعالى - إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ يأمره فيه أن يقول لقومه ما يلي:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: 28-30].

وهذه الآيات الثلاث ترد على كفار ومشركي قريش وعلى كل كافر ومشرك إلى يوم القيامة، الذين كانوا يتمنَّون هلاك رسول الله ﷺ وهلاك المسلمين الذين آمنوا به وبما أنزل إليه من ربه، تماماً كما يتمنّاه أعداء اليوم حيث تخرج علينا إحدى القنوات الفضائية بأسلوب يتطاولون فيه على النبي ﷺ. والآيات تقول لسيد الأنبياء والمرسلين: قل لهؤلاء الكفار والمشركين بالله، الجاحدين لنعمه، الغامطين للحق الذي أنزله بعلمه: أن ما تتمنون لنا من الهلاك لن ينقذكم من عذاب الله ونكاله الواقع بكم لا محالة في الدنيا قبل الآخرة، أما نحن فقد آمنّا برب العالمين الرحمٰن الرحيم، وتوكلنا عليه، واعتصمنا بجنابه، وسوف تعلمون لمن تكون عاقبة الأمور في الدنيا قبل الآخرة: للمؤمنين بالله، الموحدين لجلاله، المنزهين لذاته العلية عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد أم للذين أشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطاناً فغرقوا في وحل الشرك، وانحرفوا إلى طريق الضلال المبين؟

وتهديداً لهؤلاء الضالين تذكّرهم الآية في ختام هذه السورة المباركة بنعمة الماء على العباد، والذي بدونه لا تكون الحياة، فتقول: يا أيها المشركون الضالون التائهون عن الحق، والضالعون في الشرك، الغارقون في ظلام الجهل إذا قدّر الله - تعالى - أن يغور الماء في آباركم حتى لا تستطيعوا الوصول إليه، فمن غير الله القادر يمكنه أن يأتيكم بماء غيره جار على سطح الأرض أو ظاهر تراه العيون وتناله الأيدي والدلاء من الآبار؟

وكان ماء مكة المكرمة في هذا الوقت مستمداً من كل من بئر زمزم وبئر ميمون بن الحضرمي، ولو غار الماء في هذين البئرين لهلك أهل مكة.

من ركائز العقيدة في سورة «الملك»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد؛ وتنزيهه ﷻ عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله. والإيمان بأن بيده ملك كل شيء من الخلق، والأجل، والرزق، والنصر والهزيمة، والعافية والمرض إلى غير ذلك من أمور الوجود، وبأنه على كل شيء قدير، وهو عليم بذات الصدور، وأن هذا الإله الواحد هو المستحق وحده بالخضوع لجلاله بالطاعة والعبادة والخشية والتوكل والإخلاص والتجرّد والتقوى.

2 - اليقين بأن الله - تعالى - هو المهيمن هيمنة مطلقة على كل شيء، وأنه - سبحانه - هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوَ الناس أيّهم أحسن عملاً تمهيداً للبعث بعد الموت، والحشر والحساب، والجزاء بالخلود إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

3 - التسليم بحقيقة الكمال والجمال والإتقان في جميع خلق الله.

4 - التصديق بكل ما وقع من عقاب بالمكذبين من أبناء الأمم السابقة، وبأن للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير، وبأن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير.

5 - الإيمان برسالة الإنسان في هذه الحياة: عبداً لله - تعالى - مستخلَفاً في الأرض لفترة محددة من الزمن، يعبد الله ﷻ بما أمر، ويقوم بواجبات الاستخلاف ومنها عمارة الأرض وإقامة عدل الله فيها، والدعوة إلى دين الله الحق.

من الإشارات الكونية في سورة «الملك»:

1 - الإشارة إلى مرجعية عليا للكون في خارجه ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ وهو ما تنادي به اليوم أحدث الدراسات الفلكية.

2 - الإشارة إلى خلق كلٍّ من الموت والحياة، ليبلو الله - تعالى - عباده أيهم أحسن عملاً. والعلوم المكتسبة تؤكد على حقيقة تحديد الآجال في لحظة الخلق مما يشير إلى أن الموت مخلوق كما أن الحياة مخلوقة.

3 - وصف السمٰوات بأنها سبع طباق، والتأكيد على أنها محكمة البناء، بلا فراغات ولا أدنى خلل أو اضطراب، والعلوم المكتسبة لا تتجاوز وصف ما تراه من السماء الدنيا

بأكثر من أنّ كوننا هو كون منحنٍ، وذلك لعجز العلماء عن رؤية كل أبعاد السماء الدنيا، أو رؤية شيء مما حولها من سمٰوات.

4 - إثبات أنَّ النجوم هي زينة السماء الدنيا، وأنَّ منها ما جعله الله - تعالى - رجوماً للشياطين من أمثال الشهب والنيازك، والعلوم المكتسبة تشير إلى إمكانية تحول النجوم في نهاية دورة حياتها إلى أجرام صلبة يمكن أن تنفجر وتكوّن النيازك والشهب.

5 - وصف تسخير الأرض للإنسان بتذليلها أي: بجعلها متوافقة مع احتياجاته، متناسبة مع طبيعة حياته وهو ما أثبتته كل الدراسات الأرضية خاصة في مجال علوم البيئة.

6 - الإشارة إلى العلاقة بين خسف الأرض ومورانها، وهي علاقة لم تدرك إلا بعد دراسة ميكانيكية حدوث الزلازل.

7 - وصف الريح بالحاصب، وهو ريح ذو سرعات عالية تمكنه من حمل الحصى والرمال مما يضاعف من قدراته التدميرية.

8 - وصف طرائق تحليق الطيور في السماء بدقة فائقة: (صافّات ويقبضن).

9 - تأكيد حقيقة أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، وأنه ﷻ قد توَّج خلقه بالإنسان الذي أنشأه من العدم، وجعل له السمع والأبصار والأفئدة، وتقديم خلق السمع على الأبصار، والأبصار على الأفئدة - في هذه السورة المباركة، وفي غيرها من سور القرآن الكريم، وذكر السمع بالإفراد، وكل من الأبصار والأفئدة بالجمع - له من السند العلمي ما يؤكده.

10 - الإشارة إلى إمكانية غور الماء في الآبار، وهي ملاحظة علمية دقيقة تصاحب حدوث الصدوع والخسوف الأرضية، أو الثورات البركانية، وغيرها.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثانية من القائمة السابقة التي وردت في الآية رقم (2) من سورة الملك والتي تتحدث عن خلق كل من الموت والحياة، ليبلو الله - تعالى - عباده أيهم أحسن عملاً. والعلوم المكتسبة تؤكد على حقيقة تحديد الآجال في لحظة الخلق مما يشير إلى أن الموت مخلوق كما أن الحياة مخلوقة. وقبل ذلك أرى لزاماً علي استعراض عدد من أقوال المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

أقوال المفسرين:

في قوله - تعالى -: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: 2].

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «... ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم، أي: يختبرهم أيهم أحسن عملاً. عن قتادة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء**»[1].

● وجاء في «الظلال» (رحم الله كاتبها برحمته الواسعة) ما مختصره: «الموت والحياة أمران مألوفان مكرران. ولكن السورة تبعث حركة التأمل فيما وراء الموت والحياة من قدر الله وبلائه، ومن حكمة الله وتدبيره: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾. ويضيف رحمه الله: «ومن آثار تمكنه المطلق من الملك وتصريفه له، وآثار قدرته على كل شيء وطلاقة إرادته... أنه خلق الموت والحياة. والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق بها. والحياة تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة. وكلها من خلق الله كما تقدر هذه الآية، التي تنشئ هذه الحقيقة في التصور الإنساني؛ وتثير إلى جانبها اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء... لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسيّ على الأرض، واستحقاقهم للجزاء على العمل: ﴿... لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ...﴾».

● وجاء في «صفوة البيان لمعاني القرآن» (رحم الله كاتبها) ما مختصره: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي خلق بقدرته موت من شاء وما شاء موته، وحياة من شاء وما شاء حياته من الممكنات المقهورة بسلطانه. والحياة صفة وجودية تقتضي الحس والحركة، والموت: صفة وجودية تضاد الحياة، أو هو عدم الحياة عما هي من شأنه. وخلقه على المعنى الأول: إيجاده، وعلى الثاني: تقديره أزلاً...».

● وذكر صاحب «صفوة التفاسير» (جزاه الله خيراً) ما مختصره: «... أي أوجد في الدنيا الحياة والموت، فأحيا من شاء وأمات من شاء، وهو الواحد القهار، وإنما قدم الموت لأنه أهيب في النفوس وأفزع. قال العلماء: ليس الموت فناءً وانقطاعاً بالكلية عن الحياة، إنما هو انتقال من دار إلى دار...».

---

(1) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (6/ 247) وذكره القرطبي في تفسيره (18/ 206).

ونحن نضيف هنا أن الفعل (مات) بمشتقاته وتصاريفه جاء في القرآن الكريم مائة وخمساً وستين (165) مرة، ومن هذه المرات جاء ذكر (الموت) في خمسة وثلاثين (35) موضعاً. ويعرف (الموت) بأنه مفارقة الحياة، وهو مصير محتوم على كل حي بتقدير من الله - تعالى -، لا يستطيع أحد الهروب منه، ولا التقدم أو التأخر عنه. وقد فرضه ربنا - تبارك وتعالى - على جميع خلقه ليفرق بين خلوده وفناء خلقه، وديمومته ﷻ ومرحلية جميع المخلوقين في هذه الحياة، ليتفرد ﷻ بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وليجبر المخلوقين على الخضوع لجلاله بالموت، مؤكداً لهم محدودية كل منهم بأجله، وعجزه عن تأخير هذا الأجل ولو للحظة واحدة وذلك من أجل أن تستمر الحياة حسب مخططه ﷻ جيلاً بعد جيل حتى يرث الأرض ومن عليها.

ويعرف (الموت) بمفارقة الحياة بعد توقف كل مظاهرها بالكامل، وذلك لأنه ضد الحياة ونقيضها. يقال للحي: (ماتَ) (يَموتُ) و(يُماتُ) فهو (ميِّتٌ) بتشديد الياء وتسكينها إذا فارقته الحياة. ويستوي في ذلك المذكر والمؤنث لقول الله - تعالى -: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا...﴾ [الفرقان: 49].

هذا، وقد يعبر بـ (الموتة الصغرى) عن النوم، وذلك لقول ربنا - تبارك وتعالى-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ...﴾ [الأنعام: 60]، ولقوله - عز من قائل -: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ...﴾ [الزمر: 42].

وفي قول ربنا - وهو أحكم القائلين -: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ذكر أغلب المفسرين أن من معانيها أنه - تعالى - أوجد الخلائق من العدم، واستشهدوا بحديث رسول الله ﷺ الذي رواه قتادة رضي الله عنه فقال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء**»(1).

وأشار نفر من المفسرين إلى اختلاف المتكلمين في (الموت) حيث قال بعضهم: أنه أمر موجود مخلوق وهو ضد الحياة، وقال البعض الآخر: إن الموت أمر عدمي فإذا

(1) تقدّم تخريجه.

انعدمت الحياة مات المخلوق الحي، وبناء على هذا الفهم اعتبروا (خلق الموت) الوارد في الآية الثانية من سورة الملك بمعنى (التقدير)، أي أن الله - تعالى - خلق الحياة لأنها أمر وجودي، وقدّر الموت بنهاية تلك الحياة، فإذا جاء أجل النهاية انعدمت الحياة، وقال البعض الآخر: إن (الموت) أمر وجودي كالحياة، أي أنه عند نهاية الحياة يخلق الله شيئاً يسمى (الموت)، ويؤكد ذلك حديث ذبح الموت الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول المنادي: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت**»، ثم قرأ ﷺ قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: 39]»(1)

العلوم المكتسبة تثبت خلق الموت:

في العقود الثلاثة المتأخرة من القرن العشرين أثبتت دراسات الشيفرة الوراثية للإنسان أن تقدير الموت مبرمج فيها. وتتكون الشيفرة الوراثية للجنين من التقاء نطفتي الرجل والمرأة فيتكامل عدد الجسيمات الصبغية إلى (46) وهو العدد المحدد لنوع الإنسان حيث يحمل كل من النطفتين نصف هذا العدد (23 صبغياً فقط). وبتكامل عدد الصبغيات يتحدد كل من الصفات السائدة التي سوف تظهر على الجنين إن قدر الله - تعالى - له الحياة، والصفات المتنحية (المستترة) في شيفرته الوراثية لتظهر في نسله من بعده، ومن هذه الصفات (الأجل) الذي تؤكد الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها أنه مخلوق.

وفي ذلك يروي الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل**

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ (الحديث: 4730) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة والنار، باب: النار يدخلها الجبارون... (الحديث: 7110).

الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»[(1)].

وقد أكَّدت الكشوف العلمية في دراسات الشيفرة الوراثية للإنسان حقيقة أن الموت مخلوق مع خلق الإنسان، ومبرمج في داخل كل خلية من خلاياه الحية بدقة بالغة على النحو التالي:

● 1 - في سنة (1971 م) اقترح العالم الروسي أولوفنيكوف (**Olevnikov**) ضرورة وجود آلية محددة تفسر خروج عملية الانقسام في الخلايا السرطانية عن السيطرة.

● 2 - في سنة (1985 م) تم اكتشاف هذه الآلية المحددة التي تفسر خروج عملية الانقسام في الخلايا السرطانية عن السيطرة، وكانت إنزيماً خاصاً اكتشفه كل من جرايدر وبلاكبيرن (**Greider; Blackburn**) وقد اكتشفا أن هذا الإنزيم يختص ببناء غطاءين طرفيين لكل جسيم من الجسيمات الصبغية عرف كل منهما باسم الغطاء الطرفي (**End Cap or Telomere**) وانطلاقاً من هذا الاسم سمي الإنزيم المتحكم في بناء هذين الغطاءين الطرفيين باسم إنزيم تيلوميريز (**Telomerase**) أو الإنزيم الباني للأغطية الطرفية للجسيم الصبغي.

● 3 - في سنة (1986 م) اكتشف هوارد كوك (**Howard Cooke**) أن طول الغطاءين الطرفيين للجسيم الصبغي يبلغ مداه في لحظة الميلاد، ثم يتناقص مع كل انقسام تقوم به الخلية الحية، وأن هناك علاقة مطردة بين فقد أجزاء من طول هذين الغطاءين الطرفيين وشيخوخة الخلية، فإذا وصل طولهما إلى حد معين ماتت الخلية مباشرة بعد توقفها عن الانقسام.

وتأكدت هذه النتائج باكتشاف أن طول الأغطية الطرفية في كل من الخلايا الجذعية (**Stem Cells**) والخلايا المستنبتة من صغار السن أطول منها في خلايا كل من الكهول والشيوخ من كبار السن، وأن قدرة هذه الخلايا الشابة على الانقسام تفوق قدرة خلايا كبار السن عدة مرات، ومن هنا أطلق على كل واحد من هذه الأغطية الطرفية للجسيمات الصبغية اسم: عداد المضاعفات الانقسامية المتكررة (**Replico meter**) أو عداد الأجل

(1) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي... (الحديث: 6667).

(Longivity Meter) مما شجع بعض الباحثين مثل بودنار (Bodnar) على إعطاء «إنزيم تيلوميريز» لكبار السن لتأخير الشيخوخة ولكن اتضح أن هناك علاقة بين زيادة هذا الإنزيم في الخلايا ونشاطها السرطاني.

● 4 - في سنة (1989 م) لاحظ مورين (Morin) أن هناك علاقة واضحة بين زيادة إفراز «إنزيم التيلوميريز» (The Telomerase Enzyme) في الخلية الحية وبين نشاطها في الانقسامات غير العادية المتسارعة والمعروفة باسم النشاط السرطاني. وقد مهَّد ذلك لإمكانية معالجة الأمراض السرطانية بإيقاف نشاط هذا الإنزيم بواسطة عقار مضاد له أو للمورث المتسبب في إفرازه، ولكن ذلك لم يتم بعد، وإن حاوله شاي (Shay) في سنة 2001 م بفتح باب استخدام «مثبطات إنزيم تيلوميريز» لوقف الأنشطة السرطانية.

وبإثبات خلق الموت مع خلق الحياة ثبت أن الأجل مقدر في داخل الخلية الحية، وأن كلاً من الأمراض والأحداث العارضة والشيخوخة وغيرها من الأحداث الحيوية مقدر كذلك ومدوّن في الشيفرة الوراثية ومحدد بواسطة طول الأغطية الطرفية للصبغيات، وما يفرز من الإنزيم الباني لها مما يحدد عدد مرات انقسام كل خلية حية وبالتالي يحدد أجلها.

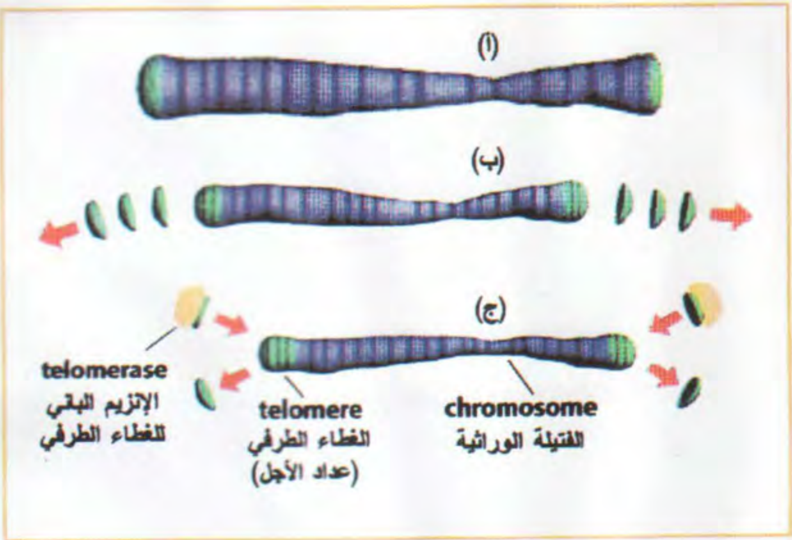

رسم تخطيطي يوضح الغطاءين الطرفيين (Telomeres) لكل واحد من الصبغيات، وهما أطول ما يكون في الخلايا الجنينية (أ). وكلما تقدم العمر ينقص طول كل منهما بتكرار عمليات الانقسام للنمو أو للتكاثر (ب). وفي الشيخوخة يكون طول كل منهما بالغ القصر (ج) ويظلان يقصران حتى لحظة الوفاة.

● 5 - بمجرد فقد الخلية الحية لقدرتها على الانقسام فإنها تبدأ في فقد أجزاء من محتواها البروتيني الموجود في كل من السائل الخلوي والنواة، وقد تتورم الخلية حتى تنفجر ملقية بمحتوياتها في الأنسجة المجاورة، وقد تتعرض النواة إلى التفتت أو الانكماش. وينتج ذلك عن فقد غشاء الخلية قدرته على التحكم في مرور السوائل إلى داخل الخلية أو إلى خارجها، مما يؤدي إلى انفجارها وتناثر مكوناتها التي قد تتعرض هي الأخرى للانفجار أو للالتهام بواسطة الخلايا المجاورة، أو للانكماش مكونة عدداً من الفقاقيع الغازية على سطحها. وهذه العمليات تتم بدقة فائقة مما حدا بالعلماء إلى تسميتها باسم «**الموت الخلوي المبرمج (أو المقدر)**» **(Programmed Cell Death Or PCD)** ويطلق عليه باللاتينية اسم **(Apoptosis)**، وهي خاصية داخلية في الخلية الحية توظف لصالح الجسد الذي يحتويها، وتحدد أجله عند لحظة الوفاة، وتتم بواسطة عدد من العوامل الخاصة التي تعرف باسم عوامل الحث على الموت أو الإغراء بـــــه **(Apoptosis-Inducing Factors or A.I.F)**، ومن هذه العوامل أعداد من مواد بروتينية خاصة تختزن في المسافات بين الطيات الغشائية للمتقدرات.

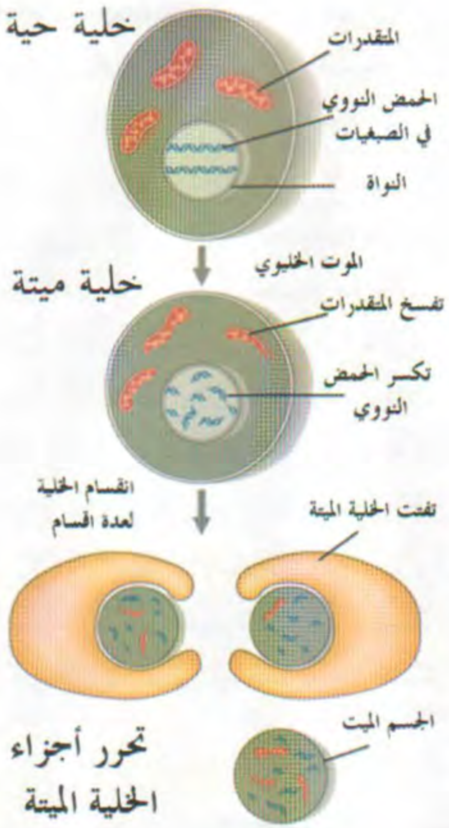

وهذه العوامل المستحثة على الموت تحدد في الأيام الأولى من الحمل وفق عدد من القوانين التي يأمر الخالق العظيم ببثها في الخلايا الحية لحظة خلقها، ومنها خلايا جنين الإنسان، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل**

الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»[1].

● 6 - بذلك يدب الموت بالتدريج في خلايا كل جسد حي بدءاً من العضيات الدقيقة في داخل الخلية إلى الخلايا ذاتها، ثم الأنسجة فالأعضاء والأجهزة منتهياً بالانهيار الكامل للكائن الحي بالوفاة، والتي يعلن عنها طبياً بوقف كل من القلب والرئتين عن العمل والانخفاض الملحوظ في درجة حرارة الجسم وتصلبه أو تخشبه، وانتشار الزرقة فيه خاصة في كل من الشفاه والأطراف، وظهور عدد من البقع الدموية على الجلد، وتوقف حركه العينين. وباستخدام الأجهزة المتطورة في غرف العناية المركزة يمكن استنهاض عمل كل من القلب والرئتين، وعلى ذلك فإن الموت الحقيقي يتحدد بموت الدماغ، والذي من أعراضه الدخول في إغماء كامل لا فواق منه، والموت محدد سلفاً في لحظة الخلق الأولي للكائن الحي.

● 7 - ومن قبل ألف وأربعمائة سنة نزل القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: 2].

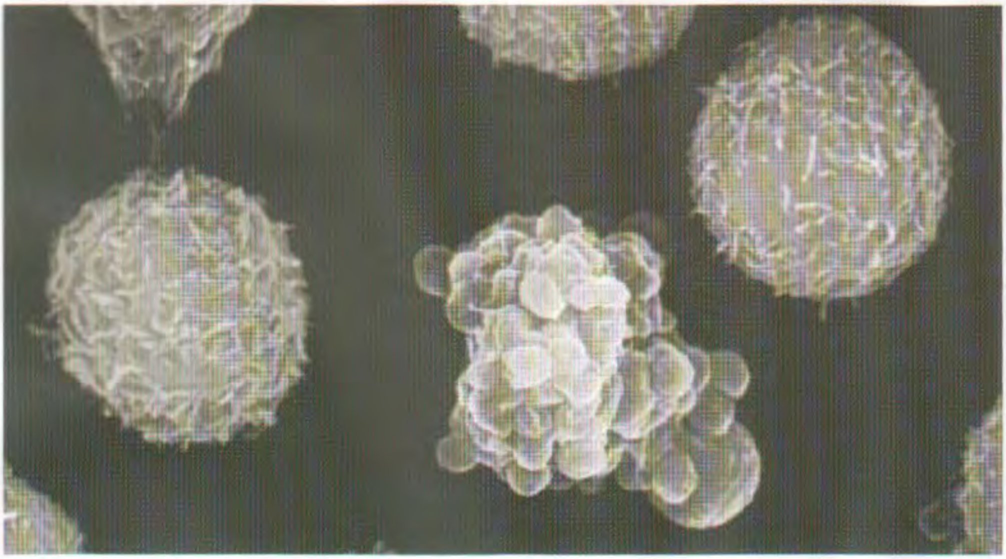

صورة حقيقية لخلايا حية بينها خلية ميتة وقد بدأت بالانفجار والتفسخ.

---

(1) تقدم تخريجه سابقاً.

ولم يدرك أحد من الخلق حقيقة أن الموت مخلوق كالحياة - وفي نفس الوقت الذي تخلق فيه الحياة - إلا في العقدين المتأخرين من القرن العشرين. وسَبْقُ القرآن الكريم بتقرير ذلك مما يثبت لكل ذي بصيرة بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية - والذي لم يقطعه لرسالة سابقة أبداً - وحفظه في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بذلك الحفظ الكامل حتى قيام الساعة ليبقى القرآن الكريم حجة على جميع الخلق - عربهم وعجمهم - إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها. فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة سيد الأنام، سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

9 - ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾

[الواقعة: 60]

هذه الآية الكريمة جاءت في ختام الثلث الثاني من سورة «الواقعة»، وهي سورة مكية، وآياتها ست وتسعون (96) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بذكر القيامة، و(الواقعة) من أسمائها لتحقق وقوعها، ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضية البعث، وحتمية وقوعه، والرد على منكريه.

وتبدأ هذه السورة الكريمة بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣)﴾ [الواقعة: 1-3].

ومن معاني ذلك: إذا وقعت صيحة القيامة - وهي حتماً واقعة - وذلك حين ينفخ في الصور النفخة الأولى فيدمر الكون، ويهلك كل حي، ثم ينفخ فيه النفخة الثانية فيبعث كل من في القبور، ويقوم الموتى بعد تحلل أجسادهم وبلاها، وحينئذٍ لا يمكن لأحد تكذيبها، وفيها يخفض أقوام إلى أسفل سافلين، ويرفع آخرون إلى أعلى عليين. وقد سبق لنا تلخيص سورة «الواقعة» وما جاء فيها من ركائز العقيدة والإشارات الكونية، في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم (23)، ولا أرى حاجة إلى تكرار ذلك هنا.

ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)﴾ [الواقعة: 60]

من الدلالات اللغوية لألفاظ الآية الكريمة:

أولاً: (قَدَّرنا): يقال: (قَدَرَ) الشيء و(قَدَّره) (تقديراً) من التقدير،

و(الاقتدار) على الشيء (القدرة) عليه. و(القَدْر) و(التقدير) تبيين كمية الشيء، و(قَدَّره) بالتشديد أعطاه (القدرة). وعلى ذلك فإن (تقدير) الله للأشياء على وجهين، **أحدهما**: بإعطاء (القدرة)، **والثاني**: بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة، وقوله - **تعالى** -: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ فإنه تنبيه أن ذلك حكمة من حكم الله من حيث إنه هو المُقَدِّر، وتنبيه آخر أن ذلك من الأمور (المقَدَّرة) المفروضة والتي لا فرار منها، ولا تبديل لحكم الله فيها. ومعنى ذلك أن الله - تعالى - يؤكِّد لخلقه قوله العزيز: نحن قضينا عليكم بالموت، وجعلنا لموت كل فرد منكم لحظة محددة لا يتقدم عنها ولا يتأخر.

ثانياً: تعريف الموت: جاء ذكر (الموت) في القرآن الكريم خمساً وثلاثين (35) مرة، وجاء الفعل (مات) بمختلف تصريفاته بما في ذلك الموت في مائة وخمسة وستين (165) موضعاً. ويعرف **(الموت)**: بأنه مفارقة الحياة، وهو مصير محتوم على كل حي بتقدير من الله - تعالى - فلا يهرب منه أحد، ولا يتأخر أو يتقدم عنه أحد، وذلك من أجل استمرارية الحياة على الأرض جيلاً بعد جيل حتى يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، والموت مرحلة مكملة لمرحلة الحياة الدنيا، ونقلة منها إلى الآخرة. و**(الموت)** لغة ضد الحياة، يقال: (ماتَ) (يموتُ) و(يُماتُ) فهو (ميِّت) و(مَيْتٌ) مشدداً ومخففاً، ويقال: قوم (مَوْتى) و(أمواتٌ) و(ميِّتون) مشدداً ومخففاً، ويستوي فيه المذكر والمؤنث لقول الله - تعالى -: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا...﴾ [الفرقان: 49].

و(الميتة) ما لم تلحقه الذكاة، و(المُوات) بالضم الموت، وبالفتح ما لا روح فيه، أو الأرض التي لا مالك لها ولا ينتفع بها أحد، و(المَوَتان) بفتحتين ضد الحيوان. ويقال: (أماته) الله و(موّته) أيضاً، و(المُتَماوِت) من صفة المرائي المتظاهر بالموت، و(المُستَميت) المتعرض للموت؛ وقد يعبر عن النوم بتعبير (الموتة الصغرى). وذلك لقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ...﴾ [الأنعام: 60]. وقوله - عز من قائل -: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾ [الزمر: 42].

ثالثاً: (السبق) في قوله - تعالى -: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾:

أصل (السبق) التقدم في السير، و(المسبوق) هو المغلوب الذي تقدم عليه غيره، وعلى ذلك فمن معاني قوله - تعالى -: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: وما نحن بمغلوبين أي:

عاجزين عن إهلاككم بالموت وإهلاك أمثالكم، ثم إنشائكم خلقاً آخر في هيئة لا تعلمون عنها شيئاً وما ذلك على الله بعزيز.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

يقول ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ [الواقعة: 58-62].

ولعل من المقصود بقول ربنا - وهو أحكم القائلين -: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨)﴾ أي: ما تنتجون من نطف مخصبة (أمشاج مختلطة) بعمليات التزاوج والإخصاب وذلك لقوله - تعالى - في مقام آخر: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦)﴾ [النجم: 45، 46].

ولما كانت هذه النطف على قدر من التعقيد في البناء، والدقة في إمكانية الالتقاء وتكوين النطفة الأمشاج، وما يتم فيها من هلاك بلايين النطف، ونجاح آحاد فقط منها في إتمام عملية الإخصاب وتحديد صفات الجنين بدقة بالغة فلا يمكن أن تكون نتاج الصدفة أو العشوائية، بل لا بد أنها مخلوقة ومقدرة بتقدير خالق عظيم له من طلاقة القدرة، وإحاطة العلم، وكمال الحكمة ما أمكنه من خلقها وتقدير صفاتها، ولذلك جاء السؤال الإنكاري، التقريعي، التقريري الذي يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩)﴾. ويأتي الرد قاطعاً، حاسماً، جازماً: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)﴾.

مما يشير إلى أن تقدير الموت هو عملية مبرمجة في الشيفرة الوراثية التي تتكون بالتقاء كل من نطفتي الرجل والمرأة، وبتكامل عدد الجسيمات الصبغية إلى (46) حيث تحمل كل واحدة من النطفتين نصف هذا العدد (23 صبغياً فقط)، وبتكامل عدد الصبغيات يتحدد كلٌّ من الصفات السائدة التي سوف تظهر على الجنين في مستقبل حياته إذا قدرت له الحياة، كما يتحدد عدد من الصفات المتنحية التي تختزن في شيفرته الوراثية لتظهر في نسله من بعده.

ومن هذه الصفات: الأجل، وفي ذلك يروي الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن

مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد**»(1).

وقد بدأت الكشوف العلمية في إثبات حقيقة أن الأجل مبرمج في داخل كل خلية حية بدقة بالغة. ففي سنة (1971م) اقترح العالم الروسي أولوفنيكوف (**Olovnikov**) ضرورة وجود آلية محددة تخرج عملية الانقسام في حالة الخلايا السرطانية عن معدلاتها العادية.

وفي سنة (1985 م) اكتشف كل من جريدر، وبلاكبيرن (**Greider, Blackburn**) وجود غطاءين طرفيين لكل جسيم صبغي (**Chromosome**) عرف كل منهما باسم الغطاء الطرفي (**End Cap or Telomere**)، واكتشفا إنزيماً خاصاً ببناء هذين الغطاءين سمي باسم الإنزيم الباني للأغطية الطرفية للجسيم الصبغي أو إنزيم تيلوميريز (**Telomerase**).

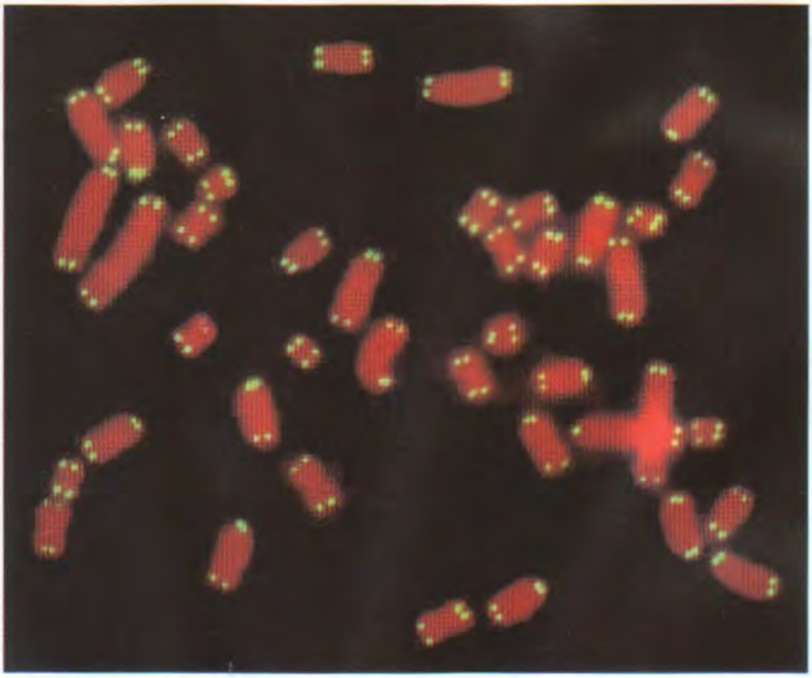

صورة تظهر الصبغيات باللون الأحمر وتبدو الأغطية الطرفية للصبغيات (Telomeres) بلون مختلف.

(1) تقدم تخريجه سابقاً.

في سنة (1986م) اكتشف هوارد كوك (**Howard Cooke**) أن طول هذين الغطاءين الطرفيين للجسيم الصبغي يتناقص مع كل انقسام تقوم به الخلية الحية، وأن هناك علاقة مطردة بين فقد أجزاء من طول هذين الغطاءين الطرفيين وشيخوخة الخلية حتى وفاتها عندما يصل هذا الطول إلى حد معين يتوقف عنده انقسام الخلية وتبدأ في الاحتضار. وتأكدت هذه الملاحظة بإثبات أن طول الأغطية الطرفية في كل من الخلايا الجذعية (**Stem Cells**) والخلايا المستنبتة من صغار السن أطول منها في خلايا الكهول وكبار السن، وأن لها قدرة أكبر على الانقسام لعدد أكبر من المرات، ومن هنا أطلق على كل واحد من هذه الأغطية الطرفية للجسيمات الصبغية المبرمجة لعدد محدد من الانقسامات اسم «عداد المضاعفات» (**Replicometer**) أو «عداد الأجل» (**Longivity Meter**). وثبت بذلك أن الأجل محدد في داخل كل خلية حية بعدد محدد من انقسامها، تتوقف بعده عملية انقسام الخلية فتفسح المجال لعمليات الهدم حتى تموت الخلية.

الصبغيات (باللون الأحمر) تكون طويلة في الصغر وتقصر كلما تقدم العمر بتكرار عملية الانقسام من أجل النمو أو التكاثر.

في سنة (1989م) لاحظ مورين (**Morin**) أن هناك علاقة واضحة بين زيادة إفراز «إنزيم التيلوميريز» (**Telomerase**) في الخلية الحية وبين نشاطها في الانقسامات غير العادية المتسارعة والمعروفة باسم «النشاط السرطاني»، وذلك بسبب

التعويض المتصل لما يفقد من طول الأغطية الطرفية بتأثير الإفراز الزائد «لإنزيم التيلوميريز»، ولذلك تستمر الخلية السرطانية في الانقسام المتسارع بلا توقف حتى تقتل أو تموت، مما يشير إلى إمكانية القضاء على الأورام والأمراض السرطانية الأخرى بإيقاف نشاط هذا الإنزيم الباني للأغطية الطرفية للكروموسومات، وذلك بتحضير عقار يوقف عمله أو عمل المورث المتسبب في زيادة إفرازه.

وبإثبات أن الأجل مقدر في داخل الخلية الحية ثبت أيضاً أن كلاً من الأمراض والشيخوخة وغيرهما من الأحداث الحيوية مقدر، وذلك باكتشاف حدود مقدرة لعدد انقسامات كل خلية من الخلايا الحية في جسم الإنسان، واكتشاف الموت المبرمج في داخل كل من الخلايا الحية وللعضيات الخلوية الدقيقة الموجودة بداخل تلك الخلايا الحية من مثل المتقدرات (**Mitochondria**).

فباستثناء الحوادث التي تنتج عنها إصابات قاتلة، فإن الموت يدب بالتدريج في كل جسد حي من عضيات الخلايا، إلى الخلايا، فالأنسجة، ثم الأعضاء والنظم منتهياً بانهيار الكائن الحي انهياراً كاملاً والذي يعلن عنه طبياً بالدخول في غيبوبة كاملة بسبب موت جذع المخ، وبتوقف كل من القلب والرئتين عن العمل، وانتشار الزرقة في الأطراف والشفاه، وتوقف حركة العينين، والانخفاض الملحوظ في درجة حرارة الجسم، وتخشبه وتصلبه وظهور عدد من البقع الدموية على الجلد. والسبب الحقيقي في ذلك هو انتهاء الأجل بوصول الأغطية الطرفية للصبغيات إلى نهاية سمكها. وباستخدام الأجهزة المتطورة في غرف العناية المركزة يمكن استنهاض عمل كل من القلب والرئتين، وعلى ذلك فإن الموت الحقيقي يتحدد بموت الدماغ (**Cerebral Death**) والذي من ظواهره الدخول في إغماء كامل لا فواق منه.

وقد لوحظ أنه بمجرد فقد الخلية الحية لقدرتها على الانقسام فإنها تبدأ في الاحتضار وذلك عن طريق فقد جزء من محتواها البروتيني من كل من السائل الخلوي والنواة، ثم تورم الخلية حتى تنفجر ملقية بمحتوياتها في الأنسجة المجاورة، وتعرف عملية انفجار الخلية باسم (**Cytolysis**)، كما يعرف انفجار النواة باسم (**Karyolysis**)، وقد تتعرض النواة إلى التفتت (**Karyorhexis**) أو للانكماش (**Pyknosis**).

ويعرف ذلك باسم «الموت الخلوي المبرمج في داخل الخلية» أو (**Apoptosis**) ويتم على مراحل متتالية منها ما يلي:

1 - انتفاخ الخلية وما بها من عضيات مثل المتقدرات (**Mitochondria**) نتيجة لفقد

غشاء الخلية قدرته على التحكم في مرور كلٍّ من الماء وما يحمل من الأيونات إلى داخل الخلية أو إلى خارجها.

2 - انفجار الخلية وتسرب محتوياتها إلى الوسط المحيط بها مما يؤدي إلى التهامها بواسطة الخلايا والأنسجة المجاورة لها.

3 - وقد تنكمش الخلية مكونة عدداً من الفقاقيع الغازية على سطحها والناتجة عن بداية تحلل مكوناتها دون انفجارها.

4 - انفجار نواة الخلية وتسرب ما فيها من جسيمات صبغية، وأحماض نووية ومواد بروتينية، وكذلك انفجار العديد من العضيات من أمثال المتقدرات، والريباسات، وأجهزة جولجي، والجسيمات الحالة وغيرها دون انفجار الخلية ذاتها.

رسومات تخطيطية توضح الموت الخلوي المبرمج في داخل الخلية (Apoptosis).

وهذه العمليات من انفجار الخلية، أو تحللها دون انفجار، أو انفجار مكوناتها تتم بدقة فائقة مما حدا بالعلماء إلى تسميتها باسم «**الموت الخلوي المبرمج أو الموت المقدر**» (**The Programmed Cell Death or PCD**) ويطلق عليه باللاتينية اسم (**Apoptosis**) وهو خاصية داخلية في الخلية الحية، لازمة لإزالة العديد من الخلايا والأنسجة التي أدت دورها كالأغشية الجلدية بين أصابع اليدين والقدمين في الجنين البشري (الحميل)، وإزالة بطانة الرحم مع كل دورة شهرية في الأنثى البالغة. وفي إزالة بعض الخلايا المعترضة لإقامة الوصلات العصبية الدقيقة في المخ، وفي التخلص من

الخلايا التي غزتها الفيروسات، أو من خلايا جهاز المناعة المعطوبة كي لا تبدأ بمهاجمة خلايا الجسد السليمة بدلاً من مهاجمتها للأجسام الغريبة، وكذلك التخلص من الخلايا التي تصاب بشيء من العطب في شيفرتها الوراثية. وعلى ذلك فإن عملية الموت المبرمج للخلايا هي عملية لازمة في كثير من مراحل النمو المتتالية، وتتم بواسطة أوامر خاصة تعرف باسم «**عوامل الأمر بالموت**» (**Apoptosis-Inducing Factors or AIF**)، ومن هذه العوامل أعداد من المواد البروتينية الخاصة تختزن في المسافات بين الطيات الغشائية في المتقدرات (**Mitochondria**)، وعندما تتلقى الخلية الحية الأمر بدنوِّ أجلها يطلق بروتين خاص من المتقدرات ويتحرك ليصل إلى نواة الخلية فيلتصق بالحمض النووي في الصبغيات، ويبدأ في تدميره بالتدريج حتى يأذن بموت الخلية فيتفتت الحمض النووي مما يحول النواة إلى كتلة مفرغة من الأحماض النووية فتتفتت الخلية ذاتها إلى عدد من الشظايا تلتهمها بقية الخلايا، ويعرف ذلك باسم «**التنخر الخلوي**» (**Necrosis**).

وبرنامج الموت المقدر يحدد في اللحظات الأولى لخلق النطفة الأمشاج، ويظهر بشكل جلي في خلايا الأجهزة المناعية، فتفرز خلايا دفاعية تعرف باسم «**المعدلات**» (**Neutrophils**) في نخاع العظام بطريقة مستمرة، ومنها تنتقل إلى الدم للمساهمة في الدفاع عن الجسم وذلك بالبحث عن «**مسببات الأمراض الغازية له**» (**Invading Pathogens**) فإن وجدتها احتوتها وقتلتها وماتت معها موتاً مقدراً، فإن لم تجدها ماتت بعد يوم واحد موتاً مقدراً كذلك ليحل محلها خلايا أحدث عمراً، وتتعرض الخلايا التي تموت هذا الموت المقدر لسلسلة من التغيرات كالتي ذكرناها من قبل؛ ومنها **انتفاخ الأغشية المعروف باسم** (**Zeiosis**)، ويتم ذلك وفق عدد من السنن والقوانين المنضبطة والمحكمة والتي أودعها الله - تعالى - في جميع خلايا الأجساد الحية ومنها جسم الإنسان.

ومن المبهر حقاً أن يأتي تعبير (المنية) وهو الأجل المحدد والمقدر للكائن الحي بالموت مستمداً من (المني) وهو السائل الحامل للنطف (خلايا التناسل) التي قدرت فيها الآجال، وقدرت بها استمرارية الحياة.

وجمع (المنية) (المنايا)، و(المنون)، ولذلك يقال: (مُنِيَ) له، أي: قُدِّر له، لأن الموت مقدر على كل حي، والأجل لحظة محددة له.

ومن قبل ألف وأربعمائة سنة نزل القرآن الكريم مؤكِّداً أن آجال المخلوقات بيد الله - تعالى - وحده، حدّدها مكاناً وزماناً قبل أن يخرج الجنين من بطن أمه، ومن هنا جاءت الآية الكريمة التي نحن بصددها والتي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ وجاء التأكيد على هذه الحقيقة في عشرات من آي القرآن الحكيم نختار منها قوله - تعالى -:

- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا. . .﴾ [آل عمران: 145].
- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ. . .﴾ [آل عمران: 185، الأنبياء: 35، العنكبوت: 57].
- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: 23].
- ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: 11].
- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42].
- ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 26]
- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ [قٓ: 43].

هذه الحقائق تؤكِّد لكل ذي بصيرة، ربّانية القرآن الكريم وإعجازه للعالمين في كل أمر من أموره، كما تشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وعلى من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

10- ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾

[القيامة: 3-4]

هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في مطلع سورة «القيامة»، وهي سورة مكية، وآياتها أربعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لحديثها عن الآخرة وأهوالها، وعن عدد من علاماتها، وعن الأحداث الكبرى المصاحبة لها، من لحظة الاحتضار وما فيها من التأكيد على حقيقة الموت وحتميته، إلى هول البعث والحساب والجزاء، مع التذكير بشيء من طبائع النفس الإنسانية، وميلها إلى التكاسل عن طاعة الله - تعالى -، وإلى الإقبال على الدنيا، ونسيان الآخرة، ومن هنا كان امتداح النفس اللوَّامة، التي تلوم صاحبها كلما قصر في عبادة الله.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، شأنها في ذلك شأن كل السور المكيّة. وقد سبق لنا استعراض هذه السورة المباركة وما جاء فيها من ركائز العقيدة والإشارات الكونية في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم «15». وسوف نركز هنا على الدلالات العلمية للآية الكريمة.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾:

بعد وفاة الإنسان ودفن جسده في تراب الأرض يبدأ هذا الجسد في التحلل بعملية معاكسة تماماً لعملية بنائه التي بدأت أصلاً من

الهيكل العظمي لدى الإنسان البالغ من الأمام ومن الخلف، يمثل دعامة للجسم ويحمي الأعضاء الداخلية ويساعد على الحركة.

«تراب الأرض» الذي ارتوى بالماء فأصبح «**طيناً**»، وأذاب الماء من هذا الطين ما قَبِل الذوبان فيه من عناصر الأرض ومركباتها حتى تمايزت من بين حبات هذا الطين سلالة مذابة في الماء وصفها القرآن الكريم بتعبير «**سلالة من طين**»، وبتبخير المحاليل المذيبة لتلك السلالة جزئياً ترسبت بعض العناصر والمركبات بين حبيبات المعادن الصلصلية فأصبح الطين «**طيناً لازباً**» أي لاصقاً بعضه ببعض. وبجفاف هذا الطين اللازب أصبح «**صلصالاً من حمإٍ مسنون**» أي: أسود منتن، ثم زاد جفافه فأصبح «**صلصالاً كالفخار**»، «**ثم نفخ الله - تعالى - فيه من روحه فأصبح إنساناً هو آدم أبو البشر**»، ومن آدم خلقت زوجه حواء عليها السلام بمعجزة أمر بها الله - تعالى - وتسلسل نسل آدم منه ومن زوجه حواء عليهما السلام من شيفرتيهما الوراثيتين اللتين خلقهما الله - تعالى - وخلق منهما جميع نسلهما. وتغذى هذا النسل ونمت أجساده على عناصر الأرض التي يمتصها النبات مع عصارته الغذائية من طين الأرض، ثم بواسطة ما يأخذه النبات الأخضر من طاقة الشمس، وما يمتصه من غاز ثاني أكسيد الكربون من الجو، وبما وهبه الخالق سبحانه وتعالى من

قدرات يحوّل بها ذلك كله إلى ثمار ومحاصيل يحيا عليها كلٌ من الإنسان وبعض الحيوان، وكل ما يباح للإنسان أكله من الحيوان ومنتجاته، وأصل ذلك كله من تراب الأرض.

ثم إذا مات ابن آدم، وغادرت روحه جسده، فإن هذا الجسد يبدأ في اليبوس والتخشب حتى يصير كالتمثال الحجري أو «**صلصال كالفخار**»، وبعد دفنه يبدأ في التحلل التدريجي الذي تقوم به البكتيريا والفيروسات، والفطريات والطحالب التي تعايشت مع الجسد في حياته، والتي توجد في جو وتربة القبر الذي يدفن فيه، فيتغير لونه، وتنتن رائحته (أي تفسد) حتى يصير «**صلصالاً من حمإٍ مسنون**»، ثم يتحول إلى «**طين لازب**» بفقد جزء من محتواه المائي، وبفقد جزء آخر من مائه يتحول إلى طين، ليس كأي طين، ولكن له تركيب خاص يجعله «**سلالة من طين**» وبفقد كل محتواها من الماء تتحول هذه السلالة من طين إلى تراب يغيب في «**تراب الأرض**» فيما عدا فضلة واحدة سماها رسول الله ﷺ باسم: «عجب الذنب»، ووصفها بأنها عظمة في حجم حبة الخردل توجد في نهاية العصعص، وأنها لا تبلى أبداً، وأن الإنسان يبعث منها في يوم القيامة بعد إنزال مطر خاص فينبته الله - تعالى - من عجب الذنب كما ينبت البقلة من بذرتها، وقد أيَّدت الدراسات المختبرية صدق هذا الوصف النبوي الشريف بأن الشريط الأولي الذي ينحسر على هيئة كل أعضاء وأجهزة الجسم يخلق من عجب الذنب الذي لا يبلى أبداً.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**»(1).

وفي رواية أخرى أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «**يبلى كل عظم من ابن آدم إلا عجب الذنب، وفيه يركب الخلق يوم القيامة**»(2).

● كذلك أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون.. ثم ينزِّل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من**

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ (الحديث: 4935)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن، باب: ما بين النفختين (الحديث: 7342).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن، باب: ما بين النفختين (الحديث: 7341).

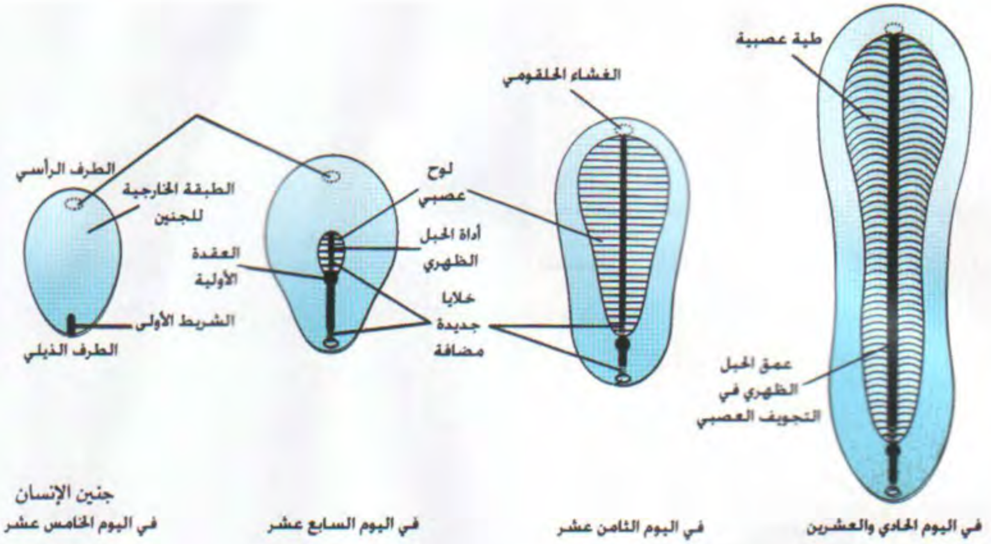

رسومات تخطيطية تظهر تطاول القرص الجنيني خلال الأسبوع الثالث من عمره، وتطاول الشريط الأولي من جراء تراكم الخلايا فيه، ومن ثم يقصر بينما يتطاول القرص الجنيني، ويصبح شكله كمثرياً.

الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»[1].

وواضح الأمر من هذه الأحاديث النبوية الشريفة ومن غيرها أن بلي الأجساد هو حكم إلٰهي عام لا يستثنى منه إلا أجساد كلٍّ من الأنبياء والشهداء، والمؤذنين المحتسبين كما ذكر ابن حجر العسقلاني.

وأحاديث (عجب الذنب) تحتوي على حقيقة علمية لم تتوصل إليها العلوم المكتسبة إلا بعد الثلث الأول من القرن العشرين في سلسلة من الأبحاث قام بها العالم الألماني هانز سبيمان (**Hans Spemann**) الذي نال جائزة نوبل في العلوم (سنة 1935م) لأبحاثه على «الشريط الأولي» في البرمائيات، التي أثبت بها أن جميع أجهزة الجسم تتخلق من هذا الشريط الأولي، وأن هذا الشريط لا يبلى أبداً، وأنه بعد اكتمال تكوُّن جميع أجهزة الجسم فإن هذا الشريط الأولي ينسحب إلى نهايات العمود الفقري التي تعرف باسم العصعص (**Coccyx**) على هيئة عظمة دقيقة سماها رسول الله ﷺ باسم: «عجب الذنب».

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن، باب: ما بين النفختين (الحديث: 7340).

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: 4].

في الرد على منكري البعث جاء قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة: 3،4].

وتسوية بنان الإنسان الحي هو أمر معجز حقاً، والأكثر إعجازاً من ذلك القدرة على إعادة تسوية بنان الإنسان عند بعثه، بعد أن كان جسده قد تحلَّل، وكانت عظامه قد بليت، وغاب ذلك كله في تراب الأرض.

ومن أعظم الدلالات على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة على بعث الأموات من رفاتهم المتحللة هو خلقهم الأول من خليتين متناهيتي الضآلة في الحجم لتعطيا هذا الجسد المكون من تريليونات الخلايا المتخصصة في أنسجة وأعضاء متخصصة تعمل في توافق تام لخدمة هذا الجسد البشري الذي أعطى الخالق ﷻ لكل واحد من بلايينه عبر الزمن عدداً من المميزات الفردية التي منها بصمة البنان.

و(بلى) في الآية الكريمة الرابعة من سورة القيامة هي حرف رد للنفي الذي جاء في الآية السابقة ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ وإلغاء له، وهو جواب للتحقيق يوجب ما جاء في تلك الآية السابقة بمعنى أن الله - تعالى - قادر على جمع العظام بعد تحللها، بل هو ﷻ قادر على ما هو فوق ذلك، ألا وهو إعادة تسوية بنان الميت عند بعثه بتفاصيل بصمته التي ميزته طيلة حياته عن غيره من بني جنسه، والتي تمثل الخاتم الذي ختم به بناء جسده وهو لم يزل جنيناً في بطن أمه لم يتجاوز الشهر الثالث من عمره.

أطراف أصابع اليد وهي البنان، ولكل منا بصمته الفريدة.

واللفظة (قادرين) حال من فاعل الفعل المقدَّر بعد الحرف (بلى) أي: نحن قادرون على أن نجمع العظام النخرة ونحن قادرون على ما هو فوق ذلك ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: نجعلها كاملة الخلقة تماماً كما كانت في حياته الأولى. و(**البنان**) هي الأصابع أو أناملها (**أطراف الأصابع**) وهي جمع (**بنانة**).

ومعنى الآية الكريمة أن الله - تعالى - قادر على إعادة بعث رفات الميت مهما كانت درجات تحللها وبعثرتها في تراب الأرض، وقادر على جمع ذرات كل من عظامه ولحمه وجلده وشعره، وكل صفة كانت في جسده قبل الموت، وقادر على التأليف بين ذلك كله، وإعادة بعث الروح فيه ليرده حياً كما كان قبل الموت. وتخصيص (**البنان**) بالذكر يعود إلى كونها من أبرز الصفات الظاهرة المميزة لكل فرد من بني آدم، وآخر ما يتم من المراحل الأساسية في خلق الجنين، وأنه الخاتم الرباني لكل فرد من بني الإنسان، وتأكيد القدرة على إعادته إشارة إلى قدرة الله ﷻ على بعث الجسد كاملاً دون أدنى نقص.

ومن معاني (**التسوية**) إتمام الأشياء على ما اقتضت من كمال الإتقان في الصنعة.

والخالق العظيم قد أتم خلق الإنسان على أكمل ما يقتضي الخلق من الإتقان، وختم خلق كل فرد من بني الإنسان بتسوية بنانه؛ أي بصمات أصابعه بصفة عامة وبصمات أنامل تلك الأصابع بصفة خاصة. والبصمة عبارة عن شكل محدد من تبادلات واضحة بين عدد من الخطوط البارزة والغائرة في بشرة جلد أصابع كلٍّ من اليدين والقدمين، كما توجد في راحتي اليدين، وفي بطني القدمين وفي جبين الإنسان. وهذه الخطوط تتخذ أشكالاً مميزة لكل فرد من أفراد الجنس البشري، فلا تتطابق في فردين أبداً حتى لو كانا من التوائم المتماثلة، بل لا تتطابق بين أصبعين من أصابع اليد الواحدة أو القدم الواحدة في الفرد الواحد.

ومن الثابت أن بصمة الإنسان تزداد في الحجم مع نمو الجسم ولكنها تظل محتفظة برسمها وشكلها وتفاصيلها المميزة لشخصه طيلة حياته، مما يجعلها دليلاً قاطعاً عليه، وميزة ثابتة له. لأنه حتى لو تقاربت في الشكل بصمتا بنانين مختلفين، فإنه لا يمكن لهما أبداً أن تتطابقا تطابقاً كاملاً في التفاصيل. والأشكال الهندسية للبصمات سواء كانت لأصابع اليدين أو القدمين، أو على راحتي اليدين أو بطني القدمين، أو على الجبين،

هي نمط من الكتابة الدقيقة التي لا يعلمها إلا الله - تعالى- والملَك الذي أُمِرَ بخطّها، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ:

«**إذا خلق الله النسمة قال مَلَكُ الأرحام: أي رب ذكر أم أنثى؟ فيقضي الله أمره، ثم يقول: أي رب شقي أم سعيد؟ فيقضي الله أمره، ثم يكتب بين عينيه ما هو لاق حتى النكبة ينكبها**»[1].

وقد ميَّز الله الخالق البارئ المُصَوِّر كل فرد من عباده بهذه الكتابة على الجبين، وعلى أصابع كلٍّ من اليدين والقدمين، وعلى راحتي اليدين، وبطني القدمين بصورة تجعله منفرداً عن غيره، ومميزاً عن كل من هم سواه من بني البشر. فيختلف في ذلك الأخ عن أخيه، والولد عن أبيه، والبنت عن كل من أمها وشقيقاتها رغم روابط الرحم والدم وبعض الصفات الوراثية الأخرى.

بصمة البنان خاتم مميز لكل إنسان:

(**البنانة**) كما سبق وأن أشرنا هي واحدة (**البنان**) وهي أطراف الأصابع، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء فإنه يوحد ويذكر، فيقال: بنان مخضب. وقد ثبت بالدراسة المستفيضة أن لكل بنان في جسم كل فرد من بني الإنسان بصمة خاصة به، لها من الأشكال والهيئات والتفاصيل المحددة ما يميزها عن غيرها من البصمات.

و(**البصمة**) عبارة عن خطوط بارزة تفصلها منخفضات غائرة في بشرة جلد أصابع كل من اليدين والقدمين، وراحتي اليدين، وبطني القدمين. وتعرف خطوط الأصابع باسم بصمة البنان كما تعرف بصمات راحتي اليدين، وبطني القدمين، والجبين، كما يعرف عن الإنسان بصمة العينين والبصمة الوراثية، وإن كانت بصمات البنان أكثرها شيوعاً لسهولة استخدامها، والخطوط البارزة في البصمة تحمل المسام العرقية. وتتكوَّن بشرة الجلد من خمس طبقات أسفلها الطبقة الملاصقة للجلد وهي التي تجدد البصمة إذا تأثرت بعارض خارجي.

وقد أثبتت دراسات الجنين البشري أن هذه الخطوط المميزة لكل فرد ترسم بعناية فائقة في نهايات الشهر الثالث وبدايات الشهر الرابع من عمر الجنين وهو لا يزال في

---

(1) أخرجه البزار في «مسنده» (الحديث: 2149) نحوه.

بطن أمه، وقد اكتمل هيكله العظمي، وتمت كسوته باللحم (العضلات والجلد) واكتملت أعضاؤه وأجهزته، وأخذت الملامح البشرية في الظهور عليه، وأصبح في الطريق إلى إنشائه خَلْقاً آخر. **وتمثل هذه الخطوط البصمية ختماً خاصاً لكل فرد من أفراد الجنس البشري أعطاه الله - تعالى - إياه، وخصَّ الإنسان به دون سائر المخلوقات، وهذا الختم الإلٰهي لا يمكن تقليده، وقد أعطاه الله ﷻ القدرة على الثبات وعدم التغير، وعلى إعادة التشكل بنفس الهيئة عند تعرضه لأية مؤثرات خارجية من مثل الحروق أو الجروح أو الإصابة ببعض الأمراض الجلدية، أو البلي نتيجة لبعض المزاولات المهنية الشاقة**؛ وتبقى هذه الخطوط بأشكالها، وتفرعاتها، ومواضع اتصالها أو انفصالها ثابتة لا تتغير أبداً حتى تبقى هوية ربانية دائمة لكل واحد من بني الإنسان، إلا إذا تم تشويه الأنامل تشويهاً كاملاً، ووصل هذا التشويه إلى الطبقة السفلى من الجلد وهي الطبقة المعوضة للبصمة، فإذا دمرت هذه الطبقة فإن البصمة لا تعوض، ويتم التحام الجلد ليبقى علامة مميزة أخرى بما يحمل من آثار التشوه.

ومن الثابت علمياً أن البصمات هي صفات فردية محضة لا تورث، ولا تتأثر بعامل النسب، ومن هنا كانت أهميتها في مجال تحقيق الشخصية، ويمكن استخدامها كذلك في التعرف على شيء من صفات تلك الشخصية من مثل الجنس (ذكر أم أنثى)، العمر، الحالة الصحية، الحجم (وذلك لتناسب حجم البصمة مع حجم الجسم)، والمهنة وغير ذلك، والبصمات تترك آثارها على كل جسم تلمسه سواء كان هذا الجسم ذا سطح خشن أو أملس، ومن هنا يمكن الاستفادة بإبرازها في تتبُّع العديد من المجرمين، ومعرفة تفاصيل حدوث الجريمة.

بصمات لبناني شخصين مختلفين
توضحان الفرق بين البصمات وإن تشابهت.

من هذا الاستعراض **تتضح قيمة (البنان) في حياة الإنسان**، وقد سميت بذلك لأن بها صلاح الأحوال التي يمكن للإنسان أن (يبن) بها ما يريد

أن يقيم، أي يتحسس بها الأحوال لتركيز النهايات العصبية والحسية فيها. يقال: (أبن) بالمكان، (يبين) به أي: أقام به بعد أن اطمأن إلى سلامة المقام فيه، ولذلك قال - تعالى -: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾. وقال - عز من قائل -: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12] أي اضربوا على أيديهم التي بها يقاتلون، و(البنة) أيضاً هي الرائحة التي (تبن) بما تعلق به.

و(البنان) تحمل بصمتها التي تعتبر ختماً إلٰهياً جعله الخالق ﷻ علامة جماعية فارقة للإنسان دون غيره من المخلوقات المعروفة لنا، كما جعله ميزة فردية لكل واحد من بني الإنسان تحدد شخصيته تحديداً قاطعاً، وتفرده عن غيره إفراداً مميزاً يتجاوز حدود الصفات الموروثة والمميزة لكل عرق، ودم ولون، وذلك طيلة حياته. والآية الكريمة التي نحن بصددها تؤكد على إعادة بصمة كل بنان مع بعث كل ميت، تأكيداً على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في كل من الخلق والبعث. كما تشير إلى دقة تسوية البنان وإلى أهمية ذلك في حياة الإنسان، وهي أهمية لم تدركها العلوم المكتسبة إلا في مطلع القرن العشرين (1901م) حين استخدم المحتلون البريطانيون بصمات الأصابع في تتبع بعض مقترفي الجرائم في الهند، ثم أصبحت وسيلة من أهم وسائل التشخيص لبني الإنسان في كل دول العالم.

وسبقُ القرآن الكريم بثلاثة عشر قرناً لجميع المعارف المكتسبة، وذلك بالإشارة إلى معجزة تسوية البنان في الأحياء ثم التأكيد على القدرة الإلٰهية بإعادة تلك التسوية عند البعث لَمِمّا يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - وحفظه حفظاً كاملاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وتعهد بذلك الحفظ إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام: سيدنا محمد بن عبد الله، خاتم الأنبياء والمرسلين، وإمامهم أجمعين، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

11 - ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾

[الملك: 23]

هذه الآية الكريمة جاءت في بداية الثلث الأخير من «سورة الملك»، وهي سورة مكية، وآياتها ثلاثون (30) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بالشهادة لله - تعالى - بأنه هو الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، ومن أسماء هذه السورة أيضاً (المانعة) و(المنجية) لأنها تمنع قارئها من عذاب القبر، وتنجيه منه، وذلك لقول رسول الله ﷺ فيها: «**هي المانعة، وهي المنجية، تنجي من عذاب القبر**»(1).

وقد سبق لنا استعراض سورة «الملك» في المقال رقم «8» ولا أرى حاجة إلى تكرار ذلك، وسوف أقصر حديثي هنا على قضية إنشاء الإنسان، وعن خلق كلٍّ من حواس السمع والأبصار والأفئدة.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ﴾

يقال: (أَنشأَه) الله بمعنى خلقه، لأن (الإِنْشاءَ) هو إيجاد الشيء وتربيته، والاسم (النَّشْأة) و(النَّشَاءة). و(أَنشأَ) يفعل كذا يعني: ابتدأ. و(نَشأَ) في بني فلان أي: شبّ فيهم، ويقال: (نُشِّئ) (تَنشِئَةً) وأُنشِئَ بمعنى تربّى. و(ناشِئةُ) الليل أوَّلُ ساعاته، وقيل: ما ينشأ فيه

(1) أخرجه الإمام الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة الملك (الحديث: 2890).

من الطاعات، ويقال: (نشأت) السحابة أي: ارتفعت، و(أنشأها) الله، والمنشآت هي: السفن التي رفع قلعها.

ونشأة الإنسان شغلت باله عبر القرون، وكان السبب في ذلك رغبة الإنسان في التهرب من الإيمان بالخالق ﷻ وفي الوصول إلى صورة مغايرة لعملية الخلق التي أنزلها ربنا - تبارك وتعالى - في جميع الكتب السماوية التي أكملها وأتمها وحفظها في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين.

وقضية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، هي قضية غيبية لم يشهدها أحدٌ من الإنس، ولذلك فإن الدخول إليها بغير الهداية الربّانية كالدخول في نفق مظلم لا نهاية له. والقرآن الكريم يقول لنا فيه ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51].

ولكن على الرغم من ذلك فإن الله - تعالى - يأمرنا بالتفكُّرِ في عملية الخلق بقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ...﴾ [العنكبوت: 20] والجمع بين هاتين الآيتين الكريمتين وبين أمثالهما العديدة في القرآن الكريم يؤكد على وجود آثار في صخور الأرض وفي صفحة السماء يمكن أن تعين الإنسان - بحسه المحدود وقدراته المحدودة - على الوصول إلى تصور ما عن قضية الخلق. ويبقى هذا التصور قاصراً إذا لم يستهدِ الإنسان بالبيان الإلٰهي في كلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكلاهما يؤكد على حقيقة الخلق، وعلى أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء فيقول: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾

[الأنعام: 102].

ويقول: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: 7-9].

وجاءت لفظة خلق بمشتقاتها في القرآن الكريم (252) مرة مؤكدة على حقيقة الخلق وعلى أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء.

وقد أخرج الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حديثاً يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال فيه: «**إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب**»[1].

والحديث أخرجه كذلك كلٌّ من أبي داود والترمذي عن عوف الأعرابي، وكلٌّ من النسائي والبزار، وصححه ابن حبان، وأورده الحافظ في الفتح. وقال عنه الترمذي إنه حديث حسن صحيح.

وعلى الرغم من افتتان الكثيرين بفكرة التطور العضوي إلا أن الدراسات المتقدمة في مجالات علوم الحياة الجزيئية، والخلية، والوراثة أكدت استحالة خلق خلية حية واحدة بمحض الصدفة، فالخلية الحية في جسم الإنسان والتي لا يكاد قطرها يتعدى (0,03 مم) في المتوسط هي في بناء غاية في الإحكام والتعقيد إلى درجة يعجز العقل البشري عن تصوّرها، وينفي نفياً قاطعاً فكرة عشوائية الخلق.

كذلك فإن تدرج عمارة الأرض بأنماط متتابعة من الخلق مع الزمن يؤكد على الحكمة من هذا التدرج، وينفي عنه العشوائية والصدفة.

ثم إن التميز الواضح للإنسان عن غيره من المخلوقات في بناء جسده، وحجم كل من جمجمة رأسه ومخه، وفي انتصاب قامته، وسيره على قدمين، وفي قدرته على التفكير بذكاء والنطق بلغات منطقية صحيحة، وعلى الشعور، والانفعال، والتعبير، وفي القدرة على اكتساب المهارات وتعليمها، وفي المهارات اليدوية المختلفة عنده، بالإضافة إلى غير ذلك من الملكات العديدة التي وهبه إياها الله - تعالى - كل ذلك يقطع بخلقه خلقاً خاصاً لا علاقة له بجميع المخلوقات السابقة على خلقه. والآيات القرآنية العديدة، والأحاديث النبوية الشريفة تقطع بذلك، ومنها حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه كلٌّ من الأئمة البخاري ومسلم وأحمد عن أبي حاتم رضي الله عنه والذي يقول فيه: «**إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته**»[2] أي على صورته الآدمية، فلم يكن قرداً ولا حصاناً، ولا غير ذلك من مخلوقات الله.

---

(1) تقدم تخريجه سابقاً.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: العتق، باب: إذا ضرب العبد... (الحديث: 2559). وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (الحديث: 2/ 327) و(الحديث: 2/ 347).

مجموعة صور تبين مراحل تطور الجنين البشري.

كل ذلك يشير إلى ومضة من ومضات الإعجاز العلمي يقررها قول ربنا - تبارك وتعالى - في قوله العزيز: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم، ونتائج العلم المكتسب باتت تؤكد ذلك وتدعمه.

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿... وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾:

في هذه الآية القرآنية الكريمة، وفي أكثر من أربع عشرة آية قرآنية أخرى جاء ذكر السمع قبل الأبصار: [يونس: 31. هود: 20. النحل: 78، 108. الإسراء: 36. المؤمنون: 78. السجدة: 9. الإنسان: 2. الملك: 23. الأحقاف: 26 (مرتين). الأنعام: 46. فصلت: 22، 30. البقرة: 7، 20] وذلك تأكيداً على الأهمية الفائقة لنعمة السمع على غيرها من الحواس مع إدراكنا لأهمية كل حاسة وهبها الله - تعالى - للإنسان، وتقريراً لحقيقة أن الجنين يسمع في بطن أمه قبل أن يبصر، وكذلك الوليد حديث الولادة فإنه يسمع قبل أن يبصر. كذلك فإن مركزي السمع في مخ الإنسان هما أكثر تقدماً في مواضعهما من المخ من مركز الإبصار. وإذا أضفنا إلى هذه الحقيقة أن الإنسان لا يمكنه سماع صوتين مختلفين في آنٍ واحد، بينما يمكنه إبصار أكثر من شيء بالعين الواحدة أمكننا فهم الحكمة من إيراد السمع بالإفراد، وإيراد الأبصار بالجمع.

(١) تكوّن حاسة السمع في الإنسان:

أذن الإنسان نافذة أجهزة السمع الداخلية.

من الثابت علمياً أن الجنين يستطيع السمع في الشهر الرابع من عمره وهو لا يزال في بطن أمه وسط ظلمات ثلاث. ويبدأ تكوُّن الجهاز السمعي لجنين الإنسان بتكوين الأذن الداخلية من الطبقة الخارجية للعلقة في حدود اليوم الثاني والعشرين من عمر الجنين على هيئة تخانة على جانبي مؤخر المخ. وفي الأسبوع الرابع تتحول هذه التخانة إلى حفرة ثم إلى حويصلة تعرف باسم **حويصلة السمع** التي يتكون منها عقدتا السمع والتوازن، وفي نفس الوقت **يتكوَّن غشاء طبلة الأذن**؛ وفي الأسبوع الخامس تنقسم هذه الحويصلة السمعية إلى قسمين: **أمامي** (ويشمل قناة قوقعة السمع وكيساً صغيراً)، و**خلفي** (ويشمل عدداً من القنوات الهلالية بالإضافة إلى قربة صغيرة)، وهذان القسمان يكوِّنان معاً ما يعرف باسم «**التيه الغشائي**» الذي يحاط بعد ذلك بالعظام التي تعرف باسم **التيه العظمي**، وتملأ المسافة بينهما بالسائل الليمفاوي.

في الأسبوع السادس من عمر الجنين يتكون كل من **صوان الأذن الخارجية وقناتها**، كما **تستطيل قناة قوقعة الأذن**، وتبدأ في اللف على ذاتها لدورتين ونصف الدورة، ويتكون بداخلها **جهاز التوازن** في الأسبوع السابع وتغذيه عقدة التوازن، كما تتكوَّن **عظام الأذن الوسطى (المطرقة والسندان والركاب)** في نفس الفترة.

في الأسبوع الثامن من عمر الجنين يتكون شريط داخل قناة القوقعة يقسمها إلى قسمين: **(جزء سمعي وجزء دهليزي)**، ويتصل كل من جهاز السمع الداخلي وجهاز التوازن **بالعصب السمعي/ الدهليزي** الذي ينطلق من مؤخرة المخ، ويتم تكوين كل من **الأذن الداخلية والوسطى والخارجية** في الشهرين التاليين، وبذلك يتمكن الجنين من السمع في الشهر الرابع من عمره.

(٣) تكوين حاسة الإبصار في الإنسان:

العين أداة حاسة الإبصار.

تبدأ **حوصلة الإبصار** في التخلُّقِ في نهاية الأسبوع الثالث من عمر الجنين كامتداد صغير من مقدمة المخ، ثم تنفصل عنه في الأسبوع الرابع حين تظهر عدسة العين في أواخر الأسبوع الرابع وأوائل الخامس؛ وفي الأسبوع الخامس تأخذ شكل المخروط وتتصل مباشرة بعصب الإبصار، والطبقة الخارجية تشمل كلاً من **قزحية العين والجسم الهدبي**. وتفقد خلايا عدسة العين أنويتها لتصبح كاملة الشفافية، ويظهر كل من **الصلبة والقرنية ومشيمة العين والجفون ورموش العين والملتحمة** في الأسبوع السابع من عمر الجنين.. وتتكون **الغدد الدمعية** في الأسبوع التاسع كامتداد من الملتحمة تفتح عليها وتصب في **القناة الدمعية بالأنف**.

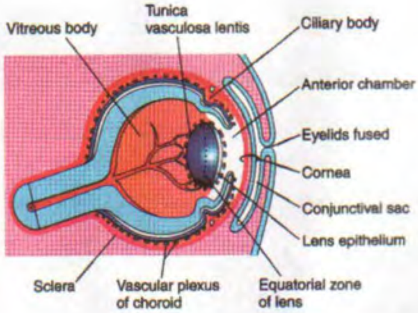

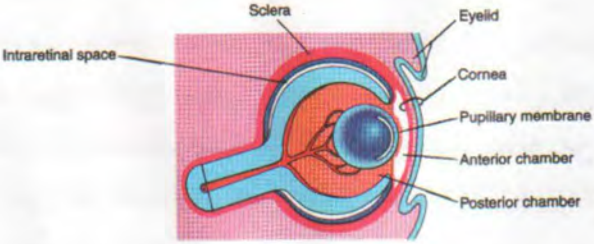

رسوم توضح كيف أن (المحفظة العدسية الوعائية Pupilary membrane) التي تغطي البؤبؤ تتشقق وتختفي في الأسبوع العشرين.

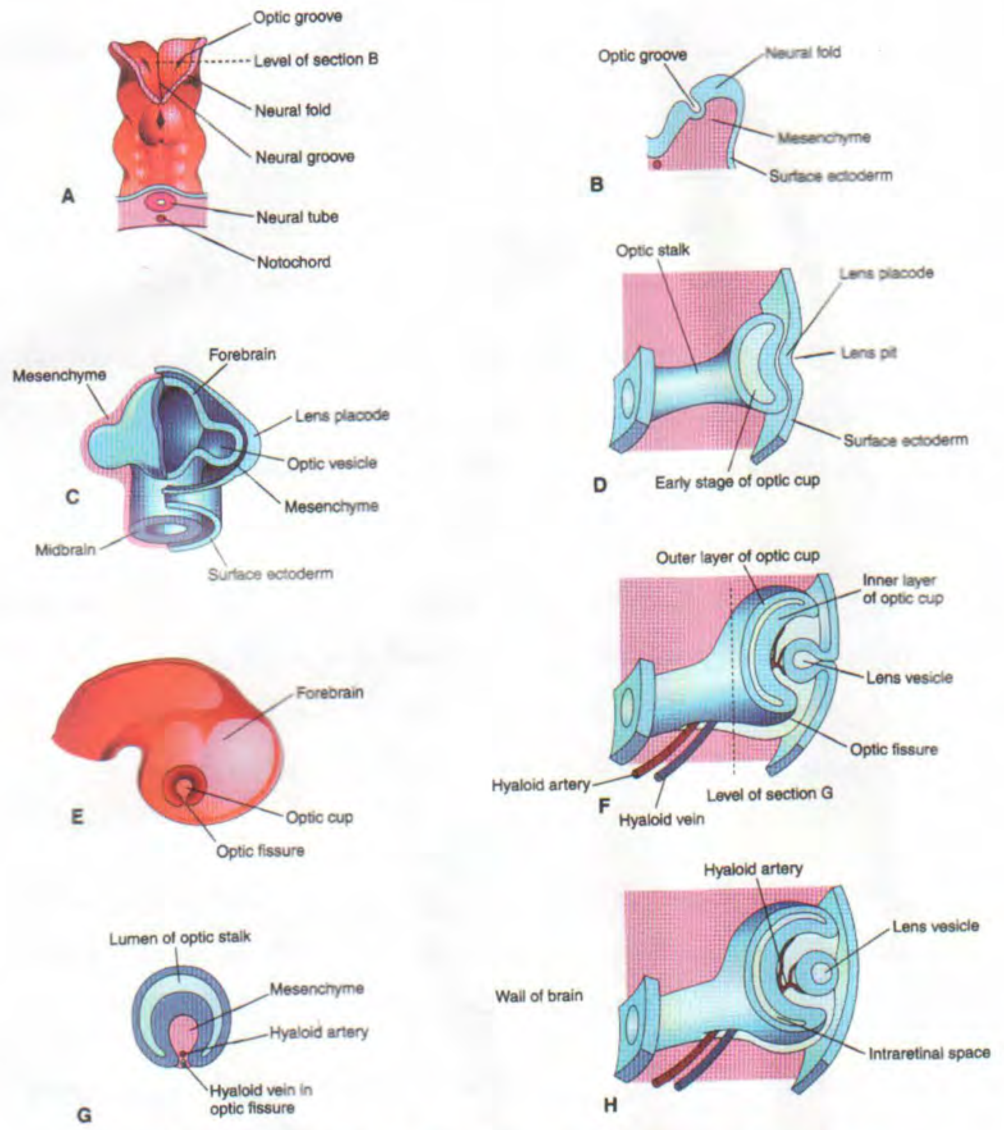

رسوم توضح مراحل خلق العينين في الجنين البشري وكيف أن الحويصلة البصرية (Lens vesicle) تشتق من طبقة الجلد الخارجية وتغور داخل التجويف البصري (Optic cup).

ولا تشق **الجفون إلا في الشهر السابع من عمر الجنين**. بينما تكون قد اكتملت والتصقت في الشهر الثالث، **وتكون شبكية العين قد نمت إلى أربع طبقات وتستكمل إلى تسع بتمام الشهر السابع** ويكون **العصب البصري** قد تصالب في مساره حتى يصل إلى مؤخرة المخ.

(٣) الفؤاد في الإنسان:

كثيراً ما يعبر عن القلب بتعبير الفؤاد، وإن كانا أمرين مختلفين فالقلب عبارة عن عضلة في حجم قبضة اليد، مكانه في الجانب الأيسر من القفص الصدري، يتلقّى الدم الفاسد من كل أجزاء الجسم فيضخّه إلى الرئتين لتتم أكسدته ثم يتلقّى الدم النقي من الرئتين ليتمَّ ضخه إلى مختلف أجزاء الجسم وفي مقدمتها المخ.

أما الفؤاد فيُنظَر إليه على أنه علاقة غيبية بين المخ والقلب تهب الإنسان قدراً من الإدراك الذي لا يقوى المخ وحده على استيعابه، وفؤاد الإنسان لا يتكوَّن إلا بعد تمام تكوّن جميع أجهزة وأعضاء جسمه ومختلف وسائل الحس فيه ولذلك يأتي ترتيبه في القرآن الكريم دوماً بعد كل من السمع والبصر.

من هذا الاستعراض يتَّضح أن التأكيد في هذه الآية الكريمة على أن الله - تعالى - هو خالق الإنسان وخالق كل شيء قد أصبح من الأمور المسلَّمة في نطاق العلوم المكتسبة، وأن تقديم السمع على الإبصار في هذه الآية الكريمة وفي العديد غيرها من آيات القرآن الكريم؛ هو سبق بقرون طويلة لما أثبته علم الأجنة أن الجنين البشري يسمع قبل أن يرى بعدة شهور.

وتقديم كل من السمع والبصر على الفؤاد يشير إلى حقيقة أن الرابطة بين العقل والقلب لا تتم إلا بعد اكتمال بناء كل أجهزة وأعضاء الجسم حتى تقوم هذه العلاقة الغيبية اللطيفة بين العقل والقلب والتي يعبَّر عنها بالفؤاد.

وسَبْقُ القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقائق قبل أن تصل إليها العلوم المكتسبة بأكثر من عشرة قرون كاملة لمما يقطع لكل ذي بصيرة بأن هذا الكتاب المجيد لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية - ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً - وحفظه في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - بكل ما فيه من حق على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وتعهد بهذا الحفظ إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على الناس كافة إلى قيام الساعة بأنه كلام الله الخالق، وشاهداً للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله

على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة سيد الأنام صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

12 - ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾

[يسٓ: 41]

هذه الآية الكريمة جاءت في منتصف سورة «يسٓ»، وهي سورة مكية، وآياتها ثلاثة وثمانون (83) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم الذي قيل فيه إنه من المقطعات الهجائية التي استفتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم، أو أنه من أسماء رسول الله ﷺ أو لقب من ألقابه الشريفة، وذلك بدليل توجيه الخطاب إليه مباشرة في جواب القسم بالقرآن الحكيم على صدق رسالته وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿يسٓ (١) وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٤) تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ (٦)﴾ [يسٓ:1-6].

وهذا الاستهلال الذي يلخص طبيعة الرسالة الخاتمة التي أوحى بها رب العالمين إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وهذا القسم بالقرآن الحكيم على حقيقة نبوته، وصدق رسالته، وعلى استقامة منهج تلك الرسالة السماوية الخاتمة التي أنزلها رب العالمين إنذاراً لأهل الجاهلية في الجزيرة العربية، الذين كانوا قد فقدوا الصلة بوحي السماء، فانحرفوا عن منهج الله، وحادوا عن حقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة فضلوا وأضلوا، خاصة وأن المسافة الزمنية بينهم وبين آخر رسالة سماوية كانت قد طالت فلم يكن آباؤهم الأقربون قد تلقوا مثل هذا الإنذار من الله - تعالى - منذ أيام نبي الله

إبراهيم وولده نبي الله إسماعيل - على نبينا وعليهما من الله السلام - وهذا الإنذار الجديد كما كان لكفار ومشركي الجزيرة العربية هو للثقلين: الإنس والجن من البلايين التي عمرت الأرض من بدء البعثة المحمدية الشريفة إلى اليوم وحتى قيام الساعة.

وبعد هذا الاستهلال تستمر سورة يسٓ بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

[يسٓ:7-12].

وهذه الآيات الكريمة تصف حال الكفار والمشركين في زمن الوحي وفي زماننا الحالي، وإلى يوم الدين فتقول بأن الله - تعالى - يعلم بعلمه المحيط أن أكثر الناس لن يكونوا بمؤمنين، وهؤلاء المحكوم عليهم بالشقاء، كَبَّلُوا أنفسهم بالكفر أو الشرك وبغيرهما من أسباب الضلال فأصبحوا أسرى لهذا الضلال؛ وتشبهه الآيات بمن جُعِلَتْ الأغلال في عنقه تجمع إليها يديه إلى ما دون ذقنه، فارتفع رأسه فصار مقمحاً من شدة الضيق والعذاب مرفوع الرأس إلى الخلف مع غض البصر، لا يستطيع أن يطأطئ رأسه لوصول الأغلال إلى ذقنه، وهو تمثيل رائع لحال هؤلاء المصرين على الكفر بالله - تعالى - أو على الشرك به، وعلى إنكار نبوة الرسول الخاتم ﷺ والكفر برسالته، وعلى عدم الخضوع للحق الذي جاء به، فجعل الله - تعالى - بينهم وبين الحق سدوداً من أمامهم ومن خلفهم، وجعل على أبصارهم غشاوة فلا يبصرون الحق أبداً، فكأنهم قد حبسوا في حظيرة الجهالات، وحرموا من النظر في الدلائل والآيات كالأعمى لا يرى نوراً، ولا يدرك طريقاً، وإنسان هذا شأنه لن يؤمن أبداً سواء جاءه من ينذره أو لم يجئه من الله الإنذار.

وتوجِّه الآيات الحديث إلى رسول الله ﷺ بأن إنذاره لا يفيد إلا من كان لديه الاستعداد الكامل لاتباع هداية رب العالمين كما أنزلت في القرآن الكريم، وفي سنة

خاتم الأنبياء والمرسلين، وخشية الله الذي لا يمكن له أن يراه في الدنيا ولكن يرى آثار إبداعه في خلقه حيثما نظر، وهذا المؤمن، الخاشع، الخاشي هو الذي يستحق البشارة بمغفرة الله لسيئاته، وبمضاعفة أجره الكريم على ما قدم من حسنات. وتضيف الآيات قول الله ﷻ بأنه هو الذي يحيي الموتى، ويسجل على عباده ما قدموا في الدنيا من أعمال، وما تركوا وراءهم فيها من آثار، وكل شيء قد أحصاه في اللوح المحفوظ وهو كتاب واضح مبين، فيه كل ما كان وما هو كائن، وما سوف يكون إلى يوم القيامة.

وفي التأكيد على عدد من ركائز العقيدة الإسلامية - وهي المحور الرئيس للسورة - ضربت الآيات بعد ذلك مثلاً بقرية كان أهلها من عبدة الأوثان، فأرسل الله - تعالى - إليهم رسولين فكذبوهما، وعزز الله ﷻ رسوليه برسول ثالث وتقدم ثلاثتهم بدعوتهم إلى عبادة الله ﷻ وحده بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، فكذبهم أهل هذه القرية الظالمة، وتنكروا لرسالتهم، ورفضوا دعوتهم، فأجابهم المرسلون بأن الله ﷻ يعلم بأنه أرسلنا إليكم، وأن وظيفة الرسول هي مجرد البلاغ المبين عن رب العالمين، والأمر بعد ذلك متروك إلى الناس ﴿. . . فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . .﴾ [الكهف: 29]، وعلى الرغم من هذه السماحة فإنّ العزة بالإثم أخذت أهل هذه القرية فردوا على رسل الله - تعالى - بغلظة بالغة، ورد رسل الله عليهم في حوار يُلخصه القرآن الكريم في الآيتين الكريمتين التاليتين فيقول:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: 18، 19].

وجاء أهلَ هذه المدينة الظالمة رجل صالح من أقصى مدينتهم سمع بالدعوة إلى دين الله فاستجاب لها وآمن بها بعد أن رأى فيها من دلائل الحق، وعلامات الصدق، وسوية المنطق ما أقنعه بها، فجاء يدعو قومه الضالين وهم يجحدون الحق، ويتوعدون الرسل ويتهددونهم:

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن

دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يسٓ: 20–25].

ويوحي تتابع الآيات بعد ذلك في سورة «يسٓ» بأن كفار القرية قتلوا هذا العبد المؤمن، وأن الله - تعالى - أكرمه بمنازل الشهداء، وأدخله الجنة فتقول:

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

[يسٓ: 26،27].

وتؤكد الآيات ما نزل بقومه من العذاب، كما نزل على من سبقهم من الأمم المكذبة بدين الله، فتقول متحسِّرة على الذين لا يتعظون بمصارع الهالكين:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يسٓ:28 –32].

وتستمر الآيات (33 إلى 44) في استعراض عدد من الحقائق الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الكون، والمثبتة لحقيقة الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة للإلٰه الخالق البارئ المصوّر الذي أبدع الكون وجميع ما فيه ومن فيه بعلمه وحكمته وقدرته.

ومع وفرة هذه الآيات الكونية ووضوحها لكل ذي بصيرة فإن الغالبية من العباد في غفلة عنها، ومع كثرة أنبياء الله ورسله الذين أرسلوا لهداية أهل الأرض إلى حقيقة وجودهم ورسالتهم في هذه الحياة وزودوا بالعديد من الآيات والمعجزات التي تشهد على صدق دعواتهم، فإن غالبية أهل الأرض سخروا من أنبياء الله ورسله وكذبوهم وتطاولوا عليهم، وخالفوا أوامرهم، واستعجلوا البعث الذي حُذِّرُوا من أهواله، والعذاب الذي أنذروا به، وهم لا يدرون أن الله سريع الحساب، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس:45-50].

و(الصيحة الواحدة) هنا هي نفخة الصعق التي يموت على إثرها كل حي على حاله، (وهم يخِصِّمون) أي مشغولون بالدنيا يتخاصمون ويتنازعون فيما انهمكوا فيه من شؤونها، غافلين عن الآخرة وأهوالها، ووعيدها.

ثم تنتقل الآيات إلى مشهد البعث فتقول:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس:51-54].

و(نفخة الصور) هنا هي نفخة البعث التي يبعث على إثرها جميع من في القبور مندهشين مذعورين متسائلين: ﴿... مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ ...﴾؟ ثم يتذكرون ما وعدوا به في حياتهم الدنيا ثم كذبته غالبيتهم فيعترفون في صَغار وذِلة قائلين: ﴿... هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

ثم تأتي صيحة العرض الأكبر أمام رب العالمين، وهي صيحة واحدة يجمع على إثرها جميع الخلق أمام خالقهم لحسابهم، وإن كنا لا ندري إن كانت صيحة الحشر هذه هي صيحة البعث أم صيحة أخرى تلي البعث، فهذا كل من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله؛ وبعد صيحة الحشر يسمع جميع الخلائق القرار العلوي يتردد في هذا الموقف الرهيب: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

وتأخذ السورة الكريمة في التمييز بين نعيم أهل الجنة في الجنة وشقاء أهل النار في الجحيم، وترتفع الأصوات مخاطبة أهل النار لتقول:

﴿وَامْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يسٓ: 59–67].

﴿وَامْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي انعزلوا بعيداً وانفردوا وانفصلوا عن المؤمنين للقاء مصيركم من النار و﴿أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ بمعنى أوصيكم، أو أكلفكم، و﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي خلقاً كثيراً، و﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أي قاسوا حرها، واحترقوا فيها.

و﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي لمحونا أعينهم ومسحناها، و﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي تبادروا إلى الطريق ليجوزوه فلم يستطيعوا، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ أي فكيف يبصرون؟ ومعنى ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي لبدلنا صورهم الإنسانية إلى مسخ آخر وهم في أماكنهم.

هذا كله سوف يحدث في الآخرة التي كان الكفار والمشركون يستعجلون وقوعها تكذيباً بها، واستهتاراً بهولها، وهم يعلمون تمام العلم أنهم لو تركوا في الأرض، وعمروا طويلاً، فإنهم صائرون إلى حالة من الضعف والعجز والشيخوخة والهرم مما يضطرهم إلى استعجال الموت، وفي ذلك تقول السورة الكريمة: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يسٓ: 68].

وهذه النكسة هي عاقبة المكذبين في الدنيا، فلا يلقون تكريماً من الله - تعالى - في ضعف الكبر، وعجز الحواس والأطراف، وكثرة الأمراض والعلل، بينما يكرم ربنا - تبارك وتعالى - عباده الصالحين في كبرهم كما يكرمهم في آخرتهم، أما الكفار والمشركون، والطغاة الظالمون المتجبرون فعقابهم في الدنيا أكيد، وحسابهم في الآخرة أنكى وأشد.

وبعد ذلك تعاود سورة «يسٓ» ما بدأته في أولها من تأكيد على حقيقة الوحي الذي

أوحاه الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وعلى صدق نبوته ورسالته، وعلى حكمة القرآن وصفائه الرباني إلى الحد الذي يقسم به ربنا - تعالى شأنه - بحقيقة كل ذلك - وهو الغني عن القسم - فتأتي الآيات بالرد القاطع على الذين ادعوا على رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - بأنه شاعر، وعلى القرآن الكريم بأنه شِعر حين عجزوا عن الإتيان بشيء من مثله وهم في قمة من قمم الفصاحة والبلاغة وحسن البيان فتقول:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: 69، 70].

وتنتقل الآيات في ختام هذه السورة المباركة إلى استعراض عدد آخر من صور إبداع الله في الكون حتى تكون شاهدة على طلاقة القدرة الإلٰهية في إبداع الخلق، وعلى قدرته - تعالى - على الإفناء والبعث، مستنكرة كفر الكافرين وشرك المشركين فتقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: 71-83].

وهكذا تختتم سورة «يسٓ» بهذا الختام الرائع الذي يهز العقل والقلب معاً، والذي فيه رد علمي دقيق على المشركين، وخطاب مطمئن رصين إلى خاتم الأنبياء والمرسلين

- صلوات الله وسلامه عليه -، وعتاب رباني رحيم لكل إنسان مدرك لحقيقة خلقه من نطفة لا تُرى بالعين المجردة لينشئ منها هذا البنيان العجيب في جسد الإنسان البالغ. والنطفة المقصودة هنا هي النطفة الأمشاج (أي المختلطة) الناتجة عن إخصاب البييضة بالحيمن، وذلك لأن النطف المفردة لا تنسل أبداً. والخطاب موجه أيضاً إلى كل متشكك في إمكانية البعث بعد الموت، عَلَّه يدرك حقيقة أن الله - تعالى - قد جعل لنا من الشجر الأخضر النار التي منها نوقد ومنها العديد من مصادر الطاقة المتاحة للإنسان، وأن يدرك أن الذي خلق السمٰوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم - وهو الخلاق العليم -. وتؤكد الآيات في ختام سورة «يسٓ» على أن من صفات هذا الخلاق العليم أن يقول للشيء: كن فيكون لأنه - تعالى - خالق كل من المادة والطاقة، والجمادات، والأحياء، والمكان والزمان، فلا يعصي أمره شيء من خلقه إلا عصاة الإنس والجن في فترة اختبارهم طوال حياتهم الأرضية القصيرة فقط، وقد أعطاهم ﷻ العقل والنفس والشهوات والإرادة الحرة، وحرية الاختيار، وهم مع ذلك داخلون في دائرة قدر الله الغالب الذي لا خروج عليه ولا مهرب منه، ومن هنا ختمت هذه السورة المباركة بتأكيد أن الله - تعالى - بيده ملكوت كل شيء، وأن مصير كل موجود إليه ﷻ فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه. وهذه الآيات الجامعة تهز القلوب الواعية والعقول المستنيرة والأبدان الطاهرة، ويتحرك لوقعها كل ما في الوجود من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، وغير ذلك مما لا نعلم، ومما هو قائم في علم الله ﷻ.

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «يسٓ»:

1 - الإيمان بأن القرآن الحكيم هو تنزيل من رب العالمين لإنذار الخلق أجمعين إنذاراً نهائياً، لأنه آخر الكتب السماوية المنزلة، وأتمها وأكملها، والكتاب السماوي الوحيد الذي تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظه فحفظ حفظاً كاملاً، بنفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وسيظل محفوظاً بحفظ الله وتحقيقاً لعهده إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها.

2 - التصديق بجميع أنبياء الله ورسله، وعلى رأسهم إمامهم وخاتمهم أجمعين، سيدنا محمد بن عبد الله صاحب النور المبين، والصراط المستقيم، الذي آتاه الله - تعالى - جوامع الكلم، ولم يكن شاعراً، ولا الشعر ينبغي له، لأن غالبية الشعراء يتبعهم الغاوون.

3 - الإيمان بالله ﷻ رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لا يشاركه في ملكه شريك، ولا ينازعه في سلطانه منازع، ولا يشبهه من خلقه أحد، وهو - تعالى - منزه عن جميع صفات خلقه ومنها الحاجة إلى الصاحبة والولد، وهو خالق كل شيء وغيره لا يخلق شيئاً. وهو العليم بكل شيء فلا يخرج شيء عن علمه من سر أو نجوى أو علن، وأنه يحيي الموتى ويكتب ما قدموا وآثارهم، وأن كل شيء محصيّ عنده في اللوح المحفوظ، وهو العزيز الرحيم، النافع الضار، الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجع الخلق أجمعون، وهو أحكم الحاكمين، وأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: «كن فيكون»، وهو الذي ينزل رحماته على من يشاء من عباده المتقين.

4 - التسليم بكل ما جاء بالقرآن الكريم من قصص الأولين، والاعتبار به، والإيمان باللوح المحفوظ، وبأن كل شيء مدون فيه.

5 - اليقين بأن الشرك بالله - تعالى - كفر به، وأنه من أبشع ألوان ظلم الإنسان لنفسه، وأنه من وساوس الشيطان، وأن الشيطان للإنسان عدو مبين، ولا بد لكل عاقل من تطهير عقيدته من أبسط ألوان الشرك، لأن التوحيد الخالص لله هو هداية الله - تعالى - لخلقه وهو رسالة كل أنبياء الله والمرسلين منهم.

6 - التصديق بحتمية الموت، وبحتمية البعث والنشور على جميع الخلق، وبحتمية الحساب والجزاء، والخلود الأبدي في الحياة الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، والتسليم بحقيقة الجنة ونعيمها، وحقيقة النار وجحيمها.

7 - الإيمان بأن الله - تعالى - يكتب جميع أعمال الناس التي قدموها لآخرتهم، وما تركوه من آثار حسنة أو سيئة وراءهم في الدنيا بعد مغادرتهم إياها بالموت.

من الإشارات الكونية في سورة «يسٓ»:

1 - الإشارة إلى إحياء الأرض الميتة بإنزال المطر عليها، وإخراج الحَبّ منها، وإثرائها بجنات من نخيل وأعناب، وتفجير العيون بالماء فيها.

2 - خلق كل شيء في زوجية واضحة، ومعنى الزوج الفرد الذي له شريك يغايره في الفطرة ويماثله في الهيئة ويناسبه في المعاشرة والتلازم لاستمرارية الحياة، وهذه الزوجية التي وضعها الله - تعالى - قاعدة للوجود (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان) تشهد للخالق ﷻ بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

3 - الإشارة بسلخ النهار من الليل إلى حقيقة رقة طبقة النهار التي لا يزيد سمكها عن مائتي كيلو متر فوق مستوى سطح البحر، بينما تصل المسافة بين الأرض والشمس إلى حوالي مائة وخمسين مليون كيلو متر، ومعنى ذلك أن الأصل في الكون الظلام، وأن النور نعمة عارضة فيه، وإن تبادل الليل والنهار على نصفي الأرض يؤكد هذه الحقيقة، ويشير إلى كلٍّ من كروية الأرض وإلى دورانها حول محورها أمام الشمس.

4 - إثبات حقيقة أن الشمس تجري لمستقر لها حسب تقدير العزيز العليم.

5 - وصف دوران القمر حول الأرض في منازل محددة، متدرجاً في هيئات متتالية من الهلال إلى البدر إلى هلال كالعرجون القديم قبل الدخول في طور المحاق.

6 - الإشارة إلى جري كلٍّ من الأرض والقمر والشمس في مدارات محددة لكل منها، مما ينطبق على جميع أجرام السماء.

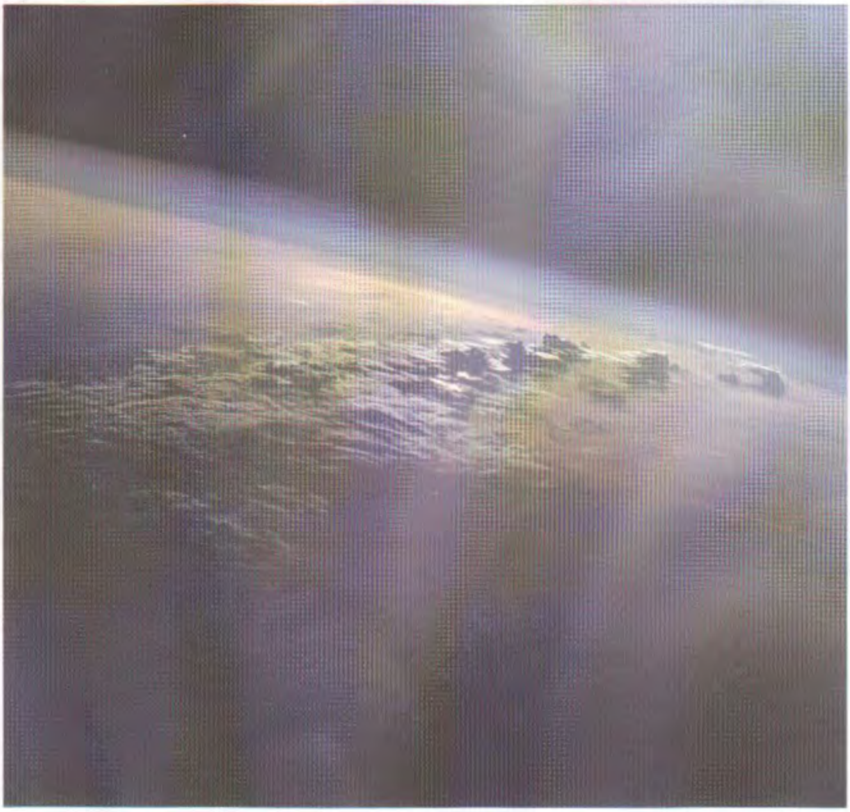

صورة للأرض وتبدو فيها رقة طبقة النهار بالمقارنة مع ظلمة الكون.

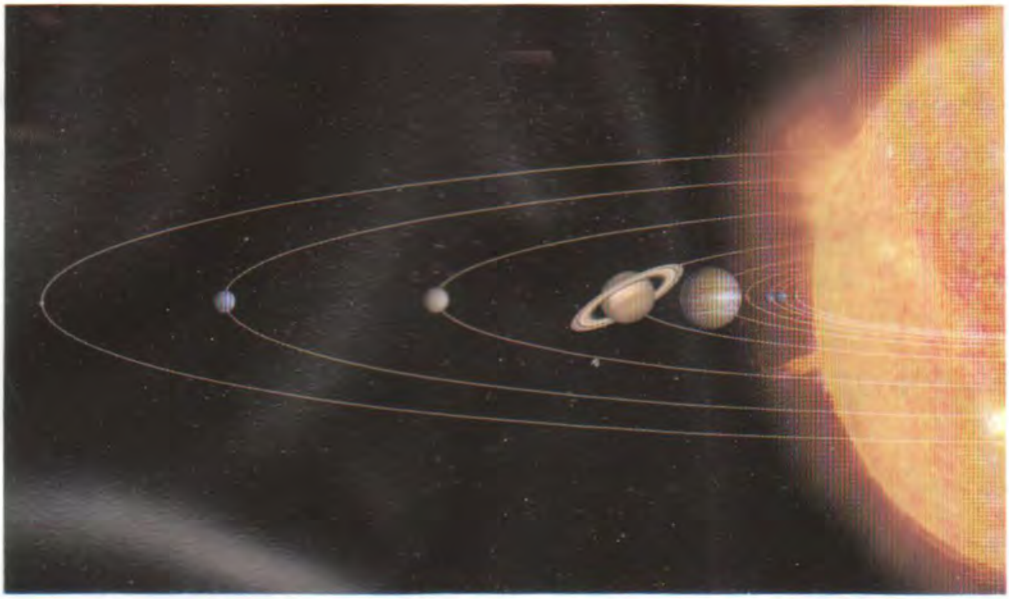

رسم عام لكواكب المجموعة الشمسية تدور حول الشمس كل في مداره ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ .

7 - الامتنان على بني الإنسان الذين يملأون جنبات الأرض اليوم، والذين عاشوا من بعد نوح عليه السلام إلى اليوم ثم ماتوا، والذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة بأنهم كانوا جميعاً في صلب نبي الله نوح عليه السلام، وفي أصلاب الذين نجوا معه من الطوفان في الفلك المشحون، ومعهم زوجان من كل أنواع الخلق. وقد أثبتت الدراسات الأثرية وجود بقايا خشبية فوق جبل «الجودي» في جنوب شرقي تركيا على حدودها مع كل من العراق وسوريا وتمثل هذه الأخشاب بقايا سفينة نوح، خاصة وأن هذه القمة تمثل أعلى القمم في جبال جنوب تركيا، وأن هذه الألواح الخشبية مدفونة في رسوبيات تكونت من مياه عذبة، وأن آثار هذا الطوفان موجودة في السهول الشاسعة الممتدة بين النهرين (دجلة والفرات) إلى رأس الخليج العربي وهي المناطق التي يعتقد بأنها كانت سكنى قوم نوح عليه السلام.

والامتنان أيضاً بأن الله - تعالى - خلق لبني آدم من مثل هذا الفلك ما يركبون من السفن والغواصات والبوارج وحاملات الطائرات، وغير ذلك من مختلف وسائل المواصلات.

8 - الإشارة إلى أن الله - تعالى - (الذي أنطق كل شيء) سوف يُنطق الأيدي

والأرجل لتشهد على أصحابها يوم القيامة، والعلوم المكتسبة تثبت أن لكل خلية حية قدراً من الوعي والإدراك والتمييز والانفعال، ومن القدرة على استيعاب المعلومات وتخزينها، بل إن قطرة الماء لها كل هذه الصفات وزيادة.

9 - التأكيد على أن من طال عمره زادت قوى الهدم في جسده على قوى البناء، وبدأ الضمور يظهر على أجهزة هذا الجسد حتى يعمه فينكسه الله - تعالى - في الخلق حتى يموت إلا من رحم ربك.

10 - الإشارة إلى خلق الأنعام وإلى ما فيها من آيات عظام، ومن أهمها تذليلها للإنسان، بالإضافة إلى منافعها الأخرى العديدة.

11 - التأكيد على حقيقة خلق الإنسان من نطفة مختلطة من كلٍّ من ماء الرجل وماء المرأة، وهذه النطفة لا تكاد أن ترى بالعين المجردة، ثم يجعل الله - تعالى - منها بقدرته هذا البنيان الإنساني المتكامل الأجهزة والأنظمة والأنسجة والخلايا المتخصصة وبدلاً من أن يحمد الإنسان ربه على هذه النعم فإذا هو خصيم لربه مبين.

12 - إثبات أن الله - تعالى - هو الذي ينشئ العظام في الجنين، والتأكيد على أن الذي أنشأها أول مرة قادر على أن يحييها وهي رميم.

13 - الإشارة إلى القدرة التي وهبها الله - تعالى - للشجر الأخضر للتزود بقدر من طاقة الشمس، وتخزينه على هيئة عدد من الروابط الكيميائية فيما يبنيه النبات من كربوهيدرات وزيوت ودهون تمثل مصدراً مهماً من مصادر الغذاء للإنسان ولكثير من الحيوان، وتتحول عند الجفاف أو التحلل الجزئي إلى العديد من مختلف مصادر الطاقة التي يحتاجها الإنسان في حياته على الأرض من مثل الحطب، الخشب، التبن، الفحم النباتي، الفحم الحجري، وما يصاحبه من غازات، والنفط وما يصاحبه كذلك من غازات وكلها من مصادر الطاقة للإنسان والتي جمعها القرآن الكريم تحت مسمى «النار».

14 - التأكيد على حقيقة أن الله - تعالى - هو خالق السمٰوات والأرض وخالق كل شيء، وأنه قادر على إفناء خلقه ثم بعثه من جديد.

15 - وأن من صفات هـذا الخالق العظيم أن يأمر الشيء بـ (كـن) فيكون، لأنه - تعالى - هو رب كل شيء ومليكه، ولأن أمر كل شيء بيديه، وكل مخلوق عائد إليه لا محالة.

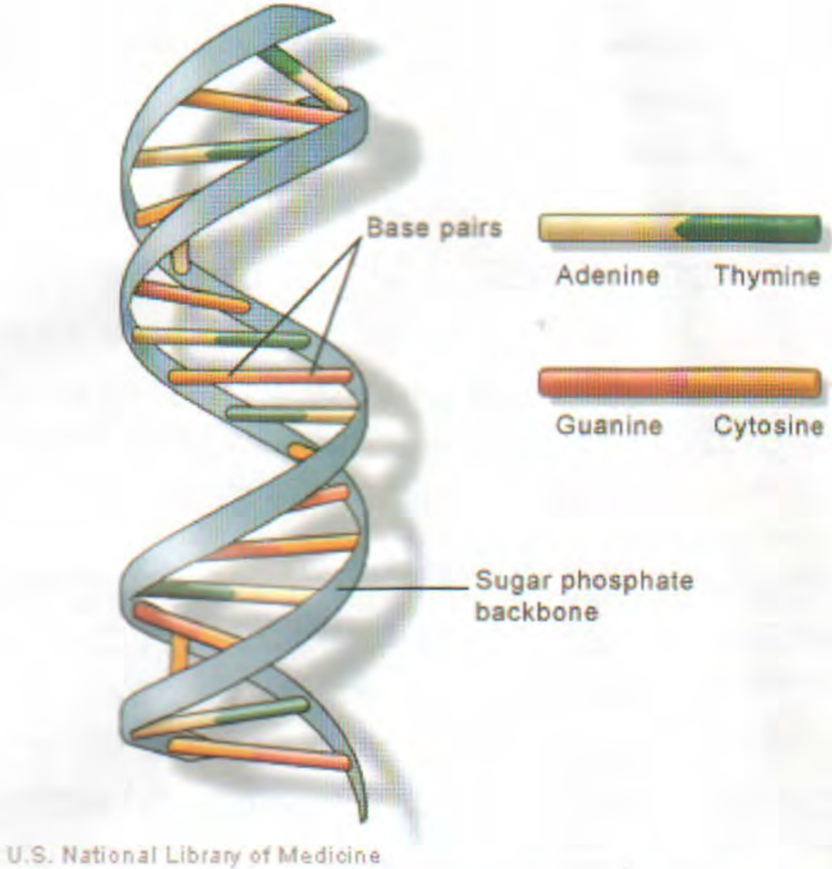

شريط الشيفرات الوراثية للإنسان والمتوارث من صلب أبينا آدم عليه السلام .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك سوف أقصر حديثي هنا على النقطة السابعة من القائمة السابقة والتي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: 41] .

من الدلالات العلمية للآية القرآنية الكريمة:

في عدد من الآيات الكونية المبهرة في الأنفس والآفاق التي ساقتها سورة «يسٓ» للاستدلال على حقيقة الألوهية، وعلى طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق، وشهادة ذلك على إمكانية البعث وحتميته جاء قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: 41] .

ومن دلالات هذه الآية الكريمة - والخطاب فيها موجه إلى كل الناس - أن ذريتهم أي: أسلافهم جميعاً كانوا محمولين في الفلك المشحون في صلب نبي الله نوح - على نبينا وعليه من الله السلام - وفي أصلاب الذين آمنوا برسالته فنجاهم الله - تعالى - في معيته. وهؤلاء هم أسلاف أهل الأرض جميعاً من بعد طوفان نوح وإلى قيام الساعة.

فالموجة الثانية من ذرية آدم إلى آخر من يعقب كانت شيفراتهم الوراثية في أصلاب نبي الله نوح عليه السلام وأصلاب الذين آمنوا معه على ظهر السفينة التي نجاهم الله - تعالى - فيها من الطوفان. وعلى ذلك فإن هذا النبي وصحبه الكرام يمثلون الأبوة الثانية للبشرية بعد النبوة الأولى لأبوينا آدم وحواء عليهما السلام والتي اندثر من ذريتهما من مات إلى زمن نوح عليه السلام ومن هلك من قوم نوح بالطوفان.

والمعارف المكتسبة من علم الوراثة تؤكد على حقيقة أن بني آدم جميعاً كانوا في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، أي في شيفرته الوراثية المتخلقة - بقدرة الله - في خلاياه خاصة الخلايا التكاثرية منها. وهذا المخزون الوراثي (Genetic Pool) الذي كان في صلب أبينا آدم عليه السلام شاركته فيه أمنا حواء عليها السلام التي خلقها الله تعالى من آدم بعلم الله وحكمته وقدرته، ثم جعل ربنا - تبارك وتعالى - من التزاوج سنّة من سنن الحياة، وسبباً في تكاثر الخلق وعمارة الأرض. لذلك جعل هذا الخالق العظيم الحكيم الشيفرة الوراثية للإنسان في معظم خلاياه، وجعلها محمولة على عدد محدد من الصبغيات يحدد نوع الحياة، وهذا العدد هو (46) صبغياً يحدد نوع الإنسان، وجعل الخلايا الجسدية (أي التي ينبني منها الجسد) تحمل عدد الصبغيات كاملاً (46 صبغياً) بينما شاءت إرادته الحكيمة أن تحمل خلايا التكاثر أو النطف (الحيامن **Sperms** والبييضات **Oocytes**) نصف عدد الصبغيات (23 صبغياً فقط) في كل خلية تكاثرية، حتى إذا اتحدا وتمت عملية الإخصاب بنجاح تكامل عدد الصبغيات إلى (46) وهو العدد المحدد للنوع الإنساني.

والنطفة المخصبة (Fertilized ovum or Zygote) والتي يسميها القرآن الكريم باسم **النطفة الأمشاج (أي: المختلطة)** تبدأ في الانقسام المستمر حتى تكون **الحوصلة الأريمية (Blastocyst)** التي تنغرس في جدار الرحم وتستطيل مكونة **مرحلة العلقة (Leech-like stage)** أو **الأريمة المنغرسة (Implanted Blastula)** ثم تتحول إلى مرحلة

المضغة (**An embryo in the shape of a chewed piece of meat**) وتتحول المضغة إلى **مرحلة العظام** (**The Skeletal Stage**) ثم كسوة العظام باللحم (**Flesh**) ثم إنشاء **الجنين** (**Embryo**) خلقاً آخر حين ينتقل إلى مرحلة **الحميل** (**Fetus**) بعد نهاية الأسبوع الثامن من ليلة الإخصاب، ويخرج هذا الحميل عند ميلاده بعد فترة تتراوح بين 177 ليلة إلى 266 ليلة أي بعد ستة إلى تسعة أشهر قمرية حاملاً نصف صفاته عن أبيه وأسلاف أبيه إلى آدم عليه السلام، والنصف الآخر عن أمه وأسلافها إلى حواء عليها السلام.

وإذا علمنا أن الشيفرة الوراثية في الخلية الواحدة من خلايا جسم الإنسان تتكون من18,6 بليون جزيء من ثلاثة مركبات كيميائية موزعة عليها بالتساوي (6,2 بليون جزيء لكل واحد من هذه المركبات الكيميائية الثلاثة) وهذه المركبات هي **القواعد النيتروجينية، والفوسفات، والسكر**. وتتجمع هذه البلايين من الجزيئات في3,1 بليون نويدة (**Nucleotide**) حيث يجتمع لكل نويدة زوج من القواعد النيتروجينية يستند كل واحد منهما إلى جزيئين أحدهما من السكر والآخر من الفوسفات، وتتوزع هذه النويدات في أكثر قليلاً من بليون **شفيرة** (**Codon**) تتكون كل واحدة منها من ثلاث نويدات، وتتوزع هذه الشفيرات في حوالي خمسة وثلاثين ألف **مورث** (**Gene**) وتنتشر الجينات على طول الصبغيات الستة والأربعين المحددة لنوع الإنسان. وإذا علمنا أن هذا الحشد من 18,6 بليون قاعدة كيميائية تكتب الصفات الوراثية للإنسان، وأنه إذا اختل وضع ذرة واحدة من ذرات هذه الجزيئات أو جزيء واحد من هذه البلايين من الجزيئات عن وضعه المحدد له فإن صاحبه إما أن يشوه خلقياً أو لا يكون. وإذا علمنا أن هذه الشيفرة الوراثية تتكدس في حيز لا يزيد على الواحد من مليون من المليمتر المكعب، وأن قطر الخلية الحية من خلايا جسم الإنسان لا يزيد على 0,03 من المليمتر في المتوسط، وأن الصبغيات تنقسم باستمرار لتكوين خلايا التكاثر العجيبة (النطف)، وأنه إذا عدنا بعملية الانقسام لتكوين تلك الخلايا التكاثرية إلى الوراء مع الزمن، فإن الشيفرات الوراثية لجميع بني آدم الذين تم خلقهم ثم ماتوا، والأحياء - ويموت منهم الملايين في كل يوم - والذين يولدون في كل لحظة، والذين سوف يخلقون إلى قيام الساعة، كل هؤلاء كانوا في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ثم انتقل من هذا المخزون الوراثي الأول جزء إلى نوح عليه السلام وإلى من آمن معه، ويشكل هذا الجزء

المخزون الوراثي الثاني الذي خلق ويخلق وسوف يخلق منه كل البشر من بعد طوفان نوح إلى قيام الساعة، ولذلك قال ربنا - تبارك وتعالى - مخاطباً الناس من بعد نوح: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: 41].

وقال - عز من قائل -: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11].

وقال - وهو تعالى - أصدق القائلين:

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: 3].

(الذر) جمع (ذرة) وهي أصغر وجود منفرد للمادة على سطح الأرض، ومنه سمي الرجل (ذرا) (ذرية) الرجل ولده والجمع (الذراري) و(الذريات) ولفظة (الذرية) على وزن فعلية من (الذر)، وهي تستخدم للتعبير عن نسل الثقلين، وتستخدم عادة للصغار من الأولاد والبنات، وإن كانت تصلح لكل من الصغار والكبار معاً، واللفظة تستعمل للواحد وللجمع، وأصلها للجمع. واللفظة قد تكون مستمدة من الفعل (ذرو) أي علا وارتفع، لأن (ذروة) السنام و(ذراه) أعلى جزء فيه. وقيل في لفظة (الذرية) أنها قد تكون مستمدة من الفعل (ذرأ) في قولنا (ذرأ) الله الخلق، وقيل أن أصل اللفظة (ذرية) هو (ذُرْويّة) أو أن أصلها من (ذرا) من مثل قولنا (ذريت) الحنطة بالمذراة، أو من (ذر) بمعنى فوّق.

ومن معاني هذه الآيات القرآنية الثلاث أن جميع أفراد الدورة الثانية للبشرية من لدن نجاة نبي الله نوح عليه السلام والذين آمنوا معه من نازلة الطوفان إلى قيام الساعة كانوا جميعاً في الفلك المشحون أي في سفينة نوح عليه السلام، ولم يكن ممكناً تصور هذه الحقيقة إلا بعد التطور المذهل في علوم الوراثة مع بداية القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالإشارة الضمنية إلى هذه الحقيقة، والتأكيد على أنها من آيات الله في الخلق يشهد بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، فحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد تعالى بذلك تعهداً مطلقاً إلى ما شاء الله - تعالى - حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على الخلق أجمعين إلى قيام الساعة بأنه كلام الله الخالق، وشاهداً للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام، سيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، وإمام المتقين الذي بلغ الرسالة الخاتمة، وأدى أمانتها حق الأداء، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فجزاه الله خير ما جازى به نبياً عن أمته، ورسولاً على حسن أداء رسالته، وآتاه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة من الجنة، إن ربي لا يخلف الميعاد، وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

13 - ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾

[الحاقة: 11]

هذه الآية الكريمة جاءت في الخمس الأول من «سورة الحاقة»، وهي سورة مكية، وآياتها ثنتان وخمسون (52) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم الذي استهلت به لحديثها عن الآخرة وأهوالها، والساعة وشدائدها، لأن الحاقة من أسماء القيامة التي يتحقق فيها الوعد والوعيد. ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن عدد من الأمم المكذبة وعن هلاكها في الدنيا قبل الآخرة، وعن تنجية الصالحين من بينهم، مشيرة إلى نجاة من آمن مع سيدنا نوح عليه السلام أثناء الطوفان. وبسرعة فائقة تنقلنا السورة مرة أخرى إلى وصف شيء من أهوال الآخرة، وإلى انقسام الناس فيها إلى شقي وسعيد بناءً على سلوكهم في هذه الحياة الدنيا.

ثم يأتي القسم الإلهي «بما يبصر الناس وما لا يبصرون» على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الموحي به إلى خاتم أنبيائه ورسله، والذي نقله هو بأمانة تامة إلى أمته، ونزهته الآيات عن الشعر، والكهانة، وأكدت أنه ﷺ لصدقه وأمانته وإخلاصه العبادة لله - تعالى - لم يكن ليتقول على الله بعض الأقاويل وإلا لكان عقابه من الله صارماً. وتؤكد الآيات أن القرآن الكريم لتذكرة للمتقين، وأن الله - تعالى - يعلم علم اليقين أن من عباده مكذبين بالقرآن الكريم وببعثة خاتم النبيين، وأن هذا التكذيب سيكون حسرة على الكافرين لأن القرآن الكريم هو حق اليقين. وتختتم السورة الكريمة بأمر

رسول الله ﷺ وأمر كل تال لهذه السورة المباركة أن يسبح باسم الله العظيم وأن ينزهه عن كل وصف لا يليق بجلاله.

وتبدأ السورة الكريمة بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿ٱلْحَاقَّةُ (١) مَا ٱلْحَاقَّةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ (٨)﴾ [الحاقة: 1-8].

و(الحاقة) هي الساعة الآخرة، أي القيامة التي تحق وتثبت فيها الأمور الحقة التي كان ينكرها المنكرون من الكفار والمشركين، والضالين المتشككين وفي مقدمتها قضايا البعث، والحساب، والجزاء، والجنة، والنار، وما إلى غير ذلك من غيوب الكون.

و(الحاقة) مشتقة من (حَقَّ) الشيء (يَحُقُّ) أي ثبَتَ، ومعناها التي (تُحَقُّ) فيها الأمور، أي تُعْرَف على حقيقتها، مشتقة من الفعل (حَقَقْتُه) (أَحُقُّه) إذا عرفْتُ حقيقَته.

و(الحاقّة) أيضاً قد تكون مستمدّة من الفعل (حاقَقْتُه) (أُحاقُّه) فـ (حَقَقْتُه) أي: غالبْته فغلبْته، فهي (حاقّة) لأنها (تَحُقّ) كل (مُحاقّ) - أي مُخاصِم - في دين الله بالباطل فتغلبه.

و(الحاقّة) مبتدأ، خبره جملة (ما الحاقّة)، والقسم بـ (الحاقّة) قسم عظيم لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد، ولهذا عظَّم الله أمرها بتكرار قوله - تعالى -: ﴿مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾، ثم تُوجِّه السورة الكريمة السؤال إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وإلى كل مؤمن برسالته، وإلى كل صاحب عقل وبصيرة فتقول: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ أي: وأي شيء تعلم عن الحاقة وكنهها وخطورة شأنها؟ حيث إن أهوالها وشدائدها لا يكاد العقل البشري أن يتصور شيئاً منها. وجملة (ما الحاقة) في محل نصب سادة مسدّ المفعول الثاني لـ (أدراك).

و(القارعة) القيامة لأنها تقرَع القلوب قرعاً بشدة أهوالها وأفزاعها، من (القَرْع)، وهو صكّ جسم صلب بجسم صلب آخر بعنف، يقال: (قَرَع) الناقوس أي دقّه، و(قرع) الباب أي طَرَقَه، ومنه (قوارع) الدهر أي: شدائده وأهواله.

وتؤكِّد السورة الكريمة أن كلاً من قبيلة (عاد) و(ثمود) - في غالبيتهم - كذبوا بالقيامة التي سوف تقرع قلوبهم بأهوالها وشدائدها.

ثم توضح الآيات كيفية هلاك هؤلاء الكفار والمشركين فتقول:

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحاقَّة: 5]، أي الصيحة.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقَّة: 6].

و(الصرصر) شديدة السَّموم، من (الصَّر) بالفتح وهو شدة الحر، أو هي شديدة البرودة مهلكة من (الصِر) بالكسر وهو شدة البرد الذي (يصير)، أو هي شديدة الصوت من (صَرَّ) (يصُرُّ) (صَراً) و(صَريراً)، وقد تجمع كل ذلك.

و(عاتية) بمعنى متجاوزة الحد في شدتها، أي إن الكافرين من قوم عاد أهلكوا بريح عنيفة مدمرة،تجاوزت الحد في شدتها، فلم يقدروا على مواجهتها على الرغم من قوتهم. وهذه الريح إما كانت شديدة الحر أو شديدة البرد زيادة في عذابهم. وهذه الريح سلَّطها الله - تعالى - عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً (أي متتابعة لا تنقطع) حتى استأصلهم، وذلك من قولهم: حسمت الدابة، أي: تابعت كيها على الداء مرة بعد أخرى حتى ينحسم، أو (حسوماً) بمعنى نحسات مشؤومات: فترى القوم في مهاب هذه الريح العاتية موتى محطمين كأنهم أصول نخل فقدت رؤوسها، وهي الجذوع، و(خاوية) أي ساقطة أو فارغة الأجواف من البلى والخراب والفساد من قولهم: خوت الدار: أي من أهلها فأصبحت خاوية.

ثم يأتي السؤال: هل ترى لهم من نفس باقية دون هلاك؟!

وتتابع السورة الكريمة بعد ذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ [الحاقة:9، 10].

أي وجاء فرعون ومن قبله من الأمم التي كفرت بربها، و(المؤتفكات) وهي قرى قوم لوط التي اقتلعها جبريل عليه السلام ثم قلبها فجعل عاليها سافلها بأمر من الله - تعالى - ومن (ائتفك) بمعنى انقلب، والمراد أهل تلك القرى الذين جاؤوا بالخاطئة أي بالأفعال الفاحشة الشنيعة، وإسناد تلك الأفعال الخاطئة إلى القرى مجاز، وإنما هو منسوب

لأهلها الذين عصوا أمر ربهم وأوامر رسله إليهم فأخذهم الله - تعالى - ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي زائدة في الشدة عن أخذه ﷻ لغيرهم من الأمم التي أهلكت من قبلهم نظراً لتجاوزاتهم في معصية الله - تعالى - وتتابع الآيات بالإشارة إلى عقاب الكفار من قوم نوح عليه السلام وإلى نجاة الذين آمنوا معه فتقول:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾

[الحاقة: 11، 12].

و(الجارية) هي سفينة نوح عليه السلام، التي جرت في ماء الطوفان الذي أغرق الأرض بماء المطر وبتفجر الأرض عن مخزونها المائي في الصخور، وقد جاوز الماء حده، وعلا فوق الأرض فأغرق كل حي إلا نبي الله نوح ومن حملهم معه من البشر والحيوان والنبات. والخطاب موجه إلى البشر من بعد نوح وحتى قيام الساعة باعتبار أن الذين حملوا مع نبي الله نوح عليه السلام هم الأصول التي تناسل أهل الأرض جميعاً منهم من بعد

تصور لسفينة نوح تتقاذفها الأمواج.

نوح، وذلك لكي يجعلها ربنا - تبارك وتعالى - تذكرة (أي عبرة وعظة) لما كان فيها من نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين، ولكي تحفظها كل أذن حافظة لما تسمع من تلك الأخبار، من (الوعي) بمعنى الحفظ في النفس.

وتنتقل الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن الآخرة وأهوالها لتقول:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: 13-18].

و(نفخة الصور) هنا هي النفخة الأولى أو نفخة الصعق التي يصعق على إثرها كل حي إلا من شاء الله، كما تحمل الأرض والجبال وتحطم تحطيماً كاملاً بضرب بعضها ببعض ضربة واحدة فتتحولان إلى غبار متناثر، وهذه كلها من أمارات الآخرة في أوائل أحداثها، ومن أماراتها كذلك انشقاق السماء وانفطارها وتصدعها، وزوال السنن الحاكمة لها فتنهار في ضعف بعد أن كانت محبوكة الإنشاء محكمة البناء، شديدة التماسك.

والملائكة واقفون على أرجاء هذه السماء المتصدعة المنهارة ينتظرون أمر الله - تعالى - لهم، ويحمل عرش الرحمٰن ﷻ يومئذٍ ثمانية من الملائكة الأشداء أو ثمانية من صفوفهم.

وفي هذا اليوم العصيب يبعث كل ميت بعد النفخة الثانية، وتحشر الخلائق للحساب والجزاء، عرضاً أمام الله - تعالى - الذي يعلم السر والنجوى، ولا يخفى من أي منهم سر، ولا توارى خبيئة.

وبعد ذلك تتحدث الآيات عن مصائر العباد في هذا اليوم العصيب وعن الناجين منهم فتقول:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة:19-24].

فأما من أعطي كتابه بيمينه فيقول معلناً فرحه وسروره لمن حوله: خذوا اقرؤوا كتابي،

إني أيقنت في الدنيا أن الله - تعالى - سوف يحاسبني في الآخرة، فأعددت نفسي لهذا اللقاء، وكافأني ربي بعيشة يعمها الرضى الثابت الدائم يرضى بها الفائز بها ولا يسخطها أبداً، في جنة رفيعة الدرجات، ثمارها قريبة من متناولها، يقطفها كلما أراد، و(قُطوفٌ) جمع (قُطفٌ) بمعنى (مَقْطوفٌ) وهو ما يجتنيه الجاني من الثمار، و(دانية) اسم فاعل من الدنو بمعنى القرب. ومن قبيل المبالغة في تكريم أهل الجنة يقال لهم: كلوا واشربوا أكلاً وشرباً لا مكروه فيهما، ولا أذى منهما، وذلك بما قدمتم من أعمال صالحة في حياتكم الدنيوية الماضية.

وفي المقابل تنتقل الآيات إلى الحديث عن مصائر الهالكين لتقول:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)﴾ [الحاقة: 25-37].

ومعنى هذه الآيات أن من أعطي كتابه بشماله فيقول نادماً متحسراً: يا ليتني لم أعط كتابي هذا، ولم أطلع على ما فيه من أخطائي، ولم أعلم ما هو حسابي لسوء ما وجدت فيه، ويعقب على مصيره الأسود بقوله: يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاطعة لأمري، فلم أبعث بعدها، ولم ألق ما ألقاه من مهانة وعذاب، ولم ينفعني شيء مما ملكته في الدنيا في دفع شيء من ذلك العذاب عني، وقد زال عني سلطاني وحجتي وقوتي.

وفي أثناء هذا الموقف، ووسط هذا البكاء والنحيب والندم، يقال لخزنة جهنم: خذوه فاجمعوا يديه إلى عنقه في الغل، ثم ألقوه في الجحيم وهي النار الشديدة التأجج لشناعة ما اقترف هذا الكافر من ذنوب وعلى رأسها الكفر بالله العظيم ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي اجعلوا نار جهنم تصليه، أي تحرقه، أو تغرقه، ثم في سلسلة بالغة الطول فاسلكوه، أي أدخلوه فيها كأنه السلك الذي يدخل في ثقوب الخرزات بصعوبة لضيق تلك الثقوب، وذلك لجمعها على هيئة العقد بشيء من الإحكام، كناية عن صعوبة تقييد الكافر بتلك

السلسلة، لأنه كان في الدنيا لا يؤمن بالله العظيم ولا بملائكته وكتبه ورسله، ولا باليوم الآخر، وبما فيه من بعث وحساب وجزاء، ولم يكن يحث أحداً على إطعام المسكين، فضلاً عن أن يقوم هو بذلك. فليس لهذا الكافر أو المشرك اليوم في الجحيم صديق أو قريب يمكن أن يحميه أو يدفع عنه، وليس له من طعام إلا من غسلين، وهو شجر يأكل منه أهل النار، فيغسل بطونهم، أي يخرج أحشاءهم، أو (غسلين) هو ما يسيل من أجسام أهل النار عند حرقها، أو هو شر الطعام، وأخبثه وأبشعه، الذي لا يأكله إلا (الخاطئون) المتعمدون المصرون على ذنوبهم من الكفار والمشركين من (خطئ) الرجل أي تعمد الذنب.

وتنقلنا الآيات نقلة أخرى فيها ما فيها من تعظيم للقرآن الكريم ومن تأكيد على أنه هو وحي الله - تعالى - المنزل على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ويأتي القسم بما يبصر الناس وبما لا يبصرون، لأن الكون من حولنا مليء بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله ﷻ وفي ذلك تقول الآيات:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة:38-52].

ونفي القسم في اللغة العربية تعظيم للقسم وتوكيد له، ومن معاني ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ [الحاقة: 38] هو لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق والتأكيد بالقسم، ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38] من المرئيات والمحسوسات في عالم الشهادة، ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: 39] من عالم الغيب، والغيوب من حولنا كثيرة، وتكفي فيها الإشارة إلى أن علماء الفلك يجزمون اليوم بحساباتهم الرياضية أن كل ما يدركه العلماء من الكون لا يتعدى العشرة بالمائة من كم المادة فيه، ولذلك يطلقون على غير المدرك من مادة الكون أسماء مثل المادة الداكنة أو الرمادية أو غير المرئية.

وجواب هذا القسم بجميع مخلوقات الله أن القرآن الكريم هو وحي الله الذي أنزله

بعلمه على لسان خاتم أنبيائه ورسله، وهو الذي أنطقه إياه، وكرمه وشرفه فوق جميع خلقه فوصفه بقوله العزيز: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: 40] تبليغاً عن رب العالمين. ونفت الآيات ادعاء كفار قريش على رسول الله ﷺ بأنه شاعر حينما عجزوا عن الإتيان بشيء من مثل القرآن الكريم، فرد عليهم رب العالمين بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: 41] أي أن القرآن الكريم ليس بقول شاعر كما تزعمون أيها الكافرون لأنكم لا تؤمنون ألبتة، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقة: 42] لأنه ليس بسجع كسجع الكهان الذي تعهدون، ولم يعرف في التاريخ كله أن كاهناً قد أنشأ منهجاً كاملاً للحياة كالذي جاء به القرآن الكريم الذي لا يمكن أن يكون قول كاهن، بل كلام رب العالمين ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: 42] قليلاً ما يكون منكم تذكر أو تأمل لتدركوا الفارق الهائل بين كلام الله وكلام البشر. فالقرآن الكريم هو ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: 43] أي تنزيل من الله الخالق البارئ المصور الذي تعهد العالمين بالخلق والرعاية والتربية.

وتؤكد الآيات صدق رسول الله ﷺ في التبليغ عن رب العالمين فتقول: ولو ادعى علينا شيئاً لم ننزله عليه لأخذنا منه باليمين أي لأخذناه بالقوة والشدة، وعبر عنها باليمين لأن قوة كل مخلوق في ميامنه، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: 46] كناية عن الإهلاك. ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: 47] أي فليس منكم أحد يستطيع حجز عقابنا عنه مهما بلغت قوة المحاولين.

وتؤكد الآيات أن القرآن الكريم هو عظة للمتقين الذين يمتثلون أوامر الله، ويجتنبون نواهيه، والله - تعالى - يعلم بعلمه المحيط أن من الناس من سوف ينكر الوحي بالقرآن الكريم، ويكذب بما نزل فيه من الحق المبين، وإن هذا الجحود والنكران والتكذيب سوف يعود على أصحابه بالحسرة والندامة في يوم الدين حين يرون ما هم فيه من عذاب وهوان وما فيه أهل الإيمان من تكريم ونعيم. وتعظم الآيات من شأن القرآن الكريم فتقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: 51] أي إنه لليقين الحق الثابت الذي لا ريب فيه، ولا شك في أنه كلام الله الموحي به إلى خاتم أنبيائه ورسله، ومرتبة (حق اليقين) هي أعلى من مرتبة (علم اليقين) لأنها هي مرتبة الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وتختتم سورة الحاقة بأمر من الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ (والأمر إليه

أمر لكل مؤمن برسالته إلى يوم الدين) أن يسبح باسم ربه العظيم الذي أنزل القرآن الكريم، وأن يداوم على هذا التسبيح لله.

من ركائز العقيدة في سورة «الحاقة»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - وبملائكته، وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبالجنة ونعيمها وبالنار وجحيمها. والخضوع لله - تعالى - بالطاعة والعبادة وبمداومة الذكر والتسبيح والتمجيد.

2 - التصديق ببعثة سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ خاتماً لجميع الأنبياء والمرسلين، ومتمماً لرسالاتهم أجمعين، والتصديق بحقيقة الوحي من لدن رب العالمين إلى من يصطفي من عباده الصالحين من الأنبياء والمرسلين لهداية الناس إلى دين الله، ولتفهيمهم حقيقة رسالتهم في هذه الحياة وتعريفهم بمصائرهم من بعدها.

3 - اليقين بأن القرآن الكريم هو تنزيل من رب العالمين، وتذكرة للمتقين، وحسرة على الكافرين من المكذبين والمشركين، وأنه لحق اليقين لأنه من كلام رب العالمين المحفوظ بين أيدي الناس اليوم بنفس لغة وحيه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً تحقيقاً للوعد الإلٰهي الذي قطعه ربنا - تبارك وتعالى - على ذاته العلية.

4 - التصديق بكل ما جاء بالقرآن الكريم من ركائز الدين، ومن سير الأولين، ومن عذاب الكافرين والمشركين منهم، وبمشاهد الآخرة وأهوالها، والجنة ونعيمها، والنار وجحيمها.

5 - الإيمان بحقيقة الغيب، وبأن الإنسان يبصر ولا يبصر، ويسمع ولا يسمع، ويدرك القليل ويفوته الكثير، وأن ما يعلمه من ملكوت السمٰوات والأرض لا يتعدى الشيء اليسير اليسير، ومن هنا كانت حاجته إلى هداية رب العالمين.

من الإشارات العلمية في سورة «الحاقة»:

1 - ذكر عدد من الأقوام البائدة من أمثال أقوام عاد وثمود، وفرعون، وأقوام كل من نبي الله لوط ونبي الله نوح عليهما السلام، والكشوف الأثرية تثبت صدق القرآن الكريم في كل ما أشار به إلى تلك الأقوام.

2 - التلميح إلى حقيقة أن بلايين الأفراد من بني الإنسان الذين يملأون جنبات

الأرض اليوم، والذين عاشوا من قبلهم إلى الناجين من طوفان نوح، والذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة، كل هؤلاء هم من نسل سيدنا نوح عليه السلام ونسل من نجاهم الله - تعالى - معه: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3].

ومعنى ذلك أن البشرية من بعد طوفان نوح وإلى قيام الساعة كانت في صلب هذا النبي الكريم وأصلاب الذين آمنوا معه على ظهر السفينة التي نجاهم الله - تعالى - فيها ولذلك قال - تعالى -:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11].

والخطاب للبشرية كلها من بعد نبي الله نوح - على نبينا وعليه السلام - وعلوم الوراثة الحديثة تؤكد هذه الحقيقة وتدعمها.

3 - التأكيد على حقيقة الغيب المطلق الذي لا سبيل للإنسان في الوصول إليه إلا بوحي السماء، والغيب المرحلي الذي تجاهد العلوم المكتسبة كلها في الوصول إليه بالتدريج كلما تقدم العلم، وهذه العلوم المكتسبة تثبت اليوم ذلك بتقدمها المطرد، وبإثبات أن كل ما علمه الإنسان من مادة الجزء المدرك من الكون لا يكاد يتعدى عشرة بالمائة مما هو موجود فعلاً ومقدر بالحسابات الرياضية، ولذلك يطلق على التسعين بالمائة الباقية أسماء مثل المادة الخفية، أو المادة السوداء، أو المادة الداكنة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثانية من القائمة السابقة والتي تؤكد حمل ذرية أبينا آدم عليه السلام من بعد الطوفان في سفينة نوح عليه السلام في صلب هذا النبي الصالح وأصلاب الذين نجاهم الله - تعالى - معه.

من الدلالات العلمية في الآية الكريمة:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]

جاءت قصة طوفان نوح في القرآن الكريم الذي يصفه بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هُود: 44].

بعد جهود من البحث المضني أثبت الأثري دكتور تشارلز ويلليس (**Charles Willis**) في سنة 1980م أن الموقع الصحيح لاستواء سفينة نوح هو جبل الجودي (**Mount Cudi or Judy Dagh**) على بعد 250 ميلاً إلى الجنوب الغربي من «جبل أرارات» وهو يمثل أعلى قمة في سلسلة جبال جنوب تركيا إذ يزيد ارتفاعه على سبعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر، وقد وجدت في هذه القمة بقايا سفينة نوح التي وجدت مطمورة في رسوبيات مياه عذبة.

كذلك فإن سهول ما بين النهرين (دجلة والفرات) والتي كانت مهداً لعدد من الحضارات القديمة سجلت خبر الطوفان الذي وجدت آثاره على هيئة سمك هائل من رسوبيات الماء العذب تغطي المساحة ما بين النهرين، وقد تم الحفر عليها في أربعة مواقع على الأقل هي أور (**UR**) إيريك (**Erech**) كيش (**Kish**) أو تل الأحمد، وشوروباك (**Shuruppak**) أو تل القعدة، ويتراوح عمر هذه الرسوبيات بالفترة بين ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد وسبعة آلاف سنة قبل الميلاد. وقد قام بدراسة هذه المواقع مجموعات متتابعة من العلماء منهم هول (**R. H. Hall**) من المتحف البريطاني بلندن

طبعة هيكل سفينة نوح عليه السلام في رسوبيات ماء عذب على جبل الجودي.

صورة لكهف شانيدار العظيم، الواقع شمال العراق.

(British Museum) وليونارد وولـي (Leonard Woolley) في مشروع مشترك بين المتحف البريطاني وجامعة بنسلفانيا (Uiniversity Of Pennsylvania) وقد استمرت البحوث الأخيرة في الفترة من 1922م إلى 1934م، وكشفت عن بقايا حضارات قديمة على عمق عشرة أقدام من رواسب الماء العذب: من الغرين والصلصال والرمل التي تمتد لآلاف الكيلو مترات المربعة والتي لا يمكن أن تنتج إلا عن طوفان غامر. وقد تأكد ذلك بدراسة تمت في كهف يقع في شمال العراق يعرف باسم كهف شانيدار العظيم (The Great Shanidar Cave) يحوي قطاعاً من الرسوبيات يعود عمرها إلى مائة ألف سنة مضت، ويحوي بقايا إنسية. وقد قام بدراسته دكتور رالف سونسكي ((Dr.Ralph Sonecki).

وقد حملت كل رسالات السماء التي أنزلت من بعد نبي الله نوح - على نبينا وعليه من الله السلام - أخبار هذا الطوفان حتى تكون فيه العبرة لبني الإنسان.

يبقى وصف طوفان نوح كما جاء في القرآن الكريم المرجع الحق عن هذه الواقعة الكبرى في تاريخ الإنسانية، وقد لخصها القرآن الكريم في عشرات الآيات الكريمة التي نختار منها قوله - تعالى -:

بقايا جمجمة إنسان وجدت في
كهف شانيدار العظيم.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم
مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن
تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا
قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ
تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب
مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا
عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾
وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ
وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: 36-44].

وجاء في سورة القمر قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ
(١٠) فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ
قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد
تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر: 9-17].

وجاءت القصة أيضاً في سورة قرآنية كاملة هي سورة نوح كما جاءت إشارات عديدة لها من مثل ما جاء في سور: [الأعراف: 69]، و[الإسراء: 3-17]، و[مريم: 58]، و[الفرقان: 37]، و[الشعراء: 105، 106، 116]، و[الحاقة: 11، 12].

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحَاقّة: 11].

والضمير في ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ يعود على ذرية نوح عليه السلام وذراري من حملهم معه في سفينته، أي إلى البشرية كافة من بعد طوفان نوح إلى قيام الساعة، لأن الآية الكريمة تشير إلى حمل أصول تلك البشرية الثانية في صلب نوح عليه السلام وفي أصلاب صحبه الذين نجاهم الله سبحانه وتعالى معه من نازلة الطوفان.

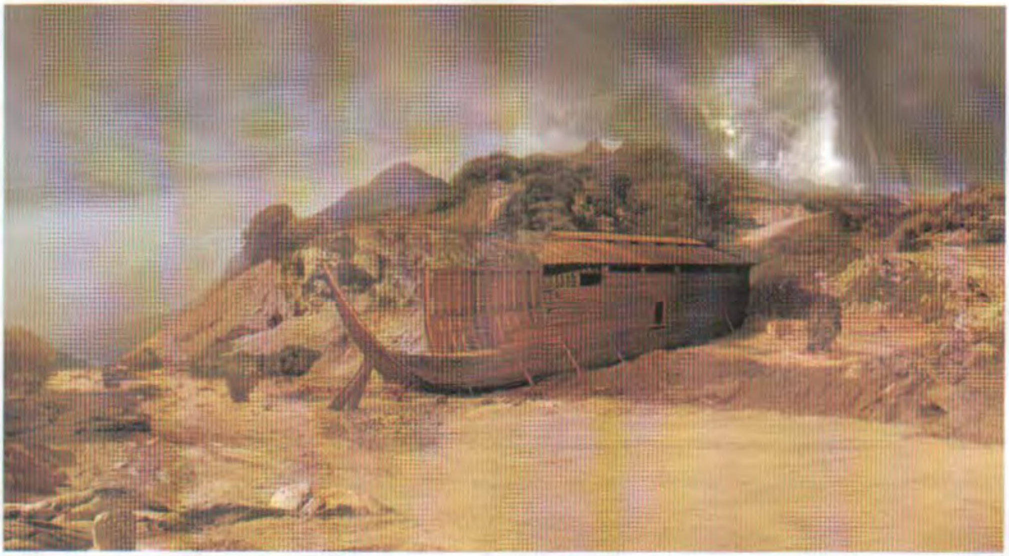

تصوّر لبناء سفينة نوح عليه السلام في أعالي الجبال مما دعا قومه للسخرية منه.

والمعارف المكتسبة في علم الوراثة تؤكد أن البشرية كلها من لدن أبينا آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة كانت في صلبه لحظة خلقه، ثم بدأت في التوزع إلى زوجه حواء عليها السلام ، ثم إلى بنيهما وأحفادهما الذين مثلوا الموجة الأولى من بني آدم.

ولما انحرف بنو آدم عن منهج الله أرسل الله - تعالى - إليهم الأنبياء والرسل حتى عهد نوح عليه السلام واستعصى الناس على قبول هدايته فعاقبهم الله سبحانه وتعالى بالطوفان وقضى عليهم، وبقيت فضلة من مجموع المورثات التي خلقها الله الخالق البارئ المصور في صلب أبينا آدم عليه السلام في أصلاب كل من نوح عليه السلام والناجين معه ليخلق الله - تبارك وتعالى - من تلك الأصلاب موجة البشرية الثانية إلى قيام الساعة. ومن هنا كان الخطاب في الآية الكريمة التي نحن بصددها موجهاً إلى الموجة الثانية من البشرية التي نجت من طوفان نوح واستمرت في التكاثر إلى اليوم وإلى قيام الساعة بانقسام الشيفرات الوراثية عند تكوُّن الخلايا التناسلية وتكاملها بالتزاوج.

وبالرجوع بعمليات انقسام الخلايا التناسلية إلى الوراء مع الزمن تلتقي جميع الشيفرات الوراثية في خلايا السبعة بلايين إنسان الذين يملأون جنبات الأرض اليوم، وفي خلايا ذراريهم إلى قيام الساعة، مع الشيفرات الوراثية التي كانت في خلايا أسلافهم إلى عهد طوفان نوح عليه السلام ، مع الشيفرات الوراثية التي كانت في صلب نوح وفي أصلاب الناجين معه، ومن هنا كان الخطاب لجميع أفراد موجة البشر الثانية يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11].

ولما كان علم الوراثة من أحدث المعارف المكتسبة، وكانت قوانين الوراثة لم تتبلور إلا في أوائل القرن العشرين وكان مرسى سفينة نوح لم يحدد إلا في نهاية ذلك القرن، كانت هاتان الومضتان المبهرتان في الآية الحادية عشرة من سورة الحاقة حقيقتين علميتين صحيحتين تشهدان للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية فحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - كلمة كلمة وحرفاً حرفاً في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، والحق الذي جاء به، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام الذي أتم الله برسالته جميع رسالات السماء، وختم بنبوته سلسلة الأنبياء فليس من بعده من نبي ولا من رسول، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

14 - ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾

[طه: 50]

هذه الآية الكريمة جاءت في بدايات الثلث الثاني من «سورة طه»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (135) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم تكريماً لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، لأن طه اسم من أسمائه الشريفة بدليل توجيه الخطاب إليه - صلوات الله وسلامه عليه - مباشرة بعد هذا النداء، وإن اعتبر نفر من المفسرين هذين الحرفين ﴿طه﴾ [طه: 1] من المقطعات الهجائية التي استهل بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، شأنها في ذلك شأن كل السور المدنية. وقد سبق لنا استعراض هذه السورة المباركة، وما جاء فيها من ركائز العقيدة، والإشارات الكونية في المقال رقم «7» من هذا الكتاب. ولذلك نركز هنا على الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم الذي اخترناه عنواناً لهذا المقال، الذي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى - على لسان عبده ورسوله موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، وقبل الوصول إلى ذلك أرى ضرورة استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تلخيص الحوار الذي دار بين فرعون مصر ونبيي الله موسى

وهارون - على نبينا وعليهما من الله السلام - جاء قول ربنا - تبارك وتعالى -:
﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه:49، 50].

وفي تفسير هاتين الآيتين الكريمتين لم أجد أبلغ ولا أوفى مما جاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة جزاء ما قدم - وقد كتب ما نصه: لقد أتيا فرعون - والسياق لا يذكر كيف وصلا إليه - أتياه وربهما معهما يسمع ويرى: فأية قوة وأي سلطان هذا الذي يتكلم به موسى وهارون، كائناً فرعون ما كان، ولقد أبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه، والمشهد هنا يبدأ بما دار بينه وبين موسى عليه السلام من حوار:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه:49، 50].

إنه لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه، كما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ فهو يسأل موجهاً الكلام إلى موسى لما بدا له أنه هو صاحب الدعوى: ﴿... فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؟ من ربكما الذي تتكلمان باسمه...؟

فأما موسى عليه السلام فيرد بالصفة المبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله - تعالى-: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.. ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها، ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها. و(ثم) هنا ليست للتراخي الزمني، فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خلق لها، وليس هناك افتراق زمني بين خلق المخلوق وخلق وظيفته، إنما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته، فهداية كل شيء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خلقه غفلاً.

وهذا الوصف الذي يحكيه القرآن الكريم عن موسى عليه السلام يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود: هبة الوجود لكل موجود.. وهبة خلقه على الصورة التي خلق بها، وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها.. وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته - في حدود ما يطيق - في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة في كل كائن صغير أو كبير، من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان.

هذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا، والخلائق والأحياء، وكل ذرة فيه تنبض، وكل خلية فيه تحيا، وكل حي فيه يتحرك، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى.. وكلها تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور في لحظة من اللحظات!

وكل كائن بمفرده كونٌ وحده وعالم بذاته، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فطرت عليها، داخل حدود الناموس العام، في توافق وانتظام.

وكل كائن بمفرده - ودعك من الكون الكبير - يقف علم الإنسان وجهده قاصراً محدوداً في دراسة خواصه ووظائفه وأمراضه وعلاجه. دراستها مجرد دراسة، لا خلقها ولا هدايتها إلى وظائفها، فذلك خارج كلية عن طوق الإنسان، وهو خلق من خلق الله وهبه وجوده على الهيئة التي وجد بها للوظيفة التي خلق لها، كأي شيء من هذه الأشياء! إلا أنه للإله الواحد ﴿... رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: 50].

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن - ورحم الله كاتبه - ما نصه: ﴿... أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ...﴾ [طه: 50] أي وهب كل شيء من الأشياء الأمر اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع المطابق له، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وهكذا. و(خلقه) مصدر بمعنى اسم المفعول، مفعول ثان لـ(أعطى). (ثم هدى) أي دل بذلك على وجوده وقدرته وتفضله.

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه: فأجابه موسى: ربنا الذي منح نعمة الوجود لكل موجود، وخلقه على الصورة التي اختارها سبحانه له، ووجه لما خلق.

وجاء في الهامش: أودع الله ﷻ في كل شيء صفاته الخاصة التي تؤهله لأداء وظيفته التي خلق لها في هذه الحياة كما أنها سبيل هداية الإنسان.

من الدلالات اللغوية للنص الكريم:

(الخلق): أصل (الخلق) التقديرالمستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، كما يستعمل في إيجاد الشيء من شيء آخر، وليس (الخلق) الذي بمعنى الإبداع إلا لله - تعالى -، وأما الذي يكون بالاستحالة فقد جعله الله ﷻ لغيره في

بعض الأحوال. و(الخلق) لا يستعمل في كل الناس إلّا على وجهين: أحدهما في معنى التقدير، والثاني في معنى الكذب في الكلام يقال: (خَلقَ) الإفك و(اخْتَلَقه)، (تخلّقَه) افتراه.

ولفظة (الخَلَق) و(الخَليقة) و(الخَلائق) تُقال بمعنى (المخلوقين)، و(الخَلْق) و(الخُلُق) في الأصل واحد، لكن خصت الأولى بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخصت الثانية بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة، و(الخلاق) ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه، ويقال: فلان (خَلِيقٌ) بكذا أي: جدير به كأنه (مخلوق) فيه ذلك، ومجبول بالفطرة عليه، لأن (الخلقة) هي الفطرة، ويقال: (تَخَلّق) بغير (خُلُقه) أي تكلّفه، و(الخَلاق) هو النصيب.

- (هدى): (الهداية) هي الدلالة بلطف، ومنها (الهَدِية)، فما كان دلالة خص بالفعل (هَدَيْت)، وما كان إعطاء خص بالفعل (أهْديت).

و(هداية) الله - تعالى - للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: يشمل (الهداية) التي عم بجنسها كل مكلّف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله.

والثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال الكتب وآخرها القرآن الكريم.

والثالث: هو التوفيق الذي يختص به الله - تعالى - من اهتدى.

والرابع: هو الهداية في الآخرة إلى الجنة.

وهذه الهدايات الأربع مترتبة على بعضها البعض، فإن لم تحصل الأولى لا تحصل الثانية حيث لا يصح تكليفه، وإن لم تحصل الثانية لا يحصل أي من الثالثة والرابعة، إلا من كتبت له الرابعة في علم الله - تعالى - وبرحمته. وقد تحصل الأولى ولا يتحقق شيء مما بعدها. وطالب الهدى ومتحريه هو الذي يوفقه الله - تعالى - ويهديه إلى طريق الجنة بكلٍّ من العقل والشرع، والتوفيق الذي يلقى في روع الإنسان فيما يتحراه، لا من ضاده فتحرى طريق الضلال إلى الشرك بالله أو الكفر به فيضله الله ولا يهديه.

و(الهدى) و(الهداية) في موضوع اللغة واحد، ولكن الله - تعالى - قد خص لفظة (الهدى) بما تولاه وأعطاه واختص ذاته العلية به دون سواه، و(الاهتداء) يختص بما

يتحراه الإنسان على طريق الاختيار، كما يقال لطلب (الهداية)، والصفة منها (مهتدي). و(الهَدي) مختص بما يهدى إلى البيت الحرام، والواحدة (هَدْية) و(الهَدِيّة) كذلك مختصة باللطف الذي يهدي بعضنا إلى بعض، و(المِهْداء) من يكثر إهداء الهدية، و(المهدى) الطبق الذي يهدى عليه.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن الهداية الربانية التي وهبها الله ﷻ إلى كل شيء من أشياء الكون - دقّ أم عظم - هي من أسباب قيام الوجود بقوانين محكمة، وسنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وأن هذه الهداية مكملة لعملية الخلق (بمعنى الإبداع من العدم على غير مثال سابق). ويحتاج الإنسان إلى مجلد كامل لاستعراض صور الهداية الربانية في كل ما خلق الله - تعالى - ولكن يمكن إيجاز ذلك فيما يلي:

- القوانين المنضبطة التي تحكم كل ما في الكون من اللبنات الأولية لكل من المادة والطاقة، إلى الأرض وباقي أجرام المجموعة الشمسية إلى المجرات والتجمعات

صورة حقيقية لكواكب المجموعة الشمسية مأخوذة من خلف الكوكب نبتيون.

من صور بديع خلق الله وهدايته ملاءمة موقع الأرض من الشمس لاستمرار عناصر الحياة فيها.

المجرية، والمحلية، والمجرية العظمى، والمحلية العظمى إلى ما هو أكبر من ذلك، حتى نهاية الكون، في توافق وانسجام تامين كاملين، وإحكام وانضباط بديعين مبهرين يتضحان في الترتيب الدوري للعناصر، وفي تكون الجزيئات والمركبات، كما يتضحان في حركة كل جرم من أجرام السماء، وفي ميلاده وفنائه.

- تخلق العناصر المختلفة في داخل النجوم أو في صفحة السماء وإنزالها بقدر إلى الأرض.

- ملاءمة الأرض بموقعها في المجموعة الشمسية، وبكل من شكلها، وكتلتها، وحجمها، وكثافة مختلف نطقها، ودورانها حول محورها أمام الشمس، وبسرعة جريها في مدارها، وميل محورها، وبكل من غلافيها الغازي والمائي، وبنطق الحماية المحيطة بها، وبتوزيع الماء واليابسة على سطحها، وبتصريف الرياح من حولها، وتكوين السحب وإنزال المطر ودورة الماء الذي أعطاه الله - تعالى - من الصفات ما ميزه على غيره من جميع المركبات الكيميائية - بصفة عامة - وعلى جميع السوائل - بصفة خاصة -

ودوران كل من الصخور والتربة والأشكال الأرضية المختلفة، والثروات المعدنية الفلزية منها وغير الفلزية، ودوران ثاني أوكسيد الكربون وغيره من الغازات حول الأرض.

- القوانين التي تحكم بناء الأحماض الأمينية وكيفيات ترتيبها وترابطها بعشرات الآلاف من الذرات في سلاسل محكمة تكون عشرات الآلاف من البروتينات التي تنبني منها الخلايا الحية، وقدرات تلك الخلايا الحية على القيام بجميع الوظائف الحيوية سواء كانت مفردة أو متجمعة في أنسجة متخصصة، وأعضاء ذات وظائف محددة، تنظمها أجهزة مستقلة تعمل مع بعضها البعض في توافق عجيب، وقدرة الخلايا الحية على التمايز والتخصص، وقدرة الخلايا المتخصصة على التعرف على بعضها البعض والالتقاء في نسيج واحد، ثم في عضو واحد، وتناسق العمل بين الأعضاء المختلفة في نظام واحد ثم في جسد واحد.

- خلق الحياة بمختلف صورها وأشكالها من تراب الأرض، وجعلها قادرة على صيانة نفسها، وعلى الاستمرار بنسلها من جيل إلى جيل مع الاحتفاظ بخواصها ومميزاتها، وتحصي العلوم المكتسبة من صور الحياة اليوم أكثر من مليون ونصف

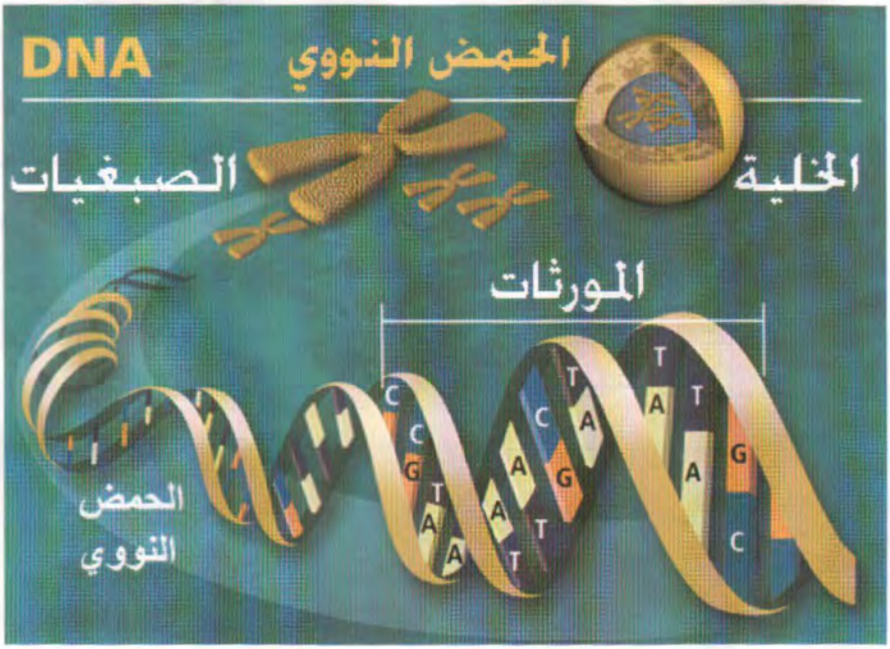

رسم تخطيطي للحمض النووي المكون للصبغيات والذي تكتب به الشيفرة الوراثية.

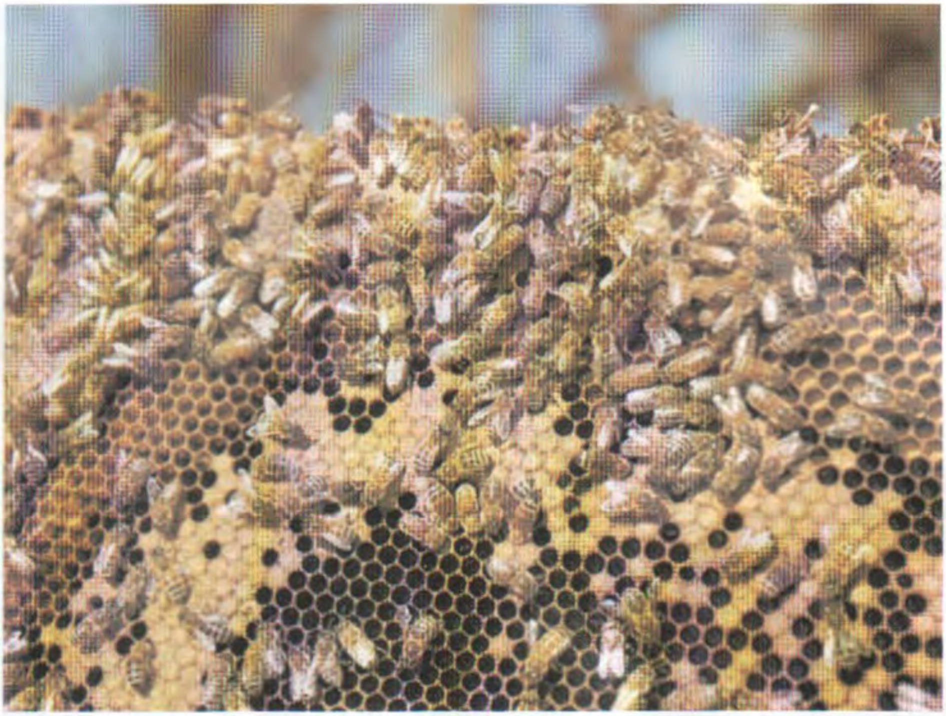

صورة مبهرة لهداية الباري سبحانه وتعالى. الانضباط والتنظيم في خلايا النحل.

المليون نوع من الأنواع، ومن المتوقع أن يصل هذا الرقم إلى أكثر من خمسة ملايين نوع بحسب معدلات الاكتشافات السنوية للأنواع الجديدة، ويمثل كل نوع منها ببلايين البلايين من الأفراد، وتميز كل فرد من هذه الأفراد بشيفرته الوراثية المميزة له، وذاتيته الخاصة، على الرغم من بناء جميع الخلايا الحية من اللبنات الأولية للمادة.

- خلق الشيفرة الوراثية، وإعطاؤها القدرة على التحكم في صفات الكائن الحي، وفي كافة أنشطته فرداً فرداً من بلايين البلايين الممثلة لكل نوع من أنواع الحياة، ومن هذه القدرات التكاثر، والتكيف مع التغيرات البيئية في الوسط الذي تحيا فيه.

- العلاقات المبهرة بين مختلف أنواع الحياة خاصة ما يحيا منها في مجموعات كبيرة، شديدة الانضباط والتنظيم، وتوزيع المسؤوليات بين أفرادها بتوافق وإحكام تامَّين من مثل خلايا النحل والنمل وغيرها، ومستعمرات المرجان والإسفنج وغيرها. وكذلك العلاقات التبادلية للمنافع بين كثير من أنواع النبات والحشرات، حيث تشكل زهور أنواع

مخصصة من النبات غذاء ومأوى وموضع تجميع البيض لأنواع محددة من الحشرات التي تقوم بعملية إخصاب زهور تلك النباتات في عمل دقيق محكم ومبهر. وكذلك العلاقات المتبادلة بين كثير من الأشجار والديدان التي تعيش في التربة التي تقوم عليها تلك الأشجار.

- الاتزان البيئي الدقيق في سائر النظم البيئية البرية، والبحرية والجوية والتي لا يفسدها إلا تدخلات البشر، وقدرتها على إعادة توازنها بذاتها إذا تعرضت لتغيرات فطرية بعيدة عن إفساد الإنسان.

- إعطاء النبات القدرة على التنفس والنتح، والميل نحو الضوء، وعلى النمو وعلى امتصاص الماء مع العصارة الغذائية من تربة الأرض وعلى تحليل الماء بواسطة طاقة الشمس إلى مكوناته الأساسية من الإيدروجين الذي يحتفظ به والأوكسجين الذي يطلقه إلى الجو، وعلى امتصاص ثاني أوكسيد الكربون من الجو وتحليله إلى مكوناته الأساسية من الكربون الذي يحتفظ به والأوكسجين الذي يطلقه إلى الجو، ثم ربط ذرات كل من الكربون والإيدروجين في سلاسل معقدة من الكربوهيدرات التي تشمل مختلف أنواع السكر والنشا والسيليولوز الذي يبني به النبات أجزاءه المختلفة ويختزن الباقي في ثماره التي يحيا عليها كل من الإنسان والحيوان. وإذا تم إحراق هذه الكربوهيدرات تحولت إلى ثاني أوكسيد الكربون وبخار الماء اللذين ينطلقان إلى الجو بعد أن يعطيا قدراً من الطاقة التي يحتاجها كل من الإنسان والحيوان.

- تسخير كل ما في السمٰوات والأرض للإنسان، من مادة وطاقة وظواهر وسنن يحكمها الثبات والانضباط والانتظام، ولولا ذلك ما استطاع الإنسان التعرف على شيء منها أو توظيفها في عمارة الأرض وإثراء الحياة عليها، والمنهج العلمي قائم على أساس من انتظام قوانين الكون وسننه، وسهولة التنبؤ بها مرجعه إلى هذا الانتظام والثبات.

- هداية كل وحدة من لبنات هذا الكون الشاسع الاتساع، المعقد البناء، المحكم الحركة، والمنضبط في كل جزئية من جزئياته - من اللبنات الأولية للمادة إلى أكبر وحدات السماء، ومن الخلية المفردة إلى الإنسان - إلى الدور المسخر له في حركة الكون والحياة. فكل وحدة - تضاءلت أم تعاظمت - لها قوانينها وسننها وما ينبغي لها أن تقوم به أو تخضع له، وصورتها المعينة، وأجلها المحدد.

وقد ميّز الله الإنسان فوق بقية الخلق بالعقل والإدراك والشعور، وبالبصيرة والبيان، وبالمهارات الذهنية واليدوية، وبالعاطفة والوجدان، وفوق ذلك وقبله بحرية الإرادة والاختيار التي سوف يحاسب على أساس من حسن أو سوء استخدامه لها، مع دخوله مع غيره من مختلف صور الخلق في الدائرة العظمى وهي دائرة قدر الله.

هذا قليل من كثير من صور الهداية الربانية التي وهبها الله - تعالى - لكل دقيق وعظيم من خلقه، وهي إن دلت على شيء فإنها تدل على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في هذا الكون الذي يتحرك كل شيء فيه بعلم الله وحكمته وإرادته، هذا الإلٰه الخالق البارئ المصوِّر الذي لا ينازعه أحد في ملكه، ولا يشاركه أحد في سلطانه، ولا يشبهه أحد من خلقه، والمنزه عن الصاحبة والولد وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

وهذا النزر اليسير عن صور الهداية الربانية التي منَّ بها ربنا - تبارك وتعالى - على جميع خلقه لم تتوصل إليه العلوم المكتسبة إلا بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء لمئات من السنين حتى تبلور لنا في القرن العشرين، وفي العقود المتأخرة منه بالذات. وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقيقة من قبل ألف وأربعمائة سنة وبنو الإنسان غارقون في بحار الكفر والشرك والشك والضلال لمِمَّا يثبت لكل ذي بصيرة أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية وحفظ ربنا - تبارك وتعالى - آخر رسالاته لهداية البشرية في نفس لغة وحيها - اللغة العربية - وحفظ كلاً من القرآن الكريم وأحاديث النبي والرسول الخاتم بعظيم حفظه حتى يبقيا شاهدين على جميع الخلق إلى قيام الساعة.

فالحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على بعثة سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله، النبي الأمين الذي بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فأسأل الله - تعالى - أن يجزيه خير ما جازى به نبياً عن أمته، ورسولاً على حسن أداء رسالته وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة في الجنة إن ربي لا يخلف الميعاد، وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

15 - ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54]

هذه الآية الكريمة جاءت في خواتيم سورة «الروم»، وهي سورة مكية وآياتها ستون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بالإنباء المستقبلي بانتصار الروم على الفرس قبل وقوعه بعدد من السنين، وبعد أن كانوا قد هزموا هزيمة منكرة أمام الجيوش الفارسية. وهذا الخبر يمثل جانباً من جوانب إعجاز القرآن الكريم يعرف باسم الإنبائي (الإخباري). ويدور المحور الرئيس لـ: سورة «الروم» حول عدد من ركائز العقيدة الإسلامية، شأنها في ذلك شأن كل السور المكية.

وتبدأ سورة «الروم» بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: 1-5].

والحروف المقطعة التي استهلت بها هذه السورة المباركة ﴿الٓمٓ﴾ تكررت في مطلع ست من سور القرآن الكريم هي (البقرة، «آل عمران»، العنكبوت، الروم، لقمان، والسجدة)، وجاءت مرة واحدة بالصيغة (المر) في مطلع سورة الرعد. والحروف المقطعة بصفة عامة

تعتبر من أسرار القرآن الكريم التي أوكلها أغلب المفسرين إلى علم الله - تعالى -، وحاول البعض تفسيرها بما عرضناه من قبل.

وقد أشارت الآيات إلى هزيمة الروم في أدنى الأرض (وهي منطقة حوض وادي عربة/ البحر الميت/ وادي الأردن) وقد أثبتت الدراسات العلمية أنها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً عن مستوى سطح البحر، وهي في الوقت نفسه أقرب الأراضي إلى أرض الحجاز، ولفظة (أدنى) في العربية تحتمل المعنيين: الأخفض والأقرب. وأكدت السورة الكريمة أن الروم سوف يغلبون من بعد غلبهم هذا في بضع سنين، والبضع في العربية بين الثلاث والتسع، وقد تحقق ذلك بالفعل. وأكدت الآيات كذلك أن الأمر لله - تعالى - من قبل ومن بعد، وأن النصر بيده يهبه لمن يشاء (وهو العزيز الرحيم)، كما أكدت فرح المسلمين يومئذٍ لسببين: **أولهما**: لانتصارهم في معركة بدر الكبرى على كفار ومشركي قريش وقد بشرت الآية الكريمة بهذا النصر، **وثانيهما**: لانتصار الروم على الفرس، وقد تحققت البشرتان بأمر الله - تعالى -.

ثم تتابع الآيات مؤكدة أن وعد الله لا يخلف، ومستنكرة أن أغلب الناس غافل عن حتمية الآخرة، وغير معتبر بإبداع الخالق في كل من النفس الإنسانية، والسمٰوات والأرض وما بينهما، كما تستنكر كفرهم بلقاء ربهم، وعدم اعتبارهم بما حدث للأمم من قبلهم جزاء تكذيبهم بآيات الله ورسله.

وتستمر سورة «الروم» في التأكيد على حقيقة أن الله تعالى يبدأ الخلق ثم يعيده، وأن الخلق جميعهم إليه راجعون، وأن المجرمين سوف يحزنون في الآخرة حزناً يبلغ بهم حد اليأس، وإن شركاءهم الذين أشركوهم في عبادة الله تعالى سوف يتخلون عنهم فيكفرون بهم، ويتفرق الخلق إلى منعَّمين في جنات الخلد هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومعذَّبين في نار جهنم لا يغادرونها أبداً، هم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة أو أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

وتأمر الآيات بذكر الله، وتسبيحه، وحمده انسجاماً مع ما يقوم به جميع من في السمٰوات والأرض من الخلق غير المكلف في كل وقت، وخاصة في المساء والصباح، وفي العشية وفي الظهيرة، لما في هذه الأوقات المحددة من بركات خاصة فتقول: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: 18،17].

ثم تستعرض السورة الكريمة عدداً من آيات الكون وكلها يشهد لله - تعالى - بطلاقة القدرة وعظيم الصنعة وإبداع الخلق. ثم تضرب للناس مثلاً من أنفسهم وتسألهم بطريقة الاستفهام الإنكاري التوبيخي التقريعي: هل لكم من مواليكم شركاء فيما ملكناكم من الأموال فلا تتصرفون في شيء مما تملكون إلا بإذنهم؟ فإن كنتم لا ترضون هذا ولا تفعلونه وهم أمثالكم في البشرية والعبودية لله - تعالى - فكيف تشركون مع الله ﷻ بعض مخلوقاته، بل بعض مصنوع مخلوقاته، حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه من دون الله أو تشركونه في عبادة الله - تعالى -؟ وذلك من مثل الأوثان والأصنام والصلبان والتماثيل والصور.

وتبيِّن الآيات لأصحاب العقول المستنيرة كلًّا من الحق والباطل، ولكن الذين كفروا عموا عن الحق، واتبعوا الباطل وأهواءهم دون إدراك بعواقب كفرهم أو شركهم، ولعلم الله - تعالى - بهم أضلهم أي: تركهم في ضلالهم، ومن يهدي من أضل الله؟

وتأمر الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ - ومن بعده كل مؤمن برسالته - بأن يقيم وجهه للإسلام الحنيف، أي يقبل عليه بكليّته لأنه الدين الذي يرتضيه ربنا - تبارك وتعالى - من عباده، فهو دين الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها، والتي لا تبديل لها، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ذلك لجهلهم، أو لتكبرهم، أو لانغماسهم في المعاصي والشهوات. كذلك تأمر الآيات بالإنابة إلى الله - تعالى - وبتقواه، كما تأمر بإقامة الصلاة، وتحذر من الوقوع في دنس الشرك بالله.

وفي الإشارة إلى شيء من طبائع النفس الإنسانية تذكر الآيات في سورة «الروم» أن الناس إذا أصابهم الضر التجأوا إلى الله ﷻ طالبين كشفه عنهم، فإذا استجاب الله لتضرعهم سارع فريق منهم إلى الشرك به، فتكون عاقبة أمرهم الكفر بأنعم الله. وتنذرهم الآيات من شر تلك العاقبة، مؤكدة أن الله ﷻ إذا أذاق الناس نعمة منه فرحوا بها إلى حد البطر، وإذا أصابهم بشدة بسبب ما اقترفوا من ذنوب يئسوا إلى حد القنوط، ونسوا أن الله - تعالى - هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

وتأمر الآيات بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل، وتحرم التعامل بـ «الربا»، وتحض على أداء الزكاة، وتؤكد أن الله - تعالى - هو الخلّاق، الرزاق، المحيي، المميت، وأن الذين عبدهم المشركون من الأوثان والأصنام والصلبان والتماثيل والصور لا تستطيع تحقيق شيء من ذلك، فتعالى الله عما يشركون علواً كبيراً.

وتشير الآيات إلى ظهور الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، مؤكدة أن الله ﷻ سوف يعاقبهم على ذلك فتقول: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: 41].

وتأمر الآيات الناس بالسير في الأرض للاعتبار بما حدث للأمم المشركة من قبل، مؤكدة ضرورة الاستقامة على الإسلام العظيم من قبل أن تأتي الآخرة فتصدع به كل الخلائق بعد أن يكون باب التوبة قد أغلق ثم يجزى كلٌّ بعمله.

وتذكر السورة الكريمة أن تصريف الرياح هو من دلالات طلاقة القدرة الإلٰهية المستوجبة شكر العباد لأنه لولا تصريف الرياح ما تكونت السحب، ولا هطلت الأمطار، ولا تلطف الجو، ولتوقفت الحياة على الأرض. وتعاود الآيات التذكير بعقاب المكذبين من مجرمي الأمم السابقة انتقاماً منهم، ومؤكدة أن نصر المؤمنين حق على رب العالمين في كل زمان ومكان. ثم تتطرَّق إلى تفصيل كيفية تكوُّن السحب الطباقية، وإنزال الماء منها، فيستبشر العباد بذلك بعد أن كانوا من اليائسين، وتشبه إحياء الموتى بإحياء الأرض بعد موتها، مؤكدة أن الله - تعالى - على كل شيء قدير، وتقارن بين الرياح المبشرة بالخير وبين ريح العقاب المصفرة.

وتشبه الآيات إعراض الكفار والمشركين عن الاستماع إلى رسالة الله الخاتمة بعجز كل من الموتى والصم عن الاستماع إلى محدثيهم خاصة إذا كان الأصم منهم مدبراً عمن يكلمه، وفي ذلك تقول الآيات في سورة «الروم» مخاطبة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين -:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: 52،53].

وتذكِّر الآيات الناس بحقيقة أن الله - تعالى - خلقهم من ضعف، ثم جعل لهم من بعد الضعف قوة، ثم جعل من بعد القوة ضعفاً وشيبة حتى لا يغتر أحد بشبابه ولا يحزن لشيبته وضعفه، ويعلم أنها سنة الله في خلقه.

وتؤكِّد سورة «الروم» على مرحلية الحياة الدنيا وفتنة الناس بها، وغفلتهم عن الآخرة وخلودها، ونسيانهم لحتمية وقوعها، ثم مفاجأتهم بها في يوم القيامة.

وتختتم هذه السورة الكريمة بخطاب من الله - تعالى - إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ - ومن بعده إلى كل المؤمنين برسالته - مؤكداً كفر الذين كذبوا بالقرآن العظيم، وببعثة هذا

الرسول الخاتم - صلوات الله وسلامه عليه -، وقد طبع الله على قلوب الكافرين والمشركين بكفرهم، فهم لا يعلمون الحق، ولا يجدون إليه سبيلاً، وآمراً بالصبر على استخفافهم بدعوة الحق، والاطمئنان إلى وعد الله، وهو واقع بهؤلاء الكفار والمشركين لا محالة، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾

[الروم: 58-60].

هذا وقد سبق لنا عرض ركائز كل من العقيدة والعبادة وتلخيص الإشارات الكونية التي جاءت في سورة «الروم» في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم (15) ولا أرى حاجة إلى إعادتها هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ...﴾ [الروم: 54].

يخلق الله - تعالى - الإنسان بإخصاب نطفة مختارة من بين مئات نطف الزوجة بواسطة نطفة مختارة كذلك من بين بلايين نطف الزوج ثم تتحرك هذه **النطفة الأمشاج** (أي المختلطة) في العديد من الأطوار التي تتحرك برعاية الله من طور **العلقة** إلى طور **المضغة**، إلى تخليق العظام واللحم (العضلات والجلد) إلى التركيب والتصوير والإنشاء حتى يخرج إلى الوجود مولوداً جديداً بإذن الله، بصفات محددة في علم الله، فما من نفس منفوسة إلا أن الله خالقها: «**وما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة**»(1).

و«**ما من نفس إلا سيأتيها ما قدّر لها**»(2).

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: العتق، باب: من ملك من العرب رقيقاً (الحديث: 2542)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (الحديث: 3529).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (الحديث: 3541)، وأخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في العزل (الحديث: 2173)، وذكره ابن حجر في «فتح الباري» (الحديث: 9/ 306).

● ونطفة الرجل لا يزيد طولها عن خمسة ميكرونات (0,005 مم) بينما يصل قطر نطفة المرأة إلى مائتي ميكرون (0,2 مم) وهل هناك بداية أضعف من ذلك؟

● وتبدأ النطفة الأمشاج (0,2 مم) في الانقسام لتكون جسيماً ضئيلاً يشبه حبة التوت الصغيرة ولذا يعرف باسم «طور التويتة» (**Morula**) وبها مئات الخلايا، ثم تتجوف التويتة، ويتكون بداخلها سائل رقيق فتعرف باسم «**طور الأرومة الجرثومية، أو التكور الجرثومي**» (**Blastula**)، وتبدأ في محاولة التعلق ببطانة جدار رحم الأم في الفترة من الليلة السادسة إلى الرابعة عشرة من تاريخ الإخصاب.

● وبعد انزراعها في بطانة جدار الرحم تتحول إلى «**طور العلقة**» الذي يستمر من الليلة الخامسة عشرة إلى الليلة الخامسة والعشرين من تاريخ الإخصاب، ويتراوح طول الجنين في هذه الفترة بين (0,3 مم) وَ(0,7 مم).

● من الليلة السادسة والعشرين إلى الثانية والأربعين من عمر الجنين تتحول العلقة إلى «**طور المضغة**» ويتراوح طولها بين (3,2 مم) وَ(13 مم).

● من الليلة الثالثة والأربعين إلى الليلة التاسعة والأربعين يزداد حجم الجنين لانتشار العظام فيه ويتراوح طوله بين (14 مم) وَ(20 مم).

● ثم تكسى العظام باللحم (العضلات والجلد) في خلال الأسبوع الثامن (من الليلة الخمسين إلى الليلة السادسة والخمسين من عمر الجنين) ويزداد طوله ليتراوح بين (22 مم) وَ(31 مم).

● ومن بداية الأسبوع التاسع يبدأ الجنين (**Embryo**) في اكتساب عدد من الملامح الإنسانية فينتقل إلى طور الحميل (**Fetus**) الذي يستمر إلى نهاية فترة الحمل، وأقصاها تسعة شهور قمرية (أي 38 أسبوعاً أو 266 ليلة من تاريخ الإخصاب إلى نهاية فترة الحمل)، وأقلها ستة شهور قمرية (أي 26 أسبوعاً أو 177 ليلة من تاريخ الإخصاب).

وتتميز هذه الفترة بالنمو السريع للحميل خاصة بعد أسبوعه الثاني عشر، ويبدء عملية التناسق بين أبعاد كل من الرأس، والأطراف، والجسم، فيزداد الطول من (32 مم) في نهاية طور الجنين إلى حوالي (500 مم) قبل المخاض، كما يتراوح الوزن من (8 جم) إلى (3500 جم).

وتشير الدراسات الطبية إلى أن 50% من حالات الحمل تفشل قبل أن تعلم المرأة أنها حملت، وأن 78% من الحالات الباقية يجهض، ويتم إسقاطه أو تحلله إلى سوائل وامتصاصه في داخل الرحم. وبالإضافة إلى ذلك يقول ربنا - وهو خير القائلين -: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

ويقول - عز من قائل -:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا...﴾ [الحج: 5].

ويقول تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: 67].

ومن الثابت علمياً أن الحميل لا يمكنه أن يعيش خارج الرحم إلا بعد تمام شهره القمري السادس، ولذلك قال - تعالى -: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا...﴾ [الأحقاف: 15].

وقال - عز من قائل -: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ...﴾ [البقرة: 233].

وقال جل جلاله : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14].

وعلى ذلك تحدد فترة الرضاعة حسب المدة التي قضاها المولود في بطن أمه، فإن كان قد ولد بعد ستة شهور قمرية فلا بد من استكمال فترة رضاعته إلى حولين كاملين، وإن كان قد ولد لتسعة شهور قمرية فيكفي لرضاعته واحد وعشرون شهراً قمرياً.

والوليد الذكر عادة ما يكون أكبر حجماً من الأنثى، ويبلغ طوله حوالي (50 سم) ووزنه حوالي (3,5 كجم) في المتوسط، وبإتمام عامه الأول يزداد طول الرضيع بحوالي 35% فيصل طوله إلى (70 سم)، ويتضاعف وزنه ثلاث مرات فيصل إلى حوالي العشرة كيلو جرامات.

وفي الرضيع تكون أغلب العظام طرية ولذلك تكون قابلة للكسر وللتشوه إذا لم تعامل بحرص شديد، ثم يبدأ تكلسها في التزايد بالتدريج حتى تقوى؛ وتنبت الأسنان الأولى (وهي عادة الأمامية السفلية) عند تمام الشهر السابع من عمر الوليد، وبعد إتمام عامه الأول يصل عدد الأسنان النابتة إلى حوالي الست.

ويولد المولود بعضلات كاملة ولكنها صغيرة بالنسبة إلى حجمه، وبحواس منتبهة وأولها السمع، ثم الإبصار، واللمس، وقدرة القبض على الأشياء، وإن تأخرت حاسة الذوق قليلاً. وتستكمل قشرة المخ نشاطها بالتدريج، فيستطيع الوليد بعد ثمانية أسابيع من الميلاد إدراك ما حوله، والتمييز بين الأصوات ذات النبرات المختلفة وبين الروائح المتباينة، وتزداد قدراته بالتدريج بعد ذلك فتكتمل حاسة الإبصار في شهره السادس، كما تزداد قدراته على إصدار الأصوات والانفعال بالأحداث من حوله في شهره السابع.

وفي الفترة بين عامه الأول والثاني (من الشهر الثاني عشر إلى الثامن عشر) يبدأ الرضيع الطبيعي بالحركة ومحاولة المشي، وفي فهم دلالة بعض الكلمات، وفي تمام الشهر السادس عشر يبدأ في الوقوف على قدميه والمشي مستقلاً، وفي تمام السنتين يكون قد وصل إلى مرحلة الكلام بجمل قصيرة مفهومة وقد تم فطامه.

صورة مولود في عامه الأول.

ويبدأ الطفل بالتدريج في إدراك ما حوله وفي تحصيل عدد من وحدات المعرفة ووسائلها، ثم في تعلم اللغة، وفي تنمية الذاكرة والقدرة على التعبير وعلى التفكير والاستنتاج، ثم تتطور دوافعه ورغباته، ثم

أخلاقه وقيمه حتى يدخل في طور المراهقة وتبدأ في الأولاد حوالي سن (13) سنة وفي البنات بين سن (8 - 11) سنة في المتوسط، وتستمر فترة المراهقة إلى سن العشرين حين يكتمل نمو العظام وتقوى وتزداد كثافتها، ويتم نمو العضلات وتشتد، وتكتمل الغضاريف، فتتغير الأبعاد والأشكال والتصورات والمفاهيم. ومن لحظة الميلاد إلى ما قبل مرحلة الشباب يكون جسم الطفل في حاجة إلى الرعاية والحماية الدائمة لضعفه، وإذا رجعنا إلى مراحله الجنينية اتضح لنا معنى قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ. . .﴾.

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: 54].

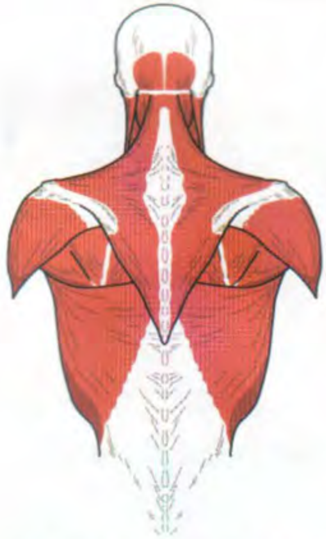

رسم تخطيطي يظهر قوة العضلات في طور الشباب والرجولة.

يتميز طور المراهقة بالنمو البدني السريع باطراد، فيزداد الطول والوزن بشكل ملحوظ بزيادة حجم العضلات في الذكور، وزيادة سمك الطبقة الدهنية في الإناث بصفة عامة. ويصاحب النمو الجسدي بالبلوغ الجنسي، وزيادة إفراز الهرمونات، وتصل القوة البدنية إلى أعلى مستوياتها في نهايات مرحلة الشباب، وإن عانى المراهقون من الحساسية الشديدة، والحرج، والميل إلى العزلة عن المجتمع، والخوف من النقد الشخصي.

وتمتاز هذه الفترة أيضاً بظهور عدد من القدرات الخاصة التي توظف في محاولة تحقيق الذات بانتهاج نوع من الاستقلالية الفكرية حتى يتم تشكيل الهوية، بالنمو العقلي والعاطفي والوجداني، والتعطش إلى محبة الآخرين، والرغبة في الاستحواذ على إعجابهم.

وتعتبر فترة المراهقة هي طور الشباب، وهو طور الانتقال من الطفولة إلى الرجولة، فتزداد القدرات البدنية، والعقلية، والنفسية بالتدريج حتى تصل إلى قمتها في سن الخامسة والعشرين، وتستمر بهذا الزخم إلى سن الخامسة والأربعين (وهي مرحلة الرجولة الكاملة) ثم يبدأ منحنى الجسد في التدهور ليدخل في **دور الكهولة ثم الشيخوخة**. ويسمي القرآن الكريم مرحلة الرجولة باسم مرحلة بلوغ المرء أشده فيقول:

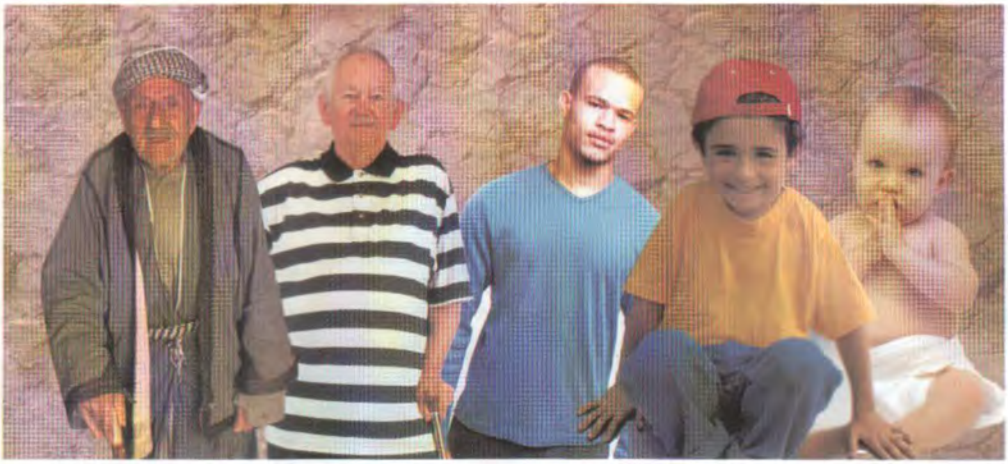

مراحل يمر بها الإنسان من ضعف إلى قوة في دورة الطفولة والشباب والرجولة الكاملة ثم إلى مرحلة الضعف في دورة الكهولة والشيخوخة.

﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: 15].

ولذلك عبّر القرآن الكريم على الانتقال من أطوار كل من **الجنين**، **والحميل**، إلى «**مرحلتي الرضاعة**» و«**الطفولة**» وما في كل منها من ضعف إلى «**مراحل الشباب والرجولة**» وما فيها من قوة وشدة يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً...﴾ [الروم: 54].

وهي قوة تشهد لله الخالق بأنه هو وحده واهبها، ومرتبها، ومنظمها حسب علمه وحكمته وقدرته.

ثالثاً: في قوله - تعالى -: ﴿... ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: 54].

بعد وصول الإنسان إلى أقصى مراحل نموه الجسدي في «**طور الرجولة**»، وثباته عند هذه القمة من سن (25) إلى سن (45) سنة تقريباً يتوقف النمو الجسدي، وتأخذ القدرات البدنية في التناقص التدريجي حتى سن الخامسة والستين، ثم بالتناقص الحاد من سن الخامسة والستين إلى نهاية العمر، وتسمى هذه الفترة باسم «**طور الشيخوخة**» (**Senescence**) وهي حالة من التدهور التدريجي في بنية كل حي يشمل جميع خلاياه،

وأنسجته، وأعضائه، وأجهزته، مما يضعف من كفاءتها ومن قدرتها على القيام بوظائفها بالمعدلات التي كانت تقوم بها في طوري الشباب والرجولة.

وهذا التدهور الصحي هو نوع من «**التدمير الذاتي المبرمج**» (**Phenoptosis**) في الشيفرة الوراثية للخلية الحية. فيبدأ الخلل في التراكم على مستوى الخلايا لينعكس على الأنسجة، والأعضاء، والأنظمة، ويبدأ في الظهور في أشكال متعددة من التغير في تركيب الأحماض النووية التي تكتب بها الشيفرة الوراثية إلى شيب الرأس، وتجاعيد الجلد، وضعف الحواس، وغير ذلك من مظاهر الشيخوخة.

ومن المعروف أن أبسط تغير في تركيب الأحماض النووية يؤدي إلى عجز الخلية عن القيام بدورها المنوط بها، فتتراجع فاعليتها وتظهر أعراض الشيخوخة المختلفة عليها. وقيل أن من أسباب ذلك تراكم **الجذور الحرة للعناصر** (**Free Radicals**) في الجسم.

والشيخوخة بذاتها ليست حالة مرضية، ولكن إذا صاحبها الكثير من الأمراض تحولت إلى «**شيخوخة مرضية**» (**Senility**) يعتني بها في فرع خاص من فروع العلم يعرف باسم «**علم الشيخوخة**» (**Gerontology**) وفي أحد تخصصات التطبيب يعرف باسم «**طب الشيوخ**» (**Geriatrics**). وأعراض الشيخوخة لا يمكن إيقافها، ولا التخلص منها، وذلك لأنها ناتجة عن ضعف قدرة خلايا الجسم على الانقسام كلما تقدم بها العمر. وقد اكتشف وجود غطاءين طرفيين عند نهايتي كل جسيم من الجسيمات الصبغية الحاملة

صور لرجال في مراحل الشيخوخة.

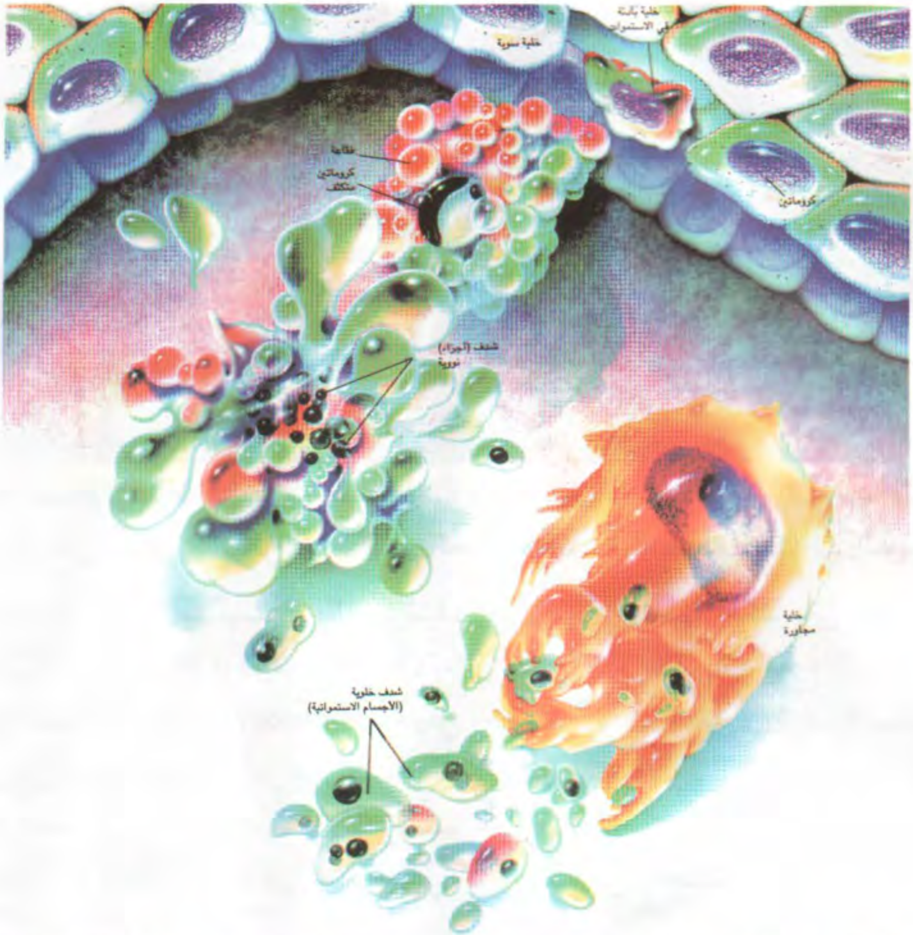

موت الخلية عن طريق الانفجار الخلوي وما تمر به الخلية المنفجرة من تغيرات مميزة: من الانكماش ثم الانسحاب مبتعدة عن جاراتها. ثم تظهر فقاعات على السطح (تجعل الخلية تبدو وكأنها تغلي)، ويتكثف الكروماتين في حواف النواة. وسرعان ما تنفجر النواة ثم الخلية نفسها، وتقوم الخلايا المجاورة بالتهام نواتج انفجارها.

للمورثات، وأن هذين الغطاءين يتناقص طول كل منهما عقب كل عملية انقسام، فإذا وصل طولهما إلى حد معين فإن عملية انقسام الخلية تتوقف حتى تموت، وتسمى فترة عجز الخلية عن الانقسام باسم «**شيخوخة الخلية**» (**Cell senility**). ومن مظاهر ذلك ما يلي:

1 - **شيب شعر الرأس**: والشيب هو ابيضاض الشعر بفقدانه مادته الملونة الموجودة بخلايا التلوين (**Melanocytes**) في عمق البصيلة الشعرية، ويتناقص عدد خلايا التلوين

بمعدل 1% في كل سنة من سني مرحلة الكهولة تقريباً، ويخضع نشاطها إلى مفعول هرمون خاص، وينقص إفراز هذا الهرمون تدريجياً مع تقدم العمر فيضعف نشاط خلايا تلوين الشعر ويبيض لونه بالتدريج. وإن كان ابيضاض الشعر قد يحدث أبكر من ذلك في عدد من الحالات الخاصة من مثل تكرر حالات الفزع، والأزمات النفسية، والشدائد التي يمر بها الإنسان، وذلك لما يصاحب تلك الحالات من إفراز مادة الأدرينالين وهي من المواد القاتلة لخلايا التلوين. وقد يصاحب ابيضاض الشعر بتساقطه وبقلة كثافته نظراً لموت الأوعية الدموية والخيوط العصبية المغذية للبصيلات المسؤولة عن إنتاجه.

2 - **انكماش الجلد وتجعده**: ويحدث ذلك نتيجة لتناقص نشاط كل من الغدد العرقية والدهنية في الجلد مما يؤدي إلى رقته وجفافه، وضعف أنسجته الضامة بالتدريج مع تقدم العمر، وقد يتغطى الجلد بعدد من البقع الداكنة في أجزائه المعرضة لأشعة الشمس، كما قد يظهر الشعر في أماكن الشارب والذقن عند بعض «النساء» الطاعنات في السن. وكذلك يعاني الكثيرون ممن جاوزوا سن الخامسة والستين من مشاكل جلدية عديدة من مثل الإصابة بالفطريات، والالتهابات، والحساسية الشديدة لأشعة الشمس، وبعض السرطانات الجلدية (عافانا الله منها).

3 - **ضعف الحواس**: مع تقدم الإنسان في العمر تأخذ حواسه في الضعف التدريجي وذلك من مثل قدرات السمع، والبصر، والتذوق، والشم، واللمس، ولذلك كان من الأدعية المحببة إلى قلب المصطفى ﷺ قوله الشريف: «**اللّهم عافني في بدني، اللّهم عافني في سمعي، اللّهم عافني في بصري، لا إلٰه إلا أنت**...»[1] ولتعويض النقص في عدد من قدرات حواسهم يستعين كبار السن بوسائل معينة كالسماعات، والنظارات، والعدسات وغيرها، كما تزداد حاجتهم إلى الإضاءة الشديدة، ويصعب تأقلمهم مع الانتقال إلى الأماكن المظلمة. وقد يقل عدد خلايا التذوق في اللسان فتقل قدراتهم على الاستمتاع بالطعام.

4 - **وهن (هشاشة) العظام**: يمثل الهيكل العظمي للإنسان جزءاً مهماً من تكوينه الحيوي تتعاقب فيه عمليات الهدم والبناء منذ تكامله وحتى لحظة الوفاة، ومع تقدم العمر، وتزايد معدلات الهدم على معدلات البناء فإن الهيكل العظمي يدخل في **مرحلة**

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح (الحديث: 5090).

الوهن نظراً لامتلائه بالفراغات الناتجة عن تناقص مادة الكالسيوم، وبذلك **تزداد هشاشته (Osteoporosis)**، ويسهل كسر أي جزء منه في الوقت الذي تتباطأ سرعة التئامه، ومن أكثر العظام المعرضة للكسر عند كبر السن عظام الورك والمعصم والعمود الفقري، ويحصل الكسر عند أقل صدمة. وعادة ما تتضاغط فقرات العمود الفقري مؤدية إلى شيء من قصر القامة، أو حدوث تحدب في الظهر نتيجة لضعف العضلات وتآكل الغضاريف، مما يحدث آلاماً شديدة، ويؤدي إلى التهاب المفاصل.

حالة ضعف المريض بمرض هشاشة العظام عن السير قائماً دون مساعدة.

ويرجع وهن العظم عند كبر السن إلى توقف إفراز أعداد من الهرمونات المهمة، وإلى نقص واضح في أعداد من الفيتامينات أهمها فيتامين (D) مما يؤدي إلى نقص معدلات امتصاص الكالسيوم من الدم، كذلك يتسبب في هذا المرض أية زيادة في إفراز هرمون الغدة جار الدرقية (Parathyroid Gland) والمعروف باسم (Para-Thormone) والزيادة في إفرازه بالجسم يعمل على نخر العظام، كذلك فإن الزيادة في إفراز الجسم لمادة الكورتيزون أو الإفراط في تعاطيه يؤدي إلى تثبيط عمل الخلايا البانية للعظام.

5 - **ضعف العضلات**: لاحظ العلماء أنه بعد سن الخامسة والأربعين يبدأ التناقص في كتلة كل من الأنسجة العضلية، والوصلات العصبية العضلية، كما تبدأ الزيادة في كتلة الأنسجة الدهنية والليفية بالتدريج مع تقدم العمر، خاصة مع قلة ممارسة الرياضة، وقلة الحركة بصفة عامة.

6 - **ضعف كل من القلب والجهاز الدوري**: مع تقدم السن تبدأ بعض الخلايا العضلية للقلب في التلف، ويبدأ كل من الأنسجة الليفية والدهون في التراكم على الجدر الداخلية للأوعية الدموية، وفي عضلة القلب، كما يبدأ الخلل في عمل صماماته وبذلك

تقل كفاءة القلب تدريجياً في ضخ الدم، وتقل سرعة انقباضه، وتزداد نسب الإصابة بتصلب الشرايين، فيرتفع ضغط الدم، وقد يؤدي كل ذلك إلى حدوث الجلطات الدموية التي قد تفضي إلى الموت.

7 - **التدهور التدريجي للجهاز العصبي**: تتجدد خلايا جسم الإنسان كلها باستثناء الخلايا العصبية، لعدة دورات طيلة حياته، وذلك لأن الخلايا العصبية إن ماتت لا يحل محلها بديل، ومن هنا فإن عددها يقل باستمرار مع تقدم العمر خاصة بعد تجاوز الخامسة والأربعين فتضعف الذاكرة قصيرة الأمد، ويضعف معها العديد من الحواس كالسمع والبصر، والعديد من المهارات كالقدرة على الإمساك بالأشياء، وعلى الاستجابة للمؤثرات، وقد يصاب الطاعن في السن بشيء من النسيان، والخرف، والذهول عن كل من المكان والزمان، وقد تتعرض شخصيته إلى شيء من التغيير مع تراكم العديد من المواد بين الخلايا والألياف العصبية الحية تعرف باسم لطع الشيخوخة (**Senile Plaques**) والتي تكثر عادة في منطقة الناصية - وهي منطقة اتخاذ القرار في المخ - ولذلك فإن الطاعنين في السن قد يصابون بالعديد من أمراض الشيخوخة من مثل مرض الذهان (**Alzheimer**)، والاكتئاب، والوسوسة، والخوف، وقد يتطور ذلك إلى شيء من الهوس والهيجان والجنون.

8 - **ضعف الجهاز التنفسي**: حيث تتناقص كفاءته بالتدريج مع الزمن فيصاب الطاعنون في السن عادة بأمراض التهاب كل من الرئتين، والغشاء البريتوني المغلف لهما، والشعب الهوائية، وحساسية الأجزاء المتصلة بها، وغير ذلك من أمراض الجهاز التنفسي.

9 - **ضعف الجهاز الهضمي**: نظراً لتناقص إفراز كل من العصارات والإنزيمات المساعدة في عملية هضم الطعام، فإن قدرات الجهاز الهضمي تبدأ في التناقص مع تقدم السن، هذا بالإضافة إلى ضعف قدرة الأسنان على القضم إن لم تكن قد تساقطت، ومع ضعف قدرة المعدة على الهضم تتكون القرح ويحدث النزيف مع زيادة المعاناة من الإمساك نتيجة لقلة النشاط البدني بهذا.

10 - **ضعف الجهاز البولي/ التناسلي**: يضعف الجهاز البولي نظراً للنقص التدريجي في إفراز العديد من الإنزيمات الخلوية في الكلى مما يفقدها بعض وحداتها المعروفة باسم «**النفرونات**» (**Nephrons**) ويؤدي إلى إنقاص كفاءة الكلية أو فشلها بالكامل.

وبالمثل يؤدي النقص الفجائي في إفراز العديد من الهرمونات عند الإناث بمجرد الدخول في سن اليأس، والنقص التدريجي عند الذكور في مراحل الشيخوخة إلى ضعف نشاط الجهاز التناسلي عند كل منهما بالتدريج حتى يتوقف عن النشاط تماماً مع مرور الزمن.

11 - **ضعف جهاز المناعة:** يضعف جهاز المناعة في جسم الإنسان تدريجياً مع التقدم في العمر، ولذلك تتناقص القدرة على مقاومة الأمراض. ومن أخطر أعراض ذلك هو عجز جهاز المناعة عن تمييز خلايا الجسم السليمة من الأجسام الغريبة الغَازِيَة له، فيبدأ بمهاجمة الجسد - الذي صمم أصلاً للدفاع عنه - فيصاب بسلسلة من الأمراض المعروفة باسم: «**أمراض فقد التمييز المناعي**» والتي ينتج عنها إضعاف العديد من الخلايا والأنسجة والعمليات الحيوية في الجسم مع تقدم العمر.

لهذا الضعف المتراكب في جميع أجهزة الجسم مع الزمن قال - تعالى - ﴿... ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

وميّز القرآن الكريم ضعف الشيخوخة والتقدم في السن والانتكاس في الصحة عن ضعف أطوار كل من المرحلة الجنينية ومرحلة الطفولة - والمرحلة الجنينية تشمل أطوار الخلق والتسوية والتعديل والنشأة والابتداء والنماء - بأن قرن ضعف الشيخوخة بالشيب. ولو أن هذه مظاهر يعيشها الإنسان، وقد ينسى أنه قد مر بها، إلا أن وصف القرآن الكريم لها بهذه الدقة العلمية والترتيب المنطقي السديد لممّا يشهد لهذا الكتاب الخالد بالربانية الخالصة، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

16 - ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يسٓ: 68]

هذه الآية الكريمة جاءت في أوائل الخمس الأخير من «سورة يسٓ»، وهي سورة مكية، وآياتها ثلاث وثمانون (83) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم الذي قيل فيه أنه اسم من أسماء رسول الله ﷺ أو لقب من ألقابه، وقيل فيه إنه من المقطعات الهجائية التي استفتح بها تسع وعشرون من سور القرآن الكريم.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، واستشهدت على ذلك بالعديد من حقائق الكون وقصص السابقين، ووصفت أحوال كل من أهل الجنة وأهل النار بشيء من التفصيل. وقد سبق لنا استعراض سورة «يسٓ» وما فيها من ركائز العقيدة الإسلامية، والإشارات الكونية، في المقال رقم (12) من هذا الكتاب ولذلك أكتفي هنا باستعراض الدلالة العلمية لقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يسٓ: 68].

من الدلالات العلمية للآية القرآنية الكريمة:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾:

(العَمْرُ) و(العُمُرُ) اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، وعلى ذلك فهو قدر من الزمن دون البقاء، لأن البقاء ضد الفناء، فإذا قيل: طال عمره فمعناه طالت فترة عمارة بدنه بروحه، والعمارة نقيض الخراب، يقال: (عَمَّرته) فـ (عَمُر) فهو (مَعْمُورٌ)، و(التَّعميرُ) إعطاء (العُمر) بالفعل أو بالقول على سبيل الدعاء، وعلى ذلك فإن معنى (نُعمِّره) نطل عمره قال - تعالى -:

﴿... وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر: 11].

وقال - عز من قائل -:

﴿.. أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ...﴾ [فاطر: 37].

وقال وقوله الحق: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النّحل: 70].

وقال - وهو أصدق القائلين -:

﴿... ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ...﴾ [الحج: 5].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق - قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله وعمله وشقي أو سعيد**»(1).

والآيات الخمس السابقة - وأمثالها في كتاب الله كثير -، والحديث النبوي الشريف المذكور أعلاه - وأمثاله أيضاً كثير - كل ذلك يؤكد أن أجل كل مخلوق يحدده الله - تعالى - سلفاً قبل ميلاده، وهذا ما أكدته العلوم المكتسبة مؤخراً كما سبق أن أشرنا وذلك بإثبات حقيقة أن الأجل مبرمج في الشيفرة الوراثية للمخلوق. ففي سنة 1985م اكتشف كل من جريدر وبلاكبيرن (**Greider & Blackburn**) بمحض الصدفة وجود غطاءين طرفيين لكل جسيم صبغي (**Chromosome**) عرفا باسم الغطاءين الطرفيين (**The two end caps or telomeres**)، وفي سنة1986 م اكتشف هوارد كوك (**Howard Cooke**) أن طول هذين الغطاءين الطرفيين للجسيم الصبغي يبلغ أقصى مداه في كل من الخلايا الجنينية والجذعية، ثم يتناقص مع كل انقسام تقوم به الخلية الحية، وأن هناك علاقة مطردة بين فقد أجزاء من طول هذين الغطاءين الطرفيين وشيخوخة الخلية. وعندما يصل طولهما

(1) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي... (الحديث: 6665).

صورة حقيقية للجسيم الصبغي وفوقه رسم تخطيطي للحمض النووي الذي يبنيه وتكتب به الشيفرة الوراثية.

إلى حد معين يتوقف عنده انقسام الخلية وتبدأ في الاحتضار حتى تنفجر وتموت. ولذلك أطلق الدارسون على هذه الأغطية الطرفية للصبغيات اسم المبرمجات لعدد محدد من الانقسامات، أو عدادات المضاعفات الانقسامية للخلية الحية (**Replicometers or Longivity Meters**) أو عدادات الأجل. وبذلك ثبت أن الآجال محددة في داخل كل خلية حية بعدد محدد من انقساماتها، وعند توقف انقسام الخلايا تتزايد فيها عمليات الهدم حتى تنفجر وتموت. وقد أوضح ربنا - تبارك وتعالى - هذه الحقيقة في العديد من آيات القرآن الكريم نختار منها قوله - تعالى -:

- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ...﴾ [آل عِمرَان: 145].
- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحِجر: 23].
- ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السَّجدَة: 11].

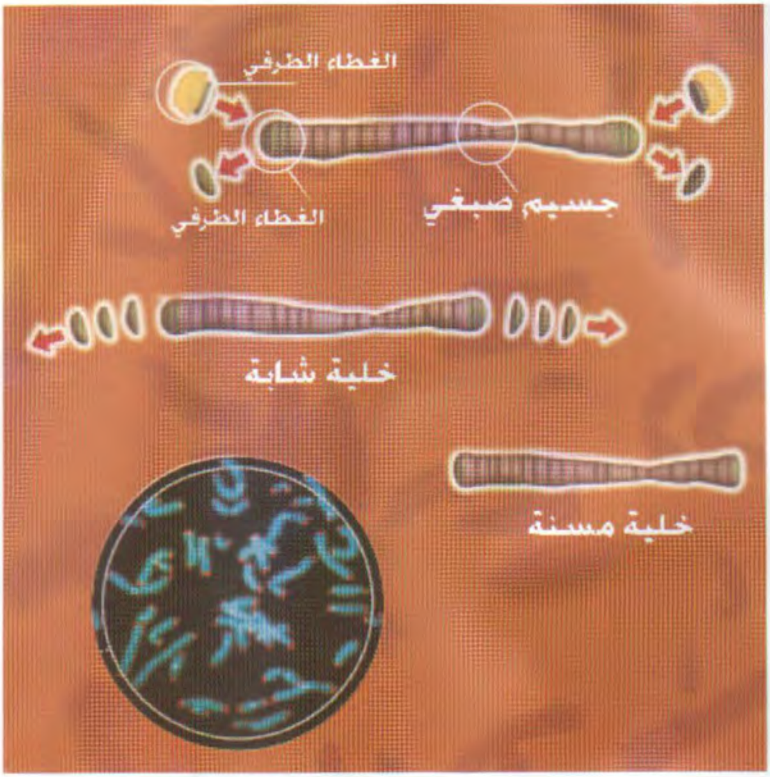

رسم للصبغيات يوضح الفرق
بين الجسيم الصبغي في الخلية الشابة والخلية المسنة.

● ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42].

● ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾ [الجاثية: 26].

● ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣)﴾ [ق: 43].

● ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: 60].

● ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)﴾ [الملك: 2].

ومن هذه الآيات تتضح لنا الحكمة من قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ [يس: 68] تأكيداً على أن الأجل قرار إلهي محض لا دخل لمخلوق فيه.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس: 68].

(النَّكْس) في اللغة هو قلب الشيء على رأسه، والنكس في العمر هو الارتداد إلى أرذل العمر، فيتبدل الشباب هرماً والقوة ضعفاً، والعظام وهناً، والشعر شيباً والذاكرة نسياناً، والعقل خرفاً، إلى غير ذلك من نقائض القوة والفتوة. و(النَّكْس) في المرض أن يعود المريض إلى مرضه بعد إفاقته منه. والمعنى الأول هو المقصود هنا، لأن الشيخوخة انتكاسة في قوة البدن والحواس، فلا يزال الشيخ يتراجع في قوته البدنية والحسية، فتضعف قوة عظامه وعضلاته، وأعصابه، وذاكرته، وسمعه، وبصره، وتتساقط أسنانه، ويشيب شعره أو يتساقط، وتتعثر خطواته، وتعتريه الأمراض والعلل حتى لا يستطيع القيام بنفسه دون مساعدة من غيره فكأنه قد ارتد إلى طفولته الأولى.

والإنسان بعد ميلاده يمر بثلاث مراحل متتالية هي مرحلة النمو من **الطفولة إلى الشباب وتستمر إلى سن الخامسة والعشرين تقريباً، ومرحلة النضج والرجولة وتستمر إلى حوالي الخامسة والأربعين، ثم مرحلة الكهولة وتبدأ من بعد الخامسة والأربعين ثم الشيخوخة أو مرحلة الضمور إلى نهاية الأجل بالوفاة.**

وتبدأ **كهولة الإنسان بابتداء ضمور أنسجة وعضلات وغدد جسمه** من مثل النسيج الحشوي لكل من الكلى والكبد والبنكرياس، وعضلات القلب، والغدة الدرقية مما ينتج عنه إضعاف الجسد كله. كذلك تبدأ الشرايين في الضمور والتصلب خاصة المخ مما يضعف الذاكرة ومراكز التحكم في مختلف الحواس، كما يضعف أنسجة وعضلات الجسم وهيكله العظمي مما يؤدي إلى تقليل كميات الدم الواصلة إلى مختلف أعضاء الجسم فيزيده ضعفاً على ضعف. وإذا علمنا أن طول شرايين الدورة الدموية الصغرى وحدها يتراوح بين (90,000 و110,000 كم) أي حوالي ضعف محيط الكرة الأرضية تقريباً، وأن عددها يصل إلى حوالي الثلاثين بليوناً من الشرايين والأوردة، وأنها تصل إلى كل زاوية من زوايا الجسم البشري اتضح لنا خطورة التغيرات الضارة عليها من مثل الضمور أو التصلب أو الانسداد.

ومن أهم أسباب الشيخوخة زيادة قوى الهدم (**Catabolism**) في داخل الخلايا على قوى البناء المعروفة باسم الأيض أو الاستقلاب (**Metabolism**) وذلك لأن خلايا الجسم كلها في تغير مستمر ما عدا خلايا كل من المخ والنخاع والأعصاب فإن ما يهلك منها على طول الحياة لا يعوض أبداً في الغالب من الأحوال.

وفي مراحل النمو تتجدد الخلايا بمعدلات أسرع من معدلات هدمها، وفي مراحل النضج يتساوى المعدلان تقريباً، وفي مراحل الشيخوخة تزيد معدلات الهدم على معدلات البناء، وعندما يحدث ذلك في نسيج عضو من الأعضاء فإنه يبدأ في الضمور حتى يتعطل عن أداء وظيفته بالكفاءة العادية أو يتوقف عن ذلك جزئياً أو كلياً.

وكلما تقدم السن بالإنسان تضاءلت عنده عملية تجدد الخلايا، وزادت معدلات هدمها وهلاكها، وبالتالي يظهر الضمور العام في مختلف الأنسجة والأعضاء علماً بأن معدلات تجدد الخلايا وضمورها تختلف باختلاف أنواعها، فخلايا البشرة الكاسية للجسم، وخلايا الأغشية المبطنة لكل من الجهاز الهضمي وقنوات الغدد المختلفة تضمر بمعدلات أسرع من غيرها كلما تقدم بالإنسان العمر، وهذا هو السبب الرئيس في أمراض الشيخوخة العديدة والتي منها ما يلي:

1 - وهن العظام أو هشاشتها: (Osteoporosis): يلاحظ أنه مع تقدم العمر، وتزايد معدلات الهدم على معدلات البناء فإن الهيكل العظمي يدخل في مرحلة الوهن لامتلائه بالفراغات الناتجة عن تناقص عنصر الكالسيوم، وبذلك تزداد هشاشته، فيسهل كسر أي جزء منه، وتتباطأ سرعة التئام ما كسر. ومن أكثر العظام المعرضة للكسر عند كبر السن هي عظام الورك، والمعصم، والعمود الفقري. وعادة ما تتضاغط الفقرات في العمود الفقري فتؤدي إلى شيء من قصر القامة، أو إلى حدوث شيء من التحدب في الظهر، نتيجة لضعف العضلات وتآكل الغضاريف مما يحدث آلاماً شديدة، وقد يؤدي في النهاية إلى التهابات المفاصل المختلفة الروماتيزمية وغيرها.

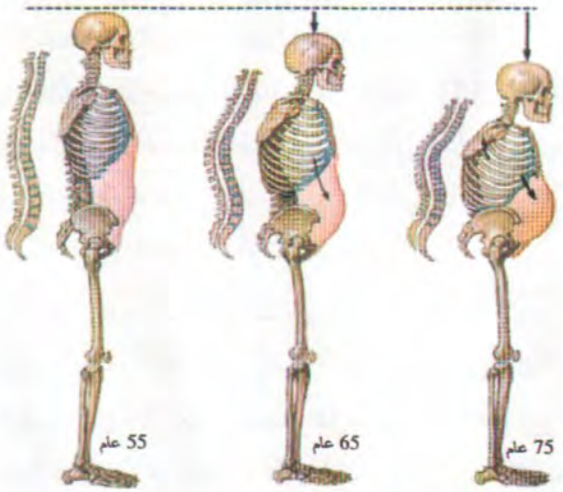

مع تقدم السن تؤثر هشاشة العظام على الشكل الخارجي للجسم البشري.

ويرجع وهن العظام عند التقدم في العمر إلى توقف إفراز أعداد من الهرمونات المهمة، وإلى نقص واضح في أعداد من الفيتامينات أهمها فيتامين (D) ونقصه يتسبب في تراجع معدلات امتصاص عنصر الكالسيوم من الدم. كذلك يتسبب في وهن العظام عند كبر السن الاضطراب في إفراز أعداد من الهرمونات مثل هرمون جار الدرقية المعروف باسم (Para-Thormone) وأية زيادة في إفرازه تؤدي إلى نخر العظام، وبالمثل فإن الإفراط في إفراز أو تعاطي عقار الكورتيزون يؤدي إلى تثبيط عمل الخلايا البانية للعظام.

2 - **ضعف العضلات**: لوحظ أنه بعد سن الخامسة والأربعين يبدأ كل من كتل الأنسجة العضلية في التناقص، وعدد الوصلات العصبية العضلية، بينما تبدأ زيادة كتل الأنسجة الليفية والدهنية بالتدريج مع تقدم العمر خاصة مع طول الجلوس أو المنام أو الاضطجاع وقلة الحركة وتوقف ممارسة الرياضة البدنية.

3 - **ضعف كلٍّ من القلب والجهاز الدوري**: مع تقدم السن تبدأ بعض الخلايا العضلية للقلب في التلف، بينما تبدأ بعض الأنسجة الليفية والدهون في التراكم على كل من عضلات القلب والجدر الداخلية للأوعية الدموية فتعمل على إضعافها أو انسدادها جزئياً أو كلياً، وإذا علمنا أن طول هذه الأوعية في الدورة الدموية الصغرى وحدها يتراوح بين (90000 و110000 كيلو متر)، وأن أعدادها تتجاوز الثلاثين بليوناً من الأوردة والشرايين، وأنها تتفرع لتنتشر في كل زاوية من أجزاء الجسم المختلفة، أدركنا خطر انسدادها أو انسداد أي من تفرعاتها العديدة، وبذلك التراكم للألياف والدهون على عضلات القلب وأوعيته المختلفة تقل كفاءته تدريجياً في ضخ الدم، كما تقل معدلات انقباضه وانبساطه، وتزداد نسب الإصابة بتصلب الشرايين فيرتفع ضغط الدم، وتزداد احتمالات تكوُّن الجلطات الدموية أو الخلل في عمل صمامات القلب، وكل من هذه الإصابات قد يفضي إلى الموت.

4 - **التدهور التدريجي للجهاز العصبي**: وذلك لأن كلاً من الخلايا العصبية وخلايا المخ والنخاع إذا ماتت فإنها في المعلوم لنا من الأحوال لا يحل محلها بديل، ومن هنا فإن أعدادها في تناقص مستمر كلما امتدت بالمرء الحياة بدءاً من أواخر الأربعينيات إلى نهاية الأجل. ومن أعراض ذلك ضعف الذاكرة قصيرة الأمد، ومعها يبدأ ضعف العديد من الحواس كالسمع والبصر، وضعف العديد من القدرات كالقدرة على الإمساك

بالأشياء والقبض عليها، والقدرة على الاستجابة للمؤثرات والإحساس بها، وقد يصاب الطاعن في السن بشيء من النسيان والخرف والذهول عن كل من الزمان والمكان والأهل والأقارب والمعارف، وقد تتعرض شخصيته إلى شيء من التغيير مع تراكم العديد من المواد الدهنية بين الخلايا والألياف العصبية الحية والتي تعرف باسم **لطع الشيخوخة (Senile Plaques)** وهي تكثر عادة في منطقة الناصية - والناصية هي منطقة اتخاذ القرار في المخ - ونتيجة لذلك فإن بعض الطاعنين في السن قد يصابون **بمرض الذهان أو فقد الذاكرة (Alzheimer)، وأمراض الاكتئاب والوسوسة والخوف، وغيرها من الأمراض النفسية (Psychosis)** التي قد تنتهي إلى شيء من الهوس والهيجان أو الجنون.

تدهور الجهاز العصبي في مرحلة الشيخوخة يزيد إمكانية الإصابة بالأمراض النفسية، وفقدان الذاكرة.

5 - **ضعف الجهاز التنفسي**: وذلك بسبب تناقص كفاءته بالتدريج مع الزمن، فيصاب الطاعنون في السن عادة بالعديد من أمراض التهاب كل من الرئتين، والغشاء البريتوني المغلف لهما، والشعب الهوائية والأجزاء المتصلة بها، وبغير ذلك من أمراض الجهاز التنفسي من مثل الربو، وأمراض التحسس المختلفة.

6 - **ضعف الجهاز الهضمي**: نظراً لتناقص أو اضطراب إفراز كل من العصارات والإنزيمات المساعدة في عملية هضم الطعام، فإن قدرات الجهاز الهضمي تأخذ في التناقص مع تقدم السن، مما قد يؤدي إلى تكون القرح، والنزيف في كل من المعدة والأمعاء، كما يؤدي إلى زيادة المعاناة في عمليات الإخراج، خاصة مع قلة الحركة والنشاط البدني. هذا بالإضافة إلى ضعف القدرات على البلع، وضعف قدرة الأسنان على القضم والطحن، إن لم تكن قد تساقطت.

7 - **ضعف الجهاز البولي/التناسلي**: وذلك نظراً للنقص التدريجي في إفراز العديد من الإنزيمات الخلوية في الكلى مما يضطرها إلى فقد بعض وحداتها مما يؤدي إلى التناقص التدريجي في كفاءتها أو إلى فشلها جزئياً أو كلياً في بعض الحالات.

كذلك فإن النقص الفجائي في إفراز العديد من الهرمونات عند الإناث بمجرد الدخول في سن اليأس، والنقص التدريجي عند الذكور في إفراز نظائرها من الهرمونات يؤدي إلى ضعف النشاط التناسلي بالتدريج حتى يتوقف تماماً في مراحل الشيخوخة على اختلاف وتباين كبيرين من حالة إلى أخرى.

8 - **التناقص التدريجي في قدرات أجهزة المناعة**: مع التقدم في العمر تتناقص قدرات أجهزة المناعة في الجسم تدريجياً مما يؤدي إلى تناقص قدرة الجسد على مقاومة الأمراض، فيمرض لأقل وباء يتعرض له. وليس هذا فقط، بل قد يصل جهاز المناعة في هدمه إلى العجز عن التمييز بين خلايا الجسد السليمة وبين الأجسام الغريبة الغازية له، فيبدأ في مهاجمة خلاياه التي خلق أصلاً للدفاع عنها، فيصاب الجسد بسلسلة من الأمراض المعروفة باسم **أمراض فقد التمييز المناعي** التي ينتج عنها إضعاف العديد من الخلايا والأنسجة في الجسم وإرباك العديد من العمليات الحيوية فيه.

9 - **ضعف الحواس**: مع تقدم الإنسان في العمر تأخذ حواسه في الضعف التدريجي وذلك من مثل قدرات السمع، والبصر، والتذوق، والشم، واللمس، والإحساس بالحرارة، والاتزان، والوعي، إلى غير ذلك من مقومات الحس البشري.

ولتعويض النقص في قدرات تلك الحواس فإن كبار السن كثيراً ما يستعينون بالعديد من الوسائل المساعدة من مثل السماعات، والنظارات، والعدسات وغيرها، كما تزداد حاجتهم إلى الإضاءة الشديدة، ويصعب تأقلمهم مع الأماكن المظلمة، وقد يقل عدد خلايا التذوق في اللسان فتقل قدراتهم على الاستمتاع بالطعام جزئياً أو كلياً.

10 - **انكماش الجلد وتجعده**: مع التقدم في السن يتناقص نشاط كل من الغدد العرقية والدهنية مما يؤدي إلى تجعده وانكماشه، كما قد يصاب بعض هذه الغدد بالانسداد فيؤدي ذلك إلى شيء من التشوهات الخلقية؛ وقد يتغطى جلد الطاعنين في السن بعدد من البقع الداكنة في أجزائه المعرضة للشمس كالوجه والكفين. كما قد يظهر الشعر

انكماش الجلد وتجعده هو أحد مظاهر الشيخوخة.

- على غير العادة - في وجه بعض السيدات الطاعنات في السن ومن مثل ما فوق الشفة العليا والذقن وأماكن الشارب واللحية. وقد يبدأ المسنون في المعاناة من مشاكل جلدية عديدة من مثل الإصابة بالفطريات، والالتهابات المختلفة، والحساسية الشديدة لبعض الأطعمة والأشربة أو لأشعة الشمس، كما قد يصابون ببعض السرطانات الجلدية، والحلأ النطاقي (Shingles) وغيرها من أمراض الجلد.

11 - **شيب الشعر أو تساقطه**: وذلك بفقده التدريجي للعديد من خلايا التلوين وخلايا التغذية الموجودة في عمق البصيلة الشعرية، ويخضع نشاط شعر الرأس إلى توافر هرمونات خاصة يتناقص إفرازها تدريجياً مع التقدم في العمر. وقد يصاحب ابيضاض الشعر بالتناقص في كثافته أو بسقوطه إلى حد الصلع الجزئي أو الكامل.

وقد يكون من أسباب الشيب المبكر التعرض المتكرر لكل من حالات الفزع، والهلع والخوف، والشدائد، والأزمات النفسية، وذلك لما يصاحب تلك الحالات من زيادة في إفراز مادة الأدرينالين وهي من المواد القاتلة لخلايا تلوين الشعر.

12 - **أمراض أخرى**: مع هذا الضعف في مختلف أجزاء الجسم، والاضطراب في أنشطتها قد يتعرض الطاعنون في العمر لأمراض أخطر من كل ما سبق ذكره، وذلك من مثل **السرطانات المختلفة**، **ومرض باركنسون (Parkinson's Disease)**، والشلل بأنواعه المختلفة، **وخطل المنطق (Paralogia) وانفصام الشخصية (Sehizophrenia)** وغير ذلك من الأمراض التي نسأل الله - تعالى - المعافاة منها كما نسأله حسن الخاتمة للجميع من صالحي بني آدم (آمين).

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾

من أجل ذلك كله، ومن أجل التقليل من الرغبة في امتداد العمر - وهو إحساس يخالج كل قلب، ويستهوي كل نفس - جاء التحذير الإلهي من مخاطر

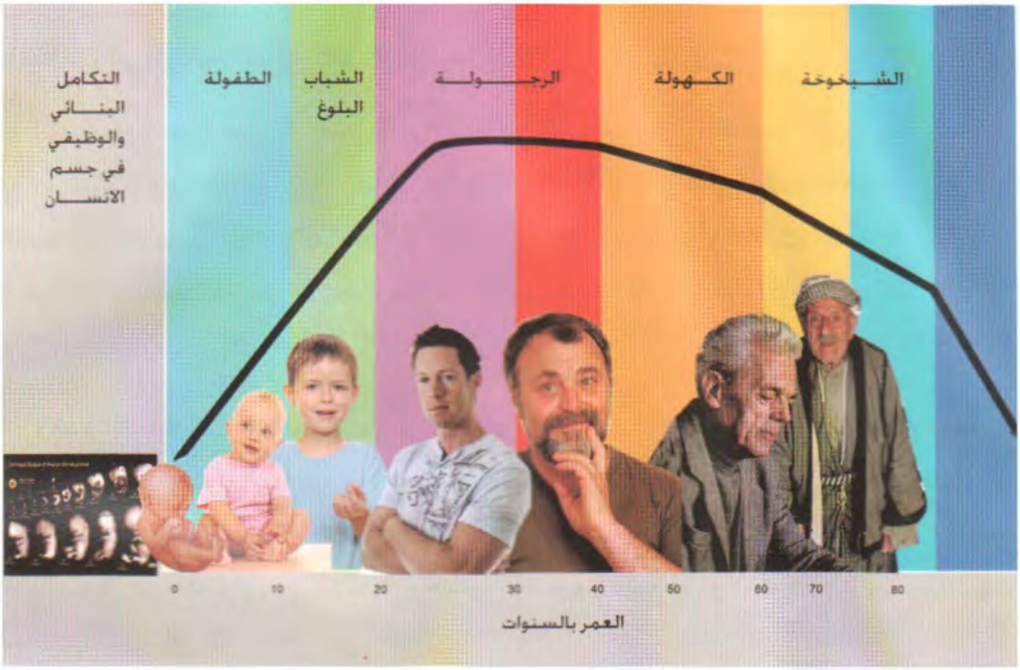

ذلك في قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يسٓ: 68] أي: ومن نطل في عمره إلى أرذل العمر نرده من القوة إلى الضعف، ومن الشباب إلى الهرم، ومن رجاحة العقل إلى خطل المنطق والذهان وفقد الذاكرة، ومن احترام الناس وحبهم للشخص وأنسهم به إلى ضيق الذرع بمشاكل المسنين حتى من أقرب الناس إليهم وألصقهم بهم؛ ومن الانشراح والإقبال على الدنيا إلى الاكتئاب والوسوسة، والخوف من كل شيء حتى قد يصل الطاعنون في السن إلى مراحل الهوس والهيجان والجنون إلا من رحم ربك، ومن هنا فقد سمى ربنا - تبارك وتعالى - ذلك كله بالنكس، أي: الارتداد من حال إلى حال أسوأ، ولا أجد تعبيراً عن هذا التحول أفضل من التعبير ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يسٓ: 68] ولذلك قال - تعالى -:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل: 70].

وقال - عز من قائل -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ...﴾ [الرُّوم: 54].

ثالثاً: في قوله - تعالى -: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾:

الشيخوخة عبرة لمن لا يعتبر لأنها انتكاسة من القوة إلى الضعف، يرى فيها الطاعن في السن تراجع عافيته، يوماً بعد يوم، وتكدس الأمراض على جسده الضعيف فيزداد ضعفاً على ضعف، واعتلالاً بعد اعتلال، وقد وهنت عظامه وضعفت عضلاته فتعثر في خطواته، وضعف كل من سمعه وبصره، وأعصابه، وغابت عنه ذاكرته فنسي ما كان قد علم إلا من رحم ربك.

وهذه العاقبة التي يراها الناس في كل يوم ولا يعتبرون بها تنتظر كل كافر ومشرك، وكل ضال وفاسد وظالم ممن لم يحسنوا الاستفادة بشبابهم فأهدروه في معاصي الله، أو في التجبر على خلق الله، فلا يجدون في حالة ضعفهم عند أرذل العمر عوناً لهم أو مقيلاً لعثراتهم لا من الله ولا من الناس، وحينئذٍ لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ولا مناصبهم شيئاً..!! ولينظر كل عاقل إلى حال مجرم سفاح مثل أرييل شارون، وهو يرقد في غيبوبة كاملة يتعفن جسده، ويقتطع منه في كل يوم قطعة، وهو في هذه الغيبوبة يرى مقعده من النار إن شاء الله رب العالمين زيادة في تعذيبه ولا يملك له أحد ممن حوله شيئاً.

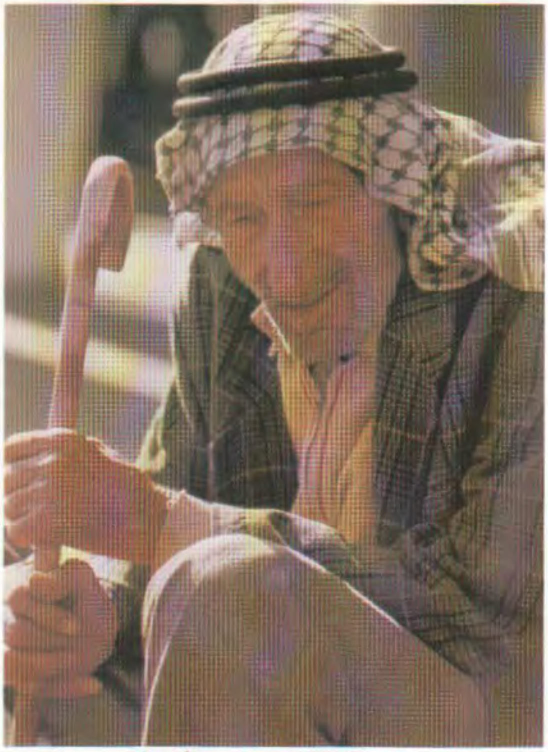

صورة لشيخ كبير في السن توضح أن الشيخوخة هي تراجع من القوة إلى الضعف.

أما المؤمنون الصالحون العابدون القانتون لله فيزدادون في آخر العمر نضارة ونوراً، يحفظ الله - تعالى - عليهم شيئاً من عافيتهم، ويقيّض لهم من يقف دوماً إلى جانبهم جزاء ما قدموا من خير في مقتبل أعمارهم.

والمراد من تقرير هذه الحقيقة التأكيد لكل ذي بصيرة على أن الدنيا

معبر للآخرة، وهي بذلك دار زوال وانتقال، وليست دار خلود وقرار، ولهذا قال - تعالى - في ختام الآية الكريمة: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟ [يس: 68].

أي: أفلا يتفكرون في أن الدنيا ليست بدار قرار وهم يرون تحولهم من الميلاد إلى الطفولة، ثم إلى الشباب والبلوغ والرجولة، ثم إلى الكهولة والشيخوخة والموت؟ وأنهم خلقوا - في الحقيقة - لدار أخرى أبدية خالدة، لا زوال لها، ولا رحيل عنها، ولا انتقال منها، وهي الدار الآخرة التي يجب أن يعملوا لها وأن يستعدوا استعداداً حقيقياً للرحيل إليها بنجاح، مع عدم إهمال الدنيا لأنها هي مزرعة الآخرة...!!!

وهذه الحقائق تتراءى للناس في كل يوم، ويمر بها كل مخلوق، ولكن قليلون جداً الذين يعتبرون بها، وكلما تقدمت العلوم المكتسبة اكتشفت مزيداً من انتكاس الإنسان كلما وصل إلى أرذل العمر ليزيد فهمنا لهذا المعنى القرآني الجليل:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس: 68].

وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقيقة لمِمَّا يؤكد على صدقه، ودقة وحيه، وكمال حفظه، وعلى أنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وتعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظ خاتم كتبه تعهداً مطلقاً حتى يبقى شاهداً على الناس جميعاً إلى قيام الساعة بأنه كلام الله الخالق، وشاهداً للنبي الخاتم الذي تلقاه - صلوات الله وسلامه عليه - بالنبوة وبالرسالة.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام سيدنا محمد بن عبد الله، الذي بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فنسأل الله - تعالى - أن يجزيه خير ما جازى به نبياً عن أمته، ورسولاً على حسن أداء رسالته، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة من الجنة، وأن يصلي عليه صلاة لا يحصيها إلا علم الله القديم، صلاة باقية ما بقي وجه الله الكريم، وعلى آله وصحبه وعلى من اتبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وأن يسلم عليهم أجمعين، تسليماً كثيراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

17 - ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾

[آل عمران: 36]

هذا النص القرآني الكريم جاء في أواخر الخمس الأول من سورة «آل عمران»، وهي سورة مدنية، ومن طوال سور القرآن الكريم؛ إذ تبلغ آياتها المائتين بعد البسملة، وبذلك فهي ثالثة سور القرآن الكريم طولاً بعد كلٍ من سورتي البقرة والأعراف. وقد سميت بهذا الاسم الكريم لورود الإشارة فيها إلى السيدة (مريم ابنة عمران) أم عبد الله ورسوله المسيح عيسى - على نبينا وعليه من الله السلام -، وقد سبق لنا استعراض سورة آل عمران، وما جاء بها من ركائز العقيدة، وقواعد التشريع، والإشارات الكونية، في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم (31). ونركز هنا على الدلالات العلمية لقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36].

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

هذا النص القرآني الكريم جاء على لسان والدة السيدة مريم ابنة عمران بعد أن وضعتها وتبين لها أنها أنثى، وكانت قد دعت الله - تعالى - أن يهبها ولداً، فلما حملت نذرت أن يكون محرراً - أي خالصاً لله، مفرغاً لعبادته ولخدمة المسجد الأقصى - فلما جاءت أنثى اعتذرت إلى الله - تعالى - أنها لم تتمكن من الوفاء بنذرها، ويعرض القرآن الكريم لهذا الموقف النبيل بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ

أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: 35-36].

والتعبير بـ: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ جاء في مقام الاعتذار عن عدم تمكنها من الوفاء بالنذر الذي قطعته على نفسها، وتبقى الصياغة دقيقة علمياً كما يتضح من العرض التالي:

الاختلافات العلمية بين الذكر والأنثى من بني آدم:

أولاً: في الشكل الخارجي:

من الثابت علمياً أن الأنثى البالغة من بنات حواء هي - بصفة عامة - أصغر حجماً من نظيرها الذكر، فهي أقصر في الطول، وأقل في الوزن بحوالي (10 -15%) في المتوسط، وهما كذلك يختلفان في منابت الشعر، وأحجام كلٍ من الرأس، والعنق، والذقن، والصدر، وطول كلٍ من الأطراف، والأصابع، والجذع الأعلى، وفي قوة الاحتمال بصفة عامة.

حتى في مرحلة الطفولة الاختلاف في الشكل يكون ظاهراً.

ثانياً: في الصفات التشريحية:

يختلف كلٌ من الذكر والأنثى البالغين في صفاتهما التشريحية اختلافاً بيّناً، خاصة في تركيب الجهاز البولي التناسلي، وما يستتبعه في الأنثى البالغة من الدورة الشهرية، والحمل، والوضع، والنفاس، والإرضاع، وغير ذلك من مسؤوليات الأمومة.

ويختلف الجنسان كذلك في حجم كلٍ من المعدة، والكليتين، والزائدة الدودية، وكلها أكبر حجماً في الأنثى البالغة عنها في نظيرها الذكر البالغ، بينما يتفوق هو في حجم كلٍ من الرئتين، والقلب، والكبد، والعضلات؛ فالقلب في الأنثى البالغة أصغر حجماً عن قلب نظيرها الذكر بحوالي (25%)، وعدد ضرباته أسرع بحوالي (10%)، وضغطه أقل بحوالي (10 مم) زئبق. ويختلف الجنسان أيضاً في تركيب الدم وصفاته الطبيعية والكيميائية، وفي حجم وأطوال وكثافة العظام، وفي نسب الدهون وأماكن توزيعها في الجسم، ورئتا الأنثى البالغة أقل حجماً من رئتي نظيرها الذكر بحوالي (25 -30%)، وحجم كبدها أصغر بحوالي (20%)، وكتلة عضلاتها تبلغ نصف كتلة عضلات نظيرها الذكر، وهي أقل قوة منه بحوالي (20%)، والدهون عندها تشكل (22%) من كتلتها، بينما لا تتعدى (10%) من كتلة نظيرها من الجنس الآخر، وعدد كريات الدم الحمراء تقل بنسبة (20%) في الإناث عن نظائرهن من الذكور.

ثالثاً: في تركيب المخ وبقية الجهاز العصبي:

من الثابت علمياً أن الجهاز العصبي مختلف تماماً عند البالغين من الجنسين؛ فحجم المخ في الذكر البالغ يزيد بحوالي (10 -15%) عن نظيره في الأنثى، وبالتالي يزيد بنفس النسبة عدد وكثافة الخلايا العصبية في قشرة الدماغ **(Cortical Neurons)**. كذلك يزيد حجم خلايا المخ في الذكور عنها في نظائرهم من الإناث بحوالي (30%)، وتزيد نسبة المادة الرمادية **(Gray Matter)** في مخ الذكور البالغين بأكثر من ستة أضعاف نسبتها في الإناث اللاتي يحملن في أمخاخهن عشرة أضعاف ما تحمل أدمغة الذكور البالغين من المادة البيضاء **(white matter)** ويزيد سمك الشق الأيمن من قشرة المخ عند الذكور، ويتساوى سمك الشقين عند نظائرهم من الإناث، ويختلف معدل استهلاك الناقل العصبي **(Dopamine)** بين الجنسين اختلافاً كبيراً، وهناك فروق واضحة في عدد وحجم الخلايا العصبية المحركة **(Motorneurons)** في بقية الجهاز العصبي.

ومن أبرز الاختلافات بين مخي الذكر والأنثى البالغين أن الفصيص الصدغي السفلي للمخ (Inferior Parietal lobule) هو أضخم بكثير في الذكر عنه في الأنثى، وفصه الأيسر أضخم من الجزء الأيمن في الذكور البالغين، وهما متعاكسان أو متساويان تقريباً في نظائرهم من الإناث، ومعروف أن هذا الجزء الأيسر هو الجزء من المخ المتعلق بالإدراك والانتباه، وبالقدرات الذهنية الحسابية، ولعل ذلك يفسر كثيراً من الاختلافات في النوازع والاهتمامات، والرغبات والسلوكيات عند كلٍ من الجنسين.

كذلك فإن حجم خلايا أنوية الوطاء أو ما يعرف أحياناً باسم ما تحت المهاد (Hy othalamous nuclei) في الذكور البالغين يبلغ ضعف حجمها من الإناث، ويختلف شكل أنوية ما فوق التصالب البصري (SuprachiaSmatic nuclei) في الجنسين اختلافاً كبيراً، وبالتالي فإن طبيعة الذاكرة تختلف عند كلٍ منهما بشكل واضح. أما النظام الحوفي في الدماغ (Limbic System) - والذي يعتبر مركز العاطفة - فهو أضخم في الإناث البالغات، وأشد حساسية منه عند نظائرهن من الذكور، وكمية الدم التي تتدفق إليه تفوق نظيرها عندهم بثماني مرات على الأقل. ومن الفروق الفاصلة بين مخي الجنسين كلٌ من الجسم الثفني أو الجاسيء(Corpus callosum) والأخدود الدماغي الأمامي (Anterior commissure) اللذين يربطان نصفي المخ الأيمن والأيسر، وكلاهما أكبر في الإناث البالغات.

وبالمثل فإن منطقتي الكلام المعروفتين باسم منطقتي بروكا وفيرنيكه (Broca and Wernicke) فإنهما أضخم بنسبة (18 - 20%) في الإناث.

كذلك هناك فروق كبيرة في التركيب الكيميائي للمواد الناقلة داخل الجهاز العصبي بين كلٍ من الأنثى والذكر البالغين.

رابعاً: الفروق الوراثية:

يختلف الجنسان الذكر والأنثى اختلافاً بيناً على مستوى الخلية؛ ففي حالة الذكر تحتوي كل خلية جسدية على 44 صبغياً جسدياً + صبغيين تناسليين، هما: (X) الذي يحمل صفات مؤنثة (Y)، الذي يحمل صفات الذكورة، وذلك فيما عدا خلايا التكاثر -الحيامن- التي يحمل كلٌ منها 22 صبغياً + (X) أو22 صبغياً + (Y) وفي المقابل تحمل كل خلية جسدية في الأنثى 44 صبغياً + صبغيين تناسليين، هما: (X)؛ و(X)، بينما تحمل البويضة نصف هذا العدد (22 صبغياً + (X)).

والحيمن الذي يحمل شارة التذكير(Y) يختلف في شكله ومميزاته عن ذلك الذي يحمل شارة التأنيث (X)؛ فالأول أكثر لمعاناً ووميضاً وإن كان أصغر حجماً، وأسرع في حركته، وأقل عمراً (24 ساعة فقط)، وهو مدبب الرأس، والثاني أكبر حجماً، وأقل ضخامة في الرأس، وأقل سرعة في الحركة، وأطول عمراً نسبياً (72 ساعة).

وهذا هو ما يفسر اختلاف جسدي كلٍ من الذكر والأنثى من الوجهة الشكلية، والتشريحية، والوظيفية على مستوى كلٍ من الخلية، والنسيج والعضو، والجهاز، والجسد كله، كما يفسر التباين في القدرات العقلية والعاطفية والسلوكية وغير ذلك، ويوضح الفرق بين تأثير كلٍ من المورثات والهرمونات في جسد كلٍ منهما، علماً بأن نسبة الاختلاف في المورثات بين الجنسين هي حوالي (2 - 3%) من مجموع المورثات في الخلية الحية البشرية، والمقدر عددها بحوالي ثلاثين ألف مورث إلى خمسة وثلاثين ألفاً.

وقد لوحظ أن الصبغي المذكر (Y) مرتبط بعامل يعرف بالرمز (Sry) يؤثر في الخصائص الحيوية للخلايا العصبية، وكذلك الصبغي المؤنث (X) مرتبط بمورث يرمز له بالرمز (PCDHX) يوجد في مخ المرأة بأكثر من ضعف وجوده في مخ الرجل.

خامساً: الفروق في الهرمونات:

تعزى الاختلافات السلوكية بين الجنسين من بني آدم إلى تأثير الهرمونات الجنسية (Gonadal Steroids) على المخ، فمنذ المراحل الأولى لجنين الإنسان - من الأسبوع السابع إلى الثالث عشر - يزداد تركيز الهرمونات الذكرية أو الأنثوية حسب إرادة الخالق ﷻ، فيتشكل مخ الجنين بأيٍ منهما في مجموعتين متمايزتين تمايزاً كاملاً، وتكفي في ذلك الإشارة إلى تركيز الهرمون الذكري المعروف باسم تستوستيرون (Testosterone) عن الذكور البالغين إلى عشرين ضعف ما عند الإناث البالغات، وفي المقابل يحتوي دم الأنثى الحاملة لجنين أنثى على نسبة عالية من الهرمونات المشيمية (CHORIONIC GONADOTROPHINS) بنسبة تزيد بحوالي20% عند نظيرتها الحاملة لجنين ذكر.

سادساً: الفروق في معدلات النمو والبلوغ والشيخوخة:

يتباين الجنسان - الذكر والأنثى - تبايناً واضحاً في معدلات النمو والبلوغ؛ فالذكور

أسرع في النمو في مرحلة الطفولة المبكرة من الإناث بصفة عامة، ويبدأ الذكور في البلوغ من سن (10 -14) سنة، بينما تبدأ الإناث في البلوغ من سن (11 - 15) سنة، والرجل يصل إلى الشيخوخة بين (55، 65)، وتبدأ المرأة طور الشيخوخة بين (45، 55) سنة بصفة عامة.

سابعاً: في النواحي النفسية:

يختلف التكوين النفسي لكلٍ من الذكر والأنثى اختلافاً كبيراً، ففي الوقت الذي يتميز فيه الذكور - بصفة عامة - بشيء من الخشونة، وبسيادة العقل للعاطفة، وبالواقعية في التفكير بعيداً عن الخيال، وبالفاعلية في الأعمال بعيداً عن السلبية، فإننا نجد الإناث - بصفة عامة - يتميزن بالحساسية المفرطة، ورقة المشاعر، وبسيادة العاطفة للعقل، وهيمنة المشاعر الشخصية، واتساع الخيال على الأمور الواقعية والمنطقية، وبروز ملكة الحدس والبداهة الفطرية، والتميز بالغيرة الشديدة، وحب التملك، والوهم، والخوف، والتشاؤم، واختيار الأشياء بغير موضوعية وبغير منطق في أغلب الأحيان، وعدم القدرة على الانسلاخ من الذاتية الشخصية وعن التقاليد الموروثة والتنشئة في مراحل الطفولة، وعلى ذلك فإن التكامل بين الجنسين ضرورة من ضرورات استقامة الحياة على الأرض.

هذه الفروق التي خلقها الله - تعالى - بين الجنسين - الذكر والأنثى - لها انعكاسات أخرى عديدة من ناحية المناعة، والعافية، والعرضة للإصابة بالأمراض، والشعور بالآلام، والتأثر بالأدوية المختلفة خاصة أثناء عمليات التخدير والجراحة المختلفة وغيرها، ولذلك اعترفت بها المجتمعات الإنسانية عبر التاريخ، ولكن فاجأتنا الحضارة المادية المعاصرة بمحاولة تجاهلها بسبب معاداتها للدين، وانطلاقها من منطلقات مادية محضة تدعي أن التقسيمات والأدوار المنوطة بكلٍ من الرجل والمرأة هي من صنع المجتمع، وثقافته، وأفكاره السائدة، وهذه كلها أمور مصطنعة، وبالإمكان تغييرها أو إلغاؤها بالكامل، بحيث يمكن للمرأة أن تقوم بدور الرجل، ويمكن للرجل أن يقوم بدورها، وقد تجلت هذه المفاهيم المغلوطة في عدد من المؤتمرات الدولية، مثل مؤتمر المرأة الذي عقد في بكين سنة (1995م)، وفيه دفعت القوى المادية المعاصرة من خلال هيئة الأمم المتحدة بهذه المفاهيم المغلوطة من أجل فرضها على دول العالم بغض النظر عن عقيدة المجتمع وثقافته وعاداته وتقاليده، ومن هذه الدعاوى الشيطانية الباطلة: هدم

مؤسسة الأسرة واستبدالها بالمساكنة، وإباحة الشذوذ الجنسي، والسماح لهؤلاء الشواذ بالتبني، وإعطاء الحرية للمرأة لإنشاء أسرة من امرأة واحدة تنجب ممن تشاء بالزنى، وبذلك تتعدد صور وأنماط الأسرة الشاذة التي يدعون إليها من رجلين شاذين أو امرأتين سحاقيتين، أو من رجل وأولاد بالتبني، أو من امرأة وأولاد زنى، أو بالتبني، وهكذا يسوّل لهم الشيطان الخروج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وفي ظل هذه الفوضى - في غيبة من الالتزام بالدين الصحيح - تأتي العلوم المكتسبة في قمة من عطاءاتها العلمية والتقنية؛ لتؤكد الفروق الهائلة بين الجنسين على جميع المستويات، من المورثات والهرمونات، إلى كلٍ من الخلايا الجسدية والتكاثرية، إلى الفروق النفسية والشخصية المميزة، والتي تتضح بجلاء في طرائق التفكير، والميول، والرغبات، والسلوك، وكل ذلك يقف في وجه الدعاوى المادية المنحرفة المنادية بالمساواة الكاملة بين الذكر والأنثى، ويشير إلى المعجزة القرآنية في قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36].

فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على بعثة خير الأنام، وخاتم الأنبياء والمرسلين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

18 - ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ...﴾ [البَقَرَة: 222]

هذا النص القرآني الكريم جاء في مطلع الربع الأخير من «سورة البقرة» وهي سورة مدنية، وعدد آياتها 286 بعد البسملة، وهي أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المعجزة التي أجراها ربنا - تبارك وتعالى - على يدي نبيه موسى - على نبينا وعليه من الله السلام - حين تعرض شخص من بني إسرائيل في زمانه للقتل، ولم يعرف قاتله، فأوحى الله - تعالى - إلى عبده موسى أن يأمر قومه بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله، ويخبرهم عن قاتله إحقاقاً للحق، وشهادة لله - تعالى - بالقدرة على إحياء الموتى.

وقد سبق لنا استعراض سورة «البقرة»، وما جاء بها من ركائز العقيدة، وأسس العبادة، ومكارم الأخلاق، وقواعد التشريعات الإسلامية، والقصص القرآني، والإشارات الكونية في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم (3). وسوف نركز هنا على الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم وقضيته المتعلقة بأذى المحيض.

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

أولاً: في الدلالة على وسطية الإسلام وغلو العقائد المحرَّفة:

هذا النص القرآني المعجز يدل دلالة واضحة على وسطية الإسلام العظيم، وعلى ربانية القرآن الكريم، فاليهود يرون في حيض المرأة نجاسة تقتضي اعتزالها بالكامل، وعدم مؤاكلتها وإخراجها من

البيت، وعدم الاقتراب منها أو المساس بها أو بشيء هي مسته، والغالبية من أصحاب الملل الأخرى لا يرون ذلك أبداً، بل إن الكثيرين منهم يرى فيما يعتري الأنثى أثناء حيضها من الضعف البدني، والاضطراب النفسي ما يجعلها فريسة سهلة لشهواتهم الحيوانية الجامحة دون أدنى قدر من الضوابط، وعلى ذلك سار أغلب الناس اليوم من غير المسلمين والذين لا يرون في المحيض سبباً لاعتزال المرأة حتى في الجماع، على ما في ذلك من أضرار صحية ونفسية جسيمة.

وتتجلى وسطية الإسلام فيما أخرجه الإمام مسلم من أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها، ولم يجامعوها، فسأل أصحاب رسول الله ﷺ ما يصنعون؟ فقال: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»[1].

وعلى النقيض من ذلك فإننا نجد اليهود يعتزلون الحائض تماماً طوال فترة الحيض، أو لمدة خمسة أيام (أيهما أقل)، ويضيفون إلى ذلك سبعة أيام أخرى ليصبح المجموع اثني عشر يوماً على أقل تقدير تعزل فيها الحائض عزلاً كاملاً، فلا تؤاكل، ولا تلامس، ولا تجالس على فرش واحد، بل إن الآنية التي تلامسها الحائض لا بد وأن تكسر. ولا يحل للحائض عندهم أن تغتسل إلا بعد اثني عشر يوماً كاملة من بدء حيضتها على أقل تقدير، وفي اليوم الثالث عشر تغتسل ثم تذهب إلى الكنيس لتقدم للخادم يمامتين أو حمامتين يذبح إحداهما ذبيحة خطية، ويحرق الأخرى قربان محرقة.

ونقرأ ذلك وأكثر منه في سفر اللاويين من العهد القديم (الإصحاح الخامس عشر) حيث نجد ما يلي: وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دماً في لحمها فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من مسها يكون نجساً إلى المساء، وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجساً، وكل ما تجلس عليه يكون نجساً، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء، وكل من مس متاعاً تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء، وإن كان على الفراش أو على المتاع الذي هي جالسة عليه عندما يمسه يكون نجساً إلى المساء، وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجساً سبعة أيام، وكل فراش يضجع عليه يكون نجساً.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الحيض، باب: في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ...﴾ (الحديث: 692).

وإذا كانت امرأة يسيل سيل دمها أياماً كثيرة في غير وقت طمثها أو إذا سال بعد طمثها فتكون كل أيام سيلان نجاستها كما في أيام طمثها. إنها نجسة... ويستمر السياق في تأكيد النجاسة حتى يقول: ... وفي اليوم الثامن تأخذ لنفسها يمامتين أو فرخي حمام وتأتي بهما إلى الكاهن إلى باب خيمة الاجتماع، فيعمل الكاهن الواحد ذبيحة خطية والآخر محرقة ويكفر عنها الكاهن أمام الرب من سيل نجاستها، فتعزلان بني إسرائيل عن نجاستهم لئلا يموتوا في نجاستهم بتنجيسهم مسكني الذي في وسطهم..

وبالمثل فإننا نجد من خرافات الأقدمين ما شاع عند أصحاب الحضارات القديمة من مثل قدماء اليونان والمصريين والرومان من أن الحيض مرده إلى قوى شريرة تصيب المرأة، وتجعل من جسدها كله خبثاً ودنساً وقت حيضتها، ومن ثم كانوا يعتزلون الحائض تماماً وينبذونها طيلة فترة الحيض.

وهكذا كان العرب في جاهليتهم لأنهم لم يكونوا أهل علم ولا أهل دين، وكانوا مقلدين للسائد عند اليهود في الجيوب المنتشرة على أطراف الجزيرة العربية وفي بعض مدنها.

وفي المقابل فإن الإسلام رعى الأنثى في وقت حيضتها رعاية كاملة بالعطف والحدب والمجاملة والملاطفة، وذلك تقديراً لما تمر به من ظروف صحية ونفسية خاصة، فلم يحرمها إلا من المباشرة الزوجية طوال فترة الحيض إذا كانت متزوجة، ومن الصلاة والصيام والطواف مراعاة لظروفها الصحية، ولأن كلاً من الصلاة والطواف عبادة تقتضي الطهر الكامل، ومايز الفقه الإسلامي بين الحيضة والاستحاضة، ونهى عن تطليق الزوجة أثناء حيضتها.

وتروي لنا كتب السيرة أن أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها وأرضاها - قالت: خرجنا لا نرى إلا الحج، فلما كنا بسرف حضت، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قال: «**ما لك أنفست؟**» قلت: نعم، قال: «**إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم، فاقضي ما يقضي الحاجّ، غير أن لا تطوفي بالبيت**»[1].

وذلك لأن الطواف بالكعبة المشرفة صلاة، والصلاة لا تجوز إلا في طهر كامل.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الحيض، باب: الأمر بالنساء إذا نفسن (الحديث: 294).

صورة لأنثى تمر في ظروف صحية ونفسية خاصّة، أثناء حيضتها (دورتها الشهرية).

ثانياً: المحرم من المرأة أثناء حيضها في الإسلام:

من المعجز حقاً أن يستخدم القرآن الكريم لفظة (المحيض) دون غيرها من الألفاظ المعبرة عن هذه الظاهرة، و(المحيض) لغة هو (الحيض) ووقته وموضعه، والحيض هو الدم الخارج من رحم الأنثى البالغة، وهو حدث يعتريها بصفة دورية، مرة في كل شهر على مدى سنوات الخصوبة من عمرها - بدءاً من سن البلوغ وحتى سن اليأس - فيما عدا فترات الحمل والرضاعة عند البعض.

يقال: (حاضَتِ) المرأة (مَحيضاً) فهي (حَائِض) و(حَائِضة) وجمعها (حُيّض) و(حوائِض) وتحيّضَت المرأة: قعدَت عن الصلاة أيام حَيْضِها و(الحَيضة) المرة الواحدة، و(الحِيضَة) بالكسر الاسم، والجمع (الحيض)، و(استحيضت) المرأة استمر بها دم بعد أيامها المحددة لها من الحيض أو النفاس، فكل ما زاد على أكثر مدة الحيض أو النفاس، أو نقص عن أقله، أو سال قبل سن الحيض (وهو تسع سنوات) فهو استحاضة، وهي (مستحاضة). وقد اعتنى الإسلام بالتفريق بين دم الحيض ودم

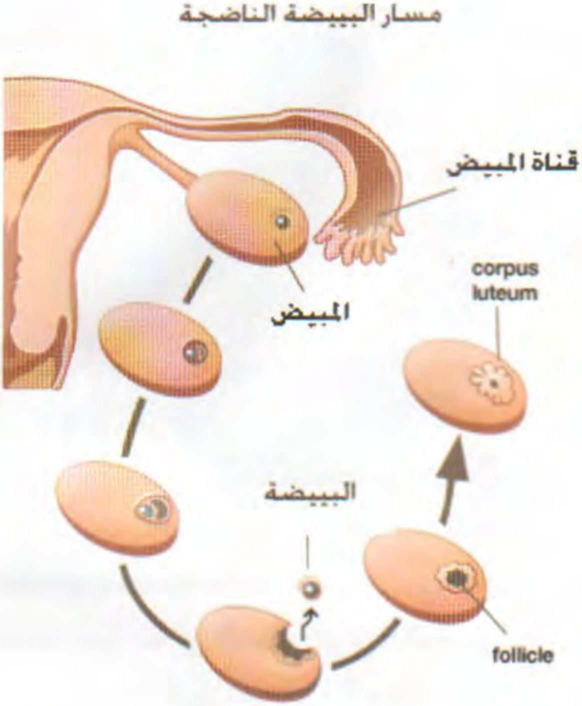

الاستحاضة لما يترتب على ذلك من أحكام، فالحائض لا تصلي، ولا تصوم، ولا تطوف بالكعبة المشرفة، ولا تمس القرآن الكريم، ولا تلبث طويلاً بالمسجد، ولا توطأ، والمستحاضة تفعل ذلك كله مع اختلاف بعض الفقهاء في الوطء فقد أباحه أغلبهم ومنعه بعضهم. واستخدام النص القرآني الذي نحن بصدده للفظة (المحيض) لا يدع مجالاً للشك في أن التحريم هو للمباشرة الزوجية أثناء الحيض، وتقديم العلة على الحكم، وترتيب الحكم على العلة من أروع جوانب الإعجاز البياني والتشريعي والعلمي في هذا النص القرآني الكريم الذي يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: 222].

وواضح من الآية الكريمة أن المحرّم من الزوجة أثناء حيضها هو المباشرة الزوجية فقط بمعنى الوطء، ويؤيد ذلك أحاديث وتصرفات رسول الله ﷺ، ومن هنا كان الإعجاز في استخدام لفظة (المحيض) دون غيرها من ألفاظ اللغة العربية المعبرة عن هذه الظاهرة الفطرية في «النساء» البالغات المتزوجات.

ثالثاً: في إثبات أذى المحيض:

أورد كلٌّ من الأخوين الكريمين الدكتور محمد عبد اللطيف سعد (استشاري أمراض «النساء» والتوليد بالقاهرة)، والدكتور محمد علي البار (استشاري الأمراض الباطنة

بجدة) عدداً من مخاطر المعاشرة الزوجية أثناء فترة الحيض تمثل جانباً من أذى المحيض ويمكن إيجازها في النقاط التالية:

أ - تقرح الرحم وامتلاؤه بالدماء نظراً للقذف بالغطاء المبطن له أثناء الدورة الشهرية مما يجعله عرضة للالتهابات الحادة التي قد تصل إلى جدار البطن وإلى الأنسجة الرخوية الموجودة فيه.

ب - تعرض الرحم والجهاز التناسلي للمرأة بأكمله لهجوم الميكروبات بمختلف أشكالها، لأن الدم بيئة مشجعة على تكاثر الميكروبات والطفيليات والجراثيم الضارة. وقد وجد الدكتور محمد عبد اللطيف في دراسته المستفيضة أن الجراثيم الضارة تزداد في فترة الحيض أعداداً وتنوعاً زيادة ملحوظة، كما وجد أن طفيلاً مثل طفيل ترايكوموناس (**Trichomonas vaginalis**) يتضاعف عدده أربعة أضعاف في وقت الحيض، وهذا الطفيل يسبب التهابات في الجهاز البولي/ التناسلي لكل من الذكر والأنثى، ومعروف أن انتقاله لا يتم إلا عن طريق المعاشرة الزوجية أثناء الحيض. ونتيجة للفوضى الجنسية في الغرب ولعدم مراعاة حالة الحيض عند المرأة تقول الإحصائيات الطبية أن 30% إلى 50% من «النساء» الغربيات مصابات بهذا الطفيلي وأن 40% إلى 60% من الرجال يعانون من آثاره، وذلك لأن تدفق الدم يطهر بدن المرأة منه، والوطء في المحيض يحول دون ذلك.

جـ - إن تدفق الدم أثناء الحيض كما يسحب الكثير من مسببات الأمراض فإنه يسحب معه كذلك العديد من المواد المطهرة التي يفرزها الجهاز التناسلي للمرأة بطريقة فطرية، فيجعله أكثر عرضة للإصابة بأقل قدر من الميكروبات (الجراثيم) والفطريات والطفيليات التي تصل إليه، وأيسر الطرق إلى التسبب في ذلك المعاشرة الزوجية.

د - إن نمو الجراثيم في الجهاز التناسلي للمرأة يسبب التهاب مختلف أجزائه، وهو جهاز فائق الحساسية، والتهاباته شديدة الإيلام، وبطيئة الالتئام، وصعبة العلاج، وإذا التهبت انتقل ذلك إلى الزوج بالمباشرة الزوجية خاصة أثناء الحيض، وأدى ما فيها من طفيليات وجراثيم وفيروسات إلى العديد من التعقيدات المرضية التي قد يصعب علاجها ومنها ما يلي:

1 - انسداد قناتي الرحم مما يؤدي إلى الحمل في خارجه أو إلى العقم الكامل، والحمل خارج الرحم له مخاطره التي قد تؤدي بحياة الحامل.

2 - قد تمتد التهابات الجهاز التناسلي لكل من المرأة والرجل إلى الجهاز البولي (مجرى البول، فالمثانة، فالحالبين، فالكليتين) وهي من أشد المناطق حساسية في جسم الإنسان، والتهاباتها مؤلمة وقد تطول كما قد تتطور إلى عدد من الأمراض الخطيرة التي قد يصعب التعامل معها.

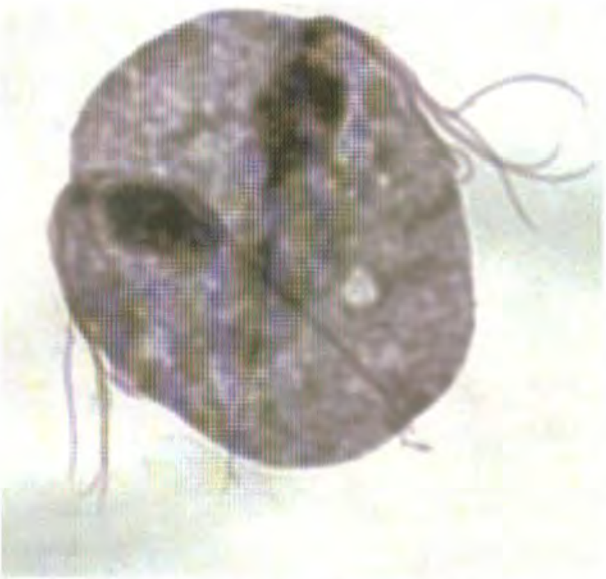

صورة مكبرة لطفيل ترايكوموناس

3 - تكون الأنثى أثناء فترة الحيض في حالة من الهزال والضعف البدني والاكتئاب والضيق النفسي، والانغلاق الذهني الذي يقعدها عن اختيار البديل الأمثل واتخاذ القرار المناسب، وهي حالة لا تتناسب مع المعاشرة الزوجية، ولعل ذلك من مبررات نهي رسول الله ﷺ عن تطليق الزوجة أثناء حيضتها.

4 - انتشار العديد من الأمراض التناسلية عند كل من الزوج والزوجة من مثل أمراض السيلان، الزهري، التهابات المثانة، التهابات الجهاز التناسلي التي قد تنتهي بالعقم، هذا بالإضافة إلى سرطانات عديدة من مثل سرطان كلٍّ من عنق الرحم، البروستاتا (الموثة)، والمثانة، والكلى.

5 - المشاكل النفسية العديدة التي قد تنتج من المعاشرة الزوجية أثناء الحيض عند أيٍّ من الزوجين أو عندهما معاً مما قد يؤدي إلى شيء من النفور الذي يصعب علاجه إن لم يكن مستحيلاً في بعض الحالات.

من هذا الاستعراض السريع يتضح الإعجاز اللغوي والتشريعي والعلمي في قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ. . .﴾ [البَقَرَة: 222].

ففي اختيار لفظة (المحيض) إعجاز لغوي رفيع، وفي وصف المحيض بأنه أذى إعجاز علمي لم تصله العلوم المكتسبة إلا في القرن العشرين، وإن حرمته كل شرائع السماء من قبل، والأمر باعتزال «النساء» في المحيض بمعنى منع المباشرة الزوجية فقط، مع بقاء المعايشة الكاملة، والحنو والعطف والملاطفة، وتطييب الخواطر، هو حكم وسط بين طرفين من المبالغة في النفور من الحائض إلى حد الإخراج من البيت وكسر ما لمسته من الآنية في جانب، أو من المعاشرة أثناء الحيض بلا أدنى حرج في جانب آخر. وهذا الحكم إعجاز تشريعي يؤكد وسطية هذا الدين، وربانيته، وسماحته، وصدقه.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى هديه الأمين، والصلاة والسلام عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

19 - ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾

[الرحمٰن: 1-4]

الآيات القرآنية الكريمة جاءت في مطلع سورة «الرحمٰن»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها (78) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم الكريم من أسماء الله الحسنى لاستهلالها به، ولما تضمنته من لمسات رحمته، وعظيم آلائه التي من أبرزها، تعليم القرآن، وخلق الإنسان، وتعليمه البيان. وفي بعض التفاسير جاءت الإشارة إلى أن نسق السورة تغلب عليه سمات القرآن المكي لدوران محورها الرئيس حول قضية العقيدة وفي مقدمتها الإيمان بالله - تعالى - الرحمٰن، معلم القرآن، خالق الإنسان ومعلمه البيان، وعدم التكذيب بأيٍ من آلائه التي ينطق بها جميع خلقه إلا عصاة كلٍّ من الإنس والجن، ولذلك جاء الاستفهام الاستنكاري التوبيخي التقريري التقريعي للمكذبين بتلك الآلاء عقب الإشارة إلى كلٍ منها، وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمٰن: 13] وقد جاء هذا الاستفهام إحدى وثلاثين مرة في ثنايا سورة الرحمٰن، أي بنسبة 40% تقريباً من مجموع آياتها في تقريع شديد، وتبكيت واضح للمكذبين بآلاء الله وأفضاله من الخلق المكلفين - الجن والإنس - أي: فبأي آلاء الله تكذبان يا معشر الجن والإنس؟، ونعم الله الخالق ظاهرة عليكم كما هي ظاهرة على جميع الخلق من حواليكم؟، لا يستطيع عاقل إنكارها، وقد أقر بها مؤمنو الجن حين استمعوا إلى سورة الرحمٰن تتلى عليهم، ففي رواية لكلٍ من الترمذي والحاكم والبزار عن جابر وابن عمر - رضي الله عنا وعنهم أجمعين - قال: قرأ

علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمٰن حتى ختمها ثم قال: «**ما لي أراكم سكوتاً؟ لَلجنُّ كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة:** ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمٰن: 13] **إلا قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد**». وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول كلما سمع هذه الآية الكريمة: لا بأيها يا رب، أي لا نكذب بشيء من آلائك ونعمك يا ربنا.

وقد استعرضت سورة الرحمٰن عدداً من آيات الله الكونية المبهرة للاستدلال على عظيم آلائه، وعلى عميم أفضاله على جميع خلقه، ومن ذلك جريان كلٍ من الشمس والقمر بحساب محكم دقيق في رمزية واضحة لدقة حركات كل أجرام السماء، وكل ما في الوجود من موجودات، وخضوعها بالطاعة والعبادة والسجود لله حتى النجم والشجر، ورفع السماء بغير عمد مرئية، ووضع ميزان العدل بين الخلائق، وأمر العباد بألا يطغوا في الميزان، وأن يقيموا عدل الله - تعالى - في الأرض في جميع معاملاتهم، وألا ينقصوا الميزان، وخلق الأرض وتهيئتها لاستقبال الحياة، وفيها من النباتات وثمارها ومحاصيلها ما يشهد على ذلك، وخلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، وتكوير الأرض وجعلها تدور على محورها بانتظام أمام الشمس، والتعبير عن هذه الحقيقة بوصف الحق - تبارك وتعالى - ذاته العلية بأنه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمٰن: 17]، ومرج مختلف أنواع الماء في البحار والمحيطات دون اختلاط وامتزاج تامين، وإخراج كلٍ من اللؤلؤ والمرجان منها، وجري السفن العملاقة فيها وهي تمخر عباب مائها وكأنها الجبال الشامخات، وحتمية الفناء على جميع المخلوقات مع وجود الله - تعالى - وجوداً أبدياً أزلياً مطلقاً لا يحده أيٌ من المكان أو الزمان؛ لأنه سبحانه وتعالى هو خالق كلٍ منهما وخالق كل شيء، فهو صاحب الجلال والإكرام، الحي القيوم، الذي لا يموت ولا يفوت، والذي هو كل يوم في شأن مختلف. وفي ذلك تقول الآيات:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ
كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا
بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٨﴾ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

[الرحمٰن: 1–30].

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى التأكيد على مركزية الأرض من الكون الشاسع الأبعاد، والأرض لا تمثل شيئاً يذكر إذا قورنت بأبعاد الكون على الرغم من ضخامة حجمها.

وتتحدى الآيات كلاً من الجن والإنس أن ينفذوا من أقطار السمٰوات والأرض مع التأكيد على أنهم لن يستطيعوا ذلك أبداً إلا بسلطان من الله - تعالى - وأن مجرد محاولة ذلك بغير هذا التفويض الإلٰهي سوف يعرض المحاول إلى الرجم بشواظ من نار ونحاس فلا ينتصر في محاولته أبداً، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ
ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرحمٰن: 31–36].

ثم تنتقل سورة الرحمٰن إلى الحديث عن الآخرة وأهوالها، وعن مصائر المجرمين من الكفار والمشركين فيها فتقول:

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا
يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ

بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ [الرحمٰن: 37–45]. وهذه الآيات تقرر أن من علامات الآخرة انشقاق السماء على هيئة الوردة المدهنة كالمهل الأحمر، ومنها معرفة المجرمين بعلامات في وجوههم من الزرقة والسواد، وتصف الآيات جانباً مما سوف يلقونه من عذاب، ومن مختلف صور الإذلال والمهانة وهم يطوفون بين جهنم وبين جحيم آنٍ، أي ماء في حالة الغليان من شدة الحرارة. ثم تقابل الآيات ذلك بنعيم المحسنين في جنات الخلد فتقول:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾ [الرحمٰن: 46–61].

وتضيف الآيات مزيداً من فضل الله على عباده الذين يخشونه فتقول:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾ [الرحمٰن: 62–77].

أي أن من دون الجنتين السابقتين جنتين أخريين، اشتدت خضرة زرعهما حتى مال إلى السواد، وفيهما عينان فوارتان بالماء الذي لا ينقطع، وفاكهة من صنوف مختلفة

ونخل ورمان، وقد أفردا بالذكر عن بقية الفواكه لفضل ثمارهما على غيرهما من الثمار الأخرى لما أودع الله - تعالى - فيها من مزايا بدأ العلم في تلمسها، من مثل السكريات سهلة الاحتراق، والعناصر والمركبات الهامة - مثل الكالسيوم والحديد والفوسفور - والأحماض والفيتامينات، وبعض البروتينات والدهون.

وتختتم السورة الكريمة بآية تقول فيها: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمٰن: 78] أي تعالى وتنزه اسم ربك يا محمد، فربك له العظمة المطلقة والسمو المطلق فوق جميع خلقه، والتنزيه الكامل فوق كل ما لا يليق بشأنه العظيم، وتعالت صفاته، وكثرت خيراته، فالله ﷻ هو صاحب العظمة المطلقة فوق جميع خلقه، وصاحب الإنعام والجود والفضل عليهم أجمعين، فله الحمد حمداً يليق بجلاله، وله الشكر على نعمائه حتى يرضى.

من ركائز العقيدة في سورة «الرحمٰن»:

1 - الإيمان بأن الله - تعالى - هو رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

2 - اليقين بأن الله - تعالى - هو الذي أوحى بالقرآن الكريم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وعلمه إياه، وهو ﷻ يفتح على من يشاء من عباده بتيسير حفظ هذا الوحي الخالد وفهم دلالاته واستشراف معانيه.

3 - التسليم بأن الله - تعالى - خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، وأنه ﷻ خالق كل شيء بعلمه وقدرته وحكمته، وعلى ذلك فهو وحده المستحق للخضوع لجلاله بالطاعة والعبادة.

4 - التصديق بأن الله - تعالى - علم الإنسان النطق والبيان، وجهَّزه بكل ما يلزم لذلك، وأن أبانا آدم عليه السلام خلق ناطقاً مبيناً، عالماً عابداً، نبياً معلماً، على عكس ما يعتقد علماء الدراسات الإنسية المكتسبة.

5 - الإيمان بأن كلاً من الشمس والقمر وباقي أجرام الكون وجميع ما فيه يجري بدقة متناهية، ويسجد لخالقه ويسبح بحمده إلا عصاة الإنس والجن.

6 - اليقين بأن الله - تعالى - هو الذي رفع السمٰوات بغير عمد مرئية، وهيأ الأرض لتكون صالحة لحياة الناس ومماتهم، وزودها بمصادر رزقهم، ووضع العدل بين الناس فريضة ربانية، وأمر الناس جميعاً بإحقاق الحق والوزن بالقسط.

7 - التسليم بوجوب الشكر لله - تعالى - على نعمائه، والحذر من التكذيب بأيٍ من آلائه العديدة على عباده.

8 - التصديق بحتمية الموت وفناء كل شيء وبقاء الله - تعالى - ذي الجلال والإكرام، الأزلي بلا بداية، والأبدي بلا نهاية، الذي يملك كلاً من الزمان والمكان، ويحد بهما خلقه، وهما لا يحدان الذات الإلٰهية؛ لأن المخلوق لا يحد الخالق أبداً.

9 - الإيمان بأن الله - تعالى - هو الذي يغفر الذنوب، ويفرج الكروب لمن يشاء من عباده، وهو الذي يرفع من يشاء ويخفض من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ولذلك فهو - تعالى - ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: 29].

10 - التصديق بأن أياً من الجن والإنس - وهما من المخلوقات المكلفة صاحبة الإرادة الحرة - لا يستطيع الهروب من ملكوت الله، ولا من أمره وقدره، وهما محاطان بكل شيء إحاطة كاملة من كل جانب.

11 - التسليم بكل ما جاء بالسورة الكريمة من عقاب أهل النار، وثواب أهل الجنة، والإيمان بحتمية الآخرة، والتصديق بأن الإحسان الإلٰهي للخلق هو جزاء إحسانهم طوال استخلافهم في الأرض.

من الإشارات الكونية في سورة «الرحمٰن»:

1 - التأكيد على حقيقة خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وعلى أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء.

2 - ذكر أن الإنسان خلق مُعَلَّماً، عارفاً للغة العربية، قادراً على البيان.

3 - الإشارة إلى دقة حركات كلٍ من الأرض والشمس، مما يرمز إلى دقة حركات كل ما بالكون من مختلف صور المادة والطاقة والأجرام والأجسام.

4 - التأكيد على سجود كل ما بالوجود لله - تعالى - سوى عصاة كلٍ من الإنس والجن، وذلك برمزية سجود كلٍ من النجم والشجر لله.

5 - الإشارة إلى رفع السماء بغير عمد مرئية لنا.

6 - التلميح إلى حسن تهيئة الأرض للحياة ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمٰن: 10].

7 - تمييز النخيل عن غيرها من الأشجار، ووصفها بـ(ذات الأكمام)، وهي أوعية الطلع التي يطلع فيها القنوان، ثم ينشق عن العنقود فيكون بسراً ثم رطباً.

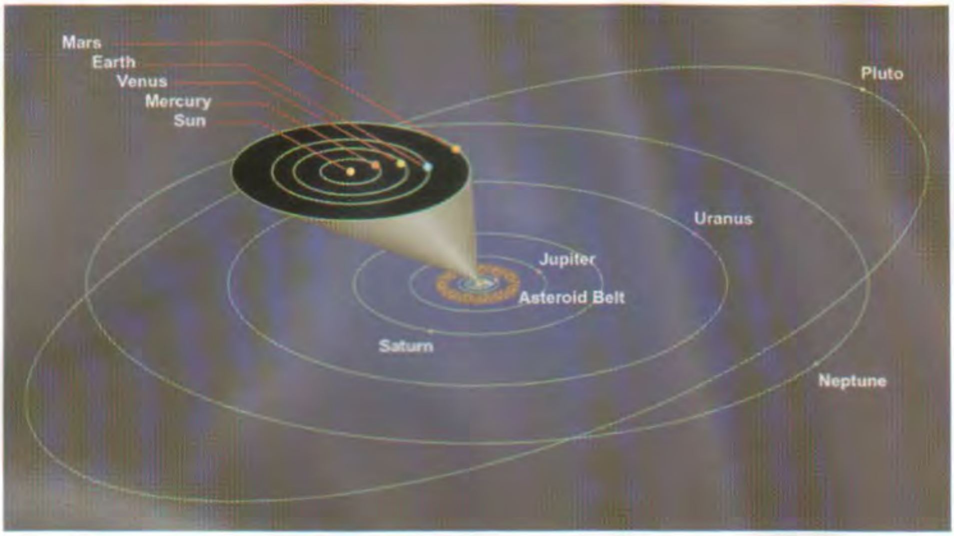

دورة الكواكب حول الشمس، «كل في فلك يسبحون».

8 - وصف الحب في سنابل النباتات بأنه ذو عصف، وهذه الحبة تغلفها قنابة تسمى العصافة تكون قشرة الحبة التي تحميها في سنيبلاتها وسنابلها من الفطريات والبكتيريا والجراثيم والحشرات، كما تحفظها من الرطوبة وتقلبات الجو وملوثاته.

9 - الإشارة إلى كروية الأرض، وإلى دورانها حول محورها أمام الشمس، وذلك بنعت ربنا - تبارك وتعالى - ذاته الإلٰهية بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمٰن: 17].

10 - التأكيد على التقاء كتل الماء المختلفة في البحار المتصلة ببعضها البعض مع احتفاظ كل كتلة منها بصفاتها الطبيعية والكيميائية والحيوية دون امتزاج كامل، والإشارة إلى البرزخ الفاصل بين كل كتلتين متجاورتين، وإلى ما يخرج منهما من اللؤلؤ والمرجان مؤكداً طبيعتهما البحرية.

11 - الإشارة إلى القدرة التي وهبها الله - تعالى - للماء حتى يمكنه من حمل السفن العملاقة فوق أسطح البحار كالأعلام (كالجبال).

12 - التأكيد على حقيقة موت جميع الخلائق، وفناء كل شيء سوى الله الخالق.

13 - التلميح إلى مركزية الأرض من السمٰوات، وذلك بجمع أقطارها على ضآلة أقطار الأرض وضخامة أقطار السمٰوات.

14 - الإشارة إلى وجود عنصر النحاس في صفحة السماء، وهي حقيقة لم يتم التوصل إليها إلا بعد رحلات الفضاء.

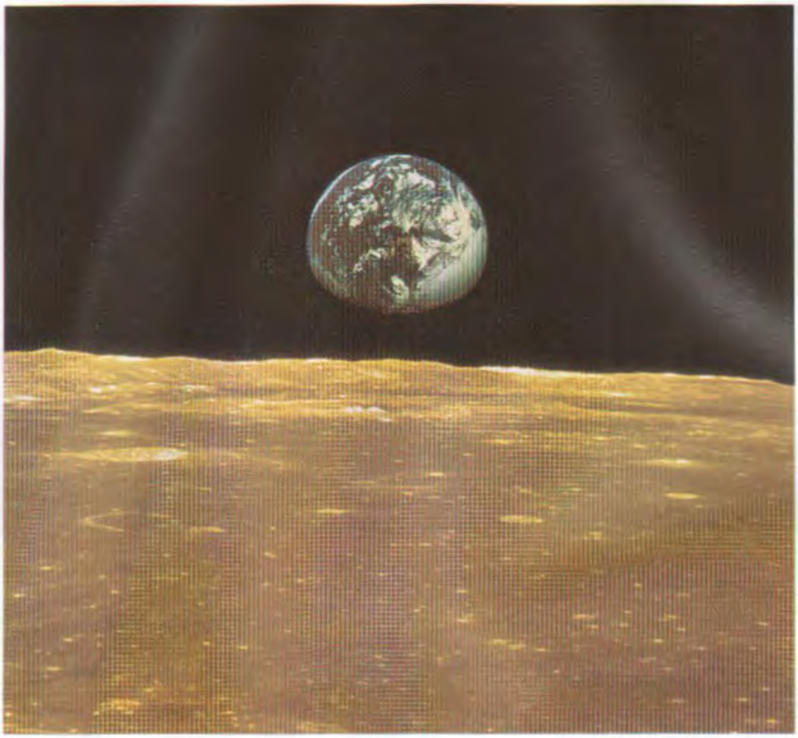

صورة للأرض من على سطح القمر وتبدو الأرض كروية الشكل.

15 - وصف انشقاق السماء في الآخرة على هيئة (وردة كالدهان)، وعلوم الفلك الحديثة تؤكد ذلك بالنسبة لانفجار النجوم في زماننا.

16 - تمييز ثمار كلٍ من النخيل والرمان عن بقية أنواع الفاكهة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فإني سوف أقصر حديثي على النقطة الثانية من القائمة السابقة فقط. وقبل الوصول إلى ما في هذه الآيات الأربع من إشارات علمية أرى ضرورة الرجوع إلى آراء عدد من المفسرين في شرحها.

من أقوال المفسرين في تفسير هذه الآيات الأربع:

ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: يخبر - تعالى - عن فضله ورحمته بخلقه أنه أنزل لعباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: 1-4] قال الحسن: يعني النطق، وقال الضحاك: يعني الخير والشر، وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق في تعليمه

- تعالى - القرآن هو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها على اختلاف مخارجها وأنواعها. (انتهى قول المفسر).

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن - رحم الله كاتبه - ما نصه:

. . . بدأ - سبحانه - في معرض الامتنان على عباده بجلائل النعم، بأعظمها شأناً، وأرفعها مكاناً، وهو تعليم رسوله ﷺ وأمته القرآن، وهو هدى وشفاء، ورحمة وعصمة، وأمان ونور للناس في دينهم ودنياهم، وهو أعظم وحي الله إلى أنبيائه، وأشرفه منزلة عند أوليائه، وأكثره ذكراً، وأحسنه في أبواب الدين أثراً. والرحمٰن: من أسمائه - تعالى - وتخصيصه بالذكر هنا للتنبيه إلى أن تعليم القرآن من آثار رحمته الواسعة. ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: 3-4] أي خلق النوع الإنساني على أبدع صوره، ومكنه من بيان ما في نفسه بالمنطق الفصيح، ومن فهم بيان غيره، فتميز بذلك عن الحيوان، واستعد لتلقي العلوم والخلافة في الأرض. وهذه نعم عظمى توجب الشكر والتعظيم لله - تعالى -. (انتهى قول المفسر).

وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما مختصره:

﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾: هذا المطلع المقصود بلفظه ومعناه، وإيقاعه وموسيقاه. ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ هذه النعمة الكبرى التي تتجلى فيها رحمة الرحمٰن بالإنسان. . . ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: 3-4] إننا نرى الإنسان ينطق، ويعبر، ويبين، ويتفاهم، ويتجاوب مع الآخرين، فننسى بطول الألفة عظمة هذه الهبة، وضخامة هذه الخارقة، فيردنا القرآن إليها، ويوقظنا لتدبرها في مواضع شتى. إن تكوين جهاز النطق وحده عجيبة لا ينقضي منها العجب، اللسان والشفتان، والفكان والأسنان، والحنجرة والقصبة الهوائية، والشعب والرئتان. . إنها كلها تشترك في عملية التصويت الآلية، وهي حلقة في سلسلة البيان، وهي على ضخامتها لا تمثل إلا الجانب الميكانيكي الآلي في هذه العملية المعقدة، المتعلقة بعد ذلك بالسمع والمخ والأعصاب، ثم بالعقل الذي لا نعرف عنه إلا اسمه، ولا ندري شيئاً عن ماهيته وحقيقته، بل لا نكاد ندري شيئاً عن عمله وطريقته. كيف ينطق الناطق باللفظ الواحد؟. إنها عملية معقدة كثيرة المراحل والخطوات والأجهزة، مجهولة في بعض المراحل خافية حتى الآن. إنها تبدأ شعوراً بالحاجة إلى النطق بهذا اللفظ لأداء غرض معين، هذا الشعور ينتقل - لا ندري كيف - من الإدراك أو العقل أو الروح إلى أداة العمل الحسية. . . الخ، ويقال: إن المخ يصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق

بهذا اللفظ المطلوب، واللفظ ذاته مما علمه الله للإنسان وعرفه معناه، وهنا تطرد الرئة قدراً من الهواء المختزن فيها، ليمر من الشعب إلى القصبة الهوائية إلى الحنجرة صوتاً تشكله حسبما يريد العقل، ومع الحنجرة اللسان، والشفتان، والفكان، والأسنان، يمر بها هذا الصوت فيتشكل بضغوط خاصة في مخارج الحروف المختلفة. وفي اللسان خاصة يمر كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع معين، يتم فيه الضغط المعين، ليصوت الحرف بجرس معين، وذلك كله لفظ واحد، ووراءه العبارة والموضوع، والفكرة والمشاعر السابقة واللاحقة. كلٌ منها عالم عجيب غريب؛ ينشأ في هذا الكيان الإنساني العجيب الغريب بصنعة الرحمٰن، وفضل الرحمٰن. (انتهى قول المفسر).

من الإشارات العلمية في الآيات القرآنية الأربع:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾:

والرحمٰن اسم من أسماء الله الحسنى، اختص به - تعالى - ولم يسم به غيره، وقد جاء بالقرآن الكريم (57) مرة تأكيداً على أن الله - تعالى - هو رحمٰن الدنيا والآخرة؛ لأن اسم الرحمٰن مشتق من الرحمة، وجاء بصيغة المبالغة؛ لأن الرحمة هنا لجميع الخلق، بينما اسم (الرحيم) خاص بالمؤمنين، وذلك انطلاقاً من قوله - تعالى -: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5].

فذكر الاستواء باسمه - تعالى - (الرحمٰن) ليعم جميع خلقه برحمته في الدنيا والآخرة، وعلى ذلك اعتبرت الرحمة في اسم الله (الرحمٰن) أعظم منها في اسمه (الرحيم) الذي جاء في القرآن الكريم (95) مرة، وبتصريفاته (24) مرة أخرى، بمجموع بنصه (119 مرة)، ومن ذلك قوله - عز من قائل -: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43].

ووصفُ (الرحيم) وصف الله ﷻ به خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وذلك بقوله العزيز: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

وقد استهل الله - تعالى - سورة الرحمٰن بهذا الاسم من أسمائه الحسنى إشارة إلى فضله على خلقه ورحمته بهم أن أنزل القرآن الذي علمه لخاتم أنبيائه ورسله، ويسّر حفظه وفهمه على من رحم من عباده، وحفظه - تعالى - بين دفتي المصحف الشريف،

وفي صدور البلايين من الحفاظ قديماً وحديثاً، بنفس لغة وحيه - اللغة العربية - وحفظه - تعالى - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بهذا الحفظ إلى ما شاء الله؛ تحقيقاً لوعده الذي قطعه على ذاته العلية فقال - عز من قائل-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9] وكلام الله - تعالى - غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود؛ وذلك لأن الله ﷻ هو خالق كلٍ من المكان والزمان ليحدّ بهما خلقه، والمخلوق لا يحد خالقه أبداً، وعلى ذلك فإن ربنا - تبارك اسمه - فوق جميع خلقه، وفوق جميع صور المادة والطاقة، وفوق كلٍ من المكان والزمان، وكذلك أقواله وأفعاله، وقد وصف ذاته العلية بقوله العزيز: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

ووصف ربنا - تبارك وتعالى - خاتم كتبه بقوله الكريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: 77-80] وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: 21-22].

وعلى ذلك فإن القرآن الكريم كلام الله بحروفه العربية ونظمه ومعانيه، وقد كتب غير منقوط ولا مشكل، ثم فشا اللحن بين غير العرب من المسلمين فنقطت المصاحف، ثم شكلت لتيسير التلاوة عليهم.

والذي يدرك حال العالم قبل بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - والأرض قد ملئت بالخرافات والأساطير، وبالظلمات والمظالم بعد أن فقدت صلتها بنور الهداية الربانية، يدرك مدى النعمة التي أنعم الله - تعالى - بها على الإنسان بإنزال القرآن الكريم هداية خاتمة للناس كافة، ولذلك تعهد بحفظه ليبقى شاهداً على الخلق أجمعين إلى قيام الساعة، وأشاد في مطلع سورة الرحمٰن بتعليمه لمن يختار من خلقه.

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

يتكون جسم الإنسان البالغ من نحو مائة تريليون خلية حية، ويبلغ متوسط قطر الخلية نحو 0.03 من المليمتر، ويبلغ متوسط وزنها جزءاً من المليار من الجرام. وللخلية جدار حي يحافظ على كيانها، ويسمح لها بالاتصال بالخلايا من حولها ليتبادل معها الغذاء والأكسجين والعوادم المختلفة، ويحوي هذا الجدار سائل الخلية (السيتوبلازم)، وينتشر فيه العديد من العضيات التي منها مولدات الطاقة - المتقدرات - ومنتجات البروتينات - الريبوسومات - والنواة، وهي مركز التحكم في الخلية وبداخلها الشيفرة

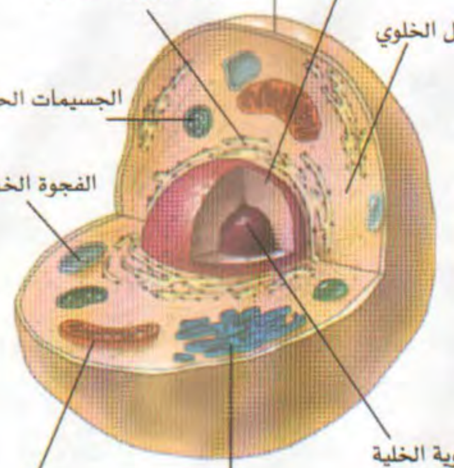

الوراثية التي تشغل حيزاً لا يزيد على واحد من المليون من المللميتر المكعب، ولكنها إذا فردت يصل طولها إلى قرابة المترين بهما 18,6 بليون جزيئاً من جزيئات المادة، إذا اختل وضع ذرة واحدة من ذرات هذه الجزيئات عن مكانها، إما أن تشوه الخلية، أو لا تكون.

وهذه الخلية الحية تبلغ من التعقيد في البناء والكفاءة في الأداء ما لم يبلغه أكبر المصانع التي بناها الإنسان، بل التي فكر في إنشائها ولم يتمكن من ذلك بعد؛ وذلك لأن الخالق ﷻ أعطاها من القدرات ما يمكنها من إنتاج مائتي ألف نوع من البروتينات تعجز أكبر المصانع عن إنتاجها.

والخلايا الحية في حالة تجدد مستمر، فجسم الإنسان يستهلك في كل ثانية من عمره نحو (125 مليون) خلية تموت ويتم استبدالها بخلايا جديدة متماثلة مع الأصل تماماً، بحيث تتجدد جميع خلايا جسم الإنسان ما عدا الخلايا العصبية مرة كل أسبوع تقريباً، وأصل هذا البناء الإنساني العجيب هو طين الأرض الذي نفخ الله فيه من روحه، ثم كرره عن طريق خليتين متناهيتي الضآلة في الحجم هي نطفة كلٍ من الذكر والأنثى مكونتين النطفة الأمشاج التي تتوالى انقساماتها في رحم الأم عبر مراحل متتالية من الخلق حتى تخرج إلى الحياة وليداً كاملاً سالماً معافى، ينمو بعد ذلك بالتغذية المستمدة أيضاً من تراب الأرض إلى أجل مسمى، ثم يموت ويعود جسده إلى تراب الأرض.

وخلق الإنسان مما يشهد للخالق العظيم بطلاقة القدرة، وعظيم الصنعة، وإبداع الخلق، كما يشهد له - سبحانه - بالألوهية، والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

ثالثاً: في قوله - تعالى -: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾:

يدعي المختصون في علم دراسة الإنسان بأن هذا المخلوق بدأ جاهلاً كافراً، ثم تعلم الكلام بمحاكاته لأصوات الحيوانات المختلفة، وتعرف على الدين عن طريق فزعه من مختلف الظواهر الكونية، وأن اللغة نشأت من إشارة اليدين والوجه حتى وصلت إلى نطق الفم، وأنها كانت إشارية في البداية، ثم أخذت الأصوات تتخللها بصورة متدرجة، ولكن يخبرنا القرآن الكريم أن الله - تعالى - علم أبانا آدم عليه السلام الأسماء كلها، وأنطقه بالكلام المنظوم، وعلى ذلك فإن الإنسان في الإسلام بدأ عالماً عابداً، ولم يبدأ جاهلاً ولا كافراً، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا...﴾ [البقرة: 31] وقال المصطفى ﷺ: «**إن آدم كان نبياً مُكَلَّماً، كَلَّمَهُ الله قبلاً**».

ويؤكد هذا المعنى ما أثبته العلم التجريبي بأن مخ الإنسان به مركز للنطق، وأن لكل شيء في الوجود قدراً من الوعي والإدراك، والشعور والانفعال والتعبير بلغة خاصة بنوعه من السوائل والغازات إلى الجمادات، ومن النباتات إلى الحيوانات، فهل يعدم الإنسان ذلك وهو أشرف المخلوقات، وقد ميزه الله - تعالى - بالعقل الراجح، والجهاز العصبي فائق التعقيد في البناء والدقة في الأداء؟.

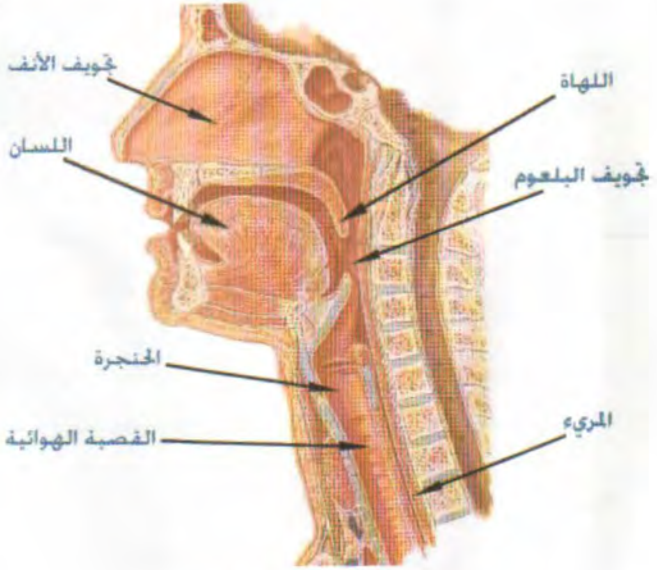

رسم تشريحي لأجهزة النطق

وأجهزة النطق العجيبة: الرئتان والقصبة الهوائية بشعبها، والحنجرة، واللهاة، واللسان، والشفتان، والفكان والأسنان، وكلها تشترك في النطق والبيان، ويعمل كلٌّ من السمع والمخ والأعصاب في ترجمة هذا النطق إلى معانٍ تفهم ويستجاب لها بالإيجاب أو النفي، ولذلك يمتن علينا ربنا - تبارك وتعالى - بقوله العزيز: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: 3-4]. وقال آمراً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ في أول ما أنزل من محكم القرآن الكريم:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: 1-5] هذا وقد ذكر ابن قتيبة في المعارف أن الله - تعالى - أنزل على أبينا آدم عليه السلام حروف المعجم مفرقة مكتوبة، وأنها كانت الحروف العربية التي تفرعت عنها كل لغات الأرض بدليل أنها تشكل أكثر من نصف حروف كلٍ من اللغتين الأقدم في المعارف الإنسانية، وهما العبرية والآرامية، مع تسليمنا بأن العربية في الأصل لم تكن منقوطة ولا مشكلة.

وهذه الآيات القرآنية الكريمة التي جاءت في مطلع سورة الرحمٰن تحسم جدلاً طال بين علماء اللغة، مثل ما جاء في كتاب مايكل كورباليس المُعَنْوَن: «في نشأة اللغة من إشارة اليد إلى نطق الفم» الذي قامت بنشره جامعة برنستون في سنة 2002 م.

ثم نشر الكتاب مترجماً إلى العربية في سلسلة عالم المعرفة في مارس2006 م. والكتاب مليء بالمغالطات العلمية والفكرية والدينية، وترد عليه الآيات الأربع الأولى من سورة الرحمٰن في حزم وجلاء.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، سيد الأولين والآخرين، وإمام المهتدين سيدنا محمد بن عبد الله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

20 - ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

[لقمان: 28]

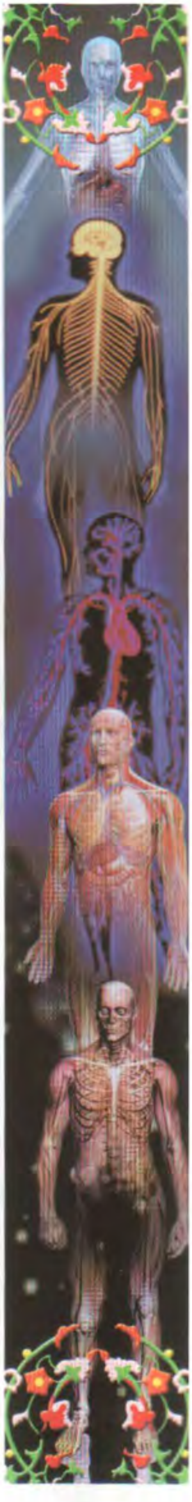

هذا النص القرآني الكريم جاء في أول الخُمْس الأخير من سورة «لقمان»، وهي سورة مكية، وآياتها أربع وثلاثون (34) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها مرتين إلى العبد الصالح المعروف باسم (لقمان الحكيم)، وهو شخصية لا يعرف المؤرخون شيئاً عنها، فقد قيل عنه إنه من أصول أفريقية (نوبية، أو سودانية، أو حبشية) أو من أصول عبرانية، والله - تعالى - أعلم بحقيقته.

وغالبية الذين كتبوا عن هذا العبد الصالح (لقمان الحكيم) يُجمعون على أنه لم يكن نبياً، وقليلون هم الذين يرجِّحون نبوته؛ لمدح القرآن الكريم له في آيتين متتاليتين من هذه السورة الكريمة التي سميت باسمه، ولكن الجميع متفقون على أنه كان من أحناف زمانه؛ لدعوته إلى التوحيد الخالص لله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق، ولما عُرِفَ عنه من الحكمة وحسن الخطاب، كما فصلته هذه السورة المباركة.

هذا وقد سبق لنا تلخيص سورة لقمان وإبراز محاورها الرئيسة في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم (28)، لذلك سوف أقصر حديثي هنا على شرح الدلالات العلمية لهذه الآية الكريمة، وقبل ذلك أرى ضرورة استعراض أقوال عدد من المفسرين.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: 28].

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «.. أي: ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد وبالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هيِّنٌ عليه ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: 50] أي لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرّره وتوكيده ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: 13-14]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: 75] أي كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة. ولهذا قال - تعالى -: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28] الآية.

● وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما نصه: «والإرادة التي تُخلق بمجرد توجه المشيئة إلى الخلق يستوي عندها الواحد والكثير، فهي لا تبذل جهداً في خلق كل فرد، ولا تكرر الجهد مع كل فرد.. وعندئذٍ يستوي خلق الواحد وخلق الملايين، وبعث النفس الواحدة وبعث الملايين إنما هي الكلمة هي المشيئة: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].. ومع القدرة كان العلم والخبرة مُصاحِبين للخلق والبعث وما وراءهما من حساب وجزاء دقيق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: 75].

● وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه: «ما خلقكم ابتداءً ولا بعثكم بعد الموت أمام قدرة الله إلا كخلق نفس واحدة أو بعثها. إن الله سميع لقول المشركين: (لا بعث) بصير بأعمالهم فيجازيهم عليها.

وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: «.. أي: ما خلقكم أيها الناس ابتداءً ولا بعثكم بعد الموت انتهاءً إلا كخلق نفس واحدة وبعثها؛ لأنه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون.

قال الصاوي: المعنى أن الله لا يصعب عليه شيء، بل خلق العالم وبعثه برمته كخلق نفس واحدة وبعثها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: 75] أي سميع لأقوال العباد بصير بأعمالهم.

وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن الناس جميعاً من لدن أبينا آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة كانوا في صلب أبي البشرية، أي في شفرته الوراثية التي بانقسامها مع الزمن أعطت البلايين من البشر الذين عاشوا وماتوا، والبلايين السبعة من بني آدم الذين يملؤون جنبات الأرض اليوم، والبلايين من الذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة.

وفي تفسير ذلك روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وأخرج كلٌ من الأئمة أبي داود والنسائي والترمذي، وابن أبي حاتم وابن حبان عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ، وقد سُئل عن الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172] فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله – تعالى – خلق آدم** عليه السلام **ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ثم قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ثم قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»، فقال رجل: يا رسول الله: ففيم العمل؟، فقال رسول الله ﷺ: «**إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل الجنة فيُدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار**».

وأخرج كلٌ من الأئمة أحمد والنسائيّ وابن جرير والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم** عليه السلام **بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً: قال:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: 172-173]».

وأخرج كلٌ من الإمامَيْن ابن جرير، وابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله – تعالى – كل نسب بينها وبين آدم**».

وأخرج كلٌّ من الأئمة البخاريّ ومسلم وأحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول الله** عز وجل **: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي**».

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

أولاً: الخلق من نفس واحدة:

من الدلالات العلمية لكل ما سبق أن الشفرة الوراثية لأبينا آدم عليه السلام كانت تحتوي على جميع الصفات الوراثية لذريته من زمانه وحتى قيام الساعة، وأن هذه الصفات

الوراثية قد وضع الخالق ﷻ لانتقالها من الآباء إلى الأبناء عدداً من القوانين والسنن الحاكمة تعرف باسم قوانين الوراثة، وهذه القوانين لم تتوصل المعارف المُكتسَبة إلى شيء منها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حين استطاع النمساوي جريجور مندل (Gregor Johann Mendel) إثبات توارث الصفات بواسطة عدد من التجارب على نبات البازلاء، وذلك في الفترة من 1865م إلى 1869م، ولخص ذلك بالقول بأن الصفات الوراثية تنتقل بواسطة عدد من العوامل المتناهية في ضآلة الحجم عُرفت فيما بعد باسم المورثات (Genes).

وُبقيت هذه المورثات مجرد رموز تستخدم في تفسير عمليات التنوع في الخلق حتى أثبت مورجان (Thomas Hunt Morgan) في أوائل القرن العشرين (1912م - 1926م) أن المورثات هي أجزاء حقيقية توجد على جسيمات خيطية متناهية في دقة الحجم، تتجمع في داخل نواة الخلية الحية وتعرف باسم الصبغيات أو الأجسام الصبغية

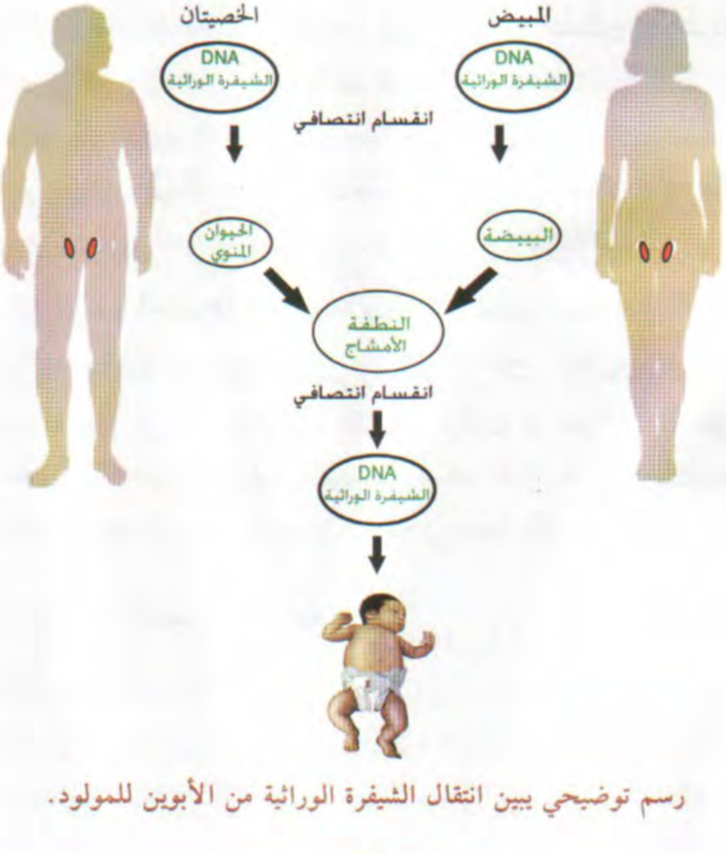

رسم توضيحي يبين انتقال الشيفرة الوراثية من الأبوين للمولود.

(Chromosomes)، وذلك لقدرتها على اكتساب الأصباغ التي تضاف إلى الخلية الحية والتلون بها أكثر من باقي أجزاء الخلية.

ومن خلال دراسته للصبغيات اكتشف «مورجان» الصبغي المختص بالتكاثر، واقترح فكرة التخطيط الوراثي للكائنات الحية. وباكتشاف دور الصبغي الوراثي في كل من نطفتي الذكر والأنثى في تكوين النطفة الأمشاج (**Zygote**)، ومن ثم تكوين الجنين بالانقسام المتكرر، ثبت للدارسين في علم الأجنّة أن خلق كل فرد من بني الإنسان مُقدَّر سلفاً في نطفَتَيْ كلٍ من أبيه وأمه، وأن هذا التقدير يمتد عبر القرون الماضية ليتصل بالشفرات الوراثية للأجداد حتى ينتهيَ إلى أبينا آدم عليه السلام أبي البشرية الأول، وهذا يعني أن كل فرد من بني آدم كان موجوداً في الشفرة الوراثية الخاصة بهذا الأب الأول لحظة خلقه، وأن الله - تعالى - خلق البشرية كلها في شخص واحد، أي في نفس واحدة، كما جاء في النص القرآني الكريم، الذي نحن بصدده.

ثانياً: البعث كنفس واحدة:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**».

وقال: «**وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً هو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**».

وقال: «**إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً، فيه يركب يوم القيامة**. قالوا: أي عظم هو يا رسول الله؟ قال: «**عجب الذنب**».

وأخرج الإمام أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كل ابن آدم تأكل الأرض إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**».

وأخرج الإمام ابن حبان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه**». قيل: ومما هو يا رسول الله؟ قال: «**مثل حبة خردل منه ينشأ**».

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما بين النفختين أربعون . . .، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**».

وقد ثبتت صحة هذه الأحاديث في دراسات مختبرية على أجنة البرمائيات (HansSpemann,1932,1931)، ثم على أجنة الإنسان (KeithL.Moore,1983)، التي تمر بالمراحل التالية:

1 - تتكون النطفة الأمشاج (Fertilized Ovumor Zygote) بمجرد إخصاب النطفة الأنثوية (البييضة) بواسطة النطفة الذكرية (الحيوان المنوي).

2 - تبدأ النطفة الأمشاج في الانقسام إلى كتلة من الخلايا تعرف باسم القسيمات الأرومية (Blastomeres)، ثم بعد أربعة أيام تتحول إلى كتلة كروية من الخلايا تعرف باسم التويتة (Morula)، على هيئة كرة مجوفة لا يزيد قطرها على ربع ملليمتر تعرف باسم الكرة الأرومية (Blastula). وتستغرق هذه المرحلة قرابة الأسبوع الأول من عمر الجنين، وفي الليلة الخامسة من هذا الأسبوع الأول تنشطر التويتة إلى نصفين مكونة ما يعرف باسم الكيسة الأرومية (Blastocyst).

3 - في حدود الليلة السابعة تبدأ الكيسة الأرومية في الانغراس بجدار الرحم متحولة إلى طور العلقة الذي يستمر لمدة الأسبوعين الثاني والثالث من عمر الجنين.

وفي نحو الليلة الخامسة عشرة من تاريخ الإخصاب، تبدأ حزمة من خلايا الطبقة العليا للعلقة في الترتيب على هيئة خط طولي يعرف باسم الشريط الابتدائي (أو الأولي)، الذي تتضخم نهايته الأمامية على هيئة ما يعرف باسم

النطفة الأمشاج.

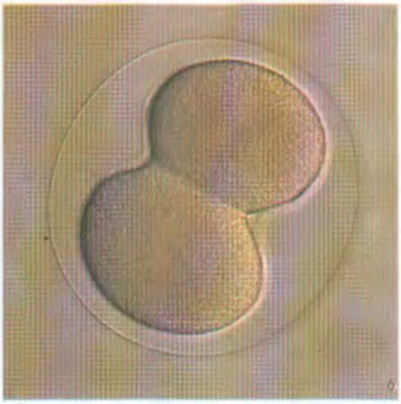

مرحلة الانقسام الثنائي.

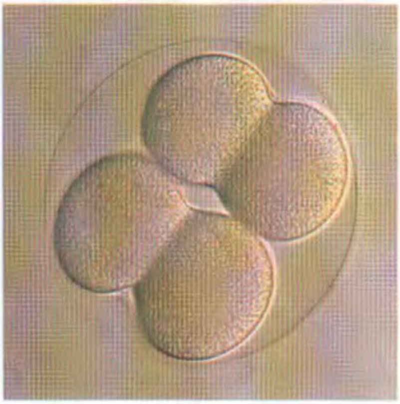

مرحلة الرباعي.

مرحلة الانقسام المتعددة.

العقدة الابتدائية (أو الأولية)، وفي الوقت نفسه يظهر بالشريط الابتدائي (أو الأولي) انخفاض ضيق يستمر إلى حفرة في العقدة الابتدائية تعرف باسم الحفرة الابتدائية.

وفي الليلة السادسة عشرة تبدأ الطبقة الوسطى من الخلايا في التكوين بين الطبقتَيْن العلوية (الخارجية) والسفلية (الداخلية).

وتتميز خلايا الطبقة الوسطى بالقدرة الفائقة على الانقسام السريع، وعلى التنوع والتخصص، وعلى الهجرة لتكوين مختلف أنواع الخلايا والأنسجة المتخصصة والأعضاء والأجهزة المحددة.

4 - في حدود الليلة الحادية والعشرين من عمر الجنين تتكثف الطبقة المتوسطة حول محور الجنين مشكلة الكتل البدنية (**Somites**)، فتتحول العلقة بالتدريج إلى مرحلة المضغة التي تستمر إلى نهاية الأسبوع الرابع تقريباً من عمر الجنين. ويصاحب ظهور الكتل البدنية تكوين الأقواس البلعومية على هيئة خمسة أزواج من الشقوق والميازيب التي تتكون في الطبقة الخارجية من جسم الجنين.

5 - في نهاية الأسبوع الرابع من عمر الجنين يبدأ التباطؤ التدريجي في إنتاج الخلايا الوسطية، ثم يبدأ الشريط الأولي في الانكماش السريع، ثم في الانسحاب التدريجي إلى منطقة العجز (العصعص) من الجنين حتى يختفي على هيئة لا تكاد أن ترى.

6 - في الفترة بين الأسبوعين الخامس والثامن من عمر الجنين، تتخلق العظام ثم يكسوها اللحم (العضلات والجلد)، وفي خلال هذه المرحلة تتم عمليات كلٍ من التصوير والتسوية والتعديل التي تستمر حتى الميلاد، ومن بعد الميلاد حتى الوفاة.

ومن هذه العمليات نفخ الروح بنهاية الأسبوع السادس، كما أخبر المصطفى ﷺ ونمو الأعضاء والأطراف، والأحشاء والأجهزة في مراحل متتابعة، والاعتدال التدريجي في تقوس الجسم، وبدء تكون الوجه، وتحديد منطقة العنق، وتحديد كلٍ من العينين والأذنين والأنف.

وبنهاية الأسبوع الثامن ينتهي دور الجنين (**Embryo**)، ويبدأ دور الحميل (**Fetus**) الذي ينتهي بالميلاد.

ويدرك علماء الأجنة اليوم أن خلايا الشريط الأولي قد وهبها الخالق ﷻ قدرات فائقة على التخصص، ولذلك تعرف باسم خلايا الشريط الأولي ذات القدرات المتعددة (**Pleuropotent Primitive Streak Cells**)، ويتضح تميز هذه الخلايا وحساسيتها الفائقة من نموها السريع أحياناً على هيئة أعداد من الأورام المسخية (**Teratoma**) المحتوية على عدد من الأنسجة أو الأعضاء المختلفة إذا تعرضت لبعض المؤثرات الخارجية مثل الإشعاع.

ويشير ذلك إلى قدرة خلايا عجب الذنب على تكوين جميع أنسجة وأعضاء الجسم أثناء عملية تخلّقه، كما يشير إلى إمكانية الإنبات من خلايا عجب الذنب التي لا تبلى أبداً بإذن الله - تعالى - يوم البعث بإنزال ماء خاص من السماء، كما جاء في حديث المصطفى ﷺ.

من هذا الاستعراض يتضح بجلاء أن بني آدم جميعاً كانوا في صلب الأب الأول منذ اللحظة الأولى لخلقه، فكان خلقهم جميعاً كخلق نفس واحدة، وأن أهم ما يبقى من الميت بعد صعود روحه إلى بارئها، هو عجب ذنبه الذي لا يبلى أبداً، بينما يتحلل الجسد إلى عناصره الأولى: الماء وتراب الأرض، وتبقى هذه الفضلة العجيبة (عجب الذنب) لينبت منها كل إنسان في يوم البعث، كما تنبت البقلة من حبتها، فبمجرد نزول هذا الماء الخاص من السماء ينبت جميع بني آدم كنفس واحدة ولذلك قال - تعالى -:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: 28].

وظاهر الآية الكريمة أنها جاءت في مقام الرد على الكفار والمشركين الذين ينكرون البعث، ويستبعدون إمكانية حصوله - وذلك لقياسهم على الله - تعالى - بمعايير البشر، نتيجة لتشوّه معنى الألوهية عندهم، فردّ الله ﷻ عليهم بهذه الآية القرآنية الكريمة التي فحواها أن خلق جميع الناس وبعثهم بالنسبة للخالق - جلت قدرته - ليس إلا كخلق نفس واحدة ثم بعثها بعد وفاتها؛ لأن الله - تعالى - لا يُعجزه شيء، وقد خلق الناس أول الأمر من عدم، والبعث أهون من الخلق الأول، ولذلك خُتمت الآية الكريمة بقول

ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: 28] أي: سميع لأقوال الكفار والمشركين، بصير بهم وبأعمالهم، وسوف يجازيهم على ما يقترفون من سيئات وافتراءات على الخالق البارئ المُصوِّر.

وكطبيعة القرآن الكريم تأتي الآية منه في مقام ضرب المثل، ولكنها تبقى سليمة صحيحة من كل النواحي: اللغوية والعلمية والتاريخية وغيرها.

ومع تسليمنا بأن قضية الخلق (بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان) هي من القضايا الغيبية غيبة كاملة، والتي لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح أبداً بغير هداية ربانية، إلا أننا نؤمن بأن الله - تعالى - من رحمته بنا قد أبقى لنا في داخل الجسد البشري، وفي أجساد غيرنا من الأحياء - كما أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء - من الشواهد الحسية ما يمكن الإنسان المحدود في كل من القدرات والمكان والزمان من الوصول إلى تصور ما عن عملية الخلق، ويبقى هذا التصور ناقصاً إذا لم يُستشهَد بكلام الخالق ﷻ فتكثر النظريات، وتتعدد الفروض والتصورات، ويبقى للمسلم نور من الله - تعالى - يُعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة، لا لأن العلوم المكتسبة قد وصلت فيها إلى الحقيقة، ولكن لمجرد وجود ما يدعمها من كتاب الله - تعالى - أو من الأحاديث الصحيحة المرفوعة إلى رسول الله ﷺ. والمعارف المكتسبة في مجال علم الأجنة تؤكد اليوم الانقسام المتكرر للصبغيات الحاملة للصفات الوراثية (المورثات) لتكوين خلايا جديدة في عمليات النمو والتكاثر، وإذا عدنا بهذا الانقسام إلى الوراء مع الزمن التقى جميع نسل آدم عليه السلام في شفرته الوراثية الجامعة، فكان خلقهم من آدم إلى قيام الساعة كخلق نفس واحدة.

وبالمثل تثبت العلوم المكتسبة ما جاء بأحاديث رسول الله ﷺ أن جميع أعضاء جسم الإنسان تُخلق مما سماه باسم عجب الذنب، الذي يتكدس على هيئة عظمة واحدة في نهاية العصعص بحجم حبة الخردل، لا تبلى أبداً، ومنها يعاد إنبات كل إنسان بعد أن ينزل الله - تعالى - ماء خاصاً من السماء في يوم البعث، فيبعث نسل آدم كله، كما تبعث نفس واحدة.

ومن هنا كان في قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: 28] ومضةٌ من ومضات الإعجاز العلمي في كتاب الله،

تشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه كلام الخالق العظيم الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية فقال - عز من قائل -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. وحفظ ربنا - تبارك وتعالى - القرآن الكريم بعهده هذا حفظاً كاملاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وعهده - تعالى - يقضي بحفظه أبداً إلى أن يشاء الله ليبقى هذا الكتاب المجيد شاهداً على الناس جميعاً إلى قيام الساعة، وحفظ ربنا - ذو الجلال والإكرام - كتابه الخاتم في نفس لغة وحيه - اللغة العربية -.

من هنا وجب علينا الحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، وعلى نعمة القرآن الكريم، وعلى بعثة النبي والرسول الخاتم الذي تلقّاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

21 - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98]

هذه الآية الكريمة جاءت في بداية النصف الثاني من سورة «الأنعام»، وهي سورة مكية، وآياتها (165) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى الأنعام.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول العقيدة الإسلامية، وإن جاءت بها بعض التشريعات، وبعض الإشارات إلى عدد من الأمم البائدة، وإلى مواقفها من رسل الله - تعالى - إلى كل منها، وإلى عدم اعتبارها بهلاك الأمم السابقة جزاء عصيانها لأوامر ربها، تأكيداً على غفلة الناس وقصر أنظارهم، وتحذيراً من الوقوع فيهما.

كذلك جاءت الإشارة إلى عدد من أنبياء الله ورسله الذين بعثوا جميعاً بالإسلام العظيم الذي علمه ربنا - تبارك وتعالى - لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ثم أنزله على سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله، وأتمه وحفظه في الرسالة الخاتمة التي بعث بها النبي والرسول الخاتم ﷺ ويأتي هذا السرد في سورة الأنعام وفي العديد غيرها من سور القرآن الكريم تأكيداً على وحدة رسالة السماء، وعلى الأخوّة بين الأنبياء وبين الناس أجمعين، انطلاقاً من وحدانية الإلٰه الخالق الذي لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، ولا حاجة لجلاله بالصاحبة والولد.

كذلك استشهدت سورة الأنعام بعدد من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق، وعلى حتمية الإفناء

والبعث، وتبقى هذه الإشارات خطاباً مناسباً لأهل عصرنا عصر العلم والتقنية الذي نعيشه، تخاطبهم باللغة الوحيدة التي يفهمونها، وهي لغة العلم.

ومن خصائص سورة الأنعام أنها نزلت دفعة واحدة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة، وحولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة تسد ما بين الخافقين، ولهم زجل بالتسبيح، والأرض بهم ترتج**». وأضاف هذا الصحابي الجليل أنس قوله: ورسول الله يقول: «**سبحانه الله العظيم، سبحانه الله العظيم**».

وتستهل سورة الأنعام بحمد الله - تعالى - وبالشهادة له بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبأنه - تعالى - خلق السمٰوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وخلق الإنسان من طين، وحدد آجال الخلق، كما حدد يوم البعث والحساب، وبأنه سبحانه وتعالى يعلم السر والجهر، ويعلم ما تكسب كل نفس، وعلى الرغم من ذلك يتجرأ الكثيرون من خلقه على الكفر به، أو الشرك به، ويزيغ الكثيرون عن هدايته، ويتنكرون لأنبيائه ورسله.

وتتبع السورة حمد الله - تعالى - بعدد من الآيات الكونية الدالة على شمول علمه، وطلاقة قدرته، وبالغ حكمته، ثم تثني بعرض صور من مواقف المكذبين، ومصارع الغابرين، وتنصح بالسير في الأرض لإدراك كيف كانت عاقبة المكذبين.

وبعد ذلك تنتقل سورة الأنعام إلى استعراض عدد من الشواهد الحسية الدالة على شيء من صفات الخالق سبحانه وتعالى، ومن ذلك خلق السمٰوات والأرض وما فيهن، ورعاية كل ذلك وصيانته من الهلاك، وهو - جل شأنه - الرزاق الذي يُطعِم ولا يُطعَم، والذي يملك أن يعذب من يشاء، وأن يعفو عمن يشاء، ويملك الخير والضر، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، وعلى كل شيء قدير.

ثم تستعرض الآيات تأكيد الله - تعالى - على صدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - وتطالبه بإعلان يقينه بوحدانية الله سبحانه وتعالى والمفاصلة العامة مع المشركين فتقول: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ **[الأنعام: 19]**.

وتؤكد الآيات في سورة الأنعام أن أهل الكتاب يعرفون أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، تماماً كما يعرفون أبناءهم، وعلى الرغم من ذلك فهم ينكرونه ويتطاولون عليه، انطلاقاً من استكبارهم، وظلمهم لأنفسهم، وإصرارهم على الضلال والخسران المبين، وافترائهم الكذب على الله، وتكذيبهم بآياته، وهو من أبشع صورة الظلم للنفس. وتشير الآيات إلى مواقف الحسرة والذلة والمهانة التي سوف يقفونها في يوم القيامة وهم يسألـون: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: 22-23].

وتذكر السورة الكريمة أن من الكفار والمشركين من يستمع إلى القرآن الكريم بآذان صم، وقلوب عمي، فلا يفقهون شيئاً منه، ولا يدركون جانباً من جوانب إعجازه، فيصفونه زوراً بأنه من أساطير الأولين، ولذلك ينهون غيرهم عنه، وينأون بأنفسهم هروباً منه، فيهلكون في الدنيا والآخرة وهم لا يشعرون.

وتصور الآيات في سورة الأنعام حال الكفار والمشركين في الآخرة، وهم موقوفون على النار، نادمين على ما سبق منهم من تكذيب بآيات الله - تعالى -، حاملين أوزارهم على ظهورهم، راجين منه ردهم إلى الدنيا لكي يكونوا من المؤمنين به وبآياته، وترد عليهم بقول الحق - تبارك وتعالى - وهو أعلم بهم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: 28].

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى مواساة رسول الله ﷺ في تكذيب الكفار والمشركين لبعثته الشريفة، وتطاولهم على شخصه الكريم فتقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: 33-34].

وتستمر الآيات في استعراض بعض طبائع النفس البشرية في الإقبال على الله - تعالى - في الشدائد والمحن، ثم العودة إلى معصيته بمجرد كشف الضر عنهم، وإلى إنكار الحق، والجور على الخلق، وقد قست قلوبهم وتحجرت مشاعرهم.

كذلك تصف الآيات في سورة الأنعام حال كثير من الكفار والمشركين وقد فتح الله تعالى عليهم أبواب كل شيء في زمن الانفجار المعرفي الذي نعيشه حتى فرحوا به

فتقول: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44].

وعلى الرغم من كل ذلك التهديد والوعيد فإن الآيات في هذه السورة المباركة تبشر التائبين الصادقين في توبتهم بأن الله غفور رحيم، وهو العالم بالغيوب والأسرار، وبالأنفاس والأعمار، والمهيمن على الوجود كله، في البر والبحر، وبالنهار والليل، وفي كل زمان ومكان.

كذلك تصف الآيات في سورة الأنعام حال كل من الكفار والمشركين في لحظة الاحتضار، وما يتعرضون له فيها من مهانة وإذلال فتقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93].

ثم تعاود الآيات في هذه السورة المباركة إلى الاستدلال على ألوهية الخالق ﷻ وربوبيته، ووحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه، وإلى تنزيهه - تعالى - عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله فتقول: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: 101-103].

وتذكر الآيات أن مشركي مكة طالبوا رسول الله ﷺ ببعض المعجزات الحسية للتدليل على صدق نبوته، وترد عليهم بأنهم قد عميت بصائرهم، وأمثالهم لا تفيدهم المعجزات الحسية بشيء إذا أنزلت عليهم لتأصل الضلال في نفوسهم.

وتعاود الآيات إلى التذكير بأن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن الكريم هو كلام الله، ولكنهم يصرون على الضلال، وترد عليهم على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فتقول: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: 114-115].

ثم تفصل الآيات في سورة الأنعام ما أحل الله - تعالى - وما حرم من الطعام، وتأمر بترك ظاهر الإثم وباطنه، وتُمايز بين أهل الضلال وأهل الهداية قائلة: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن

يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:125].

وتذكر الآيات في سورة الأنعام بأن من الناس من شرح الله - تعالى - صدورهم للإيمان، وأنار قلوبهم بنور اليقين؛ فاهتدوا وهدوا، وأن منهم من أتبع نفسه هواها، وباعها لشياطين الإنس والجن؛ فضلَّ وأضل، وغوى وما اهتدى..!!

وتؤكد الآيات أن الله - جلت قدرته - سوف يحشر الخلائق إليه يوم القيامة وسوف يحاسبهم ويجازي كلاًّ على عمله في الحياة الدنيا.

وتشير الآيات إلى أن المشركين من أهل الكتاب قد حرَّموا على أنفسهم ما لم يحرمه الله - تعالى - تطاولاً، وتجاوزاً وكفراً، وذلك لأن التحليل والتحريم بيد الله وحده، وأن من يفعل ذلك من عباد الله فقد كذب على الله - تعالى - ونسب إليه ما لم يشرع، وظلم نفسه ظلماً كبيراً.

وتأمر الآيات في سورة الأنعام رسول الله ﷺ أن يبين للناس ما أحل الله لهم وما حرم عليهم من المطاعم مؤكدة أنه تعالى هو الذي ينبت الزرع، ويخرج الثمار المتعددة الأشكال والألوان والطعوم ويأمر بالأكل منها، وبإعطاء حقها يوم حصادها دون إسراف لأن الله - تعالى - لا يحب المسرفين، وأن الله أنزل ثمانية أزواج من الأنعام - ذكراً وأنثى من كلٍّ من الضأن والمعز والإبل والبقر - وهي مما أحلَّ تعالى لعباده من المطاعم.

ثم تنتقل الآيات إلى الأمر بعدد من الوصايا السلوكية الرفيعة، تحرم ما حرم الله، وتحل ما أحله، بغير تقصير أو تجاوز أو مخالفة، داعية إلى الالتزام بمكارم الأخلاق، وبسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مؤكدة أن التكذيب بآيات الله والإعراض عنها هو من أبلغ صور الظلم للنفس الإنسانية، وأن الله - تعالى - سيجزي الذين يصدفون عن آياته سوء العذاب بما كانوا يصدفون، ومنددة بالذين حرفوا دينهم من أهل الكتاب وصاروا شيعاً فتقول موجهة الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159].

وتختتم سورة الأنعام بثلاثة أوامر من الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - تلخص بعثته الشريفة، والأوامر الإلٰهية إليه ﷺ هي

أوامر من الله - تعالى - إلى كل من آمن به، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: 161 - 165].

من ركائز العقيدة في سورة «الأنعام»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً فرداً صمداً، بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، وتنزيهه ﷻ عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، واليقين بأنه - تعالى - خالق السمٰوات والأرض، وخالق كل شيء، وخالق الإنسان من طين، وهو رب كل شيء ومليكه، مبدعه وقيومه، جاعل الظلمات والنور، والظل والحرور، هو مالك الملك، ومحصي أعمال الخلق، محدد الأرزاق والآجال، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، منزل الخير وكاشف الضر، القاهر فوق عباده، الذي يُطعمُ ولا يُطعَمُ، السميع العليم، والغفور الرحيم، البر الودود، والباعث الشهيد، الحكيم الخبير، والغني القادر، الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، العليم بالسر والعلن وبكل ما تخفي الصدور، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، عالم الغيب والشهادة، فالق كل من الإصباح، والحب والنوى، مخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، وهو خير الفاصلين، سريع العقاب، ولا يرد بأسُهُ عن القوم المجرمين، ومنزل الكتاب، ومجري السحاب، ومرسل الأنبياء والمرسلين لينذروا الناس بيوم الدين، وهذه بعض صفات الخالق العظيم التي جاءت في ثنايا سورة الأنعام.

2 - التصديق بملائكة الله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وتتويج ذلك كله بالإيمان بالرسالة الخاتمة التي بعث بها النبي والرسول الخاتم ﷺ الذي تكاملت ببعثته كل رسالات السماء ولذلك تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظها تعهداً مطلقاً حتى تبقى حجة لله - تعالى - على خلقه أجمعين إلى يوم الدين.

3 - الإيمان بالغيب الذي أخبر به القرآن الكريم، والرسول الأمين دون الخوض في

تفاصيله بغير علم، وذلك لأن عالم الغيب يختلف في طبيعته وقوانينه وسننه عن عالم الشهادة الذي نعيشه في هذه الحياة الدنيا.

4 - التسليم بحتمية الآخرة وضرورتها، وبكل ما ورد ذكره عنها في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة من البعث، والحشر، والحساب، والجزاء، والميزان، والصراط، والجنة، والنار، وبأن الآخرة خلود بلا موت. ومن هنا تصفها سورة الأنعام بأنها خير للذين يتقون، بينما تصف الدنيا بأنها لهو ولعب.

5 - اليقين بأن من عمل سوءاً بجهالة من عباد الله المؤمنين ثم تاب من بعد ذلك فإن الله غفور رحيم.

6 - التصديق بأن الله - تعالى - يجازي الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف وإلى ما فوق ذلك لمن يشاء، ولا يجازي السيئة إلا بمثلها.

7 - التسليم بأن المشرع للعباد هو الله - تعالى - وأن التحليل والتحريم هو حق من حقوقه لا يجوز أن ينازعه فيه منازع من خلقه.

من التشريعات الإلٰهية في سورة «الأنعام»:

(أ) حرّم ربنا - تبارك وتعالى - في سورة الأنعام كلاًّ مما يلي:

1 - الشرك بالله.

2 - قتل الأولاد من إملاق (أي من الفقر).

3 - قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق.

4 - أكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده.

5 - أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، وما أهل لغير الله به.

6 - أكل أي من الميتة أو الدم أو لحم الخنزير، إلا من اضطر غير باغ ولا عاد.

7 - الاقتراب من الفواحش - ما ظهر منها وما بطن -.

8 - افتراء الكذب على الله، من مثل الادعاء الباطل بالقدرة على الإتيان بشيء من مثل القرآن الكريم، أو بتلقي من الوحي ممن هم ليسوا بأنبياء ولا بمرسلين، ومن كل من جاء بعد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

(ب) أمر ربنا - تبارك اسمه - في سورة الأنعام بما يلي:

1 - التزام صراط الله المستقيم.

2 - إقام الصلاة.

3 - إيتاء الزكاة.

4 - تقوى الله - تعالى - ومراقبته في كل الأحوال.

5 - الإحسان إلى الوالدين.

6 - توفية كلٍّ من الكيل والميزان بالقسط (أي بالعدل).

7 - العدل في القول، والإخلاص في العمل، والوفاء بعهود الله.

من القصص القرآني في سورة «الأنعام»:

1 - جاء في سورة الأنعام ذكر كل من أنبياء الله ورسله: نوح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسى وهارون، زكريا، يحيى، عيسى، إلياس، اليسع، ويونس - على نبينا وعليهم وعلى أنبياء الله جميعاً السلام - كما جاء ذكر تفاعل أممهم معهم، ورفض أغلب هذه الأمم لرسالة ربها، وجحود آلائه ونعمه وآياته، ومقاومة أنبيائه ورسله، على الرغم من علمهم بما أصاب الأمم العاصية من قبلهم من مختلف صور الهلاك والدمار.

2 - أكدت سورة الأنعام كما أكدت سور أخرى غيرها من سور القرآن الكريم أن غالبية أهل الكتاب قد انحرفوا عن منهج الله، وكذبوا عليه؛ فحرم الله - تعالى - عليهم كثيراً من أطايب الطعام.

3 - كذلك أكدت هذه السورة المباركة تكامل رسالات السماء في بعثة سيدنا محمد ﷺ الذي بعثه الله - تعالى - لأهل الأرض جميعاً لينذر أم القرى ومن حولها؛ وذلك لثبوت توسط مكة المكرمة من اليابسة بالكامل.

من الآيات الكونية في سورة «الأنعام»:

1 - التأكيد على أن الله - تعالى - هو الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور، وأنه خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل.

2 - الإشارة إلى أن الله - تعالى - خلق الإنسان من طين، وحدد الآجال لكل شيء.

3 - ذكر أن الله - تعالى - خلق من الخلق ما يسكن بالليل، وما يسكن بالنهار.

4 - الإشارة إلى تقسيم الأحياء إلى أمم من أمثال البشر.

5 - الإنباء من قبل ألف وأربعمئة سنة بضلال أغلب الخلق عن طريق الحق، وبأن الله - تعالى - سوف يفتح أبواب كل شيء أمام هذا الإنسان الضال من مثل ما هو حادث اليوم في مجال العلوم البحتة والتطبيقية في الدول الصناعية، وأن ذلك سوف يكون من علامات الآخرة.

6 - التأكيد على أن مفاتح الغيب عند الله - تعالى - وحده، ولا يعلمها إلا هو الذي يعلم كل شيء.

7 - إثبات أن الله - تعالى - خلق السمٰوات والأرض بالحق أي حسب قوانين ثابتة محددة.

8 - الإشارة إلى توسط مكة المكرمة من اليابسة.

9 - التأكيد على أن الله - تعالى - هو فالق الحب والنوى، وأنه - تعالى - هو الذي يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي.

10 - التأكيد على أن الله - تعالى - هو فالق الإصباح، وهو الذي جعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً.

11 - الإشارة إلى أن الله - تعالى - هو الذي جعل النجوم للناس ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر.

12 - التأكيد على أن الله - تعالى - أنشأ الناس جميعاً من نفس واحدة، وجعل الشيفرة الوراثية لهذه النفس الأولى مستقراً ومستودعاً للشيفرات الوراثية الخاصة بكل فرد من أفراد جميع الخلق الذين يملأون جنبات الأرض اليوم، والذين عاشوا من قبل وماتوا إلى زمن أبينا آدم عليه السلام، والذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة.

13 - الإشارة إلى دورة الماء حول الأرض بذكر إنزال الماء من السماء، وأن الله - تعالى - أخرج به نبات كل شيء.

14 - ذكر إنبات الحب المتراكب في ثمار النبات من المادة الخضراء إشارة إلى عملية التمثيل الضوئي.

15 - الإشارة إلى طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق فيما أبدعته من إنتاج القنوان الدانية من طلع النخل، وإنتاج جنات من الأعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه، والأمر بالنظر إلى ثمره إذا أثمر وينعه.

16 - التأكيد على أن الله - تعالى - ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103]. والمنطق السوي يقدر أن الخالق لا بد وأن يكون مغايراً لجميع خلقه.

17 - تحريم أكل كل ما لم يذكر اسم الله عليه.

18 - الإشارة إلى ما يصيب الذي يتصعد في السماء من بني الإنسان بغير وقاية من أمراض الفضاء.

19 - وصف طلاقة القدرة الإلٰهية في إنشاء جنات معروشات وغير معروشات، والنخل والزرع مختلفاً أكله، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه.

20 - تحريم أكل الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، واعتباره فسقاً أُهِلَّ لغير الله به، إلا من اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم.

21 - تقرير أن الله - تعالى - قد جعل الناس خلائف الأرض، ورفع بعض الناس فوق بعض درجات ليبلوهم فيما آتاهم.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الثانية عشرة من القائمة السابقة، وقبل مناقشة الدلالات العلمية لها أرى ضرورة استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح الآية القرآنية رقم (98) من سورة الأنعام.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله - تعالى-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98].

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما نصه: يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98] يعني: آدم عليه السلام، كما قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: 1]. وقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ اختلفوا في معنى ذلك:

فعن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي عبد الرحمٰن السلمي، وقيس بن أبي حازم ومجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخعي، والضحاك وقتادة والسُّدِّي، وعطاء الخراساني: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أي: في الأرحام قالوا - أو: أكثرهم -: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: في الأصلاب. وعن ابن مسعود وطائفة عكس ذلك. وعن ابن مسعود أيضاً وطائفة: فمستقر في الدنيا، ومستودع حيث يموت. وقال سعيد بن جُبَيْر: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الأرحام وعلى ظهر الأرض، وحيث يموت. وقال الحسن البصري: المستقر الذي قد مات فاستقر به عمله. وعن ابن مسعود: ومستودع في الدار الآخرة. والقول الأول هو الأظهر، والله أعلم. وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98] أي: يفهمون ويَعُون كلام الله ومعناه.

● وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما مختصره: «إنها اللمسة المباشرة في هذه المرة.. اللمسة في ذات النفس البشرية، النفس البشرية الواحدة الموحدة الكنه والحقيقة في الذكر والأنثى.. تبدأ الحياة فيها خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة، فنفس هي مستودع لهذه الخلية في صلب الرجل، ونفس هي مستقر لها في رحم الأنثى.. ثم تأخذ الحياة في النمو والانتشار، فإذا أجناسٌ وألوان، وإذا شيات ولغات، وإذا شعوب وقبائل، وإذا النماذج التي لا تحصى، والأنماط التي ما تزال تتنوع ما دامت الحياة. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 97] فالفقه هنا ضروري لإدراك صنع الله في هذه النفس الواحدة، التي تنبثق منها النماذج والأنماط، ولإدراك الموافقات العجيبة الكامنة وراء اتخاذ التلاقح وسيلة للإكثار وتوفير الأعداد المناسبة دائماً من الذكور والإناث - في علم الإنسان - لتتم عملية التزاوج التي قدر الله أن تكون هي وسيلة الإخصاب والإكثار، ووسيلة تنشئة الأطفال في ظروف تحفظ (إنسانيتهم) وتجعلهم أكفاء للحياة (الإنسانية).

● وذكر صاحب «صفوة البيان لمعاني القرآن» رحمه الله ما نصه: ﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98] من آدم عليه السلام، وهو تذكير بنعمة أخرى، فإن رجوع الناس جميعاً إلى أصل واحد أدعى إلى التواد والتراحم. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فلكم موضع استقرار في الأرحام، وموضع استيداع في الأصلاب. وقرئ (مُسْتَقِرٌّ) بكسر القاف، أي فمنكم مستقر في الأرحام».

● وذكر أصحاب «المنتخب في تفسير القرآن الكريم» - جزاهم الله خيراً - ما نصه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، هو أبو البشر آدم، وآدم من الأرض، فالأرض مكان

استقراركم مدة حياتكم، ومستودع لكم بعد موتكم وتغييبكم في بطنها، وقد بينا دلائل قدرتنا لقوم يدركون ويفهمون الأشياء على وجهها».

● وجاء في «صفوة التفاسير» - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: أي خلقكم وأبدعكم من نفس واحدة هي آدم عليه السلام. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: قال ابن عباس: المستقر في الأرحام، والمستودع في الأصلاب؛ أي لكم استقرار في أرحام أمهاتكم وأصلاب آبائكم. وقال ابن مسعود: مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها..».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾

هذا النص القرآني الكريم الذي أنزل من قبل أربعة عشر قرناً يشير إلى حقيقة علمية لم تدرك المعارف المكتسبة شيئاً عنها إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ألا وهي حقيقة توارث الصفات من الوالدين وأسلافهما إلى الوالدين الأولين آدم وحواء عليهما السلام وذلك لأن الله - تعالى - أعطى لحاملات الصفات الوراثية في الخلية الحية (الصبغيات) القدرة على الانقسام وتكرار ذاتها باستمرار، وإذا عدنا بعملية الانقسام هذه إلى الوراء مع الزمن فإن بلايين البشر الذين يملأون جنبات الأرض اليوم، والبلايين التي عاشت من قبل وماتت، وكل من سيأتي من بعدنا إلى قيام الساعة ينتهي نسبهم إلى أب واحد هو آدم عليه السلام وأم واحدة هي حواء - عليها رضوان الله -، ولما كان الله - تعالى - قد قدر خلق كل شيء في زوجية كاملة حتى يبقى - سبحانه - متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، أطلق على هذا الزوج الأول من البشر اسم (النفس) فقال - عز من قائل -: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام:98].

وقال في مطلع سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

وقال - تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189].

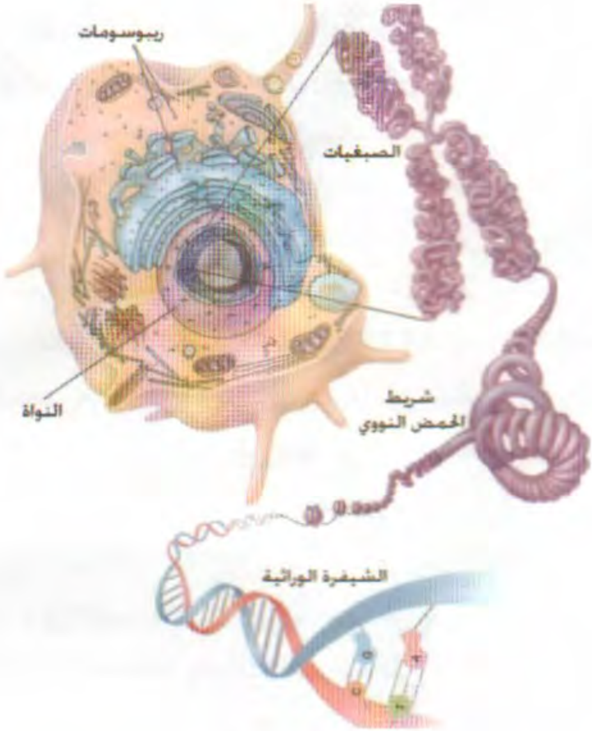

رسم يبين شريط الشيفرة الوراثية داخل الخلية.

وقال ﷻ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: 28].

وقال - وقوله الحق -: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: 6].

وقال في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: 72].

ونحن لا نعلم كيف تم خلق أمنا حواء - عليها رضوان الله - من النفس الواحدة التي خلق الله - تعالى - منها أبانا آدم عليه السلام مع تسليمنا بأن الله تعالى على كل شيء قدير، لكن قد يفيد في فهم ذلك أن النطف الذكرية (الحيامن) تحمل الصبغيين: (X) الذي يحمل شارة التأنيث، (Y) الذي يحمل شارة التذكير، بينما النطف الأنثوية (البييضات) تحمل الصبغيين (X) (X) اللذين يحملان شارة التأنيث، وفصل هذين الصبغيين المؤنثين من صبغيات الرجل ليس بالأمر المستبعد، ولذلك قال ربنا - تعالى -: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: 7 - 8].

ونزول قوله – تعالى –: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الأنعام: 98] في زمن سيادة الاعتقاد بأن الجنين البشري إنما يتكون من ماء الرجل فقط، أو من دم الحيض فقط، وأن الجنين الجاهز في ماء الرجل ينعقد في رحم المرأة، أو أنه يتخلق من دم الحيض ودور ماء الرجل هو عقده وتحويله كما نادى أرسطو، وتبعه في ذلك كثيرون، واستمر الجدل بين أنصار فكرة الجنين الكامل المتقزم الموجود في ماء الرجل فقط، وأنصار فكرة هذا القزم متناهي الضآلة في دم الحيض فقط حتى مطالع القرن العشرين على الرغم من اكتشاف كل من نطفة الذكر (الحيمن) في سنة (1677م) (Hamm and Leeuwenhoek 1677) بعد تصنيع المجهر، ونطفة الأنثى (البييضة) في سنة (1827م) (von Baer 1827) في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بواسطة كل من «سبيللانزاني» و«وولف» (Spallanzani and Wolff)، ولم يتم قبول ذلك إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي بواسطة كل من «هيرتويج وفان بنيدن» (Hertwig, 1875 and Van Beneden, 1883).

وفي نفس الفترة تقريباً من أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وضع «مندل» (Mendel, 1866) بدايات التعرف على قوانين الوراثة باقتراح أن الصفات تنتقل من جيل من النباتات إلى جيل آخر عبر عوامل متناهية الضآلة في الحجم عرفت فيما بعد باسم المورثات (Genes).

وفي أوائل القرن العشرين أثبت «مورجان» (Morgan, 1912,1926) أن المورثات توجد على عدد من الجسيمات الخيطية متناهية الضآلة في الحجم بنواة خلية ذبابة الفاكهة سماها باسم «الجسيمات الصبغية» أو «الصبغيات» (Chromosomes) التي اكتشف من بينها الصبغي المختص بعملية التكاثر (The Reproductive Chromosome)، واقترح فكرة التخطيط الوراثي للكائنات الحية.

وفي سنة (1955م) أمكن التعرف على التركيب الجزيئي للحمض النووي الذي تكتب به الشيفرة الوراثية والمعروف بالرمز (DNA) (Watson, Crick & Wilkins, 1955).

وظلت دراسات الوراثة تتسارع في تكامل مبهر حتى تم الإعلان في (26/ 6/ 2000م) عن إتمام القراءة المبدئية للشيفرة الوراثية للإنسان التي استكملت بنهاية عام (2003م).

وقد أثبتت دراسات الوراثة البشرية أن الحمض النووي الذي تكتب به الشيفرة الوراثية يتطابق تركيبه الكيميائي بين البشر جميعاً بنسبة (99,9%), ومن طلاقة القدرة الإلهية المبدعة أن تعطي لكل فرد من بلايين البشر بصمة وراثية مميزة له من الفارق في تركيب

الحمض النووي الذي لا يتعدى (0,1 %)، وهذا مما يشير إلى الأصل الواحد لجميع البشر، ثم كان في إثبات انقسام الصبغيات باستمرار لتكرار ذاتها ما يرجع البشر جميعاً إلى شيفرة وراثية واحدة كانت في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه.

من هنا كان في هذا النص القرآني الكريم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ...﴾ سبقاً علمياً لجميع المعارف المكتسبة بأكثر من اثني عشر قرناً على أقل تقدير.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿... فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ...﴾

تتخلق النطف بعملية انقسام خاصة للخلايا تعرف باسم عملية الانقسام الانتصافي (**MeiosiS**) تتم في داخل الغدد التناسلية لكلٍّ من الرجل والمرأة، وإذا عدنا بعملية الانقسام الانتصافي تلك إلى الوراء مع الزمن ينتهي البشر جميعاً - الذين عاشوا وماتوا والذين يملأون جنبات الأرض اليوم والذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة - في مجموعة من النطف التي خلقها ربنا - تعالى - في جسدي أبوينا آدم وحواء عليهما السلام.

وعملية الانتصاف في انقسام الخلايا تقوم بها الصبغيات حاملات الوراثة، ولو عدنا بهذه العملية إلى الوراء مع الزمن فإن جميع صفات البشر من لدن أبوينا آدم وحواء إلى قيام الساعة كانت في شيفرة وراثية واحدة أودعها الخالق تعالى في صلب أبينا آدم عليه السلام.

وهذه الشيفرة الوراثية الأولى التي تجمع صفات الخلق أجمعين والتي انفرد منها كل بني آدم بعملية انقسام الصبغيات انقساماً انتصافياً - ولا يزالون يتفردون إلى يوم الدين - لعلها هي المقصودة بتعبير (المستودع) في هذا النص القرآني الكريم، ويسميها علماء الوراثة باسم «بِرْكة الوراثة الإنسانية» (**The Human Genetic Pool**) والتي لا يزال جزء منها مستمراً في جسد كل إنسان إلى اليوم وحتى آخر طفل بشري.

أما (المستقر) فهو ذلك المكان المعجز الذي أودعه الخالق تعالى القدرة على تخليق خلايا التكاثر، والذي يعرف باسم الغدد التناسلية (**Gonads**).

ويتم تخلق النطف الذكرية (**Spermatogenesis**) في داخل الغدتين التناسليتين للرجل، وتتكون كل واحدة منهما من حوالي أربعمئة من الفصوص، يحوي كل واحد منها ثلاثة من الأنابيب المنوية الدقيقة التي يبلغ طول كل منها حوالي نصف متر. وهذه الأنابيب متعرجة، وملتفة حول ذاتها بطول يتعدى نصف كيلو متر في المتوسط.

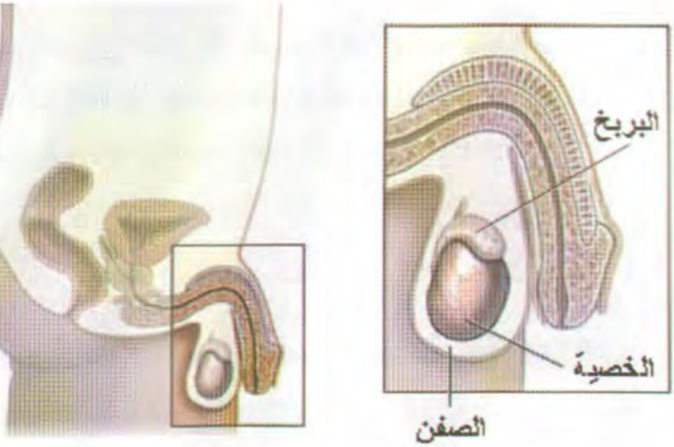

رسم تشريحي يبين موقع البربخ حيث تختزن النطف الذكرية.

(400 فص (X) 3 أنابيب (X) 2/ 1متر = 600 متر)

وهذه الأنابيب مكدسة في حيز لا يزيد على بضعة سنتيمترات مكعبة لتكوّن ما يعرف باسم البربخ (**Epididymis**) الذي يقع في أعلى الخصية من الخلف، والذي تختزن فيه النطف الذكرية بمئات الملايين حتى تمام تخلقها.

أما تخلق النطف الأنثوية (**Oogenesis**) فيبدأ وهي في بطن أمها، ويبلغ عددها قرابة مليوني نطفة، ويتناقص هذا العدد عند البلوغ إلى ما بين ثلاثمئة ألف وأربعمئة ألف تختزن في كل من المبيضين تحت غطاء خاص.

ولعل هذا الحفظ للنطف في كل من البربخين والمبيضين هو المقصود بتعبير ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: 98] الذي جاء في هذا النص الكريم الذي ختم بقوله ربنا - تبارك وتعالى - : ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98].

وهذا السبق القرآني بهذا العدد من الحقائق العلمية التي لم تتوصل إليها المعارف المكتسبة إلا في القرن العشرين هو من الأدلة القاطعة بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على الخلق أجمعين إلى يوم الدين، وحجة لله على عباده، وشهادة للرسول الخاتم بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

22 - ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾ [الزمر: 62]

هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع الخمس الأخير من سورة «الزمر»، وهي سورة مكية، وآياتها خمس وسبعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم للإشارة فيها إلى سَوق المجرمين من الكفار والمشركين في يوم القيامة إلى جهنم زمراً، وإلى سوق المتقين من المؤمنين الموحدين إلى الجنة زمراً. ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، شأنها في ذلك شأن كل السور المكية، وقد سبق لنا استعراض هذه السورة المباركة وما جاء فيها من ركائز العقيدة، والإشارات الكونية، في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم (6) ولذلك سوف نركز هنا على الدلالات العلمية للنص القرآني وقبل الوصول إلى ذلك أرى ضرورة استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح قضية التأكيد على أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، وأنه على كل شيء وكيل.

من أقوال المفسرين:

على الرغم من ضخامة دلالتها، فإن المفسرين قد أوجزوا في شرح هذه الآية الكريمة إيجازاً كبيراً. ففي شرح قوله - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62].

ذكر ابن كثير رحمه الله ما نصه: أنه خالق الأشياء كلها، وربها، ومليكها، والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره، وقهره، وكلاءته . . .

وجاء في تفسير الجلالين - رحم الله كاتبيه - ما نصه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: 62] أي يتصرف فيه كيف يشاء.

وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما نصه: هذا القطاع الأخير في السورة يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذي خلق كل شيء، المالك المتصرف في كل شيء، فتبدد دعوة المشركين للنبي ﷺ إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم في مقابل أن يشاركوه عبادة إلٰهه!! تبدو هذه الدعوة مستغربة، والله هو خالق كل شيء، وهو المتصرف في ملكوت السمٰوات والأرض بلا شريك، فأنى يعبد معه غيره، وله وحده مقاليد السمٰوات والأرض؟!.

وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم - جزى الله كاتبيه خيراً - ما نصه: الله خالق كل شيء - وهو وحده - على كل شيء وكيل، يتولى أمره بمقتضى حكمته.

وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ أي الله جل وعلا خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات، والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إلٰه غيره، ولا رب سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ أي: هو القائم على تدبير كل شيء.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

تنص هذه الآية الكريمة على أن كل ما في الوجود بوجهيه من عالم الغيب وعالم الشهادة هو من خلق الله الذي خلقه بعلمه وحكمته وقدرته، ويرعاه برعايته ورحمته التي لو تخلت عن الوجود طرفة عين أو أقل من ذلك لانهار وانتهى. ومن مخلوقات عالم الغيب أخبرنا القرآن الكريم عن الملائكة والجن، ومن مخلوقات عالم الشهادة أعلمنا بكلٍّ من الإنسان والحيوان والنبات (من الأحياء)، وبمختلف صور المادة والطاقة (من الجمادات)، ومن الأماكن والأزمنة وهي من أبعاد الوجود المادي. وعملية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان، عملية غيبية، لم يشهدها الإنسان ولذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - في محكم كتابه: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: 51].

على الرغم من ذلك يقول ربنا - عز من قائل -: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ

بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20].

وبالجمع بين هاتين الآيتين الكريمتين يتضح لنا أنه على الرغم من أن الإنسان لم يشهد عملية الخلق لأنها سابقة لوجوده، إلا أن الله - تعالى - قد ترك لنا في صخور الأرض، وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان المؤمن بالله على الوصول إلى تصور صحيح عن كيفية الخلق. أما غير المؤمن فيرى الشواهد الحسية ويلمسها بيديه ولكنه في محاولة نسبة الخلق إلى غير الله فإنه يتوه في سيل من الفروض والنظريات التي تحيد به عن الحق، ولا توصله إلى شيء. ولذلك جاء التأكيد في هذه الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62]. وفي العديد غيرها من الآيات القرآنية على حقيقة الخلق حتى لا يتوه المؤمنون في متاهات الضالين من الكفار والمشركين الذين ضلوا وأضلوا البشرية حتى في زمن العلوم والتقنية الذي نعيشه. من هنا جاء الفعل خلق بمشتقاته المختلفة 252 مرة في القرآن الكريم، مؤكداً أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء.

متاهة الكافرين في قضيتي قدم الكون وتدرج عمارة الأرض بالحياة في محاولة لنفي الخلق وإنكار الخالق

ادعى الكافرون منذ القدم بأزلية العالم، وجاءت الكشوف العلمية المثبتة لقدم الكون، وقدم الحياة على الأرض فتصور الملحدون في ذلك دعماً لدعواهم.

كذلك جاءت عملية اكتشاف التدرج في الخلق ابتداء من خلق اللبنات الأولية للمادة، إلى خلق كلٍّ من الجمادات والنباتات والحيوانات حتى توجت الحياة بخلق الإنسان ذلك المخلوق المكرم كما وصفه الحق - تبارك وتعالى -، جاءت تلك الكشوف فتخيل فيها الكافرون دعماً لدعواهم الباطلة بعشوائية الخلق مما لايقوم عليه دليل واحد. فربنا سبحانه وتعالى خلق الخلق كله على مراحل متطاولة - وهو القادر على أن يقول للشيء كن فيكون - وذلك لسببين واضحين:

أولهما: أن الله - تعالى - قد أراد بذلك أن يتيح للإنسان المتدبر في الكون الفرصة الكافية لفهم سنن الله الحاكمة للوجود كله حتى يتمكن من حسن توظيفها في عمارة الأرض، كما يتمكن من أن يرى من خلالها شيئاً من قدرة الخالق العظيم، وعلمه، وحكمته، فيسجد له بالعبادة والطاعة، ويرى الوحدة في بناء الكون وهي الناطقة

بوحدانية الخالق العظيم، كما يرى الزوجية في جميع المخلوقين من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان شاهدة لله الخالق بكمال الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، تلك الوحدانية التي لاينازعه فيها منازع، ولا يشاركه شريك، فالجميع إبداع خلقه، وتمام صنعته، فكيف يجرؤ أحدهم على أن يتطاول إلى مقام الألوهية؟ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73].

ثانيهما: أن الزمن إذا كان حداً من حدود الإنسان، ومن حدود غيره من المخلوقات، فهو من خلق الله، والمخلوق لا يحد الخالق أبداً، فمهما يتطاول الزمن فهو بين أصبعين من أصابع الله - تعالى - يتحكم فيه كيف يشاء. وبدلاً من فهم القضية في هذا الإطار اندفع دعاة المادية إلى الافتراض الخاطئ بنفي الخلق، وإنكار الخالق ﷻ بدعوى أزلية الخلق، أو عشوائيته، وهما افتراضان يتعارضان مع جميع الملاحظات العلمية الدقيقة في صخور الأرض، وفي صفحة السماء، ومن هنا جاءت الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها، كما جاء غيرها من مئات الآيات شاهدة بأن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، مما يتنافى مع الادعاء بأزلية الوجود أو العشوائية في الخلق.

قِدَم الكون وانتفاء أزليته وأبديته يؤكدان حقيقة خلق الأجسام الباردة، ولو كان الكون أزلياً كما يدعي المبطلون لتساوت حرارة جميع الأجسام فيه وانتهى وجوده منذ زمن بعيد، واستمرار الكون في التواجد مع استمرار الانتقال الحراري ينفي أزليته، كما ينفي أبديته، ويؤكد أنه مخلوق، مستحدث، له في الأصل بداية يقدرها العلماء اليوم بأكثر من عشرة بلايين من السنين (إلى حوالي أربعة عشر بليوناً من السنين) ولا بد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية لا يعلمها إلا الله الخالق ﷻ، وإن كانت السنن الحاكمة للكون اليوم تشير إلى حتمية وقوعها، ولا تحدد موعدها، ومن ذلك أن الشمس تفقد من كتلتها في كل ثانية على هيئة طاقة ما يعادل 4،6 مليون طن، وكما تفقد الشمس من كتلتها تفقد بقية النجوم، فكوننا حتماً إلى زوال في لحظة يحددها الخالق (جلّت قدرته) الذي أنزل لنا في محكم كتابه قوله الحق: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187].

الانفجار العظيم يؤكد حقيقة الخلق:

من الحقائق التي وصل إليها علماء الفلك منذ بدايات القرن العشرين حقيقة توسع الكون، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إليها وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47]. وقال علماء الفلك إننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء مع الزمن فلا بد من التقاء كل مادة الكون وطاقته مع المكان والزمان في جرم واحد يتضاءل في الحجم إلى حد العدم، ويتعاظم في كم المادة والطاقة إلى حد لا يكاد العقل البشري أن يتصوره. وأن هذا الجرم الابتدائي انفجر فتحول إلى سحابة من الدخان خلقت منها الأرض والسمٰوات، وقد سميت هذه النظرية باسم «نظرية الانفجار العظيم»، ومن شواهدها تمدد الكون، ومن شواهدها أيضاً وجود درجة حرارة ثابتة (حوالي 3 درجات مطلقة) على جميع أطراف الجزء المدرك من الكون، ومن شواهدها كذلك تصوير بقايا الدخان الكوني الأولي على أطراف الجزء المدرك من الكون. وعلى الرغم من معارضة عدد غير قليل من المتخصصين في مجال الفلك والفيزياء الفلكية لنظرية الانفجار العظيم، فإننا نحن معشر المسلمين نقبل هذه النظرية، ونرتقي بها إلى مقام الحقيقة لوجود إشارة لها في كتاب الله من قبل أربعة عشر قرناً يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30].

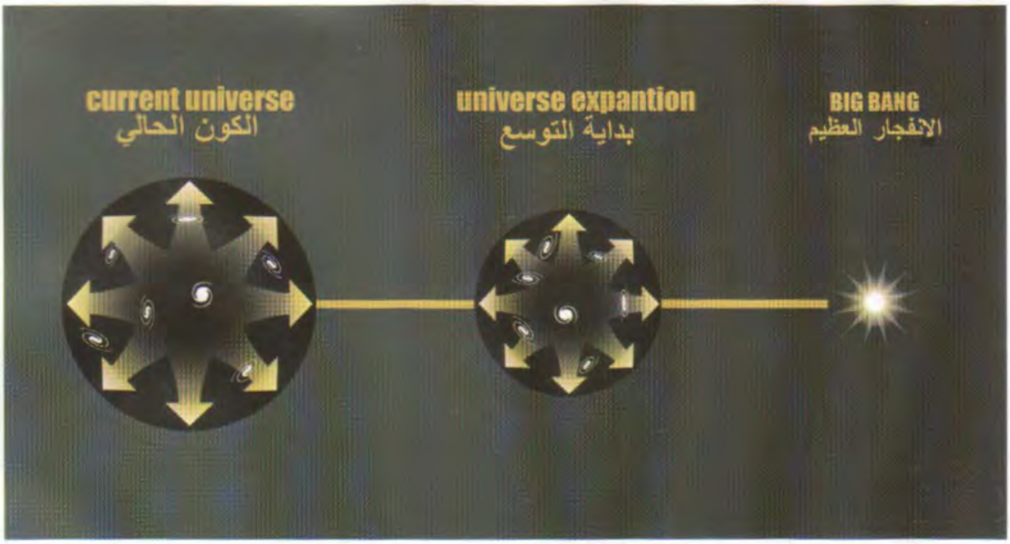

مجرة حلزونية تشبه مجرتنا «سكة التبانة».

وخلق الكون بعملية انفجار كبرى من أعظم الدلائل على الخلق والتدبير، لأنه من المعروف أن الانفجار بطبيعته يؤدي إلى بعثرة المادة وتناثرها، مخلفاً وراءه الدمار، أما عملية الانفجار الكوني فقد أدت إلى إبداع نظام له تصميم دقيق، محكم الكتل، والأحجام، والأبعاد، والمدارات، والسرعات، والعلاقات، وهذا النظام مبني على نسق واحد من أدق دقائقه إلى أعظم وحداته على الرغم من تعاظم أجرامه وأبعاده ووحداته وتجمعاته، وتعقد علاقاته. وانفجارٌ هذه نتيجته لا يمكن أن يكون قد تم بغير تدبير وتقدير بالغي الإحكام والإتقان، والإحاطة والقدرة لا يستطيعهما إلا الخلاق الحكيم العليم.

وجود المادة وأضدادها يؤكد على حقيقتي الخلق والتدبير:

منذ الربع الأول للقرن العشرين، وكل من الحسابات الرياضية والاكتشافات في صفحة السماء يؤكد حقيقة الزوجية في الخلق، فالضوء يتحرك أحياناً على شكل موجات وأحياناً أخرى على شكل جسيمات (فوتونات)، وهذه الزوجية في الخلق تتحقق أيضاً للمادة، فالجزء من المادة ليس نقطة هندسية ولكنه كيان ينتشر أيضاً في الفضاء على هيئة موجية. وقد أدت هذه الملاحظة إلى اكتشاف نقيض للإلكترون (أو قرينه)، وأن هذين النقيضين إذا التقيا فإن أحدهما يلغي الآخر أي يفنيه وينهي وجوده إلى العدم. ومعنى ذلك أن أية كمية محدودة من الطاقة يمكن أن تتجسد في جسيمين، أحدهما نقيض لصاحبه في كل صفاته، بمعنى أنه صورة طبق الأصل له ولكنه معكوس الصفات، وأن هذين النقيضين إذا التقيا فإنهما يفنيان معاً. والغريب في الأمر أن يكتشف في صفحة السماء المادة وأضدادها على مختلف المستويات من اللبنات الأولية للمادة إلى المادة ذاتـهـا: **Quarks and (Anti quarks) Neutrinos and (Antineutrinos) Electrons (Negatrons) and (Positrons) Protons and (Antiprotons) Neutrons and Antineutrons (Matter and Antimatter).**

ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية أن الكون قد بدأ بتركيز من المادة وأضدادها أي بدأ من العدم. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: من الذي فصل تلك الأضداد حتى يخلق الكون؟ ولا يمكن لعاقل أن يتصور ذلك بغير تقدير الخلاق العليم. وحتى بعد فصل الأضداد لكي يخلق الكون، يرى العلماء حتمية إفناء بعض تلك الأضداد للبعض الآخر،

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: ما هو الفاصل بين المادة وأضدادها في صفحة السماء الآن حتى يوجد الكون؟ ومن الذي وضعه؟ ولايزال يحفظه؟

والجواب الذي لا مفر منه هو: وضعه الخالق العظيم الذي يقول للشيء كن فيكون. وعلى ذلك فإن مراحل خلق الكون منذ لحظة الانفجار العظيم قد خططت لها العناية الإلٰهية بدقة فائقة في ضبط درجات الحرارة ومعدلات تخلّق الجسيمات الأولية للمادة، وسرعات الاتساع الكوني وغير ذلك من أمور، حتى وصل الكون إلى حالته الراهنة، ولا يمكن لكل ذلك أن يتم بغير خلق وتدبير من الله الخبير العليم.

خلق العناصر في داخل النجوم وفي صفحة السماء من أدلة الخلق والتدبير:

في دراسة للتركيب الكيميائي للجزء المدرك من الكون اتضح أن غالبيته غاز الإيدروجين الذي يشكل أكثر من 74% من مادة الكون المنظور، والإيدروجين هو أخف العناصر وأقلها بناء. ويلي غاز الإيدروجين كثرة في مادة الكون المنظور غاز الهيليوم الذي يكوّن 24% من مادة الكون المنظور (وهو العنصر الثاني في الجدول الدوري للعناصر). وقد دفعت هذه الملاحظة إلى الاستنتاج الصحيح أن جميع العناصر المعروفة (وهي أكثر من 105 عناصر) قد خلقت كلها من غاز الإيدروجين. وبدراسة أقرب النجوم إلينا وهي الشمس اتضح أن وقودها هو غاز الإيدروجين الذي تتحد أربع من نوياته (جمع مصغر نواة) لتكون نواة عنصر الهيليوم، وتنطلق الطاقة بعملية تسمى عملية الاندماج النووي، وعلى ذلك فالنجوم عبارة عن أفران ذرية كونية تتخلق بداخلها العناصر من نوى ذرات الإيدروجين حتى الحديد الذي لا تصله عملية الاندماج النووي إلا في آخر مراحل حياة النجوم العملاقة في لحظات انفجارها المعروفة باسم المستعرات العظمى، وبانفجار النجم تتناثر مكوناته من الحديد في صفحة السماء لتدخل في مجال جاذبية أجرام تحتاج الحديد، أو لتصطاد بعض اللبنات الأولية للمادة مكونة العناصر الأعلى في وزنها الذري. وهذه العملية وحدها كافية للتأكيد على حقيقة الخلق.

بناء الخلية الحية ينطق بحتمية الخلق والتدبير:

إذا علمنا أن عدد الأنواع الحية المعروفة لنا حتى الآن يتعدى المليون ونصف المليون نوع، وأن عدد الأنواع المندثرة والموجود لها بقايا على هيئة أحافير في صخور الأرض يتعدى الربع مليون نوع، وأن عدد الأنواع المتوقعة للحياة الأرضية في ضوء الاكتشافات

المعاصرة يصل إلى حوالي الخمسة ملايين نوع. وأن متوسط المدى الزمني للنوع الواحد من أنواع الحياة يتراوح بين نصف مليون سنة إلى خمسة ملايين من السنين، وقد يصل إلى عشرة ملايين من السنين، يمثل النوع خلالها بلايين الأفراد. وأن جسم الإنسان على سبيل المثال يتكون من ملايين ملايين الأنواع المختلفة من الخلايا.

وأن الخلية الحية الواحدة على قدر من التعقيد في البناء - على الرغم من ضآلة حجمها - يفوق كل ما حققه الإنسان من إنجازات تقنية فضلاً عن كل الذي فكر في تحقيقه ولم يتمكن من ذلك بعد. فالخلية الحية تتكون عادة من جدار حي (في كل من الإنسان والحيوان) مليء بالسائل الخلوي الهيولي (السيتوبلازم)، وبوسط هذا السائل توجد النواة، والسائل الخلوي معقد التركيب، وغير متجانس، ويتكون بشكل رئيس من البروتينات والدهون، والسكريات وبعض العناصر المختلفة، وهذا السائل توجد به أعداد من الجسيمات المتخصصة (العضيات) ويعمل كوسيط تمر من خلاله المواد والمركبات والأوامر من النواة إلى أي من هذه العضيات، ومن أي منها إلى عضي آخر، أو إلى خارج الخلية. ويفصل النواة عن السيتوبلازم غشاءان، والنواة تختزن معظم مادة الشفرة الوراثية للخلية الحية. أما الشبكة الأندوبلازمية فتربط بين الغشاء النووي والغشاء الخلوي، وهي شبكة معقدة تتصل بها حبيبات صغيرة تدعى الريبوسومات تقوم بتصنيع أكثر من مائتي ألف نوع من البروتينات التي تحتاجها الخلية الحية، حسب التعليمات التي تتلقاها من نواة الخلية، ومن العضيات ما يحمل الإنزيمات وهي مواد بروتينية تصنعها الريبوسومات وتساعد على هضم المواد الغذائية داخل الخلية، ومن العضيات ما يقوم بتحويل المواد العضوية إلى طاقة تحتاجها الخلية الحية في عدد من نشاطاتها المحددة.

وتختلف الخلية النباتية في أن جدارها مكون من مواد غير حية، وأنها تحتوي على البلاستيدات الخضراء (الخضور) وهي مادة لازمة لإتمام عملية التمثيل الضوئي.

والشفرة الوراثية تحملها جسيمات دقيقة في داخل نواة الخلية تعرف باسم الصبغيات، وعددها محدد لكل نوع من أنواع الحياة، والصبغيات تحمل المورثات (الجينات) التي تحمل صفات الفرد من هذا النوع، والتي تعطي الأوامر للخلية بالانقسام، والتمييز وتخليق الأنواع المختلفة من البروتينات، وعلى ذلك فالنواة هي مركز المعلومات للخلية. وتحاط النواة بغشاء يسمى الغلاف النووي، وتحتوي على مادة حبيبية دقيقة

تسمى البلازما النووية التي تحمل كلًّا من الصبغيات والنوية، وقد تكون النوية واحدة أو أكثر.

وإذا علمنا أن الخلية الحية قد أعطاها الخالق ﷻ القدرة على إنتاج مائتي ألف نوع من البروتينات التي يوجد منها أكثر من مليون نوع، وأن الجزيء البروتيني يتكون من سلاسل من جزيئات الأحماض الأمينية، وأن الأحماض الأمينية المعروفة والقادرة على بناء الجزيئات البروتينية هي عشرين حمضاً أمينياً، وأن هذه الأحماض مواد جامدة غير حية بذاتها، متبلورة سهلة الذوبان في الماء في أغلب الأحوال، وأن الحمض الأميني يتكون من ستة عناصر أساسية هي الكربون، الإيدروجين، والأوكسجين، النيتروجين، الكبريت، والفوسفور. وأن مجرد اختيار هذه العناصر الستة من بين أكثر من 105 عناصر معروفة لنا اليوم بالصدفة هو إحصائياً أمر مستحيل، وأن الأحماض الأمينية المناسبة لبناء الجزيء البروتيني لابد أن تكون من نوع خاص (ألفا)، وأن تكون الذرات مرتبة فيها حول ذرة الكربون ترتيباً يسارياً، وأن تترتب هي في الجزيء البروتيني ترتيباً يسارياً كذلك، وأن ترتبط برباط خاص يعرف باسم الرباط الببتيدي (**Peptide Bond**)، وأن هذه القيود تجعل من تكوين جزيء بروتيني واحد بمحض الصدفة أمراً مستحيلاً.

وإذا علمنا أن أبسط جزيء بروتيني يتكون من خمسين جزيئاً من جزيئات الأحماض الأمينية العشرين المعروفة بكل هذه القيود السابقة، وأن بعضها مكون من آلاف الجزيئات للأحماض الأمينية المرتبة ترتيباً محدداً، اتضح لنا بجلاء أن مجرد تكوّن جزيء بروتيني واحد بمحض الصدفة هو إحصائياً من مستحيل المستحيلات، ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة بهذا القرار الإلٰهي من قبل ألف وأربعمائة سنة لتريح هذه النفوس القلقة والعقول المضطربة بين العديد من النظريات التي طرحت كبدائل للخلق وانتهت كلها بالفشل الذريع.

فسبحان القائل: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: 62] وهو سبق علمي لكل المعارف البشرية، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي تلقى القرآن عن ربه فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فجزاه الله عنا خير الجزاء والحمد لله أولاً وآخراً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

23 - ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ [قٓ: 4]

تبدأ هذه السورة المباركة بالحرف الهجائي (قٓ)، والمقطعات تعتبر من أسرار القرآن الكريم التي أوكلها أغلب المفسرين إلى علم الله ﷻ وإن حاول البعض الاجتهاد في تفسيرها بما عرضناه في أكثر من مقال سابق. ويلي هذا الاستهلال قسم بالقرآن المجيد تعظيماً لشأنه يقول ربنا - تبارك وتعالى - فيه: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [قٓ: 1].

والله - تعالى - غني عن القسم لعباده، ولكن إذا جاءت الآية القرآنية في صيغة القسم كان هذا من قبيل التنبيه إلى أهمية المقسم به وهو هنا القرآن المجيد، وجواب القسم محذوف وتقديره: أقسم بالقرآن ذي المجد والشرف أنك يا محمد لرسولنا إلى العالمين تنذرهم بحتمية البعث بعد الموت، وهي الحقيقة التي أنكرها كثير من الكفار والمشركين. وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾ [قٓ: 2-3]. أي تعجب كفار ومشركو قريش ومن بعدهم الكثيرون من أمثالهم من إرسال الله - تعالى - رسولاً إليهم من البشر ينذرهم بحقيقة الآخرة وحتميتها، وبضرورة العمل في الدنيا والاجتهاد من أجل النجاة في كل من الدنيا والآخرة، وتوضح الآيات أن من أسباب تعجبهم من حقيقة الوحي ومن قضية البعث تحلل الأجساد إلى تراب بعد وفاة أصحابها، وهم هنا يقيسون قدرة الله الخالق وهي مطلقة بلا حدود قدرات البشر القاصرة المحدودة وذلك بسبب سوء فهمهم لحقيقة الألوهية، وقد كان ذلك من مآسي البشرية عبر تاريخها الطويل.

ويرد عليهم الحق - تبارك اسمه - بقوله العزيز: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [قٓ: 4-5]. أي هم في أمر مضطرب من سوء الفهم والعجز عن معرفة الحق الذي جاءهم به خاتم الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليه - ومنه حقيقة البعث لتوفية الحساب في العالم الآخر، لأن الجزاء قد لا يوفى في الدنيا، وإذا فقد الإنسان إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد حقيقة رسالته في هذه الحياة، فاختلطت عنده الأمور واضطربت المفاهيم اضطراباً شديداً فخسر الدنيا والآخرة معاً.

وفي الست آيات التالية (6-11) تعرض سورة قٓ عدداً من الآيات الكونية الناطقة بطلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الكون والشاهدة للإلٰه الخالق بأنه كما أبدع خلقه الأول فهو قادر على إفنائه وعلى إعادة خلقه من جديد (أي بعثه). وتضيف الآيات (12-14) إشارة إلى عدد من الأمم السابقة التي كذبت رسل ربها فحق فيها وعيد الله - تعالى - بعقابهم في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأقوى. ومن هذه الأمثلة كانت أقوام كل من أنبياء الله نوح، وهود وصالح وشعيب وموسى ولوط، وأقوام أنبياؤهم غير معروفين لنا وذلك من أمثال أصحاب الرس، وقوم تبع، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [قٓ: 12-14].

وهنا لفتة قرآنية مبهرة تقرر وحدة رسالة السماء، والأخوة بين الأنبياء، فكل من كذب برسول من رسل الله فقد كذب بحقيقة الوحي وبجميع الأنبياء والمرسلين.

ويرد ربنا - تبارك وتعالى - على منكري البعث بقوله العزيز: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [قٓ: 15]. أي أن الله ﷻ يضرب مثلاً بالخلق الأول على إمكانية البعث بعد الموت، لأنه أوجد الكون من العدم فهو قادر على إفنائه إلى العدم وعلى إعادة خلقه من جديد، والآية جاءت في صيغة الاستفهام التوبيخي التقريري التقريعي لكل منكر للبعث بعد الموت.

وبعد ذلك تنتقل الآيات بنا إلى رحلة الإنسان بين الحياة والموت والبعث وهو مراقب مراقبة شديدة من الله وذلك في سرعة خاطفة فيقول ربنا ﷻ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ

يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [قٓ: 16-22].

والسائق والشهيد هما الملكان الكاتبان الحافظان لكل نفس في الحياة الدنيا. وتشير الآيات بعد ذلك إلى حوار بين كل مشرك وقرينه من الجن وقت الحساب في الآخرة فتقول:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ [قٓ: 23-27].

وهنا يرد الجبار ﷻ بقوله العزيز:

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [قٓ: 28-35].

وتعاود الآيات بالإشارة إلى هلاك الكفار والمشركين والطغاة المتجبرين من الأمم السابقة في الدنيا، فلم يجدوا لهم من عذاب الله مفراً ولا مهرباً، وتؤكد أن في مصارع هؤلاء الكفار والمشركين تذكرة لكل من كان له قلب حاضر وأصغى إلى تلك الموعظة ليأخذ العبرة منها، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [قٓ: 36-37].

وفي الرد على مزاعم اليهود الباطلة التي ادّعوا فيها أن الله - تعالى - خلق السمٰوات

والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة وأنه - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - تعب فاستراح يوم السبت، والله منزه عن ذلك تنزيهاً كاملاً ولذلك جاء قوله الحق:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [قٓ: 38].

ثم يوجه الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله فيقول:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [قٓ: 39-45].

وفي ذلك تثبيت لرسول الله ﷺ في وجه كل من الكفار والمشركين، وفيه من التذكير بأهوال يوم الحشر ما فيه، وهذا التثبيت والتذكير كما كان للنبي والرسول الخاتم فهو لكل مؤمن به وتابع له إلى قيام الساعة في وجه كل معاند للإسلام وكل مكابر. والتذكير بصيحة البعث التي تأتي بالحق، وهي النفخة الثانية في الصور والتي على أثرها يخرج الموتى من قبورهم بعد أن تشقق الأرض عنهم فيخرجون مسرعين إلى موقف الحساب استجابة لنداء المنادي، فالله - تعالى - هو الذي يخلق الخلق ويحييهم في الدنيا كل إلى أجله، ثم يميتهم كل عند أجله، ثم يبعثهم للحساب والجزاء في الآخرة حين يؤول مصير كل شيء إليه سبحانه وتعالى.

وتختتم سورة قٓ بتأكيد من الله لخاتم أنبيائه ورسله ولكل مؤمن به إلى قيام الساعة بأنه تعالى يعلم ما يقول الكفار والمشركون والعصاة المتجبرون من تطاول على الله وعلى خاتم أنبيائه ورسله وعلى محكم كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ويهددهم الله الخالق بوعده ووعيده اللذين بعث بهما كل أنبيائه ورسله، وختمهما في رسالته الخاتمة: القرآن الكريم وسنة النبي والرسول الخاتم الذي ما عليه إلا البلاغ للناس، والتذكير بالقرآن لكل من يخاف وعيد الله سبحانه وتعالى وهذا هو دوره وحسبه.

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «قٓ»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، بغير شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، ولا صاحبة له ولا ولد، وأنه ﷻ هو الذي يحيي ويميت وإليه المصير، وهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

2 - اليقين بأن القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، وحفظه كاملاً في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بهذا الحفظ إلى قيام الساعة وإلى أن يشاء الله.

3 - التسليم بحقيقة وحي السماء، وبالأخوة بين الأنبياء، وبوحدة الرسالة السماوية التي تكاملت وحفظت في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

4 - الإيمان بحقيقة البعث بعد الموت وبضرورته وحتميته، وبأن الله - تعالى - قادر على تحقيقه بعد تحلل الأجساد وتحولها إلى تراب، وقادر على أمر الأرض فتتشقق عن رفات الأموات، وأمر السماء بإنزال ماء خاص فتنبت الخلائق من رفاتها كما تنبت البقلة من بذرتها، ويخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر، ويحشرون للحساب والجزاء.

5 - اليقين بأن الله ﷻ يعلم مكان كل ذرة من ذرات جسد الميت بعد تحلله وتحوله إلى تراب الأرض وهو مدون عنده في كتاب حفيظ.

6 - التسليم بأن كل من يكذب بالحق الذي أنزله ربنا - تبارك وتعالى - على خاتم أنبيائه ورسله قد خسر الدنيا والآخرة لأنه يعيش مضطرباً قلقاً حائراً في هذه الحياة ويلقى في الآخرة في نار جهنم. والتأكيد على أن رسالة الأنبياء هي التذكير بهداية الله - تعالى - لخلقه، وليس فرض الدين بالقوة.

7 - الإيمان بأن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، وقد خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو - سبحانه - أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وأنه - تعالى - لا يكل ولا يتعب.

8 - اليقين بأن الله - تعالى - قد وكل بكل إنسان ملكين يحصيان عليه ألفاظه وحركاته وسكناته ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قٓ: 18].

9 - التسليم بحقيقة أن الإنسان في سكرات الموت يرى من الحق ما لا يراه وهو حي، وروحه محبوسة في جسده الترابي.

10 - التصديق بحقيقة نفختي الصور، وبحقيقة البعث، وبأن كل نفس سوف يأتي معها سائق وشهيد، وأن لكل إنسان قريناً من الجن، وبأن الجنة حق وأن النار حق.

11 - الإيمان بضرورة الخضوع لله - تعالى - بعبادته كما أمر، وبضرورة تسبيحه وتحميده عقب كل صلاة، وبالليل والنهار، والتأكيد على قيمة صلاة الليل (التهجد).

من الإشارات الكونية في سورة «قٓ»:

1 - الإشارة إلى فضلة تبقى من رفات الأموات بعد تحللها (عجب الذنب) وهو ما أثبتته الدراسات العلمية أخيراً.

2 - وصف السماء بأنها بناء محكم والإشارة إلى زينة السماء الدنيا.

3 - استخدام تعبير (مد الأرض) لوصف كرويتها، لأن المد بلا نهاية هو قمة التكوير.

4 - وصف الجبال بأنها رواسي للأرض ولألواح غلافها الصخري، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في أواخر القرن العشرين.

5 - وصف الحياة بالزوجية المطلقة ليبقى ربنا - تبارك وتعالى - متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

6 - الإشارة إلى دورة الماء حول الأرض، وإلى إنزاله ماء مباركاً من السماء ينبت الله - تعالى - به جنات وحب الحصيد وغير ذلك من صور الرزق للعباد.

7 - وصف النخيل بأنها باسقات ووصف طلعها بالنضيد وهو وصف دقيق.

8 - تشبيه خروج الموتى من قبورهم في يوم البعث بخروج النبات من الأرض بعد إنزال الماء عليها، وبأن الخلق الحالي يشهد للخالق البارئ المصور بقدرته على البعث في خلق جديد بعد الموت.

9 - ذكر أعداد من الأمم السابقة التي أهلكها الله - تعالى - بكفرها أو شركها وبتكذيب رسل الله إليها، والدراسات الأثرية المتأخرة تؤكد صدق ذلك.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الأولى من القائمة السابقة والتي جاءت في قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ [قَ: 4].

وقبل الوصول إلى ذلك أرى من اللازم عرض أقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ [قَ: 4].

1 - ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «أي ما تآكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان، وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ [قَ: 4] أي حافظ لذلك، فالعلم شامل والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة، قال ابن عباس: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [قَ: 4] أي: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم، وأشعارهم». وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن - رحم الله كاتبها - ما نصه: «قد علمنا ما تنقص الأرض منهم، أي: ما تأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت، فكيف يستبعدون أن نرجعهم أحياء كما كانوا؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ [قَ: 4] أي وعندنا مع علمنا بذلك كتاب حافظ تفاصيل الأشياء كلها، كلياتها وجزئياتها، ومنها أجزاؤهم وعددهم وأسماؤهم وأعمالهم. وهو تأكيد لعلمه - تعالى - بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده سبحانه». وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم - كلاماً جميلاً جاء فيه: «لكأنما التعبير يجسم حركة الأرض ويحييها وهي تذيب أجسادهم المغيبة فيها، وتأكلها رويداً رويداً. ويصور أجسادهم وهي تتآكل باطراد وتبلى ليقول: إن الله يعلم ما تأكله الأرض من أجسادهم، وهو مسجل في كتاب حفيظ، فهم لا يذهبون ضياعاً إذا ماتوا وكانوا تراباً. أما إعادة الحياة إلى هذا التراب، فقد حدثت من قبل، وهي تحدث من حولهم في عمليات الإحياء المتجددة التي لا تنتهي».

2 - وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه: «قد علمنا ما تأخذه الأرض من أجسامهم بعد الموت، وعندنا كتاب دقيق الإحصاء والحفظ».

3 - وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: «أي: قد علمنا ما تنقصه الأرض من أجسادهم، وما تأكله من لحومهم وأشعارهم ودمائهم إذا ماتوا، فلا يضل عنا شيء حتى تتعذر علينا الإعادة ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: 4] أي ومع علمنا الواسع عندنا كتاب حافظ لعددهم وأسمائهم وما تأكله الأرض منهم، وهو اللوح المحفوظ الذي يحصي تفصيل كل شيء».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

من دلالات هذه الآية الكريمة أن أجساد الأموات بعد تحللها في قبورها إلى مكوناتها الأساسية من الماء وتراب الأرض، يبقى منها شيء مهم ولذلك عبرت الآية الكريمة عن الماء والتراب بتعبير «ما تنقص الأرض منهم» كان الأصل ما يتبقى منهم بعد فقدان ذلك، وقد أوضحت أحاديث رسول الله ﷺ ما يتبقى من الميت بعد تحلل جسده، وهي عظمة مثل حبة الخردل منها خلق، وفيها يركب يوم البعث مما يوحي بأنها أهم ما في جسد الإنسان من مكونات، وما يمكن مناقشته على النحو التالي:

أولاً: عجب الذنب في أحاديث رسول الله ﷺ

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال الأحاديث الثلاثة التالية:

1 - «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلق ومنه يركب**».

2 - و«**ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً هو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**».

3 - «**إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً، فيه يركب يوم القيامة**». قالوا: أي عظم هو يا رسول الله؟ قال: «**عجب الذنب**».

وأخرج الإمام أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«**كل ابن آدم تأكل الأرض إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**».

وأخرج الإمام ابن حبان عن أبي سعيد الخدري - رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله ﷺ قال:

«يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه». قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه ينشأ».

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون... ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً، هو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة».

ثانياً: عجب الذنب في الحيوان:

في محاولة لدراسة التطور الجنيني للبرمائيات لاحظ الألماني (هانز سبيمان) **Hans Spemann** ومجموعته البحثية في مطلع الثلاثينات من القرن الميلادي العشرين أنه بمجرد إخصاب النطفة الأنثوية (البييضة) تبدأ النطفة الأمشاج (المختلطة) في الانقسام عدة مرات حتى تتحول إلى قرص مكون من طبقتين من الخلايا: فوقية **Epiplast**، وتحتية **Hypoplast**. وهذا القرص لا يظهر عليه أي قدر من التمايز حتى يبدأ خيط دقيق في الظهور على طبقته الفوقية سماه باسم «الخيط الأولي أو الابتدائي» **(The Primary or Primitive Streak)**.

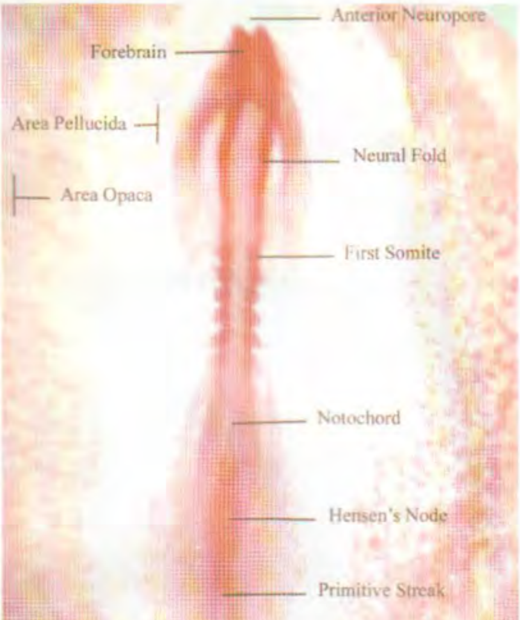

صورة للخيط الأولي عند جنين دجاجة.

وهذا الخيط الأولي له عقدة في نهايته سماها باسم «العقدة الأولية أو الابتدائية» **(The Primary Or The Primitive Knot)** وقد لاحظت المجموعة البحثية أن هذا الخيط الأولي يبدأ في تنظيم عملية إنشاء جميع أعضاء وأجهزة الجنين وذلك عن طريق تحرك عدد من خلايا الطبقة

الفوقية في اتجاه الخيط الأولي الذي تنغرس فيه فتتشكل حسب الوظيفة المحددة لها، ثم توجه إلى موضع كل منها في جسم الجنين حتى يكتمل تشكيله.

وأول ما يتخلق في هذه العملية هي الخلايا العصبية التي ينبني منها الجهاز العصبي للجنين وذلك بمرور عدد من خلايا الطبقة الفوقية عبر العقدة الأولية. وبعد تمام تخلق جميع أجهزة جسم الجنين لاحظ سبيمان ومعاونوه أن هذا الشريط الأولي ينسحب ليختزن في نهاية العمود الفقري.

وقد ذُهل (سبيمان) ومعاونوه من تخلق جميع أجهزة جسم الجنين من خلال دخول الخلايا الأولية عبر الخيط الابتدائي وعقدته واللذين أطلقوا عليهما اسم «المنظم الأول» **The Primary Organizer**.

وفي محاولة لدراسة طبيعة ذلك المنظم الأول واستجلاء شيء من أسراره قامت المجموعة الدراسية بقطعه وزرعه في جنين آخر فنما على محور غير محور الجنين المضيف .

وفي سنة 1931 م قام (سبيمان) ومعاونوه بمحاولة لسحق هذا الشريط الأولي ثم زرعه في أحد أجنة البرمائيات فنما على محور آخر على هيئة جنين غير الجنين المضيف مما يشير إلى أن الشريط الأولي لم يتأثر بمحاولة سحقه.

وفي سنة 1932م قام (سبيمان) ومعاونوه بغلي هذا المنظم الأول ثم بزرعه في جنين آخر فنما نمواً مستقلاً مما يؤكد عدم تأثره بالغلي.

وفي سنة 1935 م منح (سبيمان) جائزة نوبل في العلوم الحياتية تقديراً لاكتشافه «المنظم الأول» وإثبات دوره في تخليق جميع أنسجة وأعضاء وأجهزة الجنين، وبأنه لا يبلى أبداً، فأثبت بذلك دقة أحاديث «عجب الذنب» التي نطق بها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من قبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً.

وبعد ذلك بأكثر من سبعين عاماً قام الأخ الدكتور عثمان جيلان في رمضان من سنة 1424هـ (2003م) بحرق الفقرتين الأخيرتين من خمسة من عصاعص الأغنام بواسطة مسدس غاز لمدة عشر دقائق حتى تفحمت تفحماً كاملاً، ثم بفحصها بواسطة عدد من أساتذة علم الأنسجة في جامعة صنعاء ثبت أن خلايا عظمة العصعص لم تتأثر بالإحراق

على الإطلاق وإن احترقت جميع العضلات والأنسجة الدهنية المحيطة بها وخلايا النخاع الموجودة بداخلها.

ثالثاً: عجب الذنب في الإنسان ودوره في عملية التخلق للأعضاء:

تتميز خلايا الطبقة الوسطى للجنين البشري والتي ينتجها الشريط الأولي بالقدرة الفائقة على الانقسام السريع، وعلى التنوع والتخصص، وعلى الهجرة لتكوين مختلف أنواع الخلايا والأنسجة المتخصصة، والأعضاء والأجهزة المحددة. ومن صور تنوع هذه الخلايا تحركها من العقدة الأولية للجنين من أجل تكوين بدايات الحبل الظهري الذي ينشأ عنه الجهاز العصبي بتفرعاته المتعددة.

ويستمر الشريط الابتدائي في تكوين الخلايا الوسطية في جسم الجنين بنشاط واضح حتى نهاية الأسبوع الرابع من تاريخ الإخصاب، ثم يبدأ في التباطؤ التدريجي في إنتاج تلك الخلايا، ثم في الانكماش السريع في الحجم حتى يتضاءل إلى حجم لا يكاد يدرك، ثم في الانسحاب التدريجي إلى منطقة العجز (العصعص) من الجنين.

The Sacrococcygeal Region Of The Embryo.

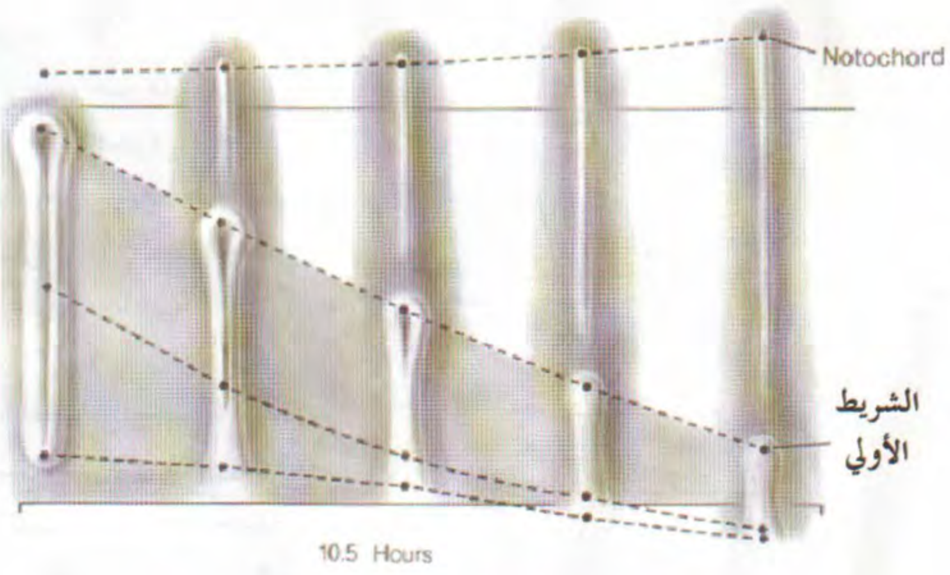

رسم يوضح انحسار الشريط الأولي إلى منطقة أسفل العمود الفقري.

ويدرك علماء الأجنة اليوم أن خلايا الشريط الأولي قد وهبها الخالق ﷻ قدرات فائقة على عملية تخليق الخلايا المتخصصة ولذلك تعرف باسم «خلايا الشريط الأولي ذات القدرات المتعددة **Pleuropotent Primitive Streak cells.**

ويتضح تميز هذه الخلايا وحساسيتها الفائقة من نموها السريع على هيئة أعداد من الأورام المسخية **Teratoma** المحتوية على أنسجة أو حتى أعضاء مختلفة إذا تعرضت لبعض المؤثرات مثل الإشعاع، ويشير ذلك إلى قدرة خلايا عجب الذنب على تكوين جميع أنسجة وأعضاء الجسم أثناء عملية تخلقه، وإلى قدرتها على الإنبات بإذن الله تعالى يوم البعث بإنزال ماء خاص من السماء كما جاء في حديث المصطفى ﷺ الذي قال فيه: «. . . **ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»، وقد ثبت أنه لا يبلى، كما ثبت أن الخلق يركب منه في مرحلة الجنين.

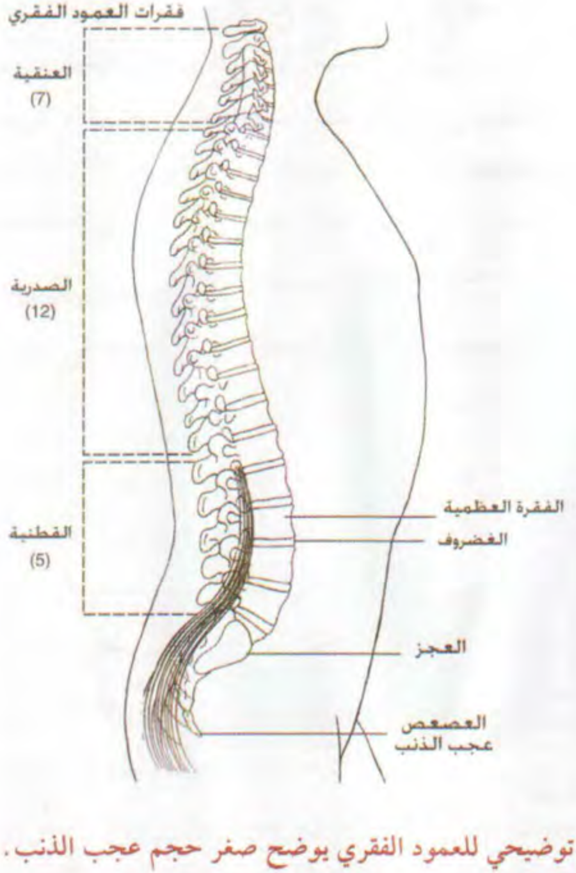

رسم توضيحي للعمود الفقري يوضح صغر حجم عجب الذنب.

من هذا الاستعراض يتضح بجلاء أن أهم ما يبقى من الميت بعد صعود روحه إلى بارئها، هي عجب ذنبه الذي لا يبلى أبداً، بينما يتحلل الجسد إلى عناصره الأولى: الماء وتراب الأرض، وتبقى هذه الفضلة العجيبة (عجب الذنب) لينبت منها كل مخلوق كما تنبت البقلة من حبتها، ولذلك قال - تعالى -: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا

كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: 4] بمعنى أن سر الإنسان كله في عجب ذنبه، وما زاد على ذلك من نماء جسدي باستخدام ماء الأرض وعناصرها يعود إلى حيث أتى، ويبقى الجوهر المادي في الإنسان هو هذه العظمة المتناهية الضآلة في الحجم حتى لكأنها حبة خردل، ولكنها لا تبلى أبداً والتي سماها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة باسم (عجب الذنب) ولم تعرفها العلوم المكتسبة إلا في نهاية الثلث الأول من القرن العشرين، وأخبر - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - بأن الإنسان يتركب منها ثم يعاد بعثه منها، وهي حقائق لا يعرفها إلا نبي موصول بالوحي، ومعلَّم من قبل خالق السمٰوات والأرض. فالحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والحمد لله على بعثه إمام الأنبياء والمرسلين وسيد الخلق أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

24 - ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: 22]

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في بداية الثلث الثاني من سورة «الروم» وهي سورة مكية، وآياتها ستون (60) بعد البسملة وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بخبر انتصار الروم على الفرس قبل وقوعه بتسع سنوات، وذلك بعد هزيمتهم المنكرة أمام الجيوش الفارسية قبل نزول هذه السورة المباركة بعدة سنوات. ويدور المحور الرئيس لسورة (الروم) حول عدد من ركائز العقيدة الإسلامية شأنها في ذلك شأن كل السور المكية.

وقد سبق لنا استعراض هذه السورة المباركة وما جاء فيها سابقاً ولذلك سوف نركز هنا على الدلالات العلمية للنص القرآني وقضيته التي تتحدث عن المعجزة في خلق السمٰوات والأرض واختلاف ألسنة وألوان البشر وهم جميعاً من أصل واحد.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾:

من أول ما أدرك علماء الفلك من مكونات السماء: مجموعتنا الشمسية، وهي تضم بالإضافة إلى الشمس أحد عشر كوكباً، وتسعة وثمانين قمراً، وآلاف الشهب والنيازك، وكميات من الدخان. وتبلغ المسافة بين الشمس وأقرب كواكبها إليها (عطارد) 58 مليون كيلو

صورة حقيقية لمجرة حلزونية تشبه مجرتنا «سكة التبانة».

متراً، بينما يقع أبعد كواكبها وهو كوكب سيدنا (**Sedna**) على مسافة تقدر بحوالي 13,5 بليون كيلومتراً من الشمس.

وشمسنا هي واحدة من مليون مليون نجم تكون مجرتنا المعروفة باسم «سكة التبانة» أو «درب اللبانة» على هيئة قرص مفلطح يقدر قطره بحوالي مائة ألف سنة ضوئية (950 ألف مليون مليون كم)، ويقدر سمكه بعشر ذلك (95 ألف مليون مليون كم).

وقد تخيّل الفلكيون في وقت من الأوقات أن مجرتنا هي كل الكون ليفاجأوا باكتشاف ما بين مائتي ألف مليون مجرة وثلاثمائة ألف مليون مجرة في الجزء المدرك من الكون، وبعض هذه المجرات أكبر من مجرتنا كثيراً، وبعضها الآخر أصغر قليلاً. وتتربى المجرات في مجموعات تتعاظم في الكبر بالتدريج من المجموعات المحلية إلى الحشود المجرية الصغرى والعظمى والتي تنتظم على هيئة كروية تدرس في شرائح مقطعية بأبعاد في حدود (150 × 100 × 15) سنة ضوئية وأكبر هذه الشرائح التي درست يسمى مجازاً باسم «الحائط العظيم» الذي يزيد طوله على (250 مليون) سنة ضوئية، أي 2375 مليون

مليون كم، وقد تم الكشف عن حوالي مائة من الحشود المجرية العظمى التي تكون قرصاً يبلغ طول قطره بليوني سنة ضوئية وسمكه عشر ذلك، أي مائتي مليون سنة ضوئية. ويعتقد عدد من الفلكيين المعاصرين أن بالجزء المدرك من الكون تجمعات أكبر من ذلك.

والنجوم تعتبر أفراناً نووية كونية عملاقة يخلق الله - تعالى- لنا فيها مختلف صور المادة والطاقة اللازمة لبناء الجزء المدرك من الكون والمحافظة عليه. وبالإضافة إلى النجوم وتوابعها هناك السدم، والمادة بين النجوم والمواد الداكنة، والدخان الكوني، وغير ذلك من مختلف صور المادة والطاقة المحسوسة وغير المحسوسة في ظلمة الجزء المدرك من الكون. ويقدر الفلكيون كتلة الجزء المدرك بمائة ضعف كتلة المادة والطاقة المرئية والمحسوسة فيه، وإذا علمنا أن النجوم هي زينة السماء الدنيا فقط أدركنا عظمة ما حولها من السمٰوات الست الباقيات. والنظرية المقبولة لدى معظم علماء المعاصرين عن نشأة الكون هي «نظرية الانفجار العظيم» ونحن معشر المسلمين نؤمن بصدقها لوجود إشارة إليها في كتاب الله الخالق. ومن طبيعة الانفجار أنه يؤدي إلى تناثر المادة المنفجرة وبعثرتها، ولكن انفجاراً يؤدي إلى بناء كون شاسع الاتساع، دقيق البناء، ومحكم الكتل والأحجام والمسافات، منضبط الحركة في الجري والدوران في كل جزئية من جزئياته من اللبنات الأولية للمادة إلى الكون كله لا يمكن إلا أن يكون انفجاراً مقدراً تقديراً محكماً من الخالق العظيم.

ووحدة البناء في الجزء المدرك من الكون تشير إلى وحدانية الخالق البارئ المصور، وإلى تنزهه فوق جميع خلقه وفوق كل وصف لا يليق بجلاله. من هنا كان الاستدلال بخلق السمٰوات من أعظم الشواهد على وجود الله ﷻ، وعلى تفرده بالألوهية والربوبية والخالقية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. أما عن الأرض فنحن نعيش على كرة من الصخر تقدر كتلتها بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طناً ومساحتها (510) مليون كيلومتراً مربعاً تمثل اليابسة منها (148) مليون كيلومتراً مربعاً والأجزاء المغمورة بالماء منها (362) مليون كيلومتراً مربعاً، وحجمها 1350 مليون كيلو متراً مكعباً، ومتوسط كثافتها 5,5 جم/ سم^3. ولو زادت كتلة الأرض قليلاً لكان وزن الغلاف الغازي الذي تجذبه أعلى من تحمل حياة ذكية كحياة الإنسان، ولو قلت قليلاً لما أمكنها جذب غلاف غازي بدقة التركيب والكثافة والضغط اللازمة للحياة على الأرض، ويقدر متوسط المسافة بين الأرض والشمس بحوالي مائة وخمسين مليون كيلومتراً، ولو كانت أقرب

قليلاً إلى الشمس لأحرقت الطاقة المنبعثة منها كل صور الحياة على سطحها، ولو كانت أبعد قليلاً لتجمدنا وتجمدت الحياة من حولنا. والأرض تدور حول محورها بسرعة تقدر بحوالي 30 كم في الدقيقة لتتم دورتها في يوم مقداره حالياً (24) ساعة تقريباً، يتقاسمه ليل ونهار، بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول المناخية التي تتبادل بسبب ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج بزاوية مقدارها (66,5) درجة تقريباً، ويعزى لذلك أيضاً تتابع الدورات الزراعية، وهبوب الرياح، وهطول الأمطار بأمر الله. ولو لم يكن محور دوران الأرض بهذا الميل ما تتابعت الفصول المناخية، وإذا لم تتتابع لاستحالت الحياة. والأرض تجري حول الشمس في مدار بيضاني (إهليلجي) قليل الاستطالة بسرعة تقدر بحوالي 30 كم في الثانية لتتم دورتها هذه في سنة شمسية مقدارها (365,25) يوماً تقريباً، تتقاسمها فصول أربع هي: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء. والأرض كوكب فريد في كل صفة من صفاته، مما أهله بجدارة لكي يكون مهداً للحياة الأرضية بكل مقوماتها وصفاتها. فكل أمر من أمور الأرض بدءاً من بنيتها الداخلية إلى تضاريس سطحها، ومن صفات نطقها الصخرية، والمائية، والهوائية، والحيوية، من مختلف صور المادة والطاقة فيها، ومن دورات ذلك كله (دورة الصخور، دورة الماء، دورات

المسافة التي تفصل الشمس عن الأرض مقدرة لحفظ الحياة واستمرارها على الأرض.

الهواء، دورات الحياة، دورات التغذية، والهدم والبناء، وغيرها)، ومن نطق الحماية المختلفة التي حباها الخالق ﷻ بها، ومن علاقاتها بأجرام السماء من حولها، كل ذلك يشهد للخالق البارئ المصور بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق، لذلك قال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الروم: 22].

ثانياً: قوله - تعالى -: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: 22].

يخلق الفرد من بني آدم من نطفة أمشاج (مختلطة) نصفها موروث عن الأب وأسلافه إلى أبينا آدم عليه السلام والنصف الآخر موروث عن الأم وأسلافها إلى أمنا حواء - عليها رضوان الله -، ثم تنمو هذه النطفة المختلطة (إذا شاء الله تعالى لها النماء) لتصبح تريليونات الخلايا المتخصصة في أنسجة وأعضاء ونظم متخصصة تتعاون من أجل المحافظة على حياة كل فرد منا ما قدر الله - تعالى - له الحياة. وإذا كان الفرد منا ينحل جسده إلى النطفة الأمشاج التي قدر الله - تعالى - له أن يخلق منها، فإن بلايين البشر الذين يملأون جنبات الأرض اليوم، والبلايين التي عاشت من قبل وماتت، والبلايين التي سوف تأتي من بعدنا إلى قيام الساعة ينتهي نسبها إلى شيفرتين وراثيتين كانت إحداهما في صلب أبينا آدم والأخرى في صلب أمنا حواء، لذلك يتشابه البشر جميعاً في التركيب الكيميائي للحمض النووي الريبي منزوع الأوكسجين الذي تكتب به الشيفرة الوراثية إلى نسبة 99,9% ويختلفون فقط في نسبة 0,1%. ومن طلاقة القدرة الإلٰهية أن الله - تعالى - يعطى لكل فرد من بني الإنسان بصمة وراثية خاصة به تميزه عن غيره. وكما أعطت طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة من فروق لا تتعدى 0,1% في تركيب الحمض النووي الذي تكتب به الشيفرة الوراثية، بصمة وراثية خاصة لكل فرد من بني آدم، وقد شاءت إرادة الله الخالق أن يبني من اللغة الواحدة التي تكلم بها أبوانا آدم وحواء - عليهما رضوان الله - التي كانت هي اللغة العربية أكثر من خمسة آلاف لغة ولهجة يتحدث بها أهل الأرض اليوم، ولا بد لهذا التنوع في ألسنة

اختلاف ألوان البشر.

البشر من علاقات وراثية وبيئية وزمنية محددة تعكس جانباً من طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق.

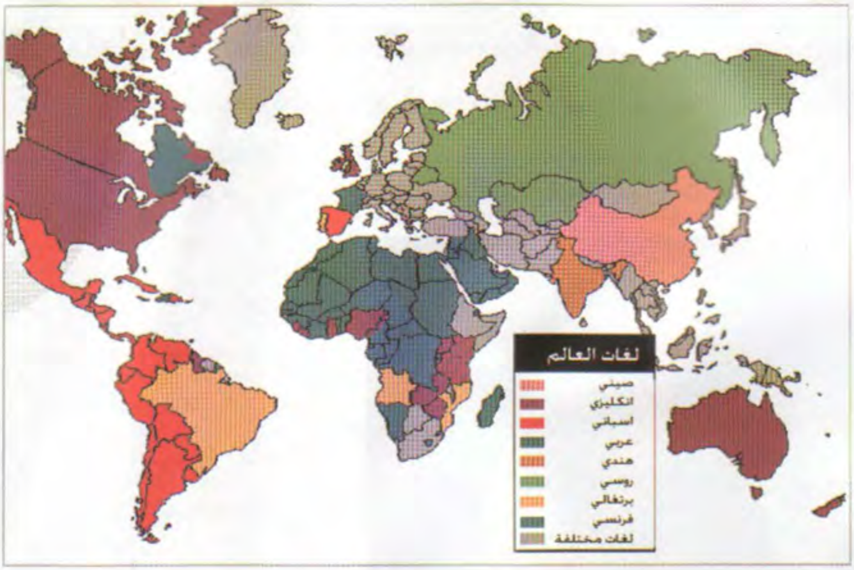

خارطة اختلاف اللغات في العالم.

أما عن ألوان البشر والتنوع الهائل فيها بين الأحمر والأبيض والأصفر والأسود وما بين ذلك، فإن التنوع فيها يرجع أيضاً إلى عدد من الصفات الوراثية والبيئية التي تؤدي إلى اختلاف نسبة كل من صبغتي «الميلانين» و«الهيموجلوبين» في خلايا الجسم بصفة عامة وفي الخلايا الجلدية - بصفة خاصة - وتأثيرها بين الصبغتين لا يتوقف عند حدود تلوين البشرة والشعر والعينين، بل يتعدى ذلك إلى العديد من الوظائف الحيوية الهامة. ولو كان أهل الأرض جميعاً يتكلمون بلغة واحدة ولهم لون عينين وبشرة وشعر واحد، وسمات جسدية واحدة لكانت الحياة مملة، سقيمة،

اختلاف ألوان البشر يعود إلى الصفات الوراثية.

غير مرضية، ولذلك يَمُنُّ علينا ربنا - تبارك وتعالى - بقوله العزيز: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: 22]. ولما كان المرء منا لا دخل له في لون بشرته أو شعره أو عينيه، نهى الإسلام العظيم عن التمييز بين الناس على أساس من اللغة أو اللهجة أو لون البشرة والشعر وعن أي تعصب على أساس من ذلك، فقد يولد توأم من نفس البطن يتفاوت في كلٍّ منهما لون البشرة والشعر.

هذه الحقائق العلمية الدقيقة عن خلق السمٰوات والأرض وعن اختلاف الألسنة واللهجات مع الأصل الواحد للإنسان، لم يكتشف منها شيء ذو بال إلا في القرنين الماضيين، وسبق القرآن الكريم بالاستشهاد بها دليل على حقيقة الألوهية والربوبية، والخالقية والوحدانية المطلقة لله الخالق فوق جميع خلقه، واعتبارها من آيات الله الدالة على حقيقته لهي من المعجزات العلمية والعقدية للقرآن الكريم الذي أنزل منذ أكثر من أربعة عشر قرناً على نبي أمي - صلوات ربي وسلامه عليه -، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، ولم يكن ممكناً لإنسان عايش تلك الحقبة أن يكون له رأي في مثل هذا المستوى العلمي الرفيع إلا أن يكون موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض. ومن هنا تتضح ومضة الإعجاز العلمي في قوله - تعالى -:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: 22].

فالحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والحمد لله على بعثة خير المرسلين - صلوات الله وسلامه عليه -، والحمد لله على نعمة القرآن الكريم الذي تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظه فحفظه حفظاً كاملاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً ليبقى القرآن حجة على الخلق أجمعين إلى قيام يوم الدين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

25 - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ...﴾ [فاطر: 28]

هذا النص القرآني الكريم جاء في بدايات النصف الثاني من سورة «فاطر»، وهي سورة مكية، وآياتها خمس وأربعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بحمد الله - تعالى - فاطر السمٰوات والأرض؛ أي خالقهما على غير مثال سابق. ويدور المحور الرئيس للسورة حول ركائز العقيدة الإسلامية شأنها في ذلك شأن كل السور المكية.

وتبدأ السورة الكريمة بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [فاطر: 1].

ثم تؤكد الآيات أن الرحمة بيد الله يفتحها لمن يشاء، ويمسكها عمن يشاء؛ لأنه هو العزيز الحكيم: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2].

وتنادي الآيات على الناس مذكرة إياهم بنعم الله - تعالى - عليهم فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر: 3].

وبعد ذلك تتوجه الآيات بالخطاب إلى رسول الله ﷺ في مواساة رقيقة من الله - تعالى - على تكذيب الكفار والمشركين لبعثته الشريفة، وتطاولهم على مقامه الكريم في القديم والحديث فتقول: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [فاطر: 4].

بما يعني أن جميع رسل الله قد كذبهم الكفار والمشركون من أممهم، وأن حساب هؤلاء المكذبين على رب العالمين الذي ترجع إليه الأمور فيجازي الجميع كلاً بعمله.

ثم تعاود الآيات بتوجيه الخطاب إلى الناس كافة محذرة إياهم من الاغترار بالدنيا الفانية، ومحذرة من وساوس الشيطان، ومن عذاب الآخرة، ومطالبة رسول الله ﷺ ألّا يحزن لكفر الكافرين ولا لشرك المشركين؛ لأن الله - تعالى - عليم بما يصنعون فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: 5-8].

وتستشهد السورة الكريمة بعدد من الآيات الكونية على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق، والشاهدة للخالق ﷻ بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبقدرة هذا الإلٰه الخالق على الإفناء ثم البعث والحساب والجزاء كما وعد.

وتقارن الآيات بين عزة المؤمنين بالله، وذلة الكفار والمشركين الضالين الذين يمكرون السيئات فتقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: 10].

ومن معاني ذلك أن العزة لله جميعاً، وأن من كان يريد العزة فليطلبها من الله بطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، فالكلام الطيب يصعد إليه، والعمل الصالح يرفعه ويقبله ويكافئ عليه، وأن الذين يدبرون السيئات بخبث ومكر لهم عذاب شديد، ولن ينفعهم تدبيرهم الماكر بشيء لأن مآله البوار والخراب والدمار.

وتنعى الآيات على العباد الذين يشركون بالله ﷻ مؤكدة أن شركاءهم لا يسمعون دعاءهم، وإن سمعوه فإنهم لن يستجيبوا لهم، وأنهم سوف يكفرون بشركهم وينكرونه عليهم يوم القيامة، ولا ينبئ بمثل هذا الحق من أخبار الآخرة إلا الله - تعالى - العليم الخبير بكل شيء، وفي ذلك تقول الآيات مخاطبة المشركين: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 14].

وبعد ذلك تعاود الآيات توجيه الخطاب إلى الناس مؤكدة حاجتهم إلى خالقهم فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: 15-17].

وفي مقابلة رائعة بين عدد من الأضداد وتأكيد على تحمل كل إنسان نتائج عمله، يعاد توجيه الخطاب القرآني في سورة فاطر مرة أخرى إلى رسول الله ﷺ في مواساة من الله - تعالى - لتكذيب الكفار والمشركين له فتقول الآيات: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر: 18-26].

وفي تسع آيات متتاليات (من الآية 29 إلى الآية 37) تمتدح سورة «فاطر» المؤمنين الذين يتلون كتاب الله، ويتدبرون آياته، المقيمين الصلاة على وجهها الصحيح، والمنفقين مما رزقهم الله سراً وعلانية، والراجين من وراء ذلك تجارة مع الله لن تبور، ولن تكسد أبداً بإذنه، فإن الله - تعالى - سوف يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله لأنه - سبحانه - غفور شكور.

ثم للمرة الثالثة يعاد توجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بالتأكيد على أن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين الحق، والذي لا شبهة فيه والذي أنزله الله - تعالى - بعلمه، مصدقاً لما تقدم من أصول الكتب السماوية؛ لأن مُنزلها واحد هو الله ﷻ، وقد جعل القرآن الكريم ميراثاً للذين اصطفاهم الله من عباده، والسابق منهم بالخيرات مستحق بالخلود في الجنّات التي أفاضت الآيات في وصف نعيمها.

أما الكفار والمشركون - الذين لا يتوبون قبل الموت - فجزاؤهم هو الخلود في نار جهنم إلا أن يشاء الله، وتصف الآيات بعض حالهم فيها، ومنها أنه لا يُقضى عليهم بالموت فيموتوا، ولا يخفف عنهم شيء من العذاب.

وتتابع هذا الآيات التسع بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر: 38]. وتتحدث الآيات عن عجز الشركاء الذين أشركهم المشركون في العبادة عن الخلق، وعن وقوعهم في خداع بعضهم البعض، وعن استكبارهم في الأرض، ومكرهم السيئ فتقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: 40].

وتضيف الآيات تهديد الله - تعالى - للمشركين فتقول عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: 42-44]

وتختتم سورة فاطر بالتأكيد على أن كل بني آدم خطاؤون، وأن خير الخطائين التوابون، وعلى أن الآخرة حق، وأن الحكم فيها عدل مطلق فتقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: 45].

من ركائز العقيدة في سورة «فاطر»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد، وبأنه - تعالى - هو الذي خلق السموات والأرض على غير مثال سابق، وخلق كل شيء، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبأنه ﷻ قد جعل من ملائكته رسلاً لعباده، وجعل هؤلاء الملائكة أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وهو - تعالى - يزيد في الخلق ما يشاء.

2 - اليقين بأن أبواب الرحمة كلها بيد الله ﷻ يفتحها لمن يشاء، ويوصدها دون من يشاء، وهو العزيز الحكيم، وإليه ترجع الأمور، وإليه المصير، وهو عليم بما يصنع عباده، وعليم بكل شيء.

3 - التصديق بأن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، ولا خالق غيره، وهو القادر على كل شيء، وهو الرزاق الذي يرزق عباده من السماء والأرض.

4 - التسليم بأن وعد الله حق، وبأن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأن الذين كفروا لهم عذاب شديد، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير، وأن لله العزة جميعاً، وأن الشرك بالله كفر به.

5 - الإيمان بأن الناس جميعاً فقراء إلى الله - تعالى - وهو الغني الحميد، الغفور الشكور، الخبير البصير، عالم غيب السمٰوات والأرض، العليم بذات الصدور.

6 - اليقين بوحي السماء، وبأن الله - تعالى - بعث خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد ابن عبد الله ﷺ كما بعث كلَّ أنبيائه ورسله عليهم السلام بالحق مبشرين ومنذرين، وأنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير، وأن جميع أنبياء الله ورسله قد تعرضوا للإنكار والتكذيب من الكفار والمشركين في أممهم ومن بعدهم.

7 - التصديق بحقيقة البعث بعد الموت، والحشر والحساب والجزاء، وبأن كل إنسان مسؤول عن عمله في الدنيا ومحاسب عليه، ويجزى به إما بالخلود في الجنة أبداً أو في النار إلى أن يشاء الله.

من الإشارات الكونية في سورة «فاطر»:

1 - التأكيد على حقيقة خلق السمٰوات والأرض؛ مما ينفي الادعاء الباطل بأزلية الكون والذي ظل الكفار يرفعونه شعاراً لكفرهم إلى مشارف القرن العشرين حين أثبتت العلوم المكتسبة حقيقة مرحلية كل شيء في الكون.

2 - الإشارة إلى الرزق من السماء والأرض، ورزق السماء كما يشمل القرار الإلٰهي بتوزيعه، ويشمل إنزال المطر بقدر، يشمل ما يخلقه الله - تعالى - من جميع العناصر التي تحتاجها الحياة في داخل النجوم وفي صفحة السماء وينزله بقدر إلى الأرض.

3 - إثبات علاقة تصريف الرياح بتكون السحب وإنزال المطر وإحياء الأرض الميتة به، وتشبيه عملية النشور بذلك.

4 - التأكيد على خلق الإنسان من تراب، ثم من نطفة، ثم جعل النطفة الأمشاج (المختلطة) أزواجاً: ذكراً وأنثى. والتأكيد على أن كل حمل ووضع لا يتم إلا بعلم الله وإرادته وحكمته، وأن آجال الأحياء مدونة في كتاب عند رب العالمين.

5 - وصف حقيقة عدم اختلاط كلٍّ من مائي النهر والبحر عند المصب، وطلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في خلق اللحم الطري الذي يأكله الناس من كل من المائين،

وتكوين الحلي من هياكل الحيوانات التي تعيش في كل منهما وما وهب الله - تعالى - كلاً من المائين من الصفات الطبيعية والكيميائية التي تؤهلهما لحمل مختلف الأحجام من القوارب والزوارق والسفن، والبواخر، والناقلات، وحاملات الطائرات، وغيرها.

6 - الإشارة الضمنية الرقيقة إلى كلٍّ من كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس بالتعبير القرآني المعجز: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ﴾ [الحَجّ: 61].

7 - التأكيد على مرحلية الحياة الدنيا مع ثبات السنن الحاكمة لها إلى أن يشاء الله بالتعبير القرآني الدقيق: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ [الرّعد: 2].

8 - إثبات تأثر لون كل من الإنسان والحيوان وثمار النبات بألوان الصخور التي يحيون فوقها، مع تحديد ألوان المجموعات الأساسية للصخور، والإشارة إلى دورة الماء حول الأرض بوصف إنزاله من السماء، وعلاقة ذلك بإنبات الأرض.

9 - الإشارة إلى تكاثر الإنسان من أصل واحد بالوصف القرآني: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فَاطِر: 39].

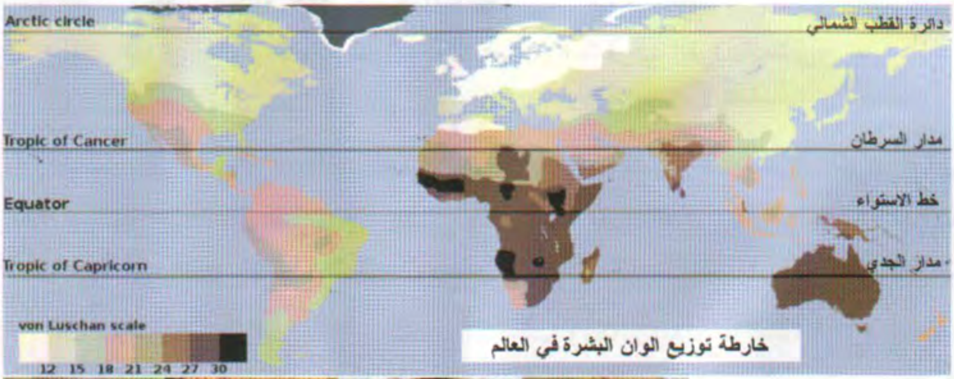

خارطة توزيع الوان البشرة في العالم

10 - تأكيد حقيقة أن الله - تعالى - هو الذي ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: 41]. ولعل في ذلك إشارة ضمنية إلى القوى التي أودعها الله ﷻ في الكون، والتي تَعرَّف الإنسان على عدد منها، ويحاول جمعها في قوة عظمى واحدة تشير إلى وحدانية الخالق ﷻ.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك سوف أقصر الحديث هنا على النقطة الثامنة من القائمة السابقة، وقبل الوصول إلى ذلك أرى ضرورة استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح الآيتين الكريمتين رقم (27) و(28) من سورة فاطر.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: 27-28].

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: يقول - تعالى - منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها... كما هو الشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها... وقوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: 27] أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق وهي (الجدد) جمع (جدة) مختلفة الألوان أيضاً، قال ابن عباس: (الجدد) الطرائق، ومنها غرابيب سود، قال عكرمة: (الغرابيب) الجبال الطوال السود... ولهذا قال - تعالى - بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28] أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر».

● وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - كلام أدبي رائع نقتطف منه ما يلي: «إنها لفتة كونية عجيبة... وتبدأ بإنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان... وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في

ظاهرها، ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية؛ ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها... والجدد الطرائق والشعاب... ثم ألوان الناس وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر، فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه بل متميز من توأمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحدة! وكذلك ألوان الدواب والأنعام، والدواب أشمل، والأنعام أخص، فالدابة كل حيوان، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز خصصها من الدواب لقربها من الإنسان. والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء. هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته ويقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28] أي أن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله... الجمال عنصر مقصود قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه. ومن ثم هذه اللفتات - في كتاب الله المنزل - إلى الجمال في كتاب الله المعروض. فالله عزيز قادر على الإبداع وعلى الجزاء، غفور يتدارك بمغفرته من يقصرون في خشيته، وهم يرون بدائع صنعته».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكرار ذكره هنا.

من الدلالات العلمية للنص الكريم

هذا النص القرآني الكريم تفسره آيات خلق الإنسان في القرآن الكريم والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

1 - من تراب (آل عمران: 59؛ الكهف: 37؛ الحج: 5؛ الروم: 20؛ فاطر: 11؛ غافر: 67).

2 - من طين (الأنعام: 2؛ الأعراف: 12؛ الإسراء: 61؛ السجدة: 7؛ صٓ: 71، 76).

3 - من سلالة من طين (المؤمنون: 12).

4 - من طين لازب (الصافات: 11).

5 - من صلصال من حمأ مسنون (الحجر: 26، 28، 33).

6 - من صلصال كالفخار (الرحمٰن: 14).

7 - من الأرض (هود: 61؛ طه: 55؛ النجم: 32؛ نوح: 18، 17).

وهذه مراحل متتالية في الخلق تؤكدها المراحل العكسية التي يمر بها جسد الإنسان بعد الموت من المرحلة السادسة في التسلسل السابق إلى المرحلة الأولى. كما يؤكدها حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «**إن الله - تعالى - خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، وجاء بنو آدم على قدر الأرض: فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب**» (أخرجه الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً).

والآيتان رقم (27)، (28) من سورة فاطر تشيران إلى أن تنوع ألوان كل من الناس والدواب والأنعام وثمار النباتات نابع عن اختلاف ألوان تربة الأرض، وهي ناتجة عن تجوية وتعرية صخور الأرض، أي إن تباين ألوان كل أحياء الأرض مرده إلى تباين ألوان صخور الأرض بين الأبيض والأحمر والأسود؛ على اختلاف درجات تلك الألوان التي تمثل الأقسام الرئيسة للصخور الأولية التي تكونت منها قشرة الأرض.

ومن تلك الصخور ما يجمع في مجموعة الصخور الحامضية وفوق الحامضية التي يغلب عليها من الألوان الأبيض والأحمر، وتمثل إحدى نهايات تصنيف الصخور الأولية. وتمثل النهاية المقابلة بمجموعة الصخور القاعدية وفوق القاعدية التي يغلب عليها اللونان الأسود والأخضر الداكن (والعرب تسمي الأخضر الداكن أسوداً، كما تسمي الأسود أخضراً). وبين هاتين النهايتين توجد مراحل متوسطة عديدة لمجموعات من الصخور تتدرج ألوانها بين هاتين النهايتين.

وتتكون تربة الأرض بواسطة التحلل الكيميائي والحيوي لصخورها، كما تتكون بواسطة التفكك الفيزيائي والميكانيكي لتلك الصخور بواسطة مختلف عوامل التعرية، فيتكون في النهاية غطاء رقيق لصخور الأرض من فتات وبسيس تلك الصخور على هيئة حطام مفروط متباين في حجم حبيباته من الجلاميد والحصى إلى الرمال والغرين والصلصال، ويعرف هذا الحطام المفروط باسم «عادم الصخور» الذي قد يكون مستمداً مباشرة مما تحته من صخور، أو منقولاً إليها بواسطة عوامل النقل المختلفة من الرياح والمياه الجارية وأنهار الجليد، وعادم الصخور يحمل بصمة التركيب الكيميائي والمعدني للصخور التي استمد منها، كما يحمل أطيافاً من ألوانها الأصلية.

وتتكون تربة الأرض من دقيق عادم الصخور، أي: من خليط من المعادن المفككة من

صخور الأرض بأحجام دقيقة (1/ 4 مم إلى 1/ 256 مم في قطر الحبيبات)، ومن أعداد من المركبات العضوية وغير العضوية الناتجة عن تفاعل ذلك العادم الصخري مع بيئات الأرض المائية والهوائية والحيوية.

ولما كان الإنسان الأول قد خلق أصلاً من تراب الأرض، وعاش على ثمار نباتاتها المستمدة أصلاً من عناصر تربة الأرض والماء، كما عاش على المباحات من منتجات حيواناتها من آكلات الأعشاب، والأعشاب مستمدة من عناصر الأرض ومائها، كان هناك تشابه كبير بين التركيب الكيميائي لكل من جسم الإنسان وتربة الأرض.

وعلى ذلك فإن جميع ألوان البشر كانت موجودة في الشيفرة الوراثية الأولى التي أودعها الخالق ﷻ صلب أبينا آدم عليه السلام، وأفردها في نسله من بعده، ولا تزال هذه الشيفرة تنفرد في زماننا، وسوف تظل كذلك إلى آخر مولود يوضع على الأرض، ولذلك قال المصطفى ﷺ: «**كلكم لآدم، وآدم من تراب**».

ونحن نرى في زماننا نمو جسد الإنسان من عناصر الأرض، فالجنين في بطن أمه

تختلف ألوان الطفل باختلاف التراب الذي خلق منه أبويه.

يحمل جزءاً من التراب الذي خلق منه كل من أبويه متسلسلاً إلى الأبوين الأولين آدم وحواء - عليهما رضوان الله - ويتغذى الجنين وهو في بطن أمه على جزء من دمها المستمد من الغذاء الذي تأكله، وهو مستمد أصلاً من تراب الأرض ومائها.

وبعد الميلاد يتغذى الرضيع على لبن الأم، أو على لبن غيرها من المرضعات، أو على ألبان الحيوانات، وكله مستمد من الغذاء المستمد من عناصر الأرض ومائها، وبعد فطامه يبدأ الطفل في الاعتماد على الطعام المستمد أصلاً من الأرض، ومن هنا كانت حكمة الخالق (سبحانه وتعالى) في خلق النبات قبل الحيوان، وخلقهما قبل خلق الإنسان، وخلق كل من النبات والإنسان والحيوان من تراب الأرض وعودته إليه ليبعث منه يوم الخروج.

ومن هنا أيضاً كانت ومضة الإعجاز العلمي في الربط بين ألوان كل من ثمار النباتات والناس والدواب والأنعام من جهة والألوان الأساسية لصخور الأرض من جهة أخرى وهي حقيقة لم تتوصل إليها المعارف المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بها من قبل أربعة عشر قرناً مما يثبت لكل ذي بصيرة أن هذا الكتاب العزيز لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام - صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

26 - ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾

[الكهف: 11]

هذا النص القرآني الكريم جاء في الربع الأول من «سورة الكهف»، وهي سورة مكية، وآياتها مائة وعشر (110) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى قصة أصحاب الكهف، وهم فتية مؤمنون فروا بدينهم ولجأوا إلى غار بجبل مكثوا فيه نياماً لفترة امتدت إلى ثلاثمائة وتسع من السنين القمرية، ثم بعثهم الله - تعالى - بعد تلك المدة الطويلة بمعجزة تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة.

ويدور المحور الرئيس لسورة الكهف حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها الأساسية الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، وتنزيهه تنزيهاً كاملاً عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وعن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

وللتأكيد على ذلك أوردت سورة الكهف ثلاث قصص، وضربت ثلاثة أمثال من أجل استخلاص الدروس والعبر منها والاستفادة بها، وكانت أولى القصص هي قصة أهل الكهف، وثانيتها قصة نبي الله موسى والعبد الصالح، وثالثتها قصة ذي القرنين، وكان أول الأمثال: مثل الغني المغتر بماله وجاهه وثروته، والفقير المعتز بإيمانه وبدينه، وضرب المثل الثاني على مرحلية الحياة الدنيا وحتمية فنائها، بدورة إنبات النبات بعد نزول المطر وإثماره ثم جنيه أو حصاده ثم جفافه وتهشمه حتى تذروه الرياح، وضرب المثل الثالث على التكبر والغرور وعاقبتهما بطرد إبليس اللعين من الجنة وحرمانه

من رحمة الله جزاء عصيان أمر ربه وامتناعه عن السجود مع الملائكة لأبينا آدم عليه السلام .

ويدور المحور الرئيس للسورة الكريمة حول القضايا الأساسية التالية:

1 - التأكيد على حقيقة الوحي بالقرآن الكريم، وأنه كلام الله الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله نذيراً للكفار والمشركين، وبشيراً بالخلود في الجنة للمؤمنين، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣)﴾ [الكهف: 1-3].

2 - التنديد بالذين أشركوا بالله - تعالى - ونسبوا له الولد زوراً وبهتاناً، ونفي الشرك عن الله - تعالى اسمه - نفياً قاطعاً، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف: 4-6].

3 - الإشارة إلى حقيقة ابتلاء البشر بزينة الحياة الدنيا، وزخارفها ومباهجها ومغرياتها، والتأكيد على أن نهاية الحياة الموت، ونهاية الدنيا الزوال، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾ [الكهف: 7-8].

4 - التأكيد على أن الصراع بين الحق والباطل، والخير والشر، والإيمان والكفر سنة من سنن الحياة الدنيا، وأن الحق لا ينتصر لمجرد كونه حقاً، ولكنه يحتاج إلى المؤمنين به، المجاهدين في سبيله بالنفس والنفيس، فإن عجزوا عن ذلك فالفرار بالدين، ولذلك جاءت الإشارة إلى قصة أصحاب الكهف الذين آثروا الهجرة فراراً بدينهم من بطش الحكام الجائرين المتجبرين على الخلق، وجاء ذلك في ست عشرة آية (من الآية 9 إلى 22، 25، 26) من هذه السورة المباركة.

وقد اختلف المفسرون في هوية أصحاب الكهف، ولكن الغالب أنهم كانوا من أتباع نبي الله عيسى ابن مريم، وأنهم عاشوا على أرض فلسطين في ظل احتلال الإمبراطور الروماني الطاغية (تراجان) الذي حكم في الفترة من 98م إلى 117م، واحتل أرض فلسطين سنة 106م، وأجبر أهلها على عبادة الأصنام، وطارد أتباع السيد المسيح عليه السلام، فقتل منهم من قتل وشرد من شرد. وأصحاب الكهف أنزل الله - تعالى - عليهم معجزة من عنده فناموا نوماً عميقاً لثلاثمائة وتسع من السنين القمرية، ثم بعثهم الله - تعالى - من نومهم هذا في عهد الإمبراطور (تيودوسيوس) في الفترة الواقعة بين 408م و 450م، وتؤكد ذلك النقود البيزنطية التي عُثر عليها في كهف يعرف باسم كهف (الرجيب بالعامية، وأصلها الرقيم كما سماه القرآن الكريم)، والذي اكتشف في صحراء البلقاء على بعد بضعة كيلو مترات من مدينة عمان.

وكان أول من كتب عن قصة أصحاب الكهف بالسريانية هو العراقي جيمس الساروغي **(James of Sarus)** المتوفى سنة 518م، ثم نقلها جريجوري إلى اللاتينية في القرن السادس الميلادي، ثم نقلت إلى كلٍ من الفارسية والعربية، واليونانية والحبشية والهندية، وعلق عليها المؤرخ البريطاني إدوارد جيبون **(Edward Gibbon)** في كتابيه المُعَنْوَنَيْن (سقوط روما وانحطاطها)، ثم (الصراع بين الإيمان والمادية)، واعتبرها من قبيل الخرافات التي ابتدعها الإغريق، وهذا باطل محض لا يدعمه دليل واحد، ومن أقوى ما يدحضه اكتشاف الكهف بنفس المواصفات التي حددها القرآن الكريم ولم ترد في روايات الأقدمين شيء عنها. وتؤكد السورة الكريمة أن معجزة أصحاب الكهف تشير إلى إمكانية البعث، وهي كغيرها من المعجزات التي أوردها القرآن الكريم، أمر يسير بالنسبة إلى طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في جنبات الكون: في الأنفس والآفاق والقادرة على تغيير سنن الكون ونواميس الحياة والموت.

5 - وتأمر السورة الكريمة رسول الله ﷺ، - كما تأمر كل مؤمن برسالته - أن يستعين دوماً بالمشيئة الربانية قبل الإقدام على أي عمل، وأن يداوم على ذكر الله وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: 23-24].

وتأمر السورة المباركة كذلك بالمداومة على تلاوة القرآن الكريم، وبالثبات على الصحبة الصالحة، والبعد كل البعد عن رفاق السوء فتقول:

﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: 27-28].

6 - وتؤكد السورة الكريمة على حرية الاعتقاد، وعلى أن الإنسان مخلوق ذو إرادة حرة:

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: 29].

وتصف جانباً من عذاب الظالمين، وطرفاً من ثواب المؤمنين الصالحين.

7 - وتذكر مثلاً لمن أبطرته النعمة، ولمن ثبتته العقيدة الصادقة، وتشير إلى مصير كل منهما في الدنيا قبل الآخرة، كما تضرب مثلاً بدورة الحياة والموت لتؤكد هوان هذه الدنيا الفانية إذا ما قورنت بالآخرة الباقية الخالدة، وتشير إلى حقيقة كبرى يصفها ربنا - تبارك وتعالى - بقوله:

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: 46].

8 - وتعرض السورة الكريمة لشيء من أوصاف الآخرة وما فيها من تدمير للكون، ثم بعث، وحشر، وعرض، وحساب فتقول:

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: 47-49].

9 - وتذكر سورة الكهف بقصة خلق أبينا آدم عليه السلام، وتشير إلى سجود الملائكة له انصياعاً لأمر الله - تعالى -، وإلى معصية إبليس برفض أمر الله - تعالى - له بالسجود لأبي البشر فسوقاً، وعصياناً، وكبراً واستعلاءً، ونهى الله - تعالى - عباده المؤمنين عن اتخاذ الشيطان وذريته أولياء وهم الأعداء الألداء.

وتؤكد السورة الكريمة على أن الحديث عن قضية الخلق بأبعادها الثلاثة: (خلق الكون، خلق الحياة، خلق الإنسان) هو متاهة كبيرة بغير الهداية الربانية التي جاءت في كتاب الله ﷻ ، وفي الصحيح المرفوع إلى رسول الله ﷺ من أحاديثه، فتقول:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51].

10 - وتعاود الآيات في سورة الكهف إلى وصف شيء من مواقف الحساب في الآخرة، وعلى ذل المشركين فيها فتقول:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: 52-59].

وما أروع هذه الآيات في التعبير عمن نزلت فيهم من المشركين والكفار، وما أروعها في الرد على خفافيش الظلام الذين يتوارون خلف شاشات شبكة المعلومات الدولية، أو بعض القنوات الفضائية المشبوهة ينفثون سمومهم ضد كتاب الله الخالد، وضد خاتم أنبيائه ورسله - صلى الله عليهم وسلم -، وكأن هذه الآيات قد نزلت فيهم وفي أمثالهم إلى يوم الدين...

11 - وبعد ذلك تعرض سورة الكهف لقصة نبي الله موسى مع العبد الصالح الذي

آتاه الله - تعالى - رحمة من عنده، وعلمه من لدنه علماً؛ ليؤكد على محدودية علم الإنسان مهما زاد، وعلى ضرورة الرضا بقضاء الله وقدره وإن بدا في غير صالح الإنسان؛ لأن علم الله - تعالى - محيط بكل شيء، وعلم الإنسان قاصر عن إدراك كل شيء، كما تؤكد على ضرورة رعاية اليتيم، وعلى أن اقتلاع الشر من الأرض واجب، وعلى أن صلاح الوالدين يبقى للذرية مهما طال الأمد.

12 - ثم تعرض السورة الكريمة لقصة العبد الصالح الذي مكن الله ﷻ له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً، والذي سمَّته السورة الكريمة باسم ذي القرنين، وتعرض لتعاملاته مع من مر عليهم من الأقوام، ومنهم يأجوج ومأجوج الذين أفسدوا في الأرض فأقام بينهم وبين جيرانهم سداً، وفي ذلك وصف للقائد الصالح المؤمن بربه وبرسالته هو في هذه الحياة الدنيا: عبداً لله يعبده ﷻ بما أمر، ويجاهد من أجل إعمار الأرض وإقامة عدل الله فيها، ومكافحة الظلمة المتجبرين على الخلق في كل مكان من الأرض. والإشارة إلى أن دك هذا السد الذي أقامه ذو القرنين هو من علامات الآخرة.

13 - تعاود الآيات في سورة الكهف إلى ذكر بعض مشاهد الآخرة وما فيها من بعث، وحشر، وعرض أكبر أمام الله - تعالى -، وحساب وجزاء، كما تعاود إلى استنكار شرك المشركين، وكفر الكافرين وإلى ذكر جزاء كلٍ منهم فيها فتقول:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦)﴾ [الكهف: 99-106].

14 - وتنتقل الآيات في ختام سورة الكهف إلى وصف شيء من جزاء المؤمنين، وإلى تعظيم القرآن الكريم فتقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ

﴿عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: 107–109].

15 – وتختتم سورة الكهف بنصيحة غالية على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ تؤكد بشريته، ونبوته، كما تؤكد التوحيد الخالص لله – تعالى – بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع ولا صاحبة، ولا ولد، وتؤكد ضرورة الحرص على العمل الصالح والتحذير من الشرك بالله – سبحانه – على أي مستوى يكون، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى – موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله – صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين –:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110].

ولروعة ما ورد في هذه السورة المباركة من معان كريمة – والقرآن الكريم كله رائع – روى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**» (رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي)، وقوله ﷺ: «**من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال**» (رواه مسلم والنسائي، والرواية أيضاً عن ثوبان).

من ركائز العقيدة في سورة «الكهف»:

1 – الإيمان بالله – تعالى – رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، ولا حاجة له إلى الصاحبة والولد، فهذه كلها من صفات المخلوقين، والخالق منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

2 – التصديق بالوحي بالقرآن الكريم، وبأنه كلام الله الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله بشيراً ونذيراً، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

3 – اليقين بنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين، والإيمان بهم جميعاً بغير تمييز ولا تفريق.

4 – التسليم بأن الدنيا دار اختبارٍ وابتلاءٍ للناس ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7]، وأن

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].

5 - الإيمان بالآخرة وبما فيها من بعث وحشر، وعرض أكبر أمام الله - تعالى -، وحساب وجزاء، وبأن الجنة حق، وأن النار حق، وأنها لجنة أبداً أو نار أبداً.

6 - اليقين بأن الشيطان وذريته أعداء للإنسان، فلا يجوز أبداً اتخاذهم أولياء، وأن الذين كفروا سوف يظلون دوماً يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ويتخذوا آيات الله وما أنذروا به هزواً وقد جعل الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: 25] وهؤلاء لن يهتدوا أبداً. وأن رسالة المرسلين، ودور الدعاة المهتدين من بعدهم هي البشارة والنذير.

7 - التصديق ببشرية رسول الله ﷺ، وببشرية جميع الأنبياء والمرسلين الذين دعوا جميعاً إلى عبادة الله - تعالى - وحده دون شريك.

من الإشارات الكونية في سورة «الكهف»:

1 - التأكيد على حتمية فناء الكون، والعلوم المكتسبة تؤيد ذلك وتدعمه.

2 - ذكر قصة أهل الكهف، والكشوف الأثرية تثبتها.

3 - التلميح إلى أن الضرب على الآذان يعين على الاستغراق في نوم عميق والبحوث العلمية تؤكد ذلك.

4 - الإشارة إلى تقليب النيام لحمايتهم من التقرحات الجسدية.

5 - تحديد فترة نوم أصحاب الكهف بثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، والثلاثمائة سنة شمسية تساوي ثلاثمائة وتسعاً من السنين القمرية ولا يمكن أن يكون ذلك مصادفة.

6 - وصف خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة، ثم تسويته إنساناً كاملاً، والوصف من الناحية العلمية في غاية الدقة.

7 - التأكيد على أن عملية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان قد تمت بمعزل تام عن الإنسان وقبل وجوده، والعلوم المكتسبة تدعم ذلك.

8 - تشبيه مرحلية الحياة الدنيا بدورة الإنبات والحصاد، والتشبيه صحيح تماماً.

9 - الإشارة إلى سبيكة الحديد والنحاس، وهي إحدى أقوى السبائك المعروفة صلابة ونعومة ملمس.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الثالثة فقط من القائمة السابقة، والتي تدور حول العلاقة بين الاستغراق في النوم العميق والضرب على الآذان، وإن كانت الحادثة معجزة، والمعجزات لا تعلل، ولكن الإشارة إليها في الآية الكريمة من اللافت للانتباه.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

من مآسي البشرية محاولتها القياس دوماً بمقاييس البشر، ونسيان أن قدرة الله الخالق لا تحدها حدود ولا يقف أمامها عائق:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

وبقياس أعمال الله - تعالى - بمعايير البشر تبدو غير ممكنة، ومن هنا أنكر الكفار كل المعتقدات الصحيحة، كما أنكروا كل المعجزات الحسية التي أجراها الله - تعالى - لعباده من الأنبياء والمرسلين، والكرامات التي وهبها لغيرهم من الصالحين.

وانطلاقاً من هذا الموقف الخاطئ أنكر المؤرخ البريطاني إدوارد جيبون **(EdwardGibbon)** واقعة أهل الكهف واعتبرها من قبيل الخرافات التي ابتدعها الإغريق، كما أنكرها الكثيرون غيره؛ لأنه ليس في مقدور الإنسان إبقاء جسد بشري في حالة من السبات العميق لمدة ثلاثمائة سنة ثم إيقاظه حياً، وإن كان الإنسان بإمكاناته المحدودة قد تمكن أخيراً من حفظ أعضاء من جسد الإنسان حية بالتبريد، وذلك مثل القلب، والكبد، والكلى، وقرنيات العيون، والدم، وغيرها، وذلك في عملية تعرف باسم وقف الاستقلاب **(Metabolic Inhibition)** وفي هذه العملية يتم وقف عمليات الهدم المدمرة للأنسجة، ومنها يمكن أيضاً تبريد جسد إنسان كامل بالتدريج إلى درجات حرارة منخفضة جداً فيتجمد الجسد دون ضرر لخلاياه ولا لأنسجته ولا لأجهزة جسمه، فيصبح شبيهاً بالميت، وبتدفئة هذا الجسد المتجمد بالتدريج أيضاً يمكن أن يعود إلى حالته الطبيعية، وقد عاد إلى الحياة في زماننا أشخاص دفنوا تحت الجليد لعدة أيام وبالتدفئة التدريجية عادوا إلى الحياة بإذن الله. وإذا كان ذلك قد أصبح اليوم في مقدور الإنسان، فهل يعجز رب الناس عن تحقيقه بأي طريقة يشاء؟.

ولو كان أهل الكهف نياماً نوماً طبيعياً لاحتاجوا إلى الماء والغذاء، وإلى إخراج الفضلات، وإلى غير ذلك من الأنشطة الحيوية، ولكن الله - تعالى - قد أوقف جميع

الوظائف الحيوية في أجسادهم بأمره الإلٰهي، وحفظ تلك الأجساد من التحلل على مدى ثلاثمائة من السنين الشمسية، وهي تساوي ثلاثمائة وتسعاً من السنوات القمرية.

ويعنينا هنا من الآية التي نحن بصددها العلاقة بين الضرب على الآذان والاستغراق في سبات عميق، وإن كان الأمر قد تم بمعجزة إلٰهية والمعجزات لا تعلل، ولكن نص الآية الكريمة يشير إلى علاقة ما قال عنها بعض المفسرين هي حالة من الإغماء الطويل، ولكن الإغماء العادي إذا طال دون عناية مركزة يفضي حتماً إلى الوفاة.

وقال البعض الآخر: إن الله - تعالى - قد حجب وظيفة السمع ليناموا، وإن كان الظاهر أنه ﷻ قد أوقف وظيفة السمع ضمن إيقاف جميع وظائف الجسم الأخرى، فآذانهم لا يسمعون بها رغم كونها موجودة، وعيونهم لا يبصرون بها رغم كونها مفتوحة، وعضلاتهم لا يستعملونها رغم كونها سليمة ولذلك قال - تعالى -:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾ [الكهف: 11-12].

ثم قال - تعالى -:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ﴾ [الكهف: 18].

ينفق الإنسان ثلث عمره في النوم، والنوم يلعب دوراً مهماً في تنمية الذاكرة. والنوم هو حالة من حالات الوجود للكائن الحي يتعرض فيها الجسم - بصفة عامة، والمخ بصفة خاصة - إلى سلسلة من التغيرات الأساسية التي تجعله مغايراً لحالة اليقظة مغايرة كاملة، وإن دخل إلى النوم عبر عدد من المراحل المتدرجة، فالشبكة العصبية للمخ تختلف في حالة المنام عنها في حالة اليقظة، وكذلك يختلف معدل تدفق الدم إليه، ووفرة الأكسجين ونسب توزيعه، وتتباطأ عمليات الاستقلاب في المخ، وكذلك جميع العمليات المستقلة (Autonomic Functions)، ومنها التحكم في درجة حرارة الجسم، وعمل نظام الغدد الصماء، وغيرها.

والجهاز العصبي المركزي (CNS) يتحكم في الدورة العادية لليقظة والمنام، وفي إحساس النائم بالوسط المحيط به، واليقظة يدعمها جهاز الحس، والنقص في مستوى هذا الحس أو غيابه هو الذي يؤدي إلى النوم (Bremer,1935) وثبت وجود علاقة عكسية

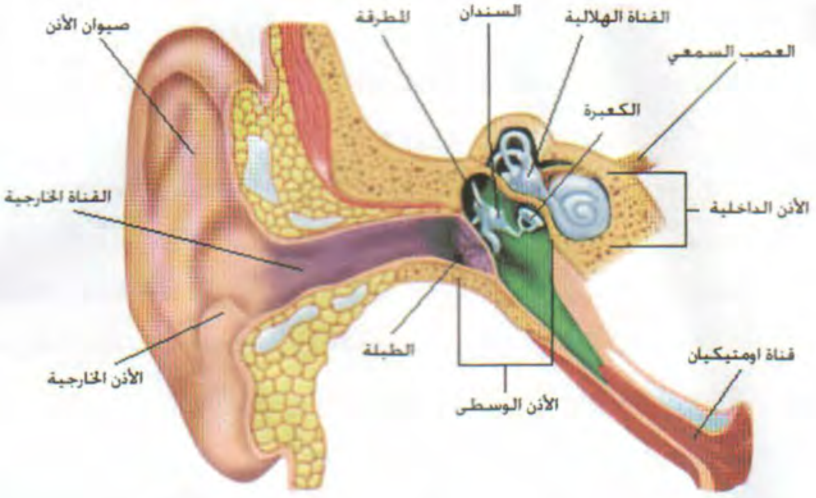

رسم تشريحي لجهاز السمع.

بين الاستغراق في النوم ومستوى الحس (Velluti,.1997) وعلى الرغم من أن قدرات المخ على تحليل المعلومات المحسوسة تتناقص بشكل ملحوظ عند النوم إلا أنها لا تتلاشى بالكامل، فجميع نظم الحس في الإنسان تتأثر بحالة النوم أو اليقظة للمخ وتؤثر فيه، والمخ النائم يفرض قيوداً على عملية تحليل المعلومات الواردة إلى الجهاز العصبي المركزي، ولو أننا لا نفهم بالكامل كيفية تحليل المخ للمعلومات الحسية الواردة إليه، وذلك لتعقيد الشبكات العصبية المستقبلة للمعلومات الواردة، وتلك الحاملة للأوامر الصادرة من المخ.

وهناك ملاحظات عديدة تدعم الارتباط الوثيق بين النوم ووظائف السمع؛ وذلك لأن السمع هو الجهاز الوحيد للاستقبال عن بعد الذي يبقى مفتوحاً بدرجة نسبية في أثناء فترة النوم ليبقى راصداً للبيئة التي يوجد فيها صاحبه النائم ولمختلف المؤثرات فيها، مثل بكاء الأطفال الصغار الذي سرعان ما يوقظ والديه أحدهما أو كلاهما خاصة الأم (Ricardo Velluti & Marisa Pedemonte,2002). كذلك فإن العلاقة بين الضجيج وقلة النوم، وبين الهدوء والاستغراق في النوم، وبين الإدراك السمعي والنوم، والذي يتمثل في وجود صور سمعية في حوالي 65% من الأحلام التي يتذكرها أصحابها، وتزايد تدفق

الدماء إلى مراكز السمع بشكل ملحوظ في أثناء النوم المنقطع (**Paradoxical sleep**) كل ذلك يؤكد العلاقة بين النوم ووظائف السمع؛ فإن الإشارة القرآنية الكريمة التي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: 11] تعتبر سبقاً علمياً في زمن لم يكن لأحد من الخلق أي إمكانية لإدراك ذلك. وقد تأكدت هذه العلاقة بتجربة علمية قامت بها طالبة بالمرحلة الجامعية الأولى بجامعة جون هوبكنز عمرها (21) سنة، واسمها سيريناج جونديك (**Serena J.Gondek**) تدرس الهندسة الطبية الحيوية (**Biomedical Engineering**) وقرأت بحثها أمام أحد المؤتمرات العلمية في (28/ 4/ 1998م) وقد استخدمت عدداً من الأقطاب الكهربية الموصلة مباشرة إلى المخ في محاولة للبحث عن أجزائه التي تستثار بالأصوات في أثناء النوم، فوجدت أن مراكز السمع الرئيسة على جانبي المخ فوق الأذنين مباشرة والتي تستقبل الأصوات في حالة اليقظة هي التي تستقبل الأصوات في حالة المنام، ولكن بدرجة أقل، وإن اشترك معها الفص الجبهي من المخ الذي له دور أساسي في عملية الوعي، وفي تقرير هل يوقظ صاحبه النائم أم لا عند تلقيه بعض الإشارات العصبية من المستثيرات الصوتية.

هذه العلاقة بين الآذان - وهي الأبواق الخارجية لمراكز السمع على جانبي المخ - وبين الاستغراق في النوم أو اليقظة منه بسبب انخفاض الموجات الصوتية الواصلة إلى الأذن أو ارتفاعها، هذه العلاقة لم تكن معروفة في زمن الوحي ولا لقرون عديدة من بعده ولم تدرس دراسة مختبرية إلا في القرن العشرين، ولم تتبلور بعض نتائجها إلا في العقود المتأخرة منه.

وسبق القرآن الكريم بذكر هذه العلاقة، وهو كتاب أُنزل على نبي أمي ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين من قبل ألف وأربعمائة سنة، مما يشهد لهذا الكتاب بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً، وحفظه كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهده سبحانه وتعالى بذلك إلى قيام الساعة، حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق بأنه كلام الله، وشاهداً أيضاً بالنبوة وبالرسالة للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

27 - ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾

[الكهف: 18]

هذا النص القرآني الكريم جاء في الربع الأول من «سورة الكهف»، وهي سورة مكية، وآياتها مائة وعشر (110) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى قصة أصحاب الكهف، وهم فتية مؤمنون فروا بدينهم ولجأوا إلى غار بجبل مكثوا فيه نياماً لفترة امتدت إلى ثلاثمائة وتسع من السنين القمرية، ثم بعثهم الله - تعالى - بعد تلك المدة الطويلة بمعجزة تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة.

وقد استعرضت هذه السورة العديد من القضايا تم التطرق إليها في المقال السابق، فسوف أقصر الحديث هنا على القضية التي تدور حول تقليب النيام لحمايتهم من التقرحات الجسدية وإن كانت الحادثة معجزة، والمعجزات لا تعلل، ولكن الإشارة إليها في الآية الكريمة من اللافت للانتباه.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾:

أرقد الله - تعالى - «أصحاب الكهف» ثلاثمائة وتسعاً من السنين القمرية ثم أيقظهم ليعلم الناس أن البعث حق وأن الساعة لا ريب فيها، وأن الله - تعالى - على كل شيء قدير، ونحن نؤمن بهذه المعجزة لورودها في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولإيماننا بأن الله - تعالى - على كل شيء قدير. ولكن

غير المسلمين يقيسون على الله - تعالى - بمقاييس البشر، ينكرون المعجزات ويعتبرونها ضرباً من الخرافات، ولذلك أنكروا الواقعة بالكامل - على الرغم من وجود إشارات لها في كتبهم القديمة ولكن اكتشاف الكهف بنفس المواصفات التي حددها القرآن الكريم يثبت صحة الواقعة.

وإن كان الاستغراب من قبل الكفار والمشركين منطلقاً من نوم الفتية لهذه المدة الطويلة من الزمن دون تحلل أجسادهم، فإن العلماء قد تمكنوا مؤخراً من حفظ دماء الإنسان وأعداد من خلاياه وأعضاء جسده بواسطة عمليات التبريد لمدة طويلة ثم إعادتها إلى حالتها السليمة برفع درجة حرارتها تدريجياً دون أن يصيبها أي أذى، وذلك في عملية تعرف باسم وقف الاستقلاب **(Metabolic Inhibition)** وفيها يتم وقف عمليات الهدم المدمرة للأنسجة، كذلك أمكن تبريد جسد إنسان كامل بالتدريج إلى حد التجمد فيصبح شبيهاً بالنائم أو الميت، وبتدفئة هذا الجسد المتجمد بالتدريج أيضاً أمكن إعادته إلى حالته الطبيعية دون أدنى ضرر بخلاياه أو بأنسجته أو بأعضاء جسمه. وقد عاد إلى الحياة في زماننا عشرات من الآدميين الذين دفنوا تحت الجليد لعدة أيام وذلك بتدفئة أجسادهم تدفئة تدريجية وإذا كان هذا الأمر قد أصبح اليوم في مقدور الإنسان. فهل يعجز رب العالمين عن تحقيقه بـ: كن فيكون.

ولو كان أهل الكهف قد ناموا نوماً طبيعياً لاحتاجوا إلى الماء والغذاء وإلى التخلص من فضلات ذلك وإلى غيره من الأنشطة الحيوية، ولكن الله - تعالى - قد أوقف جميع الوظائف الحيوية في أجسادهم بأمر منه، وحفظ تلك الأجساد من التحلل على مدى ثلاثمائة من السنين الشمسية هو أمر معجز حقاً وذلك لسلامة أجسادهم، وانفتاح أعينهم، وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال فلا يشك الناظر إليهم في يقظتهم. ولذلك قال ربنا - تبارك اسمه -: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ **[الكهف: 18]**.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾:

من الثابت علمياً أن الإنسان إذا لم يكن قادراً على تغيير وضعه في النوم أو في الجلوس فإن ضغط وزن جسمه على التفرعات الدقيقة للأوعية الدموية التي تغذي الجلد بالدم وبما يحمله من المواد الغذائية والأوكسجين يؤدي إلى إغلاق تلك الأوعية وإذا طالت الحال على ذلك فإن نسيج الجلد يموت وتتكون محله قرحة جلدية تسمى قرحة

صورة لقرحة جلدية «قرحة الفراش» من الدرجة الثانية.

الفراش (Bedsore) أو قرحة الضغط (Pressure Ulcer) وهذه القرح من الصعب اندمالها إذا أهمل علاجها، والجروح الناتجة عن تكوينها تصبح مؤلمة جداً في بعض الأحيان، وتؤدي إلى تدمير كل من الأنسجة والدهون والعضلات المحيطة بها ويمكن أن تؤدي إلى وفاة المصاب إذا لم تتدارك بالعلاج في الحال، وذلك برفع الضغوط المسببة للقرحة، وعودة دورة الدم إلى طبيعتها، والتطهير المستمر للجروح الناتجة عن القرحة للحيلولة دون فرص التلوث. وتكثر قرح الفراش فوق البروزات العظمية من مثل العمود الفقاري، العصعص، الحوض، الأكعاب، والمرافق، مما يضاعف من الضغوط المسببة لتهتك الأنسجة، وتتركز خطورة قرح الفراش في عمقها أكثر من اتساعها، وتمر بالمراحل التالية التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

المرحلة الأولى: وتبدو على هيئة حروق الشمس فيتلون الجلد باللون الأحمر أو البنفسجي ويبدو رقيقاً أو ملتهباً أو حساساً أكثر من اللازم، وقد يكون دافئاً، إسفنجي الملمس أو جامداً، وهذه الحروق سطحية وتشفى بمجرد إزالة الضغوط من عليها.

المرحلة الثانية: وفيها يبدأ الجلد بالتمزق، على هيئة التسلخات الجلدية المصاحبة بالورم والإفرازات المختلفة.

رسم قطعي لمراحل تقرح الفراش

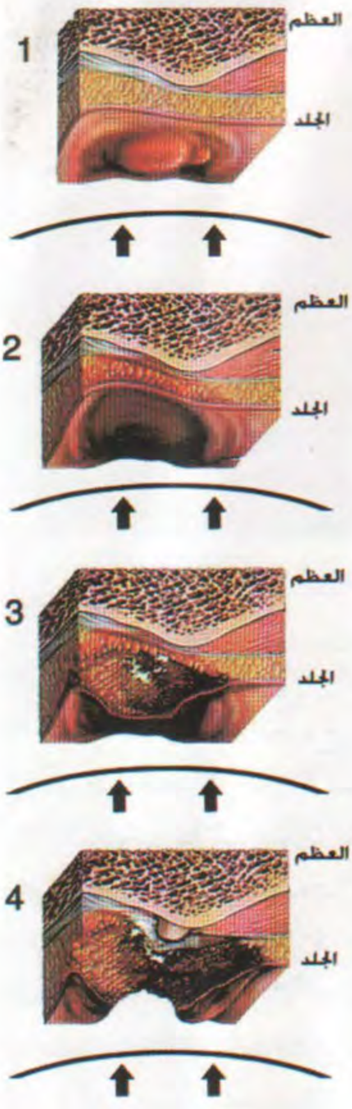

والقرحة هنا هي التهاب مفتوح لا يستغرق كل سمك طبقة الجلد، ولذلك يمكن تداركه بالعلاج السريع حتى يندمل.

المرحلة الثالثة: وفيها تهترىء طبقة الجلد بالكامل وتدمر أنسجتها وتصبح القرحة عميقة ويصعب علاجها الذي قد يستغرق مدة طويلة، لتحولها إلى مركز رئيسي للالتهابات المختلفة والتي قد تتسارع أخطارها إذا لم يتم تداركها في الحال لوقف الإصابة وانتشارها في الأنسجة المجاورة.

المرحلة الرابعة: وفيها تخترق القرحة طبقة الجلد بالكامل لتصل إلى كل من العضلات، والأعضاء الموجودة أسفل منها والعظام والأربطة والمفاصل، وقد تسود الأنسجة من حول هذه القرحة ولا يجدي فيها إلا الجراحة لإزالة الأنسجة المتحللة إن لم يكن قطع عضو من الأعضاء بالكامل، وإذا لم يتم ذلك فإن الجرح الملتهب قد يهدد حياة المصاب إلى الموت إذا لم يعالج في الحال.

وحتى بعد علاج قرح الفراش فإن أماكنها من الجلد لا تستعيد حيويتها بالكامل، وتصبح نقاط ضعف قد يتكرر تكوّن القرح فيها إذا تعرضت لأسبابه، وفي هذه الحالة تكون المخاطر أكبر.

وإنَّ ضغطاً على جسم الإنسان في حدود (60) مم زئبق لفترة تتراوح بين ساعة وساعتين يمكن أن يؤدي إلى بداية تهتك الجلد وتكون قرحة الفراش، ويعين على تسارع تكون تلك القرح كل من عمليات التمزق، والاحتكاك، والرطوبة الزائدة والمهيجات الكيماوية. ولذلك فإن تقلب النائم على جنبيه هو ضرورة لسلامته من قرح

السرير، وأقصى مدة لذلك يجب ألا تتعدى ساعتين من الزمن للراقد، و15 دقيقة للجالس المقعد في كرسيه.

من هنا كانت ومضة الإعجاز في قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: 18] وذلك لحمايتهم من التقرحات الجلدية وآثارها، وللإيحاء إلى من ينظر إليهم بأنهم أحياء.

وهذه حقيقة لم تكن معروفة في زمن الوحي ولا لقرون طويلة من بعده، وورودها في كتاب الله الذي أنزل على نبي أمي ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين من قبل ألف وأربعمائة سنة لمما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية - ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً، وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - حتى يبقى شاهداً على الناس كافة إلى قيام الساعة بأنه كلام الله الخالق، وشاهداً للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة والرسالة - فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

28 - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: 56]

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في الثلث الأول من سورة «النساء»، وهي سورة مدنية، وآياتها مائة وستة وسبعون (176) بعد البسملة، وهي رابع أطول سور القرآن الكريم بعد كل من سور «البقرة»، و«الأعراف»، و«آل عمران»، وقد سميت بهذا الاسم لكثرة ما ورد فيها من الأحكام الشرعية التي تتعلق بالنساء، وقد جاء ذلك بكثافة لم ترد في غيرها من سور القرآن الكريم ولذلك يطلق عليها أحياناً اسم «سورة النساء الكبرى» في مقابلة مع سورة «الطلاق» التي تعرف أحياناً باسم «سورة النساء الصغرى».

وقد سبق لنا استعراض سورة «النساء»، والتشريعات الإسلامية التي جاءت بها، وركائز العقيدة التي أكدت عليها، والإشارات الكونية التي استشهدت بها، وسوف أقصر حديثي هنا على إشارة واحدة من تلك الإشارات جاءت في الآية السادسة والخمسين من سورة «النساء»، يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: 56].

وقبل الوصول إلى الدلالة العلمية للآية الكريمة لا بد من شرح الدلالة اللغوية لعدد من ألفاظها.

من الدلالات اللغوية لعدد من ألفاظ الآية الكريمة:

أولاً: (نصليهم): أصل (الصلي) لإيقاد النار؛ ويقال: (صَلَى) بالنار واصطلى بها أي بُلِيَ بها؛ ويقال: (صَلَيْتُ) الشاة؛ أي: شويتها، وهي (مَصليَّة) أي: مشوية. وجاء الفعل **(يَصْلى)** بتصريفاته المختلفة خمساً وعشرين مرة في القرآن الكريم.

وفي اللغة (صلى) الكافر النار، أي: قاسى حرها، وقيل: (صلى) النار أي: دخل فيها، و (أصلاها) غيره، أي: أدخله فيها، وقيل: (صليا) جمع (صال)، و(الصلاء) يقال للوقود وللشواء. وقال بعض علماء اللغة أن أصل (الصلاة) من الصلاء وأن معنى (صلّى) أي: أزال عن نفسه (الصلاء) الذي هو نار الله الموقدة وذلك بأداء هذه العبادة العظيمة.

ثانياً: (نضجت): يقال: نضج اللحم (نَضجاً) و(نُضجاً) إذا أدرك شيّه، فهو (ناضج) و (نضيج)، وكذلك يقال للثمر إذا أدرك أوان أكله.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

يعتبر جلد الإنسان إهاباً يلف جسمه، ويحمي خلاياه وأنسجته وأعضاءه الداخلية، ويعطي لكل فرد منا شكله ولونه. وبالإضافة إلى ذلك يقوم جلد الإنسان بالعديد من الوظائف الحيوية المهمة من الحس واللمس، وتكوين (فيتامين د) من أشعة الشمس، وتنظيم درجة حرارة ونسبة رطوبة الجسم، وحمايته من الضغوط والمخاطر الخارجية من مثل الصدمات والكدمات، والملوثات، ومسببات الأمراض، وتقلبات الجو، والأشعات الضارة القادمة من الشمس أو من غيرها من المصادر خاصة الأشعة فوق البنفسجية وهي أشعة غير مرئية وضارة بالجسم إذا تعرض لها لفترات طويلة **دون حجاب**. من أجل هذه الوظائف المهمة أعطى الله ﷻ لجسم الإنسان قدرات هائلة على سرعة الالتئام ذاتياً، ومن أجل ذلك أيضاً يعتبره كثير من الأطباء جهازاً قائماً بذاته يعرف باسم الجهاز الجلدي (**The Integumentary System**) لذلك إذا دمر جلد الإنسان عن طريق الحرق الكامل أو الجروح العامة الواسعة الانتشار في الجسم فإن ذلك قد يؤدي إلى الوفاة.

وجلد الإنسان لا يتعدى سمكه ميليمتراً واحداً إلى خمسة ميليمترات (1 - 5مم) ويتكون من طبقتين أساسيتين كما يلي:

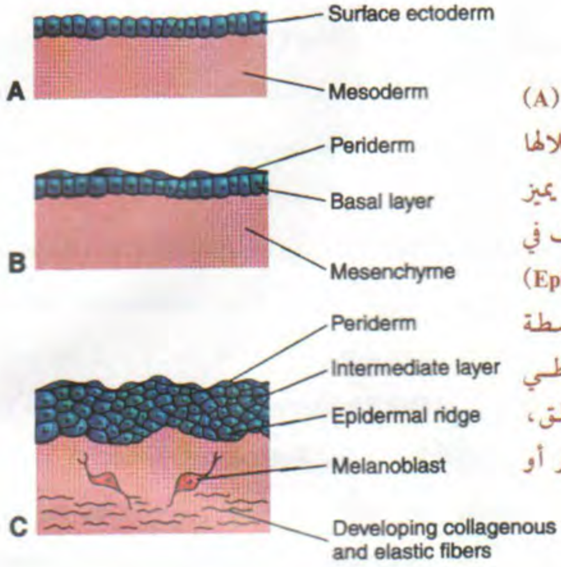

رسومات تبين تطور الجلد في الأسبوع الرابع (A) والسابع (B) والحادي عشر (C). ونرى من خلالها في الأسبوع الحادي عشر كيف أن معظم ما يميز الجلد من (خلايا ملونة Melanoblasts) و(حواف في الطبقة الخارجية من الجلد Epidermal ridges) وطبقة كثّة من (خلايا الطبقة المتوسطة Intermediate Layer) ونسيج مطاطي (Collagenous and elastic Fibers) قد تخلق، وذلك بعد تخلق العظم واللحم، وقبل الإذكار أو الإيناث بقليل.

1 - البشرة (The Epidermsis): أو طبقة الجلد العليا (الخارجية): وهي طبقة رقيقة جداً، عازلة للماء، ومكونة أساساً من الخلايا القرنية التي تشكل (90%) منها، وهي خلايا كاروتينية تنتج أليافاً بروتينية من مادة الكيراتين الحامية للجلد، وتحتوي البشرة أيضاً على الخلايا الصبغية التي تنتج صبغة الميلانين (**Melanin**) فتعطي للجلد لونه، وتحميه من الأشعة فوق البنفسجية الضارة وذلك بتدميرها وامتصاص ما بقي منها. وتتجدد البشرة تلقائياً مرة كل شهر تقريباً وذلك بتورق خلاياها من أجزائها السفلى، وتساقط الأجزاء العليا منها بطريقة مستمرة. **ويفقد كل فرد منا ما بين ثلاثين ألفاً إلى أربعين ألف خلية من خلايا البشرة في كل دقيقة، وحوالي تسعة أرطال من خلايا الجلد في كل سنة**. وتتغذى البشرة عن طريق الراقات العليا من طبقة الأدمة التي توجد أسفل منها والمعروفة باسم الأدمة المحببة (**The Papillary Dermis**) وذلك لأن البشرة لا يوجد بها أية أوعية دموية على الإطلاق وإن وجدت بها النهايات العصبية وجسيمات الحس، ومستقبلات اللمس والتي تعين على التمييز بين الأجسام والأنسجة المختلفة. ويمكن لمستقبلات اللمس في البشرة من إدراك منخفضات لا يزيد عمقها على (0,01) من الميليمتر، وإدراك أوزان لا تزيد كتلتها عن أربعة ميليجرامات (0,004 جم)، وهذا مما يعين مكفوفي البصر على القراءة بواسطة طريقة برايل **The Braille Method**، وعلى حسن إدراك طبائع الأشياء بواسطة أطراف أناملهم.

2 - الأدمة (The Dermis): وهي طبقة تحت البشرة مباشرة، سميكة نسبياً وتتكون من حزم من الأنسجة الضامة والألياف المكونة من مادة الكولاجين (**Collagen Fibrilis**) وأعداد من الخيوط المرنة، وتنتشر في الأدمة الأوعية الدموية، والليمفاوية، والنهايات العصبية، وجسيمات الحس، بالإضافة إلى الغدد العرقية (**Sweat Glands**)، والدهنية (**Sepaceous Glands**)، والزيتية (**Oil Glands**) وبصيلات الشعر وعضلاته، وغيرها من ملحقات الجلد.

وتنقسم الأدمة (الموجودة **تحت البشرة**) إلى قسم علوي رقيق محبب يعرف باسم الأدمة الحبيبية (**The Papillary Dermis**)، وقسم سميك سفلي شبكي يعرف باسم الأدمة الشبكية (**The Reticular Dermis**). وتتكون الأدمة من حزم ألياف الكولاجين المتقاطعة مع بعضها البعض بزوايا مختلفة تعين الجلد على التمدد دون تعرضه للتمزق. وفي فتحات هذه الطبقة الشبكية يختزن قدر من الماء المذاب فيه نسب مختلفة من أيونات العناصر «الإليكتروليتات». وأغلب هذا الماء مستمد من الدم، ويوجد على هيئة غير حرة. ويتحرك كلٌّ من الدم والليمف بالأدمة في نظام مغلق من الأوعية الدموية والليمفاوية المرنة والدقيقة جداً وشبه المنفذة، التي تتبادل مع خلاياها الأوكسجين في مقابل ثاني أوكسيد الكربون، والمواد الغذائية في مقابل نفايات الخلايا، وذلك في شبكتين أفقيتين من تلك الأوعية ترتبطان بعدد من الأوعية الرأسية. ويبلغ طول شبكة

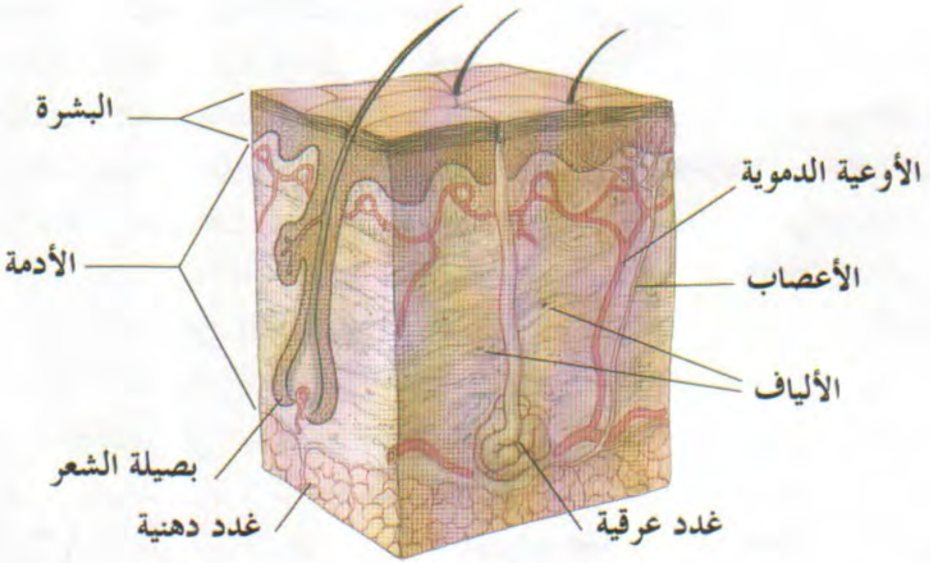

قطاع طولي في جلد الإنسان.

الأوعية الدموية في جلد فرد واحد من الأفراد البالغين حوالي (240 كم) بينما يصل طولها في كامل جسمه إلى حوالي (1440 كم).

وتتماسك الأدمة مع البشرة بواسطة نسيج رابط يعرف باسم الغشاء الأساسي الرابط (The Connecting Basement Membrane) ليكوّنا معاً ذلك الإهاب الواقي المعروف باسم **الجلد**، والذي يعلو طبقة من الألياف البروتينية والدهون الحاوية لأعداد من الغدد والمستقبلات الحسية تعرف باسم طبقة ما تحت الجلد (The Subcutaneous Layer). والأوعية الدموية في الأدمة الخارجية تلعب دوراً مهماً في تنظيم درجة حرارة الجسم، وتنظيم ضغط دمه، وذلك بالانكماش في الأجواء الباردة، وبالتمدد في الأجواء الحارة، كما يتم تنظيم درجة حرارة جسم الإنسان كذلك عن طريق بخر العرق.

كيف يحس جلد الإنسان ويشعر بالألم؟

يعتمد إحساس الإنسان بالوسط الخارجي عنه على عدد من الوسائط أهمها وأولها الجلد وما ينتشر به من نهايات عصبية تتصل بمراكز خاصة في المخ. فالجلد تنتشر به شبكة مكثفة من نهايات الأعصاب، ومن الخيوط والنهايات العصبية المتشعبة بدقة بالغة في مختلف أجزاء الأدمة، وتستمر إلى حد ما في البشرة. وهذه الأعصاب والخيوط العصبية ونهاياتها تنقل إلى كلٍّ من الحبل الشوكي، وجذع المخ وقشرته كل مسببات الألم من الضغوط، والاهتزازات، والالتهابات، والاحتكاكات والتباين في درجات الحرارة، وغيرها من المستقبلات الحسية التي تولد إشارة عصبية تصل فوراً إلى المخ. ومراكز الاستقبال الحسية تنتشر بكثافة على الجلد وتتركز في أجزاء خاصة منه. وقد ثبت بالدراسة أن السنتيمتر المربع الواحد من الجلد يحوي مستقبلين للحرارة، واثني عشر مستقبلاً للبرودة، وخمسين مستقبلاً للضغط، ومائتي مستقبل للألم. فإذا زادت درجة الحرارة على 45 درجة مئوية فإن مستقبلات الحرارة تتحول إلى مستقبلات للألم بدلاً من الشعور بالدفء، وبذلك يتضاعف الألم أضعافاً كثيرة.

ومضة الإعجاز في الآية الكريمة:

يقول ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: 56].

وهذه الآية الكريمة تؤكد أن إحساس الإنسان بالألم يتركز في الجلد، وإنه إذا انتزع الجلد فقد الإنسان الإحساس بالألم، ولذلك قال ربنا - عز من قائل -: ﴿... كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ...﴾ [النساء: 56].

وهذه الحقيقة العلمية لم يدركها الأطباء إلا في أثناء الحرب العالمية الثانية (1939م - 1945م) حين لاحظوا أن الجنود الذين قد أصيبوا بإصابات بالغة أثناء القتال أدت إلى تهتك الجلد بالكامل، لم يشعروا بالآلام إلا لحظة الإصابة، ولكن بعد تهتك أنسجة الجلد زال الألم فعلاً، واستنتجوا أن ذلك لا بد وأنه قد تم بسبب موت الأعصاب المتركزة في الجلد.

وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى ذلك فقال ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿... كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ...﴾ [النساء: 56].

ثم يأتي العلم في أواخر القرن العشرين ليؤكد وجود ملايين المستقبلات الحسية الموزعة في جلد الإنسان وإن تميزت بتركيز خاص في بعض أجزائه من مثل الشفاه والأنامل، وأن عدداً من هذه المستقبلات مخصص للمس، أو للشعور بالضغوط الخفيفة والثقيلة، وأن عدداً آخر مخصص للشعور بالألم، ومجموعة ثالثة مخصصة للشعور بالاختلاف في درجات الحرارة هبوطاً أو صعوداً عن درجة حرارة الجسم (37 درجة مئوية)، وأن مستقبلات الألم تتركز فقط في جلد الإنسان ولا توجد في غير الجلد من أجزاء جسمه، وأن مستقبلات الحرارة تتحول إلى مستقبلات للألم إذا تجاوزت درجة الحرارة التي يتعرض لها جسم الإنسان مقدار (45 درجة مئوية).

والآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها تعتبر سبقاً لجميع هذه المعارف المكتسبة بأكثر من ثلاثة عشر قرناً، ولا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدراً لهذا الحق الذي جاء فيها غير الله الخالق سبحانه وتعالى، فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على بعثة خير الأنام الذي بعثه الله - تعالى - بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة، وأنزل عليه القرآن الكريم شاهداً له بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

29 - ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾

[العلق: 16]

هذه الآية الكريمة جاءت في خواتيم سورة «العلق» وهي سورة مكية، وآياتها تسع عشرة (19) بعد البسملة، والآيات الخمس الأولى منها هي أول ما نزل من القرآن الكريم. وقد سميت السورة بهذا الاسم للإشارة في مطلعها إلى خلق الإنسان من (علق) وهي مرحلة من مراحل جنين الإنسان تشبه دودة العلق شكلاً ووظيفة.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، شأنها في ذلك شأن كل السور المكية، وقد سبق لنا استعراض هذه السورة المباركة وما جاء فيها من ركائز العقيدة، والعبادة، والإشارات الكونية في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم (25)، ولذلك سوف نركز هنا على الدلالات اللغوية والعلمية للنص القرآني التي تدور قضيته حول دور الناصية في تحديد سلوك الإنسان.

من الدلالات اللغوية للآية الكريمة:

(الناصية) واحدة النواصي وهي الجبهة أو مقدم الرأس، أو هي المسافة من فوق العينين إلى منبت الشعر في مقدم الرأس، وسمي الشعر الذي ينبت من ذلك الموضع ناصية على سبيل المجاز ويقال: انتصى الشعر أي: طال حتى نزل على الناصية.

ويقال (نَصَاه) أي: قبض على ناصيته، وفعله (نَصَا) (يَنْصو) (نَصْواً) من باب (عدا) (يعدو) (عدواً). وعلى ذلك يقال: (نَصَوْتُ) فلاناً و(انْتَصَيْتُه) و(نَاصَيْتُه) أي: أخذت بناصيته. وفي قوله - تعالى -: ﴿إِنِّي

تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: 56].

والأخذ بالناصية هنا كناية أو مجازاً عن قمة التمكن والتحكم والقهر والغلبة فلا يخرج الموصوف بذلك عن الأمر، وإن لم يكن هناك أخذ فعلي بالناصية. وفي قوله - تعالى -: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمٰن: 41] أي فتأخذ الملائكة بنواصيهم، مجموعة إلى أقدامهم فتقذف بهم إلى النار. والعرب إذا أرادوا وصف إنسان بالذلة والخضوع والهوان لغيره قالوا: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، أي أنه في قبضته يصرفه كيف يشاء.

وجاء في سورة «العلق» قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: 16،15] و(السفع) هو الأخذ بشدة، وهو أيضاً السواد الذي يعلو الوجه من شدة الغضب أو من شدة الحرق، وباعتبار السواد: قيل للصقر: (أسفع) لما به من لمع السواد وقيل لأنثاه: (سفعاء).

وجاء في أقوال رسول الله ﷺ ما رواه كل من الإمام أحمد، والطبراني، والحاكم وما نصه: «**ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرجاً**»[1].

وروي عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قولها: «ما لكم تنصون ميتكم؟» أي: تمدون ناصيته. ويقال: فلان (ناصية) قومه و(نصيّتهم) أي: رأسهم وعينهم وخيارهم و(النصي) أفضل المراعي.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

في وصف **ناصية** كافر مثل أبي جهل بأنها (.. **كاذبة خاطئة**) تشير الآية السادسة

---

(1) ذكره الهروي في: «غريب الحديث» (4/ 314)، وذكره الزمخشري في «رد الفائق في غريب الحديث» (3/ 437)، وذكره ابن الأثير في: «النهاية في غريب الحديث» (2/ 752) ط. دار المعرفة.

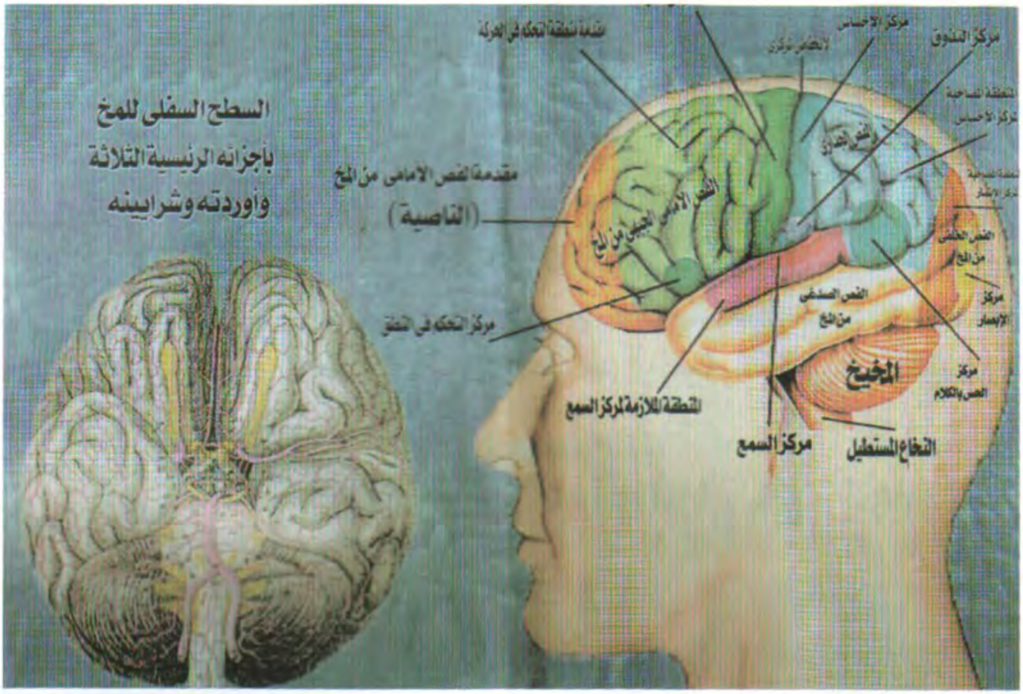

رسم توضيحي يبيّن مكان الناصية من دماغ الإنسان.

عشرة من سورة «العلق» إلى حقيقة علمية لم تبدأ في الانكشاف للإنسان إلا من بدايات النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي، ولم يتم تبلورها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين. وهذه الحقيقة تتلخَّص في أن ناصية الإنسان هي مركز التحكم في اتخاذه للقرار، وفي تصرفاته حيال الأحداث وفي حكمه على الأشياء، ولذلك قال ربنا - تبارك وتعالى - في حق الطاغية الكافر أبي جهل:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: 15،16].

وقد كانت سورة «العلق» من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة، في زمن لم يكن لأحد من الخلق إدراك لدور الناصية في حياة الإنسان، ذلك الدور المهم الذي لم يلاحظ إلا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حين تعرض أحد العمال الأمريكيين لحادث أصاب ناصيته (في صيف سنة 1848م)؛ هذا الشاب الأمريكي كان يحمل اسم فينياس ب. جيدج **(Phineas P. Gage)** وكان يعمل في شق طريق لخط من خطوط السكك الحديدية في الجزء الشمالي الشرقي من الولايات

المتحدة الأمريكية، وفي أثناء تفجير إحدى الوحدات الصخرية تطاير قضيب حديدي يزن نحو 13 رطلاً ليضربه في جبينه فأزال جزءاً من جمجمته وجزءاً من مقدمة مخه تحت الجبهة تماماً، ولقد نجا هذا الشاب من الموت، ولكنه أصيب بتغير تام في شخصيته، وتحول إلى إنسان آخر غير الذي كان قبل الحادث الذي تعرض له، وإن بقي قادراً على الكلام، والسمع والبصر، والشم والتذوق، واللمس والتحكم في حركة أعضاء بدنه بطريقة طبيعية. وكان من أوضح ملامح التغيير التي طرأت عليه: العدوانية الشديدة، الكذب، عدم الشعور بالمسؤولية، عدم القدرة على التعبير المنطقي السليم، سرعة الغضب، فقد القدرة على الإرادة والتحكم في النفس، وعلى التخطيط، وعلى الثبات العاطفي، وعلى تغيير السلوك، وعلى اتخاذ القرار المناسب، وعلى التفاعل السليم مع الآخرين، وعلى مواجهة المشاكل التي كانت تقابله، وقد كان لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره.

وهذه الحادثة على مأساويتها كانت فتحاً لأطباء المخ والأعصاب، فقد تعلموا منها أن لكل جزء من المخ وظائفه الخاصة به، ومن أجل تحقيق ذلك بدأوا باستثارة أجزاء من المخ كهربياً في سلاسل من التجارب المكررة، كما بدأوا بتدمير أجزاءٍ مختلفة من

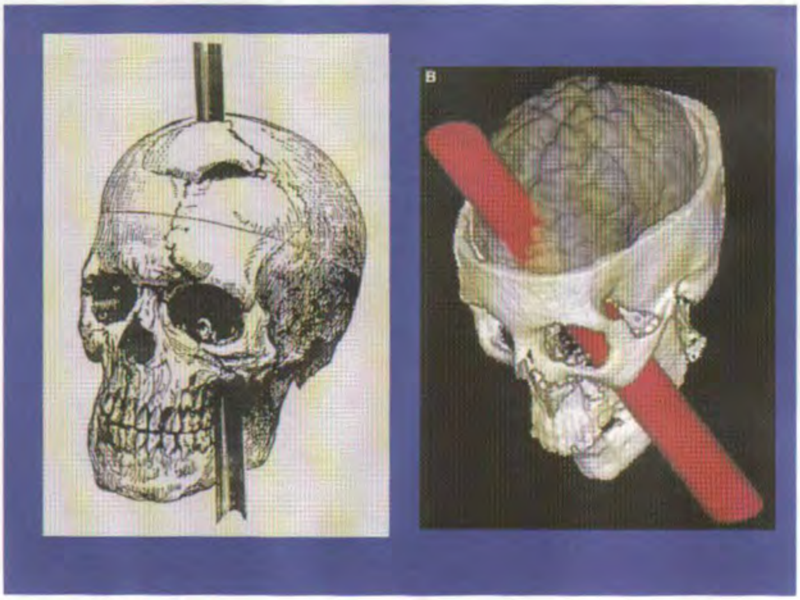

رسم تصوري للقضيب الحديدي الذي ضرب جبين العامل (فينياس) وأثر في شخصيته من خلال تضرر ناصيته.

المخ في حيوانات التجارب، وذلك في سلاسل من التجارب المعادة من أجل التوصل إلى معرفة وظائف الأجزاء المختلفة من المخ

(Dr. Renato M. E. Sabbatini: Brain and Mind Magazine, 1997).

وبعد مجاهدات استغرقت آلافاً من العلماء ومئات من السنين، ومن التجارب العملية والملاحظات السريرية توصل علماء المخ والأعصاب إلى أن مخ الإنسان الذي لا يشكل أكثر من 2% من وزنه (أي نحو 1 إلى 1,5 كيلو جرام في المتوسط) يتحكم في جميع أنشطته الذهنية والبدنية.

ويتكون مخ الإنسان من كتلة بالغة التعقيد من الخلايا والأنسجة العصبية الممتدة من الحبل النخاعي الشوكي، والمحتواة في داخل الجمجمة. وتنقسم هذه الكتلة العصبية بالغة التعقيد إلى وحدات رئيسة ثلاث على النحو التالي:

رسم تخطيطي يبين المخ وبقية الجهاز العصبي في جسم الإنسان.

أ - **البصلة المخية، (أو النخاع المستطيل Medulla oblongata)** وتصل المخ بالحبل العصبي المركزي المعروف باسم الحبل النخاعي الشوكي (**The Spinal Cord**) ليكوّنا معاً الجهاز العصبي المركزي (**The Central Nervous System**)، ويقوم النخاع المستطيل بتنظيم عدد من وظائف الأعضاء الأساسية والتنسيق بينها، وذلك من مثل: التنفس، ضغط الدم، دقات القلب وغيرها، ويعرف باسم الجزء الأسفل أو الخلفي من المخ (**The Hindbrain**).

ب - **المخيخ (The Cerebellum)**: ويوجد فوق النخاع المستطيل مباشرة، ويعرف أحياناً باسم الجزء الأوسط من المخ (**The Midbrain**) ويقوم بالتنسيق بين العمليات العضلية المعقدة من مثل انتصاب القامة، وحركات الأطراف.

ويكوّن كل من النخاع المستطيل والمخيخ ما يعرف باسم جذع المخ (**The Brain Stem**).

ج - **المــخ (The Cerebrum)**: ويــعــرف باســم الجــزء الأمامــي من المخ **(The Forebrain)** ويمثل أكبر الأجزاء الثلاثة حجماً، وتتركز فيه كل عمليات تلقي المعلومات من جميع مراكز الحس في الجسم، وكما تتركز فيه مراكز تحليل هذه المعلومات، والتنسيق بينها وتكاملها. وكذلك تتركز فيه مراكز جميع الأنشطة العقلية والسلوكيات الذكية. ويتغطى المخ بطبقة سميكة نسبياً من الخلايا العصبية تعرف باسم المادة الرمادية **(The Gray Matter)** ويربطها مع بعضها البعض ومع باقي أجزاء الجهاز العصبي المــركزي طبقة خيطية دقيقة توجد أسفل منها وتعرف باسم المادة البيضاء **(The White Matter)** وتعرف الطبقتان باسم غطاء المخ **(The Cerebral Cortex)** ويتعرج سطح المخ بالعديد من الطيات المقعرة والمحدبة المتداخلة في بعضها البعض بشكل فائق التعقيد.

ويقسم المخ ذاته إلى أربعة فصوص رئيسة (لكل منها وظائفه الخاصة به) كما يلي:

1 - **الفص الجبهي أو الأمامي (The Frontal Lobe)**: ويقع في الجزء الأمامي من المخ ممثلاً أكبر أجزائه، ويعتبر مركز التحكم في معظم الأنشطة الذهنية من مثل الحواس والعواطف والمشاعر، والذاكرة، والنطق، واللغة، وفي حركة معظم أجزاء الجسم، وتتركز أغلب هذه الصفات في غطاء مقدمة هذا الفص الأمامي **(The pre-Frontal area)** الذي يعرف باسم غطاء مقدمة الفص الجبهي للمخ **(The Pre-Frontal Cortex)** ويقع هذا الغطاء خلف الجبهة تماماً في المسافة بين العينين ومنبت شعر الرأس ولذلك فهو المقصود بالتعبير القرآني **(الناصية)**.

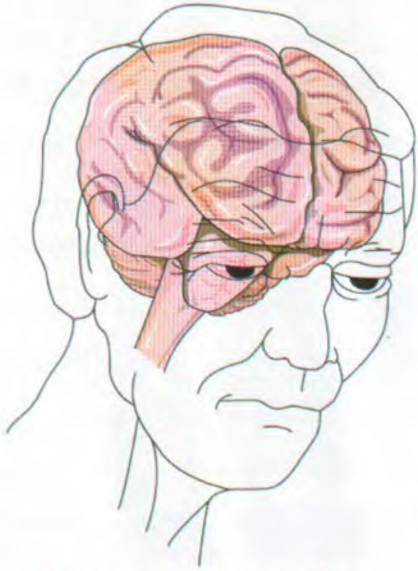
رسم تخطيطي يوضح موقع الناصية في المسافة بين العينين ومنبت الشعر.

وقد ثبت بالتجربة أن **الناصية (غطاء مقدمة الفص الجبهي للمخ) تتحكم في الإرادة، والمشاعر والأحاسيس، والقدرة على التخطيط، واتخاذ القرارات، والحكم على الأشياء، والتمييز بينها، والتفاعل مع الآخرين، والتبصر في الأمور، والثبات**

العاطفي، والقدرة على ضبط السلوك، وعلى مواجهة المشاكل، وعلى الشعور بالمسؤولية، وغير ذلك من الوظائف العقلية العليا والصفات المحددة لشخصية الإنسان الفرد.

ويأتي خلف تلك المقدمة الجبهية أو الناصية بقية الفص الأمامي للمخ، ويقع في غطائه مراكز التحكم في حركة مختلف أجزاء جسم الإنسان ولذا يعرف باسم غطاء الجزء المخي المرتبط بالحركة (**The Motor Association Cortex**)، وبالإضافة إلى تحكمه في التنسيق بين حركات مختلف أجزاء الجسم، يقع فيه **مركز التخيل** (**The Imagination Center**)، وفي وسطه مركز التحكم في الكلام وفي الحدس والتوقع (منطقة بروكا = **Broca's Area**).

رسم يوضح أجزاء المخ الرئيسة.

ولما كان غطاء مقدمة الفص الجبهي للمخ له كل هذه القدرات الحاكمة لشخصية الإنسان، وكان وضعه خلف الجبهة مباشرة أو ما يعرف **بالناصية**، كان الوصف القرآني لجبهة كافر مثل أبي جهل بأنها: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ سبقاً علمياً مبهراً تقدم على العلوم المكتسبة بأكثر من اثني عشر قرناً.

2 - الفص الجداري (The Parietal Lobe): ويقع في قمة المخ، خلف الفص الجبهي مباشرة، وبه مراكز التوجيه المكاني، والتمييز بين الأشكال والأحجام والتضاريس المختلفة، وبه مراكز الاتجاهات، ومراكز القدرات الحسابية، ومراكز التعبير عن العواطف وفهمها.

3 - الفص الصدغي (The Temporal Lobe): ويوجد أسفل الفص الجداري، وبه مراكز التحكم في السمع، وفي كل من ذاكرتي الكلام والأصوات.

4 - **الفص الخلفي (The Occipital Lobe)**: ويقع في خلف المخ، وفي قاعدته مركز الإبصار، وفوقه منطقة القراءة والذاكرة البصرية، والمنطقة المصاحبة للرؤية، والتي إذا تعرضت للتلف فإن صاحبها يرى ولكنه لا يستطيع التمييز بين ما يراه.

من هذا الاستعراض السريع يتضح أن غطاء مقدمة الفص الجبهي من المخ (The Pre-Frontal Cortex) الذي يقع خلف عظام الجبهة تماماً، في المسافة بين العينين ومنبت شعر الرأس هو المقصود بتعبير **الناصية** في القرآن الكريم، وقد ثبت علمياً، وبتجارب قابلة للتكرار والإعادة، وبدراسات سريرية عديدة أن هذا الجزء من مخ الإنسان يحوي مراكز التفكير والتخطيط واتخاذ القرار، ومراكز الإرادة، وغير ذلك من الوظائف العليا للمخ، ومن ثم فإن في صلاحه صلاحاً لصاحبه، وفي فساده فساداً له ودماراً في الدنيا والآخرة. ومن هنا كان في وصف القرآن الكريم لناصية كافر مجرم مثل أبي جهل بأنها **(ناصية كاذبة خاطئة)** من السبق العلمي لكل المعارف المكتسبة بأكثر من اثني عشر قرناً من الزمان، ما يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية لأنه لا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدراً لهذا العلم من قبل أربعة عشر قرناً غير الله الخالق، الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد سبحانه وتعالى بهذا الحفظ إلى قيام الساعة، حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على الناس كافة بأنه كلام الله الخالق، وشاهداً للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة سيد الأنام: سيدنا محمد بن عبد الله الذي ختم الله ببعثته النبوات، وبرسالته كل الرسالات، وأكمل بها الدين، وأتم النعمة على عباده الصالحين، والحمد لله رب العالمين الذي لا شبيه له من خلقه، ولا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، الغني عن الصاحبة والولد لأنهما من صفات المخلوقين، وهو تعالى منزه عن جميع صفات خلقه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

30 - ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في مطلع النصف الثاني من سورة «الحج»، وهي سورة مدنية، وآياتها 78 بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الأمر فيها من الله - تعالى - إلى عبده ورسوله إبراهيم عليه السلام أن يؤذّن في الناس بالحج وذلك بقوله العزيز:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [الحج: 27].

وسورة «الحج» هي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي جمعت بين سجدتين من سجدات التلاوة، ويدور المحور الرئيس للسورة حول عدد من التشريعات الإسلامية المتعلقة بفريضة الحج، وبالإذن بالجهاد في سبيل الله، وبالأمر بعبادته - سبحانه - والسجود لجلاله، وبالإيمان بالبعث بعد الموت، والاستعداد لأهوال الآخرة.

ويصحب هذه التكاليف وعد قاطع من الله - تعالى - بنصره لعباده المؤمنين المجاهدين في سبيله، وبالتمكين لهم في الأرض، مع التأكيد على قوة الله البالغة، وضعف كل المخلوقين أمامها، والاستشهاد على ذلك بالتذكير بمصارع الغابرين من الكفار والمشركين، والبغاة الظالمين المفسدين في الأرض، والتأكيد على سنن الله - تعالى - في ذلك، وهي لا تتوقف ولا تتبدل ولا تتخلف أبداً.

وتبدأ سورة الحج بدعوة الناس جميعاً إلى تقوى الله ﷻ، وتحذرهم من أهوال الساعة، ومن اتباع الشيطان، مؤكدة حتمية البعث، ومستشهدة على ذلك بخلق الإنسان من تراب، ثم مروره بمراحله الجنينية حتى يولد، ومشبهة عملية البعث بإنبات الأرض بعد إنزال الماء عليها، مؤكدة أن الله - تعالى - هو الحق، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

وتعاود السورة الكريمة إلى تحذير من يضلهم الشيطان فيجادلون في الذات الإلٰهية بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير؛ ليضلوا غيرهم، وتؤكد أن هؤلاء لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب شديد، وتشير إلى أن من الناس من يعبد الله - تعالى - طمعاً في كريم عطائه فقط، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن ابتلي بفتنة انقلب على عقبيه فخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وتحذر سورة الحج من الشرك بالله واصفة هذا الموقف بالضلال البعيد، ومؤكدة عجز الشركاء المزعومين عن نفع أو ضر من أشركوا بهم، وفي الوقت نفسه تبشر بجزاء المؤمنين الصالحين الموحدين لله - تعالى - فتقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: 14].

وتؤكد الآيات أن الله - تعالى - قد تعهد بنصرة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ برغم كيد الكائدين، وحقد الحاقدين من الكفار والمشركين، كما تؤكد على الوحي بالقرآن الكريم، وعلى الفصل بين أصحاب الملل والنحل المختلفة في يوم القيامة، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: 16-17].

وتؤكد الآيات في سورة الحج أن جميع من في السمٰوات والأرض وما فيهما من مخلوقات يسجد لله - تعالى - في عبودية وخضوع كاملين، يمثلان قمة التكريم للمخلوق؛ لأن من يعرض عن ذلك من أصحاب الإرادة الحرة فليس له من مكرم.

وتمايز سورة الحج بين عذاب الكافرين في الآخرة ونعيم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، مؤكدة أن الصد عن سبيل الله - تعالى - وعن المسجد الحرام والظلم والإلحاد فيه هي من صور الكفر بالله.

وتستعرض الآيات كيف هدى الله - تعالى - عبده ورسوله إبراهيم عليه السلام إلى التوحيد الخالص، وإلى مكان البيت الحرام، وكيف أمره برفع قواعده، وإعادة بنائه، والعمل على تطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود، وأن يؤذّن في الناس بالحج يأتوه من كل فج عميق.

وأمرت الآيات بتعظيم شعائر الله، مؤكدة أن ذلك من تقوى القلوب، وحذرت من انتهاك حرماته، وأمرت بالحلال من الطعام، وباجتناب الرجس من الأوثان، واجتناب قول الزور، وأمرت بالتزام الحنيفية السمحة، ونهت عن جميع صور الشرك بالله - تعالى -، وأنذرت بعقاب المشركين، وأشارت إلى أن الله تعالى قد جعل على كل أمة قرباناً تقدمه لذاته العلية؛ شكراً على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

وتكرر سورة الحج التأكيد على وحدانية الله، وعلى ضرورة الخضوع الكامل لجلاله بالإسلام، وتأمر خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يبشر بخيري الدنيا والآخرة جميع المؤمنين الذين يعملون الصالحات، المتواضعين لله - تعالى -، والمطمئنين إلى عدالة حكمه، والذين تخشع قلوبهم بذكره، والصابرين على قضائه، والمقيمين للصلاة، والمنفقين مما رزقهم الله.

ويتكرر في سورة الحج الإذن من الله - تعالى - بالقتال الدفاعي للذين ظُلموا وأُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، وتؤكد الآيات أن الله - تعالى - سوف ينصر من ينصره، وهو القوي العزيز، وتصف أنصار الله بقوله - تبارك اسمه-:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

وتخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في مواساة رقيقة من الله - تعالى - لتكذيب الكفار والمشركين لبعثته الشريفة فتقول:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ

لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ
بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ
(٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ
مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ
ٱلْمَصِيرُ (٤٨)﴾ [الحج: 42-48].

وتطالب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين بأن يعلن للناس كافة أنه نذير مبين لهم من لدن رب العالمين، فتقول:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (٥١)﴾
[الحج: 49-51].

وتؤكد سورة الحج أن الله قد أحكم آيات كتابه الخاتم، وحفظه من كل شيطان رجيم؛ حتى يبقى حجة على الخلق أجمعين إلى قيام الساعة، وفي ذلك تقول:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ
وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ
مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج: 54-55].

وتعاود السورة الكريمة إلى وصف الجزاء في الآخرة، مؤكدة الفرق الهائل بين نعيم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وجحيم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله، وواصفة ثواب المهاجرين في سبيل الله، والمجاهدين من أجل إعلاء دينه وإقامة شرعه وعدله على الأرض، وأن الله - تعالى - قد أخذ العهد على ذاته العلية بنصرة كل مظلوم.

واستشهدت سورة الحج بآية تبادل الليل والنهار على حقيقة الألوهية، فتقول:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 61].

ثم استشهدت بإنزال الماء من السماء واخضرار الأرض به، مؤكدة أن لله ما في السمٰوات وما في الأرض، وأنه - تعالى - سخر للإنسان ما في الأرض، وأجرى الفلك في البحر بأمره، وأنه هو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وهو الذي أحيا الناس بخلقهم من العدم، ثم يميتهم ثم يحييهم للحساب والجزاء، وأنه هو الغني الحميد، وبالناس لرءوف رحيم، وأن الإنسان لكفور بنعم ربه في أغلب الأحوال.

وتعاود الآيات إلى تأييد رسول الله ﷺ في وجه المكذبين له وللقرآن الكريم، فتقول له:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج: 67-72].

وتشير الآيات إلى عجز الناس جميعاً وشركائهم عن الخلق، حتى ولو كانت ذبابة، وإلى عجزهم عن استرجاع ما يسلبهم الذباب - تلك الحشرة الضعيفة - من شيء، وتأكيداً على أن الكفار والمشركين لم يعرفوا معنى الألوهية فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: 73-74].

وتختتم سورة الحج بالتأكيد على حقيقة كلٍ من الوحي والنبوة والرسالة، وعلى إحاطة علم الله بكل شيء، وعلى حتمية رجوع كل شيء إليه، وتأمر المؤمنين بعبادة الله - تعالى - كما أمر، وبفعل الخير، وبالجهاد في سبيله، وبالشهادة على الناس، وبالاعتصام بحبل الله فتقول:

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾
يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾
وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ
أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ
وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ
فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: 75-78].

من العبادات المفروضة في سورة «الحج»:

1 - إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

2 - الجهاد في سبيل الله - تعالى -؛ دفعاً لظلم الظالمين، ولبغي الباغين.

3 - الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

4 - محاربة الشيطان، واتقاء إغراءاته، والامتناع عن قول الزور والعمل به.

5 - التخلص من الشرك بكل أشكاله وصوره.

من الإشارات الكونية في سورة «الحج»:

1 - التأكيد على خلق الإنسان من تراب، ووصف مراحل الجنين البشري المتتالية بدقة بالغة حتى يخرج إلى الحياة طفلاً يحيا ما شاء الله له أن يحيا، ثم يتوفاه الله - تعالى - عند نهاية أجله، والذي يرد من البشر إلى أرذل العمر تضعف ذاكرته - في أغلب الأحوال - حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً.

2 - الإشارة إلى اهتزاز الأرض، وارتفاعها، وإنباتها من كل زوج بهيج بمجرد إنزال الماء عليها، وتشبيه بعث الأموات من قبورهم بإنبات الأرض.

3 - تأكيد حقيقة أن جميع من في السمٰوات والأرض يسجد لله - تعالى - طوعاً أو كرهاً إلا عصاة الإنس والجن.

4 - التأكيد على حقيقة أن القلوب تعقل وتعمى، وهو ما ابتدأت العلوم المكتسبة في التوصل إليه.

5 - وصف نسبية كلٍ من المكان والزمان في منظور الإنسان انطلاقاً من ضخامة الكون، وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47].

6 - التعبير عن كلٍ من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس بولوج كلٍ من الليل والنهار في الآخر.

7 - الإشارة إلى أن كل ما في الأرض مسخر للإنسان، وأن الفلك تجري في البحر بأمر الله.

8 - التأكيد على أن الله - تعالى - هو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

9 - الإشارة إلى عجز كل المخلوقين عن الخلق - حتى ولو كانت ذبابة -، وإلى عجزهم عن استرجاع ما يسلبهم الذباب من شيء.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث إن شاء الله - تعالى - على ما تم كشفه مؤخراً عن وجود خلايا عصبية للذاكرة في الغشاء البريتوني المحيط بالقلب، مما يؤكد وصف القرآن الكريم للقلب بأنه إما أن يعقل أو أن يعمى.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله - تعالى -:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: ... وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ...﴾ [الحج: 46] أي بأبدانهم وبفكرهم أيضاً؛ وذلك للاعتبار، أي: انظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال، ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾ أي: فيعتبرون بها، ... ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر.

● وجاء في «الظلال» - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما نصه:

«إن مصارع الغابرين حيالهم شاخصة موحية، تتحدث بالعبر، وتنطق بالعظات... ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ...﴾ فيروها فتوحي لهم بالعبرة؟، وتنطق لهم بلسانها البليغ؟، وتحدثهم بما تنطوي عليه من عبر؟، ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ...﴾ فتدرك ما وراء هذه الآثار الدوارس من سنة لا تتخلف ولا تتبدل. ... ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فتسمع أحاديث الأحياء عن تلك الدور المهدمة والآبار المعطلة والقصور الموحشة؟ أفلم تكن لهم قلوب؟ فإنهم يرون ولا يدركون، ويسمعون ولا يعتبرون... ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ويمعن في تحديد مواضع القلوب:... ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ زيادة في التوكيد، وزيادة في إثبات العمى لتلك القلوب على وجه التحديد ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكرى، وجاشت بالعبرة، وجنحت إلى الإيمان خشية العاقبة الماثلة في مصارع الغابرين، وهي حولهم كثير. ولكنهم بدلاً من التأمل في تلك المصارع، والجنوح إلى الإيمان، والتقوى من العذاب... راحوا يستعجلون بالعذاب الذي أخّره الله عنهم إلى أجل معلوم».

وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا حاجة إلى تكراره.

القلب في القرآن الكريم

جاءت الإشارة إلى القلب في القرآن الكريم بالإفراد والجمع، ومع عدد من الضمائر المختلفة (132) مرة، وجميع الناس إلى اليوم يعتقدون بأن القلب هو مجرد مضخة تضخ الدم الفاسد إلى الرئتين لتنقيته، وتتلقى الدم المؤكسد منهما لتضخه إلى مختلف أجزاء الجسم وأولها المخ -الذي لو تأخر ضخ الدم إليه لثوان معدودة لهلك صاحبه-. وفي ظل سيادة هذا الاعتقاد نجد أن القرآن الكريم قد تنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بالتأكيد

على أن للقلب وظائف أخرى منها أنه هو الذي يكسب الأعمال خيرها وشرها، وهو مكان الاطمئنان والأمن أو الانزعاج والخوف والرعب، وهو محل الشهادة أو إنكارها، ومحل الخير أو الإثم، ومحل الهداية أو الزيغ، وهو محل الفهم والفقه، أو سوء الفهم واللبس، وهو محل الرقة واللين أو القسوة والغلظة، وهو محل اليقين أو الريبة، والإيمان أو الكفر، واليقظة أو الغفلة، وهو محل التعقل ووزن الأمور أو تضييعها، ومحل البصيرة أو العمى، ومحل السلامة أو الحقد، ومحل القصد والعمد أو العشوائية والارتجال، وهو سبب الانفتاح على أيٍ من الخير أو الشر أو الانغلاق على أي منهما، وهو محل الخشية والإنابة أو التبجح في المعصية والغي، ومحل التذكر والفطنة أو النسيان والغفلة، ومحل المحبة والرحمة والرأفة، أو الكراهية والغل والقسوة، ومحل الهداية أو الضلال، ومحل غير ذلك من الصفات التي تشكل شخصية الإنسان؛ لأن أعمال العبد إما أن تطهر قلبه وتزكيه أو تتجمع عليه كالران الأسود فتطمسه وتجخيه.

ومن الآيات القرآنية الكريمة ما يشرح ذلك ويؤكده ومنها قول ربنا - تبارك وتعالى -:

1 - ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 225].

2 - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ...﴾ [البقرة: 260].

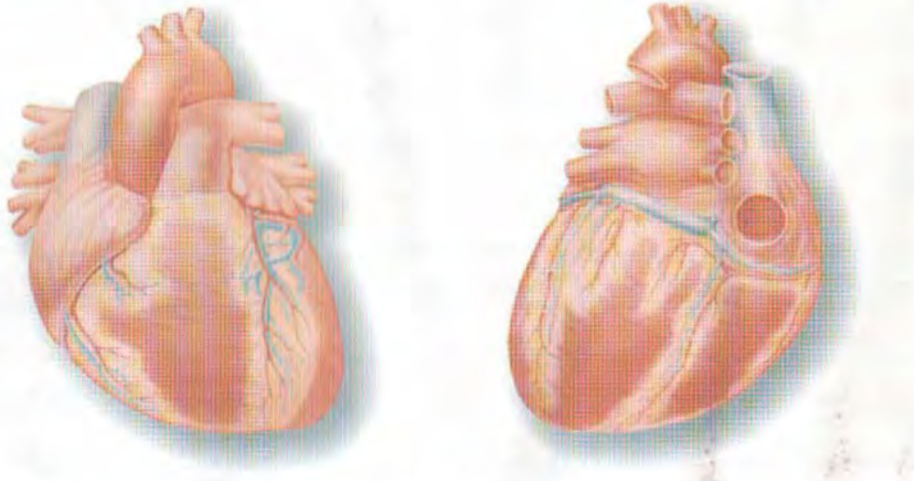

رسم للقلب البشري من جهتين.

3 - ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 283].

4 - ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

5 - ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 151].

6 - ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154].

7 - ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]

8 - ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: 45].

9 - ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

10 - ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 106].

11 - ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

12 - ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

13 - ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)﴾ [الشعراء: 88-89].

14 - ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (195)﴾ [الشعراء: 192-195].

15 - ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 5].

16 - ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24].

17 - ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7].

18 - ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣)﴾ [قٓ: 32-33].

19 - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: 37].

20 - ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ . . .﴾ [الحديد: 27].

21 - ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

22 - ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11].

23 - ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14].

كذلك جاءت لفظة (صدر) في القرآن الكريم بالإفراد والجمع، وبالإسناد إلى عدد من الضمائر بمعنى القلب (44) مرة. وهذه الإشارات كلها تؤكد أن للقلب وظائف عديدة غير مجرد ضخ الدم الفاسد إلى الرئتين ثم استقباله منهما مؤكسَداً لضخه إلى مختلف أجزاء الجسم وأولها المخ، وهو ما يشير إليه مجموع الآيات القرآنية الكريمة التي استشهدنا بها آنفاً، وتؤكده الآية التي اتخذناها عنواناً لهذا المقال.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

تدل الآية الكريمة رقم (46) من سورة الحج على أن القلب مناط كلٍّ من العقل والبصيرة ولذلك قال - تعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

وقد أثبتت أحدث دراسات القلب أنه عضو حيوي بشكل هائل وفعال في جسم الإنسان، وأنه يعمل على تواصل دائم مع مخه عبر (40,000) خلية عصبية تم اكتشافها مؤخراً فيه وفي الغشاء البريتوني **(Peritoneum)** المحيط به والمعروف باسم «الصفاق»، وأنه يفرز كمّاً من الهرمونات إلى تيار الدم الذي يضخه إلى مختلف أجزاء الجسم وأولها المخ. كذلك ثبت أن المخطط الكهربائي للقلب هو أكبر بمائة ضعف من المخطط الكهربائي للمخ. وفي كل نبضة ينبضها القلب يولّد طاقة مغناطيسية تفوق الطاقة المغناطيسية للمخ بخمسة آلاف ضعف، وبها يتواصل مع المخ ومع باقي أجزاء الجسم. فالقلب يتحدث مع المخ، وينسق معه جميع أنشطته. فكما ينشط المخ بمراكز

رسم للقلب يُبين الغشاء المحيط به حيث تتواجد خلية عصبية للتواصل مع الدماغ

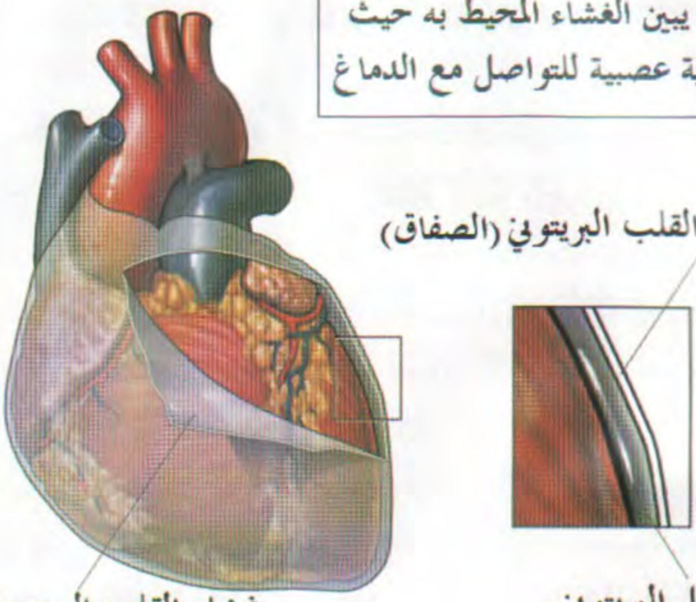

ذاكرته وحسه بواسطة التغذية الراجعة عبر كلٍ من الشبكات العصبية والدموية، فكذلك القلب الذي يعمل كجهاز تخزين للمعلومات عن طريق التغذية الراجعة عبر كلٍ من الأعصاب والدم كما أثبت الدكتور بول پرسال في مؤلفه المعنون «شفيرة القلب» **(cf.: Paul Persal: The Heart Code).**

وقد ثبت بالتجربة أن إحدى الأعراض الناتجة عن العمليات الجراحية بالقلب هو فقد شيء من الذاكرة، ولذلك استنتج العلماء أن القلب هو مستودع الذكريات.

والخلايا العصبية التي اكتشفت مؤخراً في القلب تشابه تماماً نظائرها في المخ، وبذلك أثار أطباء القلب السؤال التالي:

هل للقلب القدرة على التفكير والشعور، والعاطفة والانفعال، وعلى تخزين المعلومات القريبة والبعيدة في ذاكرة تشبه ذاكرة المخ؟

وجاءت إجابة أطباء القلب بكلٍّ من جامعة بيل الأمريكية ومعهد هارتمان بولاية كاليفورنيا **(Yale University and Hartman Institute,California)** بأن القلب جهاز فائق التعقيد، وأن من صور هذا التعقيد وجود جهاز عصبي معقد بالقلب يشبه المخ تماماً، له

ذاكرة قصيرة وطويلة الأمد، وقد اتضح ذلك بجلاء عند نقل قلب من إنسان إلى إنسان آخر فيأخذ القلب المنقول معه من الذكريات والمواهب، والعواطف والمشاعر، والهوايات، والسجايا والتفصيلات الخاصة بالشخص الذي أخذ منه القلب، والتي تبدو غريبة كل الغرابة عن صفات الشخص الذي تم نقل القلب إليه.

[Jack Copeland and others; Gary Schwartz (Yale University); Rolyn Mc Carthy, Andrew Armour (Hartman Inst.., California)].

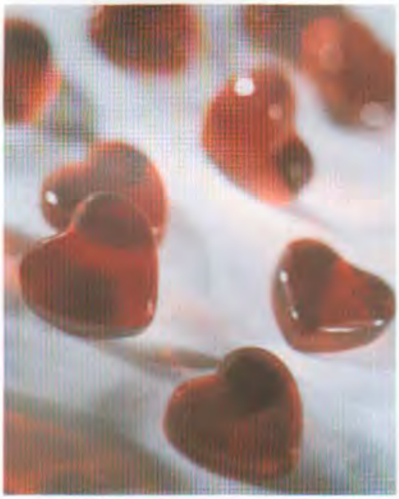
القلب مركز مهم للمشاعر والتعقل.

وبذلك ثبت بالملاحظات الدقيقة أن القلب هو أكثر أجزاء الجسم تعقيداً، وأكثرها دقة وغموضاً، وأنه يتحكم في المخ أكثر من تحكم المخ فيه، ويرسل إليه من المعلومات أضعاف ما يتلقى منه في علاقة عجيبة بدأت الدراسات الطبية المتقدمة في الكشف عنها، ويشبهها أطباء القلب بجهاز إرسال إذاعي بين القلب والمخ يعمل بواسطة عدد من الحقول المغناطيسية التي يصدر أقواها من القلب إلى المخ فيسبق القلب المخ في ردات فعله.

كل ذلك يثبت سبق القرآن الكريم بالتأكيد على هذه المعارف التي لم تكتشف إلا في العقدين الحالي والماضي مما يثبت لكل ذي بصيرة أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحية - اللغة العربية - وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على الخلق أجمعين إلى يوم الدين بأنه كلام رب العالمين، ويبقى شاهداً للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة. فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام القائل: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» (صحيح الإمام البخاري).

فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

31 - ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ ...﴾ [الأحزَاب: 4]

هذا النص الكريم جاء في مطلع «سورة الأحزاب»، وهي سورة مدنية، وآياتها ثلاث وسبعون (73) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى غزوة الأحزاب في الآيات (9-27) منها، والأحزاب هنا هم كفار قريش - الذين جاؤوا من الجنوب - ومن تجمع معهم من القبائل من مثل قبيلتي غطفان وأشجع الذين جاؤوا من الشمال، وقد تكتلوا لمحاربة المسلمين، وخططوا لحصار المدينة المنورة، وقد حدث ذلك في السنة الرابعة للهجرة، فقام رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة دفاعاً عنها ضد الحصار الذي دام حوالي الشهر ثم أرسل الله - تعالى - على أحزاب الكفار ريحاً عاصفة وجنوداً من الملائكة فاضطروا إلى فك الحصار والفرار طالبين النجاة وانصرفوا راجعين بخيبة الأمل ﴿... وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ ...﴾ [الأحزَاب: 25].

ويدور المحور الرئيس لسورة الأحزاب حول الوصف التفصيلي للغزوة التي سميت باسمها، وما كان فيها من خوف واضطراب، وما تم للمسلمين في نهايتها من نصر تحقق به وعد الله، وبالإضافة لذلك فصَّلت السورة عدداً من التشريعات والتوجيهات والآداب الإسلامية، وتحدثت عن الآخرة وأهوالها، ونصحت بضرورة الالتزام بتقوى الله، وختمت بالحديث عن الأمانة التي حملها الإنسان ولم يطق حملها كل من السمٰوات والأرض والجبال.

وبدأت سورة الأحزاب بنداء لرسول الله ﷺ نصه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلنَّبِيُّ. . .﴾ وفي ذلك ما فيه من التشريف والتكريم والتنويه بنبوته، وقد كذب بها كثير من الكفار والمشركين والعصاة الغافلين، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ [الأحزاب: 1-3].

والمراد بالأمر بالتقوى هنا هو الثبات عليها، والازدياد منها، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - أتقى المتقين، ثم أوصاه الله بعدم طاعة الكفار والمشركين والمنافقين، مؤكِّداً أن علم الله - تعالى - محيط بكل شيء، وأن حكمته بالغة في كل شيء، وآمراً إياه باتباع الوحي المنزل عليه من ربه، مؤكداً بأنه تعالى خبير بدقائق ما يعمل عباده، وآمراً إياه أيضاً بجميل التوكل على الله، وكفى به حافظاً متولياً أمور عباده.

ثم ضربت الآيات مثلاً للمُظاهر من امرأته، وللمتبني ولد غيره لتقول:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب: 4].

أي: كما لم يخلق الله - تعالى - للرجل قلبين في جوفه، لم يجعل المرأة الواحدة زوجاً للرجل وأماً له، ولم يجعل المرء دعياً لرجل وابناً له في الوقت نفسه.

وتؤكِّد الآيات أمر الله - تعالى - بالحرص على عدم اختلاط الأنساب فتقول:

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب: 5].

ثم تتحدَّث الآيات عن مقام رسول الله ﷺ ومقام زوجاته - أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن أجمعين - فتقول:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ

﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب: 6].

وتؤكِّد الآيات على وحدة رسالة السماء التي تجمعت واكتملت وحفظت في القرآن الكريم، كما تؤكد على الأخوة بين الأنبياء تحت لواء خاتمهم أجمعين فتقول:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب: 7،8].

وفي الآيات من (9) إلى (27) جاء وصف معركة الأحزاب بالتفصيل، كما وردت الإشارة إلى المعركة مع يهود بني قريظة، وذلك لأنهم كانوا معاهدين لرسول الله ﷺ، فنقضوا عهده وانقلبوا عليه وأعانوا المشركين على جيشه.

وبعد ذلك انتقلت الآيات بالخطاب مرة أخرى إلى رسول الله ﷺ لتقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: 28-34].

ومع خصوصية الخطاب هنا لأمهات المؤمنين من أزواج رسول الله ﷺ إلا أن القيم الأخلاقية والسلوكية الواردة فيه تنسحب على جميع المسلمات إلى يوم الدين.

وللتأكيد على المساواة في الحقوق والواجبات بين المسلمين من الرجال والنساء ذكرت الآية التالية عشر صفات طيبة يشتركون فيها، وختمت بأن الله - تعالى - أعد لهم مغفرة وأجراً عظيماً.

وفي الأمر بطاعة الله ورسوله أردفت السورة بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

ثم شرّعت السورة للزواج من مطلقة الابن بالتبني بعد أن فصّلت في مقدمتها أحكام كلٍّ من الظهار والتبني والإرث، ثم أفاضت في الأمر بذكر الله كثيراً وتسبيحه بكرة وأصيلاً وفي الثناء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: 40-48].

ثم تحدثت الآيات عن حكم طلاق من لم يدخل بهن من «النساء»، وحكم زواج رسول الله ﷺ وما فرضه الله على المؤمنين في أزواجهم وإمائهم من أحكام. وانتقلت إلى الحديث عن عدد من آداب الدخول إلى بيت النبي، والتعامل مع أزواجه - رضي الله عنهن وأرضاهن -، وإلى الضوابط التي وضعها الله - تعالى - لهن في السلوك آمراً إياهن بتقوى الله الشهيد على كل شيء. وهذه الآداب كما كانت لأزواج رسول الله ﷺ فهي أوامر لكل زوجة مؤمنة باستثناء خصوصيات أمهات المؤمنين.

وتعاود الآيات إلى التأكيد على حقيقة أن الله - تعالى - يرضى عن خاتم أنبيائه ورسله

ويغمره برحماته وبركاته، وملائكة السماء والأرض يدعون له ولذلك جاء الأمر من الله - تعالى - إلى عباده المؤمنين بمداومة الصلاة والسلام عليه فتقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

ثم تؤكِّد الآيات في سورة الأحزاب أن الله - تعالى - طرد من رحمته الذين يكفرون بنعمه ويشركون به، والذين يصفونه بما لا يليق بجلاله، ويؤذون خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وهؤلاء الكفار والمشركون لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدَّ لهم عذاباً مهيناً، وكذلك الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ذنب فعلوه فقد تحملوا وزر إيذائهم لهم، وكذبهم عليهم، واقترفوا من الذنوب والآثام البينة الواضحة ما يستوجب عقاب الله - تعالى - لهم.

ثم يأتي الأمر بحجاب المسلمات تأسياً بأزواج وبنات رسول الله ﷺ حتى يعرفن فلا يؤذين، وهو أمر من ربنا - تبارك وتعالى - **تحرم مخالفته** وفيه يقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: 59].

وبعد ذلك هددت الآيات المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في المدينة، ثم انتقلت إلى الحديث عن الساعة وعن مصائر الكافرين فيها موجهة الخطاب إلى رسول الله ﷺ لتقول:

﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: 63-68].

وحذَّرت الآيات الذين آمنوا من أن يكونوا كغلاة اليهود فيتطاولوا على رسول الله ﷺ كما تطاول اليهود على نبيهم موسى وآذوه فبرَّأه الله مما قالوا، وكان موسى عند الله

وجيهاً - أي ذا جاه وقبول - وختمت سورة الأحزاب بوصية من الله - تعالى - لعباده المؤمنين بطاعته وتقواه وبالحرص على القول السديد، وبالتأكيد على خطورة الأمانة التي حملها الإنسان فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب:70-73].

وهذه الخاتمة تصور حجم المسؤولية الملقاة على عاتق المؤمنين للنهوض بأمانة التبليغ عن الله ورسوله، والاستقامة على الإسلام والدعوة إليه، والصبر على تكاليف ذلك خاصة في أزمنة الفتن كالزمن الذي نعيشه في هذه الأيام.

من التشريعات الإسلامية في سورة «الأحزاب»:

1 - إلغاء عادة الظهار، والتشريع بأن الأدعياء ليسوا أبناء لمن يتبناهم، ولا يجوز أن يتسموا باسمه أو أن يرثوه، ورد الأمر إلى قرابة النسب في حمل الأسماء، وفي الإرث، وفي الدية وما شابهها.

2 - إثبات ما أوجبه الله - تعالى - لرسوله من المحبة والطاعة، وما أوجبه لأمهات المؤمنين من أزواجه ﷺ من الاحترام والتبجيل والتوقير بما تستوجبه صلة الأمومة الشعورية تجاههن جميعاً من قبل جميع المسلمين بلا استثناء.

3 - تأكيد الآداب التي شرعها الله - تعالى - لنساء النبي ﷺ وجعلهن قدوة لنساء المؤمنين فيما عدا ما خصهن به من أحكام.

4 - إلغاء ما ساد في الجاهلية من حرمة التزوج بحليلة الدعي على من تبناه بعد طلاقها منه أو وفاته عنها، مع تحريم التبني حتى لا تختلط الأنساب.

5 - التوصية بالمتعة والسراح الجميل لمن طلقت قبل الدخول.

6 - التشريعات الخاصة بتنظيم زواج النبي ﷺ والاستثناءات التي أفرده الله - تعالى - بها.

7 - آداب الدخول إلى بيت النبي لتناول الطعام، والانصراف من بعده وفي سؤال أزواجه من وراء حجاب، وما في ذلك من نموذج لسلوك المؤمنين.

8 - التشريع لزي المرأة المسلمة اقتداء بأزياء نساء النبي وبناته ﷺ ﴿... ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ..﴾ [الأحزاب: 59].

9 - ضرورة الانصياع لأوامر الله - تعالى - ولأوامر رسوله ﷺ والوفاء بالعهود خاصة ما قطع لله تعالى - منها.

من ركائز العقيدة في سورة «الأحزاب»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لا شريك له في ملكه، ولا منازع في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، وتنزيهه عن جميع صفات مخلوقيه وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

2 - ضرورة تقوى الله في السر والعلن، والتوكل عليه حق التوكل، والتسليم بكل ما وصف به ذاته العلية من صفات ومنها أنه - تعالى - هو العليم، الحكيم، اللطيف، الخبير، الغفور، الرحيم، القوي، العزيز، البصير، بكل ما يفعل عباده وبكل شيء، والذي يقول الحق ويهدي إلى سواء السبيل.

3 - التصديق بنبوة الرسول الخاتم وبرسالته ﷺ وقد ختم الله ببعثته النبوة، وبرسالته وحي السماء، وبأنه - صلوات الله وسلامه عليه - أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم، وأنه يمثل الكمال البشري كما يرتضيه الله من عباده ولذلك فهو أسوة حسنة للمؤمنين، وأن الله - تعالى - أرسله ﴿... شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: 46،45].

4 - التسليم بوحدة رسالة السماء وبالأخوة بين الأنبياء، وبالإيمان بهم جميعاً دون تفريق، وبأخوة الإسلام وبصلات الرحم.

5 - اليقين بتنزل وحي السماء، وبأن القرآن الكريم هو ختامه، والإيمان به وبكل ما جاء فيه من الحق، والحرص على تبليغ رسالة الله وخشيته دون سواه.

6 - الإيمان بأن الله - تعالى - أعد للمؤمنين به وبكتابه وبخاتم أنبيائه ورسله مغفرة وأجراً عظيماً، وأعد للكافرين بنعمائه، وللمشركين به وللمتطاولين على رسوله الخاتم وعلى رسالته الخاتمة أعد لهم عذاباً أليماً: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: 29]، وأنه - تعالى - سيجزي الصادقين بصدقهم، وسوف يعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم.

7 - التصديق بأنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، وأنه لا عاصم من الله - تعالى - إلا رحمته، وأنه ليس من دون الله من ولي ولا نصير، وبأن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإيمان.

8 - التسليم بالمساواة بين الرجال والنساء في الحقوق والواجبات مع مراعاة ما خص الله - تعالى - كلاً منهم من فوارق فطرية.

9 - الإيمان بحقيقة الآخرة وحتميتها، وبكل ما جاء في كتاب الله من أخبارها.

من ركائز العبادات والأخلاق في سورة «الأحزاب»:

1 - إحياء العبادات المفروضة وفي مقدمتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

2 - الحرص على تلاوة القرآن الكريم وتدبر آياته واتباع أوامره ونواهيه، وعلى ذكر الله كثيراً والتسبيح بحمده بكرة وأصيلاً.

3 - الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال والولد وبالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والحرص على عدم التولي يوم الزحف.

4 - تقوى الله وطاعته والتوكل عليه، وطاعة رسوله ﷺ.

5 - التأسي برسول الله ﷺ فهو المثل الأعلى للأنبياء، والصورة المجسدة للكمال البشري، والأسوة الحسنة لكل مسلم.

6 - الزهد في الدنيا الفانية والحرص على الآخرة الباقية.

7 - الإكثار من الصلاة والسلام - على النبي الخاتم ﷺ - اتباعاً لأوامر الله وفعله وفعل ملائكته.

8 - الحرص على عدم إيذاء الناس - عامة - والمؤمنين - خاصة - بغير ما اكتسبوا.

9 - التأكيد على حجاب المسلمة البالغة كما حدده كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ . . .﴾ [الأحزاب: 4].

ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: يقول - تعالى - موطئاً قبل المقصود المعنوي، أمراً معروفاً حسياً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: أنت علي كظهر أمي أماً له، كذلك لا يصير الدعي ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له، فقال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن (زيد ابن حارثة) رضي الله عنه مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة، فكان يقال له (زيد ابن محمد) فأراد الله - تعالى- أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: 4] كما قال - تعالى -: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وقال هُهنا: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ يعني: تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فلا يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: العدل، ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4] أي الصراط المستقيم. . . . .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن - رحم الله كاتبه - ما نصه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: 4] مثل ضربه الله للمُظاهر من امرأته، والمتبني ولد غيره تمهيداً لما بعده. أي كما لم يخلق الله للإنسان قلبين في جوفه، لم يجعل المرأة الواحدة زوجاً للرجل وأماً له، والمرء دعياً لرجل وابناً له. ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الأحزاب: 4] بتحريمهن على أنفسكم تحريماً مؤبداً وقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: 2]. ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ جمع دعي، وهو الذي يدعي ابناً لغير أبيه. وكان الرجل يتبنى ولد غيره، ويجري عليه أحكام البنوة النسبية، ومنها حرمة تزوجه بمطلقته، كما تحرم زوجة الابن النسبي على أبيه، فأبطل الله بذلك حكم هذا الظهار، وأبطل التبني. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما ذكر منهما ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي مجرد قول باللسان لا يحكي الواقع. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي القول الثابت المحقق ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ يرشد إلى سبيل الحق.

ويقول صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم - في استعراض واقعتي الظهار والتبني كلاماً غير مسبوق كنت أتمنى سوقه هنا لولا ضيق المكان، ولكنه قدم لاستعراض هاتين الواقعتين بكلام رائع وغير مسبوق أيضاً في تفسير قوله - تعالى -: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ. . .﴾ [الأحزاب: 4] جاء فيه: «إنه قلب واحد، فلا بد له من منهج واحد يسير عليه، ولا بد له من تصور كلي واحد للحياة وللوجود يستمد منه، ولا بد له من ميزان واحد يزن به القيم، ويقوّم به الأحداث والأشياء. وإلا تمزق وتفرق ونافق والتوى، ولم يستقم على اتجاه. ولا يملك الإنسان أن يستمد آدابه وأخلاقه من معين، ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر، ويستمد أوضاعه الاجتماعية أو الاقتصادية من معين ثالث، ويستمد فنونه وتصوراته من معين رابع. . . فهذا الخليط لا يكون إنساناً له قلب، إنما يكون مزقاً وأشلاء ليس لها قوام! وصاحب العقيدة لا يملك أن تكون له عقيدة حقاً، ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة في موقف واحد من مواقف حياته كلها، صغيراً كان هذا الموقف أم كبيراً، لا يملك أن يقول كلمة، أو يتحرك حركة، أو ينوي نية، أو يتصور تصوراً غير محكوم في هذا كله بعقيدته - إن كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة في كيانه - لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحد، يخضع لناموس واحد، ويستمد من تصور واحد، ويزن بميزان واحد. لا يملك صاحب العقيدة أن يقول عن فعل فعله: فعلت كذا بصفتي الشخصية، وفعلت كذا بصفتي الإسلامية! كما يقول رجال السياسة أو رجال الشركات، أو رجال الجمعيات الاجتماعية أو العلمية وما إليها في هذه الأيام، إنه شخص واحد له قلب واحد، تعمره عقيدة واحدة، وله تصور واحد للحياة، وميزان واحد للقيم. وتصوره المستمد من عقيدته متلبس بكل ما يصدر عنه في كل حالة من حالاته على السواء. وبهذا القلب الواحد يعيش فرداً، ويعيش في الأسرة، ويعيش في الجماعة، ويعيش في الدولة، ويعيش في العالم، ويعيش سراً وعلانية، ويعيش عاملاً وصاحب عمل، ويعيش حاكماً ومحكوماً ويعيش في السراء والضراء. . . فلا تتبدل موازينه، ولا تتبدل قيمه ولا تصوراته. . ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ. . . .﴾ [الأحزاب: 4].

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

ماهية القلب:

يعتبر القلب مضخة عضلية توفر الضغوط اللازمة لدفع الدم إلى مختلف أجزاء الجسم لتغذيتها بكل من الأوكسجين والمواد الغذائية، ومن أجل ذلك يستمر القلب في

التضاغط والانبساط بطريقة دورية منتظمة تستمر طيلة حياة الفرد منا دون توقف كي لا يتوقف تدفق الدم إلى مختلف خلايا الجسم فتموت، خاصة الخلايا شديدة الحساسية مثل خلايا المخ وهي لا تتحمل توقف وصول الدم إليها للحظة واحدة وذلك لحاجتها الشديدة إلى كل من الجلوكوز والأوكسجين، بينما خلايا أخرى من مثل خلايا العضلات والجلد يمكن أن تتحمل توقف تدفق الدم إليها لفترات أطول دون أن تتهددها أخطار الموت.

ويتكون قلب الإنسان من أربع غرف تفصلها أربعة نظم من نظم الصمامات الضابطة لحركة تدفق الدم من القلب وإليه دائماً في اتجاه واحد، وهذه الغرف الأربع هي الأذينان الأيمن والأيسر، والبطينان الأيمن والأيسر. والأذينان يتميزان بصغر الحجم وبجدار رقيق نسبياً، ويتلقيان الدم من العروق الرئيسة في الجسم ليفرغان في البطينين: الأيمن في الأيمن والأيسر في الأيسر! أما البطينان فهما أكبر حجماً وأسمك جداراً وأقوى عضلات..

وعندما ينبسط البطينان ينخفض الضغط بداخل كلٍّ منهما فيشجع ذلك على تدفق الدم من الأذينين إليهما، كما يساعد انقباض الأذينين على إفراغهما مما قد يتبقى فيهما من الدم.

القلب مضخة الدورة الدموية

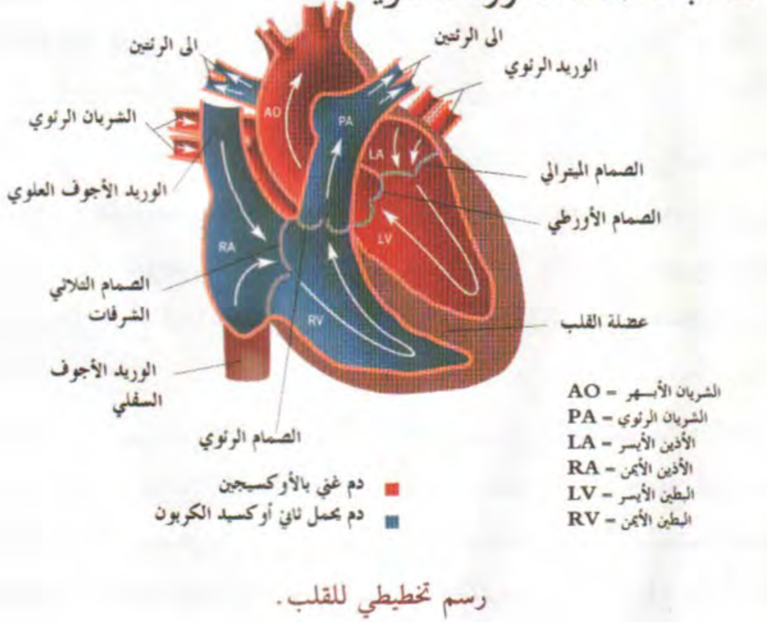

رسم تخطيطي للقلب.

والبطينان الأيمن والأيسر هما عضلتان فائقتا القوة، وعندما ينقبضان فإنهما يدفعان الدم متدفقاً إلى جميع أجزاء الجسم عبر شبكة الشرايين والأوردة التي يقدر مجموع أطوالها بآلاف الكيلومترات، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن طول الأوعية والشعيرات في الدورة الدموية الصغرى يتراوح بين 90,000 كم و110,000 كم وأن عددها يصل إلى حوالي الثلاثين بليوناً. والصمامات الفاصلة بين كل أذين وبطينه لا تسمح بتحرك الدم إلا في اتجاه واحد فقط، ولا تسمح بمروره في عكس هذا الاتجاه.

وبالمثل توجد صمامات ضابطة لاتجاه تدفق الدم في كلٍّ من الشريان الأبهر (**Aorta**) والشريان الرئوي (**Pulmonary Artery**) وتعرف هذه الصمامات باسم الصمامات شبه الهلالية (**Semilunar Valves**). والأبهر هو الشريان الرئيس الذي يحمل الدم من البطين الأيسر إلى باقي أجزاء الجسم، بينما الشريان الرئوي يحمل الدم من البطين الأيمن إلى الرئتين، والصمامات الهلالية تمنع الدم في الحالتين من الرجوع إلى البطينين، ولكن إذا حدث أدنى خلل في عمل هذه الصمامات فإن كفاءة القلب كمضخة للدم تتأثر بذلك، وقد يصاب القلب في هذه الحالة بعدد من الأمراض التي منها تضخم حجم القلب.

وعطب الصمامات يمكن تشخيصه بسهولة لتغير صوت تدفق الدم عبرها وإحداثه عدداً من الأصوات الغريبة التي تعرف باسم لغط القلب (**Heart murmours**) وبالمثل إذا ضعف البطينان بسبب الجمول (**Infection**) أو الأضرار الناتجة عن الأزمات القلبية، أو عن قلة الحركة، فإن قدرة ضخ القلب للدم تتناقص، ويبدأ المريض في الشعور بآلام في الصدر، وبصعوبة في التنفس، والشعور بالإجهاد السريع.

والسبب في الشعور بآلام الصدر هو نقص كمية الدم الواصلة إلى عضلة القلب عن القدر المطلوب، وإذا استمر الحال على ذلك فإن أجزاء عضلة القلب التي لا يصلها القدر الكافي من الدم تموت. أما كرشة النفس، والشعور بالإجهاد بسرعة فإنهما ينتجان عن عجز القلب عن ضخ كميات الدم بكفاءة إلى كل من الرئتين والعضلات وباقي أجزاء الجسم.

ويتلقّى النصف الأيمن من القلب الدم غير النظيف من مختلف أجزاء الجسم ويضخه عبر الأوردة الرئوية إلى الرئتين لتبادل ما به من ثاني أوكسيد الكربون مع أوكسجين الهواء الداخل إلى الرئتين عن طريق التنفس، وتسمى هذه الدورة باسم الدورة الرئوية (**Pulmonary circulation**) بينما الجزء الأيسر من القلب - وهو الأكبر والأقوى - يتلقى

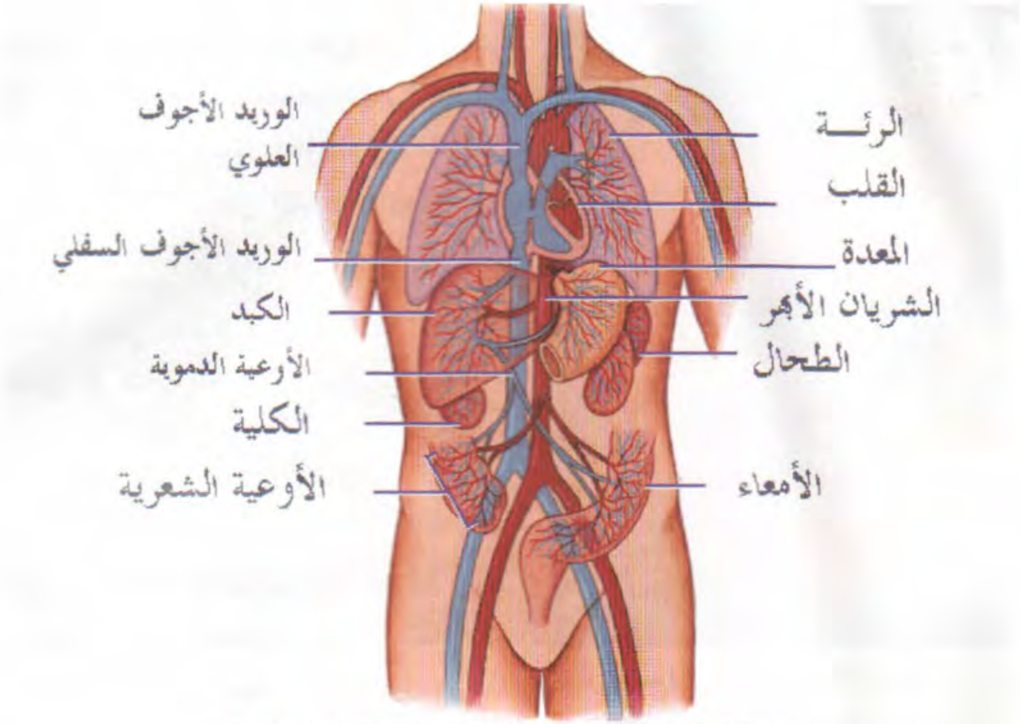

رسم تخطيطي لداخل جسم الإنسان يوضح الدورة الدموية.

الدم المؤكسد من الرئتين ويدفع به إلى باقي أجزاء الجسم عبر الشريان الأبهر، وتعرف هذه الدورة باسم الدورة المجموعية (Systemic circulation). وهذه الدورة للدم مسؤولة عن تبادل الغازات والمواد الغذائية والنفايات في كل أجزاء الجسم ما عدا الرئتين.

هل يمكن للفرد الواحد أن يكون له قلبان؟

جاء في بعض كتب التفسير أن النص الكريم الذي نحن بصدده نزل في رجل من قريش يدعى (جميل بن معمر الفهري) كان يدعي أن له قلبين في جوفه وكان من شدة دهائه يدعى «ذا القلبين»، وقيل إنها نزلت للرد على بعض المنافقين الذين ادعوا على رسول الله ﷺ بالباطل أن له قلبين.

والعلوم الطبية تثبت أن مع المركزية العظمى للقلب في جسم الإنسان يستحيل أن يوجد لفرد واحد قلبان في جوفه، وقد ذكر الأخ الكريم الدكتور يحيى إبراهيم محمد (مساعد مدير مستشفى الدكتور سليمان فقيه بجدة) أن المراجع الطبية لم تسجل حالة واحدة لإنسان ذي قلبين، مع وجود العديد من حالات التشوه الخلقي، وذلك لاستحالة

تكون قلبين لجنين واحد حتى في حالات التوائم الملتصقة المعروفة باسم التوائم السيامية، فقد يكون لكل واحد منهما قلبه، وقد يشتركان في قلب واحد.

وهذا السبق القرآني بتأكيد هذه الحقيقة العلمية يعتبر ومضة من ومضات الإعجاز العلمي في كتاب الله وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ . . .﴾ [الأحزاب: 4] وتزداد هذه الومضة القرآنية المعجزة وضاءة باستخدام هذا النص الكريم للفظة (رجل) دون سواها للإشارة إلى الإنسان، وذلك تحاشياً لإشراك المرأة في هذا المثل والتي قد تكون حاملاً وتحمل في جوفها بالإضافة إلى قلبها قلب جنين أو قلوب أكثر من جنين واحد، خاصة وأن علم الأجنة يثبت أن قلوب الأجنة تبدأ في التخلق بصورة أولية مع بداية الأسبوع الثالث من أعمارها، وتبدأ في الانقباض والانبساط قبل وصولها إلى نهاية الأسبوع السادس.

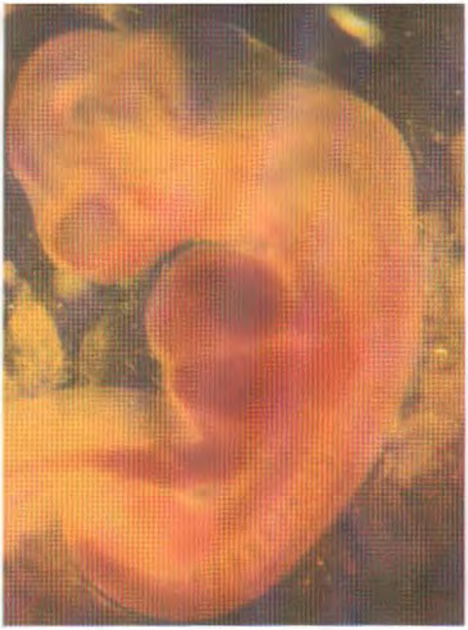

صورة لجنين عمره (38 يوماً) ويظهر فيها القلب والكبد بوضوح.

والنص الكريم الذي نحن بصدده جاء في مقام التشبيه وضرب المثل، ولكن كعادة القرآن الكريم التزام الحق في كل شيء، تأتي الأمثال كما تأتي آيات القرآن كلها دقيقة دقة علمية فائقة حتى يبقى هذا الكتاب الخالد مهيمناً على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، وتبقى هذه الحقائق العلمية التي أنزلت من قبل أربعة عشر قرناً شاهدة لكل ذي بصيرة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية - ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً - وحفظه في نفس لغة وحيه - اللغة العربية -، وحفظه حفظاً كاملاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وتعهد - تبارك وتعالى - بذلك الحفظ إلى قيام الساعة حتى يبقى القرآن الكريم حجة على الناس كافة.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، وسيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد النبي الأمين الذي بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فأسأل الله - تعالى - أن يجزيه خير ما جازى به نبياً عن أمته، ورسولاً على حسن أداء رسالته، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة في الجنة، إن ربي لا يخلف الميعاد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

32 - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النحل: 81]

هذه الآية الكريمة جاءت في أواخر الثلث الثاني من «سورة النحل»، وهي سورة مكية، وآياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى النحل، تلك الحشرة التي وهبها الله - تعالى - القدرة على امتصاص رحائق الأزهار، والتقاط حبوب اللقاح منها، وتحويل ذلك كله إلى كل من غذاء الملكات وشراب العسل المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس، ووهبها أيضاً القدرة على بناء الخلايا الشمعية لتخزين العسل فيه، وعلى تنظيم مجتمعاتها وتوزيع الأدوار فيها، وسلوك مختلف السبل والعودة إلى خلاياها بمنتهى السهولة واليسر، وقد سميت هذه الحشرة الهامة بهذا الاسم لأن الله سبحانه وتعالى قد نحلها كل هذه الصفات، وميَّزها بها عن كثير من الحشرات.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، شأنها في ذلك شأن كل السور المكية، وقد سبق لنا استعراض هذه السورة المباركة وما جاء فيها من آيات كونية وذلك في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم (29) ولذلك سوف نركز هنا على الدلالات العلمية لهذا النص القرآني الكريم وقضيته التي تدور حول الإشارة إلى

أن من نِعَم الله ﷻ على عباده أنه جعل لهم مما خلق ظلالاً وجعل لهم من الجبال أكناناً، وجعل لهم سرابيل تقيهم الحر وسرابيل تقيهم بأسهم.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ [النّحل: 81].

في هذا النص الكريم يمن علينا ربنا - تبارك وتعالى - بأنه جعل لنا مما خلق ظلالاً، وتثبت العلوم المكتسبة أن الظل يتكون نتيجة لكون الضوء المرئي [الذي يتراوح طول موجاته بين مائة ميكرون و0،01 ميكرون (والميكرون جزء من مليون جزء من المتر)] عاجزاً عن اختراق الأجسام المعتمة، وأنه لا يستطيع التحرك خلال الأوساط المتجانسة إلا في خطوط مستقيمة. وتتكون الظلال نتيجة لحجب الضوء المرئي أو مصدره عن منطقة ما من سطح الأرض بواسطة جسم معتم كالجبال أو الأشجار أو السحب أو غيرها.

مد الظل من مصدر واحد للضوء يأخذ شكل الجسم الحاجب له.

والضوء المرئي يتكون من عدد غير محدود من الأطياف المتدرجة في أطوالها الموجية وسرعات ترددها، ولا تستطيع عين الإنسان تمييز أكثر من سبعة منها هي: الأحمر، والبرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي، والبنفسجي، وهي الموجات التي ترى في صفحة السماء بهذه الألوان المعروفة باسم (قوس قزح). ويقترب من هذه الأطياف في طول الموجة وسرعة ترددها كل من الأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية.

والطيف الأحمر يملك أطول

ظلال الأشجار على الجبال.

موجات الطيف المرئي وأقلها تردداً، بينما الطيف البنفسجي هو أقصرها طولاً وأسرعها تردداً.

ويتكون الظل بسقوط موجات الضوء المرئي على جسم معتم، فإذا كان مصدر هذا الضوء المرئي نقطة كان الظل الناشئ هو المسقط الهندسي لهذا الجسم المعتم الذي يعرف باسم العائق أمام الضوء المرئي، أما إذا كان مصدر الضوء المرئي ممتداً فإن المسقط الهندسي للعائق المعترض لمساره يتكون من منطقة ظل محاطة بمنطقة شبه ظل، وتتدرج شدة الإعتام من منطقة شبه الظل إلى منطقة الظل.

وتكوّن الظلال يحمي كلاً من الإنسان والحيوان والنبات من مخاطر التعرض لكل من حرارة وأشعة الشمس لساعات أطول مما تحتمله قدراتها، وذلك بسبب بعض الموجات المكونة لأشعة الشمس ومن أخطرها الأشعة فوق البنفسجية، وهي من الأشعات غير المرئية، والتي ثبت أن لها آثاراً تدميرية على الخلايا الحية إذا تعرضت لتلك الأشعات لساعات طويلة.

وتنقسم الأشعة فوق البنفسجية إلى ثلاث موجات أساسية تعرف بالرموز (A,B,C) (أو

أ، ب، ج) والموجة تتراوح أطوالها بين (3150 -4000) أنجستروم (وهذه الوحدة تساوي جزءاً من عشرة ملايين جزء من المليمتر)، والموجة (ب) من الأشعة فوق البنفسجية تتراوح أطوالها بين (2800، 3150 أنجستروم)، والموجة الثالثة (ج) تتراوح أطوالها بين (1500، 2800 أنجستروم) وهي أخطر الموجات الثلاث على الإطلاق، وأكثرها قدرة على تدمير الخلايا الحية، فالتعرض الطويل لأشعة الشمس بطريقة مباشرة ومتكررة خاصة في فترات شدة الحر يسبب سرطان الجلد الذي يبدأ موضعياً في الوجه أو اليدين أو الأذرع أو السيقان، ثم قد ينتشر إلى بقية الجسم إذا لم يتدارك بسرعة، وأخطر ما يسبب ذلك هي أقصر موجات الأشعة فوق البنفسجية والمعروفة بالموجة (ج)، أما الموجات (أ)، (ب) من تلك الأشعة فتتسبب في أمراض جلدية عديدة منها حروق الشمس (**Sunburns**) والتقرن الشمسي للجلد (**Solar Kertosis**) وسرطان الخلايا الطلائية (**Squamous Cell Carcinoma**) والأورام القتامينية الخطيرة والمعروفة باسم الميلانوما (**Melanoma**) وأمراض حساسية الضوء (**Photosensitivity**) وأكزيما الشمس (**Solar Urticaria**) وغيرها.

كذلك تؤثر الأشعة فوق البنفسجية على العينين فتسبب مرض الساد (السد) أو الماء الأبيض (**Cataract**)، وتؤثر على الجهاز المناعي في الجلد وذلك بتدمير الخلايا الأكولة

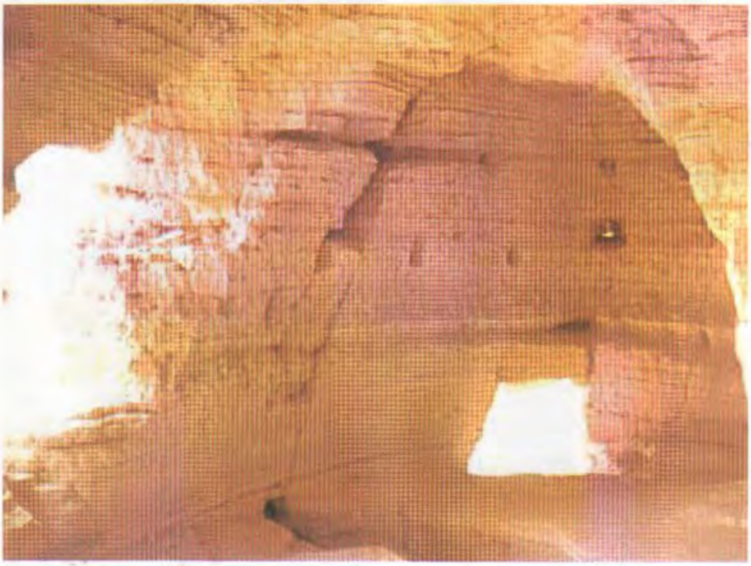

جعل الإنسان الكهوف سكناً له عبر العصور قبل بناء البيوت.

أو الليمفاوية القاتلة الموجودة فيه أو بتثبيطها، وهي تمثل الدفاع الأول عن الجلد، لذلك يمن علينا ربنا - تبارك وتعالى - بأنه جعل لنا مما خلق ظلالاً، ويروى عن رسول الله ﷺ قوله: «**إذا كان أحدكم في الشمس** - أي في وضح النهار - **فقلص عنه الظل، فصار بعضه في الشمس وبعضه في الظل فليقم**» (أخرجه أبو داود في سننه).

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النّحل: 81].

و(الأكنان) جمع (كِنّ) وهو ما يستكن فيه كالغار والسرب (أي: الحفر في الأرض)، هو وقاء كل شيء وستره، يقال: (كَنَّه) و(كَنّنه) بمعنى ستره، ويجمع أيضاً على (أكِنَّة).

وهنا يمن علينا ربنا - وهو صاحب الفضل والمنة - بتكوين الكهوف والغيران (جمع غار) والمغارات، والمسارب في الجبال وفي صخور الأرض كي يستتر فيها الإنسان قبل أن يكتشف صنعة الخيام أو بناء البيوت، فيحمي نفسه وأهله من حرارة وأشعة الشمس في الصيف، ومن برودة الشتاء وأمطاره وثلوجه وصقيعه، وعواصفه وأعاصيره ومن هجمات الحيوانات المفترسة، ومن غير ذلك من المخاطر البيئية.

ومن الثابت علمياً أن خلق الأرض سابق على خلق الإنسان بعدة بلايين من السنين، فعمر الأرض يقدر بحوالي الخمسة بلايين من السنين، بينما عمر الإنسان على الأرض لا يتجاوز المائة ألف سنة. وطوال هذه البلايين من السنين السابقة على خلق الإنسان سخر الله - تعالى - مختلف عوامل التعرية من الرياح، والمياه الجارية، والمجالد، وغيرها في تهيئة الأرض لاستقبال هذا المخلوق المكرم وذلك بتمهيد سطحها، وتسوية تضاريسها المعقدة، وشق الفجاج والسبل فيها، وتكوين تربتها، وتركيز خاماتها الاقتصادية، وتخزين الماء في صخور قشرتها، وترطيب كل من غلافها الغازي وتربتها، ونشر مختلف صنوف النبات والحيوان على سطحها وفي مياهها، وانتظام مختلف الدورات فيها ومن حولها (دورة الماء، دورة الصخور، دورة الحياة وغيرها)، وانتظام حركاتها الداخلية والخارجية، واتزان كل أمر من أمورها.

ومن صور إعداد الأرض لاستقبال الإنسان تكوين مأوى له قبل أن يعرف كيف يعد لنفسه مأوى، وكان ذلك بتكوين الكهوف والغيران أو المغارات المختلفة وغيرها من المسارب في الجبال وفي صخور الأرض، والتي احتمى بها الإنسان الأول حتى تعلم فن صناعة الخيام ثم فن البناء.

فعلى الرغم من أن الملائكة كانت قد أمرت ببناء الكعبة المشرفة كأول بيت وضع

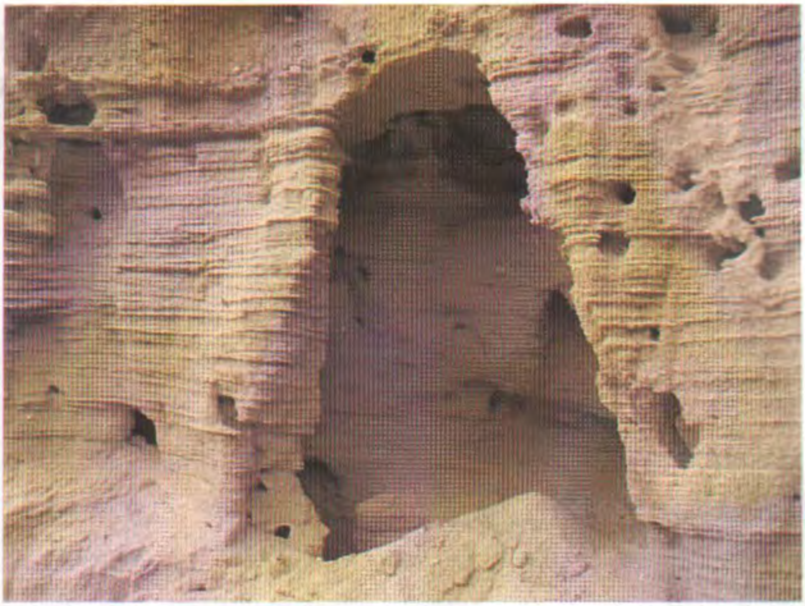

نموذج للظلال التي تتكون في داخل كهف من الكهوف في الصخور الرملية.

للناس في الأرض لكي يتعبد فيه أبوانا آدم وحواء عليهما السلام إلا أن الأجيال الأولى من بني آدم ما كان بوسعهم أن يبنوا شيئاً من مثله فسكنوا كهوف الجبال.

وتتكون الكهوف بعمليات تعرية صخور الأرض عبر نقاط الضعف فيها من مثل مستويات التصدع والتشقق والفواصل المختلفة التي ينزل إليها ماء المطر فيذيب أو يفتت أجزاء منها، خاصة إذا كان الماء مذيباً لبعض الغازات المكونة للأحماض بذوبانها في الماء من مثل ثاني أوكسيد الكربون أو أكاسيد النيتروجين مما يعينه على إذابة الصخور خاصة الكربوناتية منها مثل الأحجار الجيرية والدولوميتية، والبخرية (المتبخرات) من مثل ملح الطعام والجبس والأنهيدرايت.

كذلك تعمل المياه المختزنة في صخور الأرض على إذابة العديد من المسارب المتعددة في تلك الصخور، خاصة إذا تعددت بها مستويات التصدع والتشقق والفصل والتطبق الضعيفة والتي قد تؤدي إلى حدوث العديد من الانهيارات الأرضية.

ويمكن أن تتكون الكهوف بفعل الطفوح البركانية. وقد سكن الإنسان الأول معظم هذه الفجوات في صخور الأرض، خاصة كهوف الجبال، وترك آثاراً عديدة تشير إلى ذلك.

ومن هنا يمنّ علينا ربنا - تبارك وتعالى - بتهيئة تلك المساكن للإنسان قبل أن يتمكن

من تهيئة مأوى له يستره ويحميه من التعرض المستمر لأشعة الشمس وأضرارها في الصيف، ولبرودة الشتاء وأمطاره، وعواصفه، وثلوجه، وصقيعه، وأعاصيره، وما يصاحب ذلك من ظواهر الرعد والبرق، والتقلبات الجوية والبيئية المختلفة.

ثالثاً: في قوله - تعالى-:

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾:

و(السِّرْبال) في اللغة هو: القميص من أي جنس كان (وجمعه قمصان أو قمص) يقال: (سَرْبَله) (فتَسَرْبل) أي: ألبسه القميص فستره به، ولذلك أجمع المفسرون على أن لفظة (سرابيل) في هذه الآية الكريمة تشمل كل ما لبس من الثياب أو الدروع أو غيرها لأن كل ما لبسه الإنسان فهو (سِرْبال)، والدروع وأمثالها من لباس الحرب تقي المقاتلين بأس بعضهم، والبأس هو شدة الحرب وضراوتها.

وواضح الأمر من القرآن الكريم أن الله - تعالى - قد علم أبوينا آدم وحواء عليهما السلام منذ اللحظة الأولى لخلقهما أن من كرامة الإنسان ستر بدنه باللباس وذلك انطلاقاً من قوله الحق:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ . . .﴾ [الأعراف: 26، 27].

و(اللباس) بالكسر هو كل ما يلبس، وكذا (المَلْبس) و(اللِّبس)، يقال: (لَبِسَ) الثوب (يَلْبَسهُ) بالفتح (لُبساً) بالضم، و(اللَبوس) بفتح اللام ما (يُلبس)، و(لِباسُ) التقوى هو الحياء، وقيل هو كل غليظ، خشن، قصير من اللباس.

كذلك يقال (لَبَس) عليه الأمر بمعنى خلط، و(الْتَبَسَ) عليه الأمر، أي: اختلط واشتبه، وفي الأمر (لُبْسة) بالضم أي: شبهة أي ليس بواضح، و(لابس) الأمر خالطه، و(لابس) فلاناً، أي: عرف باطنه، و(التَّلبيس) كالتدليس والتخليط، شدد للمبالغة، ويقال: رجل (لبّاس) ويقال: (ملبّس) أي: شديد التدليس والخلط.

وقد أمر الإسلام العظيم بستر البدن، وعلّم الإنسان صنعة اللبوس، وجعل بدن المرأة كله عورة يجب عليها ستره فيما عدا الوجه والكفين، وجعل على الرجل أن يستر ما بين

السرة والركبتين، على أقل تقدير، فالواجب عليه من الثياب ما يستر عورته، ولذلك قال المصطفى ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فليلبس ثوبيه، فإن الله أحق من يزين له، فإن لم يكن له ثوبان فليتزر إذا صلى، ولا يشتمل أحدكم في صلاته اشتمال اليهود**». (الطبراني والبيهقي).

ومن شروط حجاب المسلمة البالغة: (استيعاب اللباس لجميع البدن، إلا الوجه والكفين، وألا يشف ولا يصف، وألا يكون لباس شهرة أو زينة في ذاته، وألا يكون مطيباً أو مبخراً، وألا يشبه أيًا من لباس الرجال أو لباس الكافرات).

وقد يقول قائل إن هذه الشروط واجبة لحماية أبناء وبنات المسلمين من الفتنة وهو صحيح، ولكن بالإضافة إلى ذلك ثبت لستر البدن بالثياب حماية من مخاطر محدقة بالإنسان إذا بالغ في تعريض جسده للشمس - خاصة الإناث اللائي يتمتعن بجلد أكثر رقة وحساسية من جلد الذكور - وقد ثبت أن الملابس تعكس جزءاً كبيراً من الأشعة فوق البنفسجية الضارة وتشتتها وتقي الإنسان من مخاطرها المدمرة. وجزى الله - تعالى - الأخت الفاضلة الدكتورة «سميحة بنت علي مراد» التي فصلت في العدد الثامن عشر من مجلة الإعجاز العلمي هذا الأمر تفصيلاً يثبت سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى أن الوقاية من تلك المخاطر لا تتم إلا بارتداء الملابس الساترة للبدن كله - خاصة في حالة الإناث - ومن هنا كان التعبير القرآني الكريم: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: 81] تعبيراً معجزاً إعجازاً تشريعياً وعلمياً في آن واحد، لأنه لم يكن لأحد من الخلق إلمام بمخاطر الأشعة فوق البنفسجية في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده. فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى تعهد رب العالمين بحفظ رسالته الخاتمة إليه في وقت كانت كل صور الوحي السابقة قد ضاعت، فنحمد الله - تعالى - حمداً كثيراً على حفظ هدايته لنا في نفس لغة الوحي الذي نزلت به، وحفظها حفظاً كاملاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية في صفائها الرباني وإشراقاتها النورانية، وسوف تحفظ إن شاء الله - تعالى - كذلك إلى قيام الساعة لتبقى شاهدة على الخلق أجمعين أنها كلام الله الخالق، وشاهدة للرسول الخاتم الذي تلقاها بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

33 - ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

[التين: 4]

هذه الآية الكريمة جاءت في منتصف سورة «**التين**»، وهي سورة مكية، ومن قصار السور في القرآن الكريم، إذ يبلغ عدد آياتها ثماني آيات فقط بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود القسم في مطلعها بتلك الثمرة المباركة المعروفة باسم «**التين**». والله - تعالى - غني عن القسَم لعباده.

وهذه الآية الكريمة هي الوحيدة في كل القرآن الكريم التي جاء فيها ذكر (**التين**)، وأتبع القسم بهذه الثمرة المباركة بثلاث صيغ أخرى من القسم: بالزيتون، وطور سينين، وبالبلد الأمين (وهو مكة المكرمة) على أن الله - تعالى - قد خلق الإنسان في أحسن تقويم.

ويدور المحور الرئيس للسورة الكريمة حول قضايا خمس يمكن إيجازها فيما يلي:

1 - إن الله تعالى هو خالق الإنسان وخالق كل شيء، وإن الله الخالق البارئ المصور هو القائل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4].

بمعنى أن الله - تعالى - قد كرم الإنسان بخلقه في أجمل تركيب، وأعدل هيئة: في تفاصيل جسده، واستقامة عوده، وارتفاع هامته، وتناسق أبعاده ورجاحة عقله، وحرية إرادته، وطلاقة لسانه، وقوة بيانه، وقدراته النفسية والروحية الهائلة، وملكاته العديدة وفطرته السليمة، وغير ذلك من الصفات التي خصه الخالق العظيم بها، وفضله بذلك على كثير ممن خلق تفضيلاً.

2 - إن هذا التكريم الإلٰهي للإنسان يقتضي ترفعه عن الدنايا، والتزامه بالمحافظة على سلامة الفطرة التي فطرها الله - تعالى - عليها، والارتقاء بنفسه إلى مناط التكريم الذي كرمه الله ﷻ به، وأساسه فهم رسالة الإنسان في هذه الحياة، وحقيقة عبوديته لله. فيعبده - تعالى - بما أمر، وبحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها. فإذا انحرف الإنسان عن هذه الرسالة أو تمرد عليها رده الله - تعالى - إلى أسفل سافلين، وعاقبه في الآخرة بنار الجحيم وبالإذلال المهين. وتصبح المخلوقات غير المكلفة من دون الإنسان أرفع منه قدراً عند الله ﷻ، لاستقامتها على الفطرة التي فطرها الله عليها، وقيامها بالسجود والتسبيح وبغير ذلك من أوجه العبادة التسخيرية لله - تعالى -، وبأداء وظيفتها في هذه الحياة على الوجه الذي سخرها له الله بعلمه وحكمته وقدرته.

3 - وتستثني الآيات من هذا الارتكاس إلى أسفل سافلين، والبقاء عند مناطات التكريم الذي كرم الله - تعالى - به بني آدم مَنْ وصفهم ربنا - تبارك وتعالى - بالإيمان والعمل الصالح، الذين يحافظون على فطرتهم السليمة، ويجوّدونها بالمواظبة على عبادة الله - تعالى - بما أمر، وبحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض وبإقامة عدل الله فيها فيرتقون في معراج الله الذي لا تحده حدود حتى يلقوا الله ﷻ وهو راضٍ عنهم فيجزل لهم المثوبة، ويضاعف لهم الأجر، ولذلك أردفت الآية الكريمة بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: 6].

4 - إن وسيلة الإنسان لمعرفة ذاته، وللتعرف على خالقه، ولفهم رسالته في هذه الحياة، وإدراك مصيره من بعدها هو الدين الذي علمه الله ﷻ لكل من أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام لحظة خلقهما، ثم أنزله على فترة من الرسل، وأكمله وأتمه وحفظه في رسالته الخاتمة التي أنزلها على خاتم أنبيائه ورسله - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - ولذلك تعهد بحفظها في نفس لغة وحيها - اللغة العربية - حفظاً مطلقاً، وقد تحقق ذلك الحفظ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وتعهد ربنا - تبارك وتعالى - بذلك الحفظ إلى ما شاء حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق وحجة بالغة عليهم إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها. والدين هو بيان من الله - جل شأنه - للإنسان في القضايا التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها أية ضوابط صحيحة، وذلك من مثل قضايا العقيدة (وكلها غيب مطلق)، والعبادة (وكلها أوامر مطلقة من

الله ﷻ أو من رسوله ﷺ)، والأخلاق والمعاملات (وكلاهما من ضوابط السلوك، والتاريخ يؤكد لنا عجز الإنسان دوماً عن أن يضع لنفسه بنفسه ضوابطاً للسلوك) ومن هنا كانت ضرورة الدين، وضرورة أن يكون الدين ربانياً خالصاً لا يداخله أدنى قدر من المداخلات البشرية، لأن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة سوية على هذه الأرض بغير دين، ولأن الدين لا يمكن أن يكون صناعة بشرية. وانطلاقاً من ذلك يتضح لنا بجلاء أن الدين الوحيد الذي تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظه هو الدين الخاتم الذي بعث به النبي الخاتم ﷺ والذي قال فيه - عز من قائل -:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

[آل عمران: 19].

وقال - جل شأنه -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

ولذلك يأتي الخطاب في الآية السابعة من سورة «التين» بقول الحق - تبارك وتعالى -:
﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ [التين: 7].

والخطاب هنا موجه للإنسان الكافر، المكذب بالدين، ولذلك جاء بصيغة التوبيخ والتقريع، والاستفهام الاستنكاري، بمعنى: أي شيء يضطرك إلى أن تكون كاذباً بسبب تكذيبك بالدين، والدين حق، وكل مكذب للحق فهو كاذب.

5 - تقرير أن الله ﷻ هو أحكم الحاكمين، وتورد الآية الثامنة في ختام سورة التين هذه الحقيقة في صيغة الاستفهام التقريري المنفي للتأكيد على صحة ما جاء بعد النص فيقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟ أي: أليس الله بأعدل العادلين، وأليست حكمته في قضائه بين عباده تدل على أنه أبلغ القضاء وأحكمه، وأحقه وأعدله؟ ولذلك يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فإذا قرأ أحدكم** ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: 1] **فأتى آخرها**: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: 8] **فليقل: بلى وإنا على ذلك من الشاهدين**»[1].

(1) ذكره السيوطي في: «الدر المنثور» (6/ 296)، وذكره الهندي في: «كنز العمال» (الحديث: 4139).

وقد يشير هذا الاستفهام التقريري في ختام سورة «التين» أيضاً إلى إتقان الصنعة وحسن التدبير في خلق الإنسان في أحسن هيئة، وأعدل قامة، مزوداً بالعقل والإرادة الحرة، وبالقدرة على السمع والبصر والنطق والتعبير عن الذات، وعلى كسب المعارف والمهارات، وبغير ذلك من الملَكات التي خصه بها الله - تعالى -.

وتبدأ السورة الكريمة بقسم من الله - تعالى - بكل من التين والزيتون، وربنا - تبارك وتعالى - غني عن القسم لعباده، ولكن إذا جاءت الآية القرآنية الكريمة بصيغة القسم كان هذا من قبيل التنبيه إلى أهمية الأمر المقسم عليه، فما هي أهمية هاتين الثمرتين المباركتين واللتين جاء بهما قسم الله - تعالى - بقوله العزيز: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، وما هي أهمية منابتهما الأصلية؟

رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت»، ولكن نظراً للعطف على هذا القسم بقسم آخر بمكانين مباركين هما **طور سينين (سيناء)، والبلد الأمين (وهو مكة المكرمة)** لجأ بعض المفسرين إلى استنتاج الدلالة بالتين والزيتون على منابتهما الأصلية من الأرض؛ فطور سينين هو الجبل الذي نودي موسى عليه السلام من جانبه الأيمن، وهو جبل في شبه جزيرة سيناء (أو سينا) ومعناها: (المباركة الحسنة)، والجبل معروف اليوم باسم «طور سيناء» (أو جبل موسى أو جبل المناجاة). والبلد الأمين هو مكة المكرمة وحرمها الآمن، وبه الكعبة المشرفة (أول بيت وضع للناس)، وعلاقة هذين المكانين المباركين بوحي السماء لا ينكرها إلا جاحد.

وعطف القسم بهذين المكانين المباركين على القسم بكل من التين والزيتون حدا بأعداد من المفسرين إلى الاستنتاج بأن القسم بهاتين الثمرتين قد يتضمن من أحد جوانبه الإشارة إلى كرامة منابتهما الأصلية من الأرض، وذلك من مثل كلٍّ من بيت المقدس (وبجواره طور زيتا) وبه المسجد الأقصى المبارك الذي ندعو الله تعالى أن يطهره من دنس الصهاينة المجرمين، وأن يعيننا على تحريره وتحرير كامل أرض فلسطين من احتلالهم الجائر البغيض، وتحرير كامل أراضي المسلمين المحتلة والمغصوبة من مثل أراضي العراق وأفغانستان، وكشمير والشيشان من ربقة المحتلين الغاصبين، أعداء الله، وأعداء الإنسانية وأعداء الدين، اللهم آمين آمين آمين يا رب العالمين.

ومن أشهر منابت كل من التين والزيتون (بأنواعهما المتميزة) كل من بلاد الشام،

وجنوب شرقي تركيا، والأولى بها «طور تينا» بجوار دمشق، وهي الأرض الموصوفة بأنها أرض المحشر، والثانية بها مرسى سفينة نوح عليه السلام وبقايا مسجده على «جبل الجودي» الذي ذكره القرآن الكريم، وتم الكشف عن بقايا سفينة نوح مدفونة في رسوبيات مياه عذبة في قمته منذ شهور قليلة.

وعلى الجانب الآخر فإن كلاً من «طور سيناء»، و«بيت المقدس»، و«مكة المكرمة» قد بعث الله تعالى فيه نبياً من أنبيائه ورسولاً من أولي العزم، فبيت المقدس بعث الله - تعالى - فيه عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، وعلى الجانب الأيمن من طور سينين ناجى الله تعالى عبده ورسوله موسى بن عمران عليه السلام، ومكة المكرمة بعث فيها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وزارها معظم أنبياء الله ورسله.

وبعد هذا القسم المركب الذي استغرق الآيات الثلاث الأولى من سورة «التين» يأتي جواب القسم بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: 4-6].

ثم ختمت السورة الكريمة بهذا الاستفهام الاستنكاري، التوبيخي، التقريعي لكل كافر، ومشرك، وضالٌ عن الحق يقول له فيه ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين: 7-8].

من الإشارات الكونية في سورة «التين»:

1 - القسم بكل من (التين والزيتون) تأكيداً على ما فيهما من قيمة غذائية وصحية كبيرة، وتكامل في المحتوى كغذاء وشفاء للإنسان.

2 - القسم بطور سينين، والطور هو الجبل المكسو بالخضرة، وطور سينين هو الجبل الذي ناجى الله تعالى عبده ورسوله موسى بن عمران عليه السلام من جانبه الأيمن، والجبل قائم إلى اليوم بشبه جزيرة سيناء.

3 - القسم بمكة المكرمة (البلد الأمين) إشارة إلى كرامتها وخصوصيتها، والدراسات العلمية تؤكد توسطها لليابسة، وأحاديث رسول الله ﷺ تشير إلى توسطها من الكون لوجودها تحت البيت المعمور مباشرة.

4 - وصف خلق الإنسان بأنه في أحسن تقويم.

5 - الإشارة إلى إمكانية ارتداد الإنسان من مقامات التكريم إلى أسفل سافلين في الدنيا والآخرة، فهو أشرف مخلوقات الله إذا كان مؤمناً صالحاً، وهو أحقر هذه المخلوقات وأبغضها إلى الله - تعالى - إذا كان العبد كافراً أو مشركاً، أو ظالماً متجبراً، أو فاسقاً فاجراً؛ والملاحظات على سلوك الناس من مثل ما تقترفه العصابات المجرمة المشركة والكافرة على أرض فلسطين، وعلى أرض كل من العراق وأفغانستان من جرائم يندى لها الجبين تعطي صوراً حية لارتداد الإنسان إلى أسفل سافلين، ولانتكاسه عن مستوى الآدمية التي خلقه عليها الله وكرمه بها.

6 - التأكيد على حقيقة الدين الذي أنزله الله - تعالى - على فترة من الرسل، وأكمله، وأتمه، وختمه، في بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين -. ولذلك تعهد بحفظ رسالته الخاتمة حفظاً مطلقاً لانقطاع الوحي من بعده.

7 - التأكيد على أن الله - تعالى - هو أحكم الحاكمين.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على الآية الرابعة من سورة «التين» والتي تؤكد خلق الإنسان في أحسن تقويم، والدلالات العلمية على تلك الحقيقة، ولكن قبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4].

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «.. هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل، منتصب القامة، سوي الأعضاء أحسنها».

● وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما مختصره: «.. فتخصيص الإنسان هنا وفي مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب، وحسن التقويم وحسن التعديل.. فيه فضل عناية بهذا المخلوق. وأن عناية الله بأمر هذا المخلوق على ما به من ضعف، وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد لتشير إلى أن له شأناً عند الله، ووزناً في نظام هذا الوجود. وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء في

تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب..».

● وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن - رحم الله كاتبها - ما نصه: «﴿لَقَدْ خَلَقْنَا..﴾ جواب القسم، أي: لقد خلقنا جنس الإنسان في أعدل قامة، وأحسن صورة، مكملاً بالعقل والمعرفة، ومتصفاً بالحياء والعلم، والإرادة والقدرة، والسمع والبصر والكلام، والتدبير والحكمة. (والتقويم: التثقيف والتعديل)».

● وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه: «لقد خلقنا جنس الإنسان مقوماً في أحسن ما يكون من التعديل، متصفاً بأجمل ما يكون من الصفات».

● وذكر صاحب صفوة التفاسير - جزاه الله خيراً - ما نصه: «أي لقد خلقنا جنس الإنسان في أحسن شكل، متصفاً بأجمل وأكمل الصفات، من حسن الصورة، وانتصاب القامة، وتناسب الأعضاء، مزيناً بالعلم والفهم، والعقل والتمييز والنطق والأدب، قال مجاهد: ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أحسن صورة، وأبدع خلق....».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

إن المقارنة بين بناء جسم الإنسان وبناء جسم أي مخلوق آخر مما نعلم من المخلوقات، يؤكد بوضوح أن الله - تعالى - قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي في أحسن صورة وشكل وهيئة ومن مميزات ذلك ما يلي:

أولاً: انتصاب القامة:

يتميز الإنسان في بناء جسده بانتصاب القامة، وهي ميزة يتفرد بها الإنسان بين جميع المخلوقات الحية المتحركة التي نعلمها، وقد خطط الخالق ﷻ لهذه الهيئة المميزة بانتصاب القامة والإنسان جنين في بطن أمه، حيث يبدأ نمو أعضائه في مرحلة مبكرة جداً على مراحل مميزة بمواضع الفصل والوصل تبنى عليها الأعضاء شيئاً فشيئاً. فيظهر الحبل الظهري في مرحلة العلقة، وهو المحور الهيكلي الذي يبنى حوله كل أجهزة الجسم ويسبق ظهور العمود الفقري الذي يمر بمراحل ثلاث كما يلي:

1 - **المرحلة الغشائية**: (مرحلة النسيج السابق لتكوّن العظام): وتظهر في الأسبوعين الخامس والسادس من عمر الجنين.

2 - **المرحلة الغضروفية**: وتبدأ في أواخر الأسبوع السادس من عمر الجنين.

(ج) (ب) (أ)

ثلاث صور للجنين البشري: (أ) في اليوم الثاني والأربعين من عمره ولا يزال في المرحلة الغشائية. (ب) في اليوم الثامن والأربعين من عمره في المرحلة الغضروفية. (جـ) في اليوم السادس والخمسين في مرحلة تكون العظام ثم كسوتها باللحم.

3 - **المرحلة العظمية**: وتبدأ في الأسبوع السابع من عمر الجنين بظهور مراكز التعظم في جسم الغضاريف، ثم في الأسبوع الثامن تظهر مراكز التعظم في أقواس الفقرات وتبدأ الأضلاع عندئذ في الظهور، ثم تتكون العضلات حول العظام وتكسوها باللحم.

وتنقسم عظام جسم الإنسان إلى **عظام من أصل غضروفي**، أي تبدأ على هيئة الغضاريف ثم تتكلس وتتحول إلى العظام، وهذه تشمل معظم العظام في جسم الإنسان، **وعظام من أصل غشائي** تبدأ على هيئة الأنسجة الغشائية التي تتكلس بالتدريج متحولة إلى العظام، ومن أمثلتها أغلب عظام الجمجمة ما عدا عظام قاعها.

ومن مقومات انتصاب القامة عند الإنسان اتساع الحوض (خاصة عند الإناث) وكبر عظمة الفخذ ونتوءات الفقرة القطنية الخامسة، ومرونة العمود الفقري، وانحناءات الفقرات، وارتكاز الفتحة القفوية الكبرى أفقياً على المحور الرأسي لعظام فقرات العنق حتى يستقر عليها الرأس عمودياً.

ويتكون الهيكل العظمي للإنسان في المرحلة الجنينية من (144) عظمة محددة بأنسجة غضروفية على أطرافها تسمح لها بالنمو التدريجي وتعرف باسم **مراكز التعظم الثانوية**، ويتم تعظم هذه المراكز وفق نظام محدد يتماشى زمنياً مع متطلبات النمو حتى سن العشرين تقريباً. وعند تحول تلك الغضاريف بالتدريج إلى عظام فإنها تلتحم مع بقية

الأنسجة العظمية المتاخمة لها مكونة عظماً واحداً، حتى يتم تكوين الهيكل العظمي للإنسان البالغ والذي يتركب من 216 عظمة، وهذا الهيكل العظمي المعقد البناء هو الذي يعطي لجسم الإنسان ميزته البنائية المنتصبة، والتي ميزه الله - تعالى - بها عن بقية مخلوقاته المعروفة لنا من الكائنات الحية المتحركة. وهذا البناء العظمي الهائل المكون من (216) عظمة كبيرة ودقيقة[1]، صمم كذلك لكي يعين الإنسان على الحركة بحرية كبيرة، ولذلك فقد جعل الله - تعالى - بين تلك العظام مفاصل تسمح للإنسان بالوقوف مستقيماً، وبالجلوس، والاضطجاع، والانحناء، والتثني، والبسط والقبض، وغير ذلك من الحركات التي مكنت الإنسان من العديد من المهارات، وبدون ذلك ما كان ممكناً للإنسان أن يستمتع بوجوده في هذه الحياة الدنيا.

---

(1) (33) فقرة في العمود الفقري (7 فقرات عنقية، 12 ظهرية، 5 فقرات قطنية، 5 فقرات عجزية، 4 فقرات عصعصية).
(28) عظمة متراكبة في الجمجمة.
(24) ضلعاً مرتبطاً بالعمود الفقري لتكوين القفص الصدري.
(3) عظمات للقص.
(2) عظمتان تكونان لوحي الكتفين.
(2) عظمتان تكونان الترقوة.
(2) عظمتان للعضدين.
(4) أربعة عظام للزند والكعبرة في كل من اليدين.
(16) عظمة للرسغين.
(10) عظام للكتفين.
(28) عظمة لسلاميات اليدين.
(6) ستة عظام للحوض.
(2) عظمتان للفخذين.
(4) قصبتان وشظيتان بالساقين.
(14) عظمة بالقدمين.
(28) سلاميات أصابع القدمين.
(10) عظمات وترية (عظمتان وتريتان بكلٍّ من الإبهامين، وثلاثة لكل من الإصبعين الكبيرين).

وتنتظم عظام جسم الإنسان في المجموعات الثلاث التالية:

1 - **الهيكل المحوري**: ويشمل العمود الفقري المكوّن من 33 فقرة (7 عنقية، 12 ظهرية، 5 قطنية، 5 عجزية، 4 عصعصية) ومعظم الجمجمة (المكونة من 28 عظمة متراكبة).

2 - **الهيكل الإحشائي**: ويشمل القفص الصدري (المكوّن من 24 ضلعاً مرتبطاً بالعمود الفقري). والفك السفلي، وبعض أجزاء الفك العلوي.

3 - **الهيكل الطرفي**: ويشمل عظام الحوض (6) ولوحي الكتفين وعظام وغضاريف الأطراف.

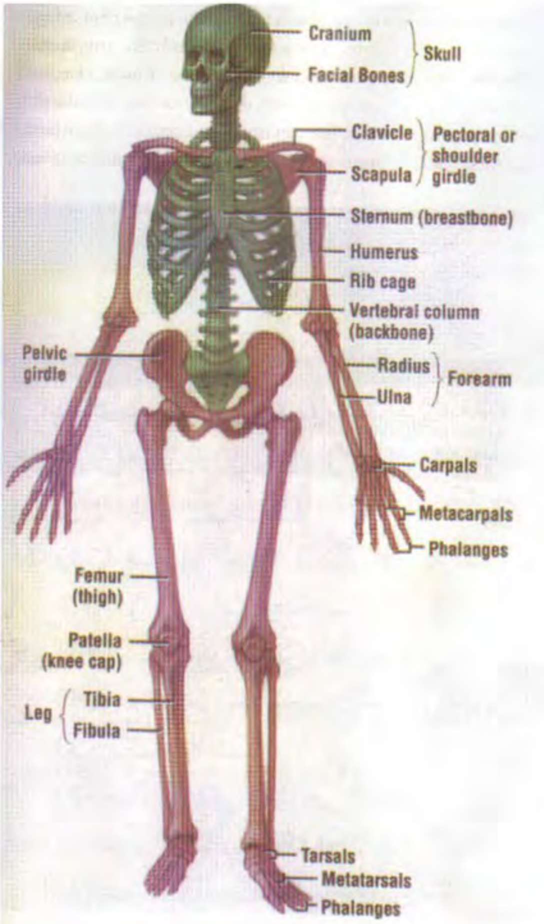

رسم تخطيطي للهيكل العظمي في جسم الإنسان النامي.

ويفصل هذا العدد الهائل من العظام (360) مفصلاً على النحو التالي:

- (147) مفصلاً بالعمود الفقري (25 منها بين الفقرات، 73 بين الفقرات والأضلاع، 50 بين الفقرات عن طريق اللقيمات الجانبية).
- (24) مفصلًا بالصدر (18 منها بين القص والضلوع، 2 بين الترقوة ولوحي الكتف، 2 بين لوحي الكتف والصدر).
- (86) مفصلًا بالأطراف العلوية (2 منها بين عظام الكتفين، 6 بين عظام الكوعين، 8 بين عظام الرسغين، 70 بين عظام اليدين).

- (88) مفصلاً بالأطراف السفلية (2 منها بين الفخذين، 6 بين عظام الركبتين، 6 بين عظام الكاحلين، 74 بين عظام القدمين).

- (15) مفصلاً بالحوض (6 منها بين عظام الفخذ، 1 مفصل الارتفاق العاني، 4 بين فقرات العصعص، 4 بين عظام الركبتين).

وهذه هي المفاصل المتحركة في جسم الإنسان، والتي تساهم في إعطاء هيكله العظمي استقامته وانتصابه والقدرة على الحركة بمرونة عالية، وهي المقصودة بتعبير السلامى الذي ذكره المصطفى ﷺ في حديثه الشريف الذي رواه الإمام مسلم[1]، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها حيث قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبر الله، وحمد الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً من طريق الناس، أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، عدد تلك الستين والثلاثمائة السلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار**».

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة**»[2].

وهناك فواصل ثابتة كتلك الموجودة بين عظام الجمجمة فلا تدخل في عداد السلامى.

ومن مقومات انتصاب القامة عند الإنسان اتساع الحوض، وكبر عظمتي الفخذين، وتحدب الفقرات الظهرية إلى الخلف، مع تحدب باطن القدم ليتكيف تماماً مع المشي على الرجلين وعلى نقاط التقائهما بالأرض، واتزان الرأس على استقامة الجسم عند الوقوف وذلك بدقة الوضع الأفقي للفتحة التي تصل بين عظام الرأس وفقرات العنق.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: «الزكاة»، باب: بيان أن اسم الصدقة... الحديث: (2327).
(2) أخرجه البخاري في كتاب: الصلح، باب: فضل الإصلاح... الحديث: (2707).

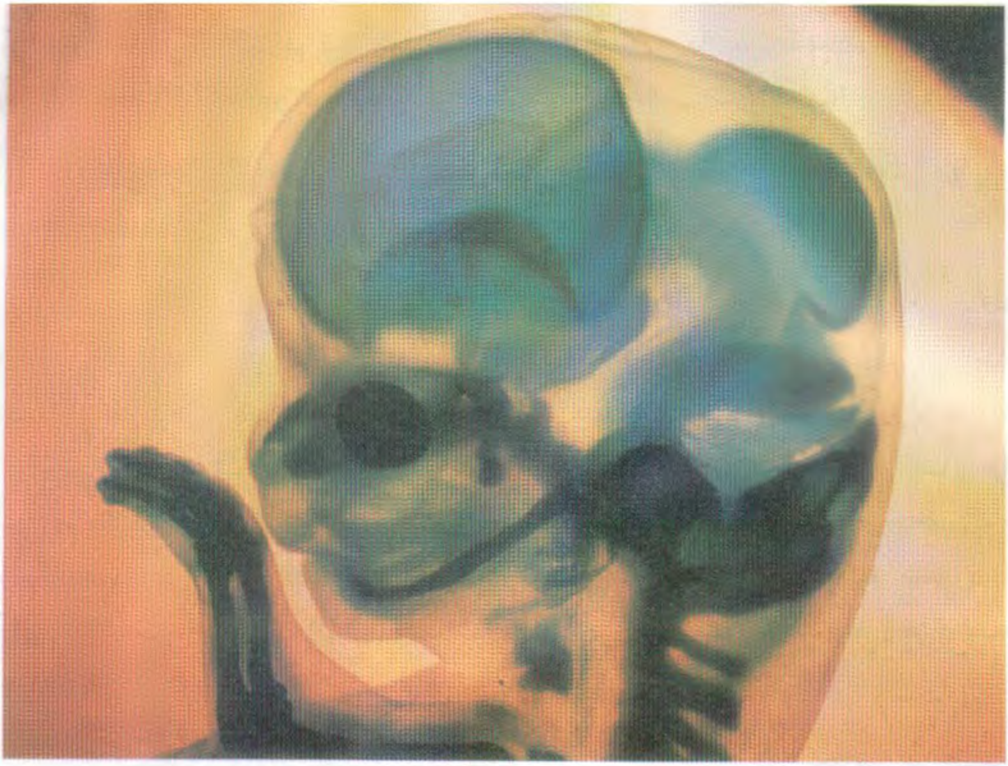

صورة حقيقية لجنين بشري في الأسبوع الثامن من عمره
توضح أن جمجمته لا تزال مكونة من غضاريف قبل مرحلة التكلس.

ثانياً: تناسق أطوال الأطراف مع طول العمود الفقري:

تظهر براعم أطراف الجنين البشري في بداية الأسبوع الخامس من عمره، وتظهر الأطراف العلوية أولاً ثم تليها الأطراف السفلية في الظهور ببضعة أيام، ويحتوي البرعم الطرفي في أول الأمر على خلايا غير متميزة، ثم تتحول في الأسبوع السادس إلى خلايا غضروفية، وتبدأ هذه الخلايا الغضروفية في التكلس التدريجي متحولة إلى العظام. ولكل وحدة من وحدات الهيكل العظمي للجنين منطقة مركزية يتم تعظمها، وتنتهي أطرافها بنسيج غضروفي قابل للتحول إلى عظام فيما بعد حتى يسمح ذلك بالنمو الطولي للجنين ولأطرافه التي تنمو بمعدلات متناسبة وبدقة بالغة. وتسمى الأنسجة الغضروفية على أطراف العظام باسم **مراكز التعظم الثانوية**، ويبلغ عددها عند بدء ظهور العظام (144) مركزاً، يتم تعظمها بالتدريج وفق برامج زمنية محكمة تتماشى مع متطلبات النمو حتى سن العشرين، وبتحول أجزاء من هذه الغضاريف إلى عظام فإنها تلتحم بالعظام

التي نمت عليها لتصبح عظماً واحداً، ويصل مجموع عدد العظام في الهيكل العظمي للإنسان البالغ إلى 216 عظمة بما في ذلك من العظمات العشرة الوترية. ويكتمل نمو عظام الحوض عند الإناث قبل الذكور بسنتين على الأقل، وتتشكل عظام الحوض عندهن بما يلائم مستقبلهن كأمهات، فالحوض في الأنثى أعرض منه في الذكر.

ويتناسق طول الهيكل العظمي مع حجم الجسم ومراحل النمو المتتالية حتى البلوغ كما يتناسق طول الأطراف مع كل ذلك تناسقاً واضحاً.

رسوم تخطيطية توضح تفصيل كل من العضلات والأعصاب بدقة على الهيكل العظمي للإنسان مما يؤكد خلق العظام ثم كسوتها باللحم.

ثالثاً: كبر حجم المخ:

من الواضح أن الإنسان البالغ يتمتع بحجم للمخ يتراوح بين1200 إلى 2000 ميليمتر مكعب (بمتوسط1500 ميليمتر مكعب) وبجهاز عصبي في غاية التعقيد، مما يميزه عن غيره من المخلوقات بالذكاء، والقدرة على التفكير، والتخيل، وعلى التعلم واكتساب مختلف المهارات ثم تعليمها، وعلى الانفعال، والتعبير عن انفعالاته، وعلى استيعاب كل من الذات والغير، وعلى الفضول وحب الاستفسار عن الغامض من الأشياء، وعلى إدراك الفوارق بين المستويات المختلفة من البشر، وتمييز بعضهم عن بعض، وبالقدرة على المحافظة على التوازن، بدنياً، ونفسياً، وعقلياً، في الحالة الصحية، وعلى المشاركات الاجتماعية المختلفة، وبغير ذلك من الصفات المميزة للإنسان.

رابعاً: تناسق تفاصيل الرأس والوجه:

من الصفات التي ميز بها الخالق ﷻ الإنسان عن غيره من المخلوقات الحية

المتحركة: ارتفاع الرأس واستدارته، وتفلطح الوجه، واستقامة الجبهة، ووضوح الذقن، واستقامة الكتفين، وتسطح الصدر، والوضع الزاوي لتجويفي العينين مما يساعد الإنسان السليم على الرؤية المجسمة بالعينين (**Binocular vision**)، ومن هذه الصفات أيضاً دقة ترابط عظام وغضاريف وأعصاب الأطراف في الإنسان خاصة في يديه، مما أعطاهما القدرة على التحكم في كثير من الأمور مثل الكتابة، والرسم، والعزف وتناول الأشياء بعناية ودقة، ومن تلك الميزات الأسنان الصغيرة المرتبة ترتيباً يتناسب مع نظام الإنسان في تناول الطعام، ومن هذه الصفات الخاصة بالإنسان كذلك تميزه بالجلد الذي يغطي جسده وتنتهي عنده آلية الأطراف العصبية، ويمتلىء بالخلايا العرقية، ويتغطى بالقليل من الشعر، ويختم بعدد من البصمات المميزة للإنسان في مجموعه عن غيره من المخلوقات والمميزة لكل فرد من بني آدم.

خامساً: ميزة النطق بالكلام المرتب المتناسق:

يدعي كثير من الدهريين أن اتساع حنجرة الإنسان وقدرتها على إصدار العديد من الأصوات، ومحاولته تقليد أصوات الحيوانات وأصوات الطبيعة، ربما أعان الإنسان على الكلام. ولكن علماء المسلمين يؤكدون أن مصدر هذه النعمة العظيمة هو الإلهام من الله - تعالى -، والقرآن الكريم يؤكد لنا أن بيان الإنسان نعمة من نعم الخالق ﷻ مَنَّ بها على أبويهم آدم وحواء عليهما السلام، وأورثها لذريتهما من بعدهما، وهيأهم التهيئة الجسدية والعقلية لتقبل هذه النعمة ومن ذلك خلق اللسان والشفتين والحنجرة ومراكز السمع والنطق بالمخ وفي ذلك يقول - عز من قائل -:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: 1-4]

فاللغة والبيان من نعم الله - تعالى - التي أنعم بها على الإنسان، كما أنعم عليه بالعديد من النعم ومنها خلقه في أحسن تقويم، فالحمد لله على عظيم نعمه والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

34 - ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41]

هذا النص القرآني الكريم جاء في بداية الثلث الأخير من سورة «الروم» وهي سورة مكية وآياتها ستون (60) بعد البسملة وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بخبر انتصار الروم على الفرس قبل وقوعه بتسع سنوات وذلك بعد هزيمتهم المنكرة أمام الجيوش الفارسية قبل نزول هذه السورة المباركة بعدة سنوات، ويدور المحور الرئيس لسورة (الروم) حول عدد من ركائز العقيدة الإسلامية شأنها في ذلك شأن كل السور المكية.

وقد سبق لنا استعراض هذه السورة المباركة وما جاء فيها سابقاً، وسوف نركز هنا على الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم وقضيته التي تدور حول الإفساد المادي والمعنوي الذي ظهر في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس والذي تعاني منه الأرض وأحياؤها أشد المعاناة اليوم.

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

أولاً: الإفساد المعنوي في الأرض:

الإفساد لغة: هو إذهاب ما في الشيء من نفع وصلاحية، والفساد هو خروج الشيء عن حد الاعتدال والصلاح. ولكل من الفساد والإفساد معناه المادي الملموس في البيئات الفطرية ومدلوله المعنوي الضمني لسلوك الإنسان في البيئات الاجتماعية.

ويتجسد الفساد المعنوي في فقد الإنسان لقدرته على تحقيق رسالته في هذه الحياة: عبداً لخالقه ﷻ يعبده بما أمر ومستخلفاً في الأرض من قبل هذا الخالق العظيم ليحسن القيام بواجبات الاستخلاف فيها بعمارتها وإقامة شرع الله - تعالى - وعدله فيها. وبانعدام فهم الإنسان لهذه الرسالة تفسد عنده المعتقدات وتنحرف العبادات وتنحط الأخلاق والسلوكيات والمعاملات وتضيع القيم والحقوق وتفسد الأنظمة والمجتمعات ويفشل الإنسان في القيام بواجباته في هذه الحياة فيظل تائهاً حائراً فيها حتى يخرج منها صفر اليدين من الحسنات مثقلاً بالذنوب والتبعات قد ضيع كلاً من دنياه وأخراه سدى وليس هنالك إفساد أخطر من هذا الإفساد. وذلك لأن الإنسان مخلوق عاقل مكرم مكلف ذو إرادة حرة فإذا صلحت إرادته صلحت حياته وصلح مجتمعه وإذا فسدت إرادته فسدت حياته ومجتمعه وملأ الأرض من حوله فساداً وظلماً وجوراً.

ومن صور هذا الفساد ما يلي:

1 - فساد الاعتقاد:

والذي يظهر في العديد من صور الكفر أو الشرك بالله - تعالى - التي تعم مختلف جنبات الأرض اليوم والله - تعالى - خلق كل شيء في ثنائية واضحة (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان) حتى يبقى ربنا متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. ثم إن الله ﷻ خلق كل خلقه على نمط واحد حتى يشهد خلقه له بألوهيته وربوبيته وخالقيته ووحدانيته وبمغايرته لخلقه مغايرة كاملة، ومن هنا كان الكفر بالله - تعالى - أو الشرك به غمط لأول حقوق الله على عباده وإنكار لأعظم حقائق هذا الوجود ومفسدة للإنسان أي مفسدة لأن المخلوق إذا غفل عن حقيقة عبوديته لخالقه فسدت عقيدته وبفسادها يفسد فكره وإرادته وسلوكه وعلاقاته بغيره، ويفسد مجتمعه وبفساد المجتمعات تفسد الأمم وتلوث بمختلف صور الفساد لخروجها عن منهج الله وأوامره ولفقدانها الصلة الحقيقية بالله - تعالى -. وبهدايته الربانية في الأمور التي لا يمكن للإنسان أن يضع لنفسه فيها أية ضوابط صحيحة وهي أمور الدين.

2 - فساد العبادات:

ويظهر ذلك في العديد من العبادات الموضوعة المنتشرة في مختلف جنبات الأرض

والله - تعالى - يحب أن يعبد بما أمر ولأن المفهوم اللغوي للعبادة هو الخضوع الكامل لله - تعالى - بالطاعة لأوامره واجتناب نواهيه والإنسان مجبول بفطرته على الإيمان بالله وعبادته بما أمر، وإذا لم يهتد الإنسان إلى العبادة الصحيحة لله سوّل له الشيطان أنماطاً من العبادة المصطنعة يملأ بها الحاجة الداخلية إلى الدين وإلى العبادة. ولا يمكن لعاقل أن يتصور إمكانية أن يصطنع لنفسه نمطاً من العبادة أو أن يصنعها له إنسان مثله ثم يتخيل قبول الله ﷻ لتلك العبادة الموضوعة. وغالبية أهل الأرض واقعون اليوم في هذا الشرك من شراك الشيطان التي إذا وقع الإنسان فيها فقد صلته بالله وبفقدها يفقد الإنسان إنسانيته ويتحول إلى كيان فاسد مفسد مدمر لذاته ولأهله ولمجتمعه، يعبد ذاته أو أهواءه وشهواته ورغائبه أو يعبد غيره من البشر أو يعبد الشيطان وفي كل هذه الحالات لا يمكن له أن يحيا حياة سوية على الأرض أو أن يكون مستخلفاً صالحاً فيها.

3 - فساد كل من الأخلاق والمعاملات:

إذا فسدت العقائد والعبادات فسدت الأخلاق والمعاملات وانتشر بين الناس حب استغلال السلطة والتعدي على المال العام وصَاحَبَ ذلك فساد الذمم والخداع والكذب ونقض العهود والعقود والمواثيق، وأكل أموال الناس بالباطل وتطفيف الموازين والمكاييل والغش في الصنعة والعمل، وانتشار السرقات والنهب والسلب والرشوة والمحسوبية والربا، وإشاعة كل من الاستبداد والمظالم والفواحش والفتن والاعتداء على الأعراض والأموال والممتلكات، واختلاط الأنساب ونصرة الباطل وأهله ومحاربة الحق وجنده وفساد الأحكام والتصورات والقيم والنظم وإفساد العقول وضياع القدوة الحسنة وغياب الشفافية وغير ذلك من صور الفساد المعنوي والأخلاقي والسلوكي، وهو من أبشع صور الإفساد في الأرض وكلها من معاصي الله التي تستجلب غضبه ﷻ وتستوجب نزول عقابه في صور عديدة منها: جدب الأرض ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وتفشي الأوبئة والأمراض والأوجاع والاجتياح بمختلف الكوارث، ومنها: الزلازل وثوران البراكين والعواصف والأعاصير والحرائق والغرق والاجتياح كذلك بالأعداء الجائرين وبالمظالم المتفشية والشح والغلاء وانتزاع البركة من كل شيء والهبوط بالإنسانية إلى ما هو دون مستويات الحيوان الأعجم لأن الحيوان لا يخرج بسلوكه عن الفطرة التي فطره الله - تعالى - عليها والتي يعبد خالقه بها، بينما الإنسان يستطيع بإرادته الحرة أن ينحط إلى ما دون مستوى الحيوان. وليس أدل على ذلك من

إباحة عدد من الحكومات الغربية للشذوذ الجنسي والزواج بالمثل والسماح لهؤلاء الشواذ بالتبني فينشأ الأطفال في هذه البيئات العفنة التي تدعمها الدولة وتسمح لها بكل الحقوق الاجتماعية والمالية، ينشأون وهم يألفون الفساد والانحراف ولا يرون فيه شيئاً يشين أو يعيب وهو من أخطر صور الإفساد المعنوي في الأرض.

ثانياً: الإفساد المادي في الأرض:

بالإضافة إلى الفساد المعنوي الذي قد عم الأرض في زمن الفتن الذي نعيشه فإن هذا النص القرآني المعجز يشير أيضاً إلى الإفساد المادي في بيئات الأرض الثلاث: التربة والماء والهواء، وذلك لأن لفظة (البر) تشمل كلاً من اليابسة وما يحيط بها من غلاف غازي وكذلك لفظة (البحر) تشمل كلاً من القاع المنخفض والماء الذي يمتلئ به وما يحيط بهما من غلاف غازي. وهذه البيئات الثلاث وما بكل منها من مختلف صور الأحياء والجمادات تشكل حلقات مترابطة يتأثر بعضها ببعض وأي إخلال بنظام إحداها يؤثر سلباً على النظم الأخرى.

وقد بدأت مشكلة تلوث البيئة في التفاقم مع بداية الثورة الصناعية في أوروبا الغربية والتي كانت أولى خطواتها مع اختراع الآلة البخارية. فقد أدى سوء استخدام الوقود الأحفوري (من أمثال الفحم الحجري والنفط والغازات الطبيعية) في آلات الاحتراق الداخلي ومحركات الدفع والمصانع المختلفة إلى زيادة نسبة عدد من الغازات السامة التي من أخطرها أكاسيد كل من الكربون والكبريت والنيتروجين والرصاص والهيدروكربونات غير كاملة الاحتراق التي تطلق كلها في الغلاف الغازي للأرض.

وهذا الاعتداء على البيئة وعلى ما فيها من أحياء هو من معاني الإفساد في الأرض لأنه إفساد مادي ملموس يحدثه الإنسان بسوء سلوكياته وتصرفاته في مختلف بيئات الأرض، وقد أحكم الله خلقها، وضبط علاقاتها ببعضها كماً وكيفاً بإحكام واتزان بالغين لا يخله إلا إفساد الإنسان، وذلك لأن الله - تعالى - خلق كل شيء بقدر أي بمكونات ومقادير محددة ومتوازنة وبصفات وخصائص معينة تكفل لكل بيئة الملاءمة الكاملة لأنواع الحياة التي خلقت لها في توافق واعتدال لا يفسده إلا تدخل الإنسان بطمعه وجشعه وإسرافه أو بجهله وتخلفه وتسيبه أو بسوء نواياه وخبث مقاصده مما يفسد مكونات النظم البيئية الدقيقة كماً وكيفاً ويخرجها عن سويتها التي خلقها الله - تعالى -

بها ويجعلها غير موائمة للأحياء التي تعيش فيها ويصيبها بشيء من الخلل أو الشلل الذي يعطلها عن أداء وظيفتها ويفقدها صلاحيتها ونفعها. ومن صور هذا الإفساد المادي ما يلي:

تلوث البحار والأنهار يؤدي إلى تلف الثروة السمكية.

1 - التلوث الكيميائي للبيئة: ويتم ذلك بتزايد إطلاق كميات هائلة من الملوثات الغازية والسائلة والصلبة إلى مختلف بيئات الأرض من التربة والماء والهواء وذلك من مثل غازات أول وثاني أكسيد الكربون وأكاسيد كل من النيتروجين والكبريت والرصاص والزئبق والهيدروكربونات غير كاملة الاحتراق وغيرها من الملوثات السامة لكل حي. وتميل هذه الغازات إلى التفاعل السريع مع مادة الهيموجلوبين في خلايا الدم الحمراء أثناء مرور الدم بشعيرات الرئتين فينتج عن هذه التفاعلات أعداد من المركبات الكيميائية المعقدة التي تعيق الدم عن القيام بدوره في الاتحاد مع الأكسجين القادم مع عملية الشهيق من أجل نقله إلى بقية أجزاء الجسم، ومن أعراض ذلك حدوث ضيق في التنفس إلى حد الشعور بالاختناق وما يستتبعه من تأثيرات سلبية على كل من المخ وبقية الجهاز العصبي، تصحبها آلام الصداع الحادة وقد تؤدي إلى حدوث الذبحة الصدرية وتنتهي بالوفاة.

كذلك فإن غاز ثاني أكسيد الكربون له قدرة هائلة على امتصاص الأشعة تحت الحمراء القادمة مع أشعة الشمس، مما يؤدي إلى رفع درجة حرارة الغلاف الغازي للأرض بالتدريج خاصة وأن ثاني أكسيد الكربون إذا زادت نسبته في الغلاف الغازي للأرض، فإنه يتجمع بالقرب من سطحها نظراً للكثافة النسبية العالية له فيعمل كحاجز حراري يحيط بالأرض إحاطة كاملة مما يؤدي إلى خلخلة واضطراب المناخ وتحرك

العواصف والأعاصير المدمرة، وإلى إذابة الثلوج فوق كل من قمم الجبال وقطبي الأرض بما يتسبب في رفع منسوب المياه في البحار والمحيطات وفي إغراق العديد من الجزر المحيطية، ودالات الأنهار والسهول الساحلية حيث ينتشر العمران.

وتدل القياسات العلمية المختلفة على أن نسبة ثاني أكسيد الكربون في جو الأرض وهي في الأصل في حدود 0,00250% تقدر اليوم بحوالي 0,000381% بمعنى أنها قد زادت بأكثر من 25% منذ بداية الثورة الصناعية إلى اليوم.

أما أكاسيد النيتروجين والتي ينتج بعضها عن تعفن النفايات التي ينتجها الإنسان وينتج البعض الآخر عن أكسدة نيتروجين الغلاف الغازي للأرض بواسطة درجات الحرارة العالية الناتجة عن أجهزة الاحتراق الداخلي المختلفة في كل من المصانع ووسائل النقل المتعددة من (السيارات والطائرات والصواريخ والبواخر والبوارج وغيرها). وأكاسيد النيتروجين هي غازات سامة وضارة خاصة بالأجهزة التنفسية للأحياء وفي مقدمتها الإنسان إذا زادت نسبتها في الهواء عن 00,05% جرام/ م بينما تركيزها السائد في أغلب المدن الصناعية اليوم يتعدى 1 جرام/ م^3.

المواد المتسربة من البواخر والبوارج لها دور كبير في تلوث مياه المحيطات.

وبالمثل فإن أكاسيد الكبريت (أول وثاني أكسيد الكبريت) هي غازات مهيجة لأنسجة الأجهزة التنفسية عند كل من الإنسان والحيوان وضارة بالنباتات وبالجمادات، وذلك لأن ثاني أكسيد الكبريت بالذات له قابلية عالية للذوبان في الماء مكوناً حمض الكبريتيك وهو واحد من أقوى الأحماض المعروفة لنا وله قدرة فائقة على إذابة العديد من المواد العضوية وغير العضوية، مما يؤدي إلى إتلاف الأنسجة الحية وإلى تآكل كل من المواد الفلزية (من مثل الحديد والنحاس والرصاص وغيرها) وغير الفلزية (ومنها أحجار البناء والمواد الخرسانية والخشبية) وقد ينتج عن هذه التفاعلات هباءات من المركبات الكبريتية الضارة (من مثل كبريتات وكبريتيدات العناصر المختلفة) التي تنتشر في الجو فتلوثه وسرعان ما تنتقل من الهواء إلى كل من التربة والماء فتلوثهما ثم تجد طريقها إلى الأحياء فتصيبهم بأضرار بالغة، وذلك عن طريق ما يعرف باسم الأمطار الحمضية.

ومن الثابت علمياً أن مثل هذه الملوثات للبيئة لها علاقة مباشرة بانتشار العديد من الأمراض الخطيرة من أمثال الأورام السرطانية ونقص المناعة والحساسية وغيرها من أمراض الجهاز التنفسي.

ولا يتوقف دور مختلف المصانع والأنشطة الصناعية الأخرى ووسائل المواصلات (من السيارات والشاحنات والطائرات والبواخر والغواصات وحاملات الطائرات والصواريخ وغيرها) عند حدود ما تطلقه من الغازات والسوائل والجوامد السامة، بل تتعدى ذلك إلى ما تثيره أجهزة المصانع ووسائل الاتصال والنقل المختلفة من ضجيج له تأثيراته السلبية على مختلف صور الحياة وما تنتجه وسائل النقل الأرضية من غبار ونتائج تآكل كل من الإطارات وصفائح الكوابح وأسطح الطرق المرصوفة وغيرها.

ولم يهتم الدارسون بقياس معدلات تلوث البيئة خاصة في أجواء المدن الصناعية المكتظة بالسكان حتى شتاء 1952م، حيث سادت حالة من الركود الجوي في الغلاف الغازي لمدينة لندن (العاصمة البريطانية) لعدة أيام متتالية تجمعت خلالها أدخنة المصانع في جو المدينة على هيئة كتل من الضباب الأسود الراكد القريب من سطح الأرض والشديد التلوث بعوادم مداخن المصانع، وتسبب هذا الضباب الأسود في وفاة أكثر من أربعة آلاف شخص واستمر التلوث في جو المدينة بعد زوال هذا السحاب الراكد لمدة زادت على خمسة عشر يوماً، وقد تكرر حدوث هذه الكارثة في تاريخ مدينة لندن عدة

مرات كان من أشدها ما حدث في شتاء سنة 1962م كما تكرر في تاريخ غيرها من المدن الصناعية الأوروبية والأمريكية.

التكاثر والامتداد المدني
يزيد في حركة التنقل واستهلاك الطاقة.

ومن أخطر كيماويات التلوث غازات كلوروفلوريد الكربون (C.F.C.) أو ما يعرف باسم (غاز الفريون) الذي يستخدم في وسائل التبريد والتكييف المختلفة وفي مختلف حاويات وعلب الرش كدافع لرذاذ السوائل والغازات المضغوطة. ومن مخاطر هذا الغاز أنه يعمل على اختزال الأوزون (O_3) في طبقته الخاصة المحيطة بالأرض وتحويلها إلى الأكسجين (O_2) مما يعرض الحياة على سطح الأرض للدمار، وذلك لأن طبقة الأوزون جعلها الخالق ﷻ حماية للحياة على الأرض من أخطار الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس، وهي أشعات لها قدرات كبيرة على اختراق الأجسام الصلبة ومنها جسم الإنسان فتصيبه بعدد من الأمراض التي منها سرطانات الجلد وأمراض العيون. ومن رحمة الله - تعالى - أن حركة الرياح تحمل غاز الفريون المنطلق إلى الجو بواسطة عمليات التلويث المختلفة إلى المنطقتين القطبيتين الشمالية والجنوبية وأدى ذلك إلى تفكك طبقة الأوزون فوق قطبي الأرض محدثاً ما يعرف اليوم مجازاً باسم (ثقبي طبقة الأوزون) ومن هذين الثقبين تنفذ حزم الأشعة فوق البنفسجية بجرعات تفوق طاقة احتمال الحياة الأرضية.

ولم يكتشف ثقب الأوزون في القطب الجنوبي إلا في سنة 1982م، ولم يتم الإنذار بمخاطره بالنسبة للأحياء الأرضية إلا في سنة 1984 م. وفي قمة الأرض التي عقدت في

(ريو دي جانيرو) في أوائل الثمانينات تعهد المؤتمرون بالعمل على خفض إنتاج الفريون إلى النصف قبل سنة 1999م ولم يتم ذلك بعد.

وإذا أضفنا إلى ذلك إمكانية تسرب المواد الكيميائية ذاتها من المصانع كما حدث في كارثة (بوبال) في الهند والتي راح ضحيتها آلاف من البشر ومن الحيوانات. وإذا أخذنا في الاعتبار تزايد معدلات تراكم العديد من المركبات الكيميائية الضارة في أجساد الكائنات الحية نتيجة للإفراط في استخدامات المواد الحافظة والملونة للأغذية والمبيدات الحشرية والمخصبات الزراعية والمنظفات الصناعية وغيرها، ومن مثل الإفراط في استخدام مياه الصرف الصحي المعالجة كيميائياً في ري النباتات أو نتيجة لقذف نفايات المصانع والمستشفيات وغيرها من النفايات إلى مياه الأنهار والبحيرات والبحار، مما يؤدي إلى تلوث كل من الماء وما يذخر به من الأحياء خاصة في ظل تزايد ما ينتجه الإنسان المعاصر من نفايات منزلية (تقدر للفرد الأمريكي الواحد بحوالي الألف كيلو جرام من القمامة في المتوسط سنوياً) اتضحت لنا جوانب من أخطار تلوث البيئة تهدد الحياة على الأرض بمختلف أشكالها تهديداً حقيقياً يستوجب من كل إنسان عاقل التوقف لدراسة كيفية التقليل من إنتاج تلك الملوثات والتخلص مما تكدس منها في بيئات الأرض لإعادة الحياة الأرضية إلى فطرتها السوية التي خلقها الله - تعالى - عليها.

2 - الإفساد في الأرض بالتلوث الحراري:

لا تقتصر أخطار حرق عشرات ملايين الأطنان من الفحم والنفط والأخشاب والغازات الطبيعية يومياً في مختلف دول العالم على ما تطلقه من غازات وأبخرة سامة وملوثات صلبة وسائلة، بل يمتد ذلك إلى رفع درجة حرارة الهواء الملاصق لسطح الأرض لعدم تشتت هذه الحرارة بالكامل إلى طبقات الجو العليا بسبب ما تحدثه هذه الغازات السامة من ظاهرة (الاحتباس الحراري) وأثرها على اختلال الميزان المناخي الدقيق للأرض، وما يمكن أن يصاحب هذا الاختلال من كوارث مثل العواصف والأعاصير المدمرة وموجات الجفاف والتصحر المهلكة وانصهار الجليد من كل من المناطق القطبية وقمم الجبال وما يمكن أن يؤديه ذلك إلى ارتفاع لمنسوب الماء في البحار والمحيطات، وإغراق لكل من الجزر البحرية والمناطق الساحلية والمنبسطة.

وتكفي هنا الإشارة إلى تصحر أكثر من ستة ملايين هكتار من الأراضي الزراعية

الغازات والأبخرة المتصاعدة من المصانع تساهم مساهمة كبيرة في الاحتباس الحراري.

وأراضي الرعي سنوياً منذ بدء الثورة الصناعية في أوروبا الغربية، وإلى تدمير أكثر من عشرة ملايين هكتار من أراضي الغابات وتحويلها إلى أراض زراعية فقيرة.

3 - الإفساد في الأرض بالتلوث الإشعاعي:

وهو من أشد منتجات التقنيات الحديثة إفساداً لبيئة الأرض وفتكاً بالإنسان والحيوان والنبات وينتج عن تحلل العناصر المشعة التي أخذت دوائر استخدامها في الاتساع بانتشار كل من المفاعلات والأجهزة والأسلحة النووية بمختلف صورها وأشكالها، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية بواسطة المواد النووية والأجهزة الطبية والبحثية المستخدمة لتلك المواد وتوظيف اليورانيوم المنضب (المستنفد) في العديد من الصناعات الحربية والمدنية، وصعوبة التخلص من النفايات النووية والتي لا تجد الدول المنتجة لها مثوى سوى قيعان البحار والمحيطات أو أراضي دول العالم الثالث واستحالة ضمان عدم وصول هذه النفايات إلى مختلف بيئات الأرض بعد دفنها أو عدم تسرب الإشعاع من محطات توليد الطاقة النووية، وتكفي في ذلك الإشارة إلى تسربات الإشعاع من مفاعل تشرنوبل بالاتحاد السوفييتي السابق، ومن مفاعل جزيرة الأميال الثلاثة بالولايات المتحدة الأمريكية، ومفاعل إسكتلندة بالمملكة المتحدة وما أحدثته هذه

التسربات الإشعاعية من كوارث بيئية وبشرية كبيرة. وقد أخذت نسب الإشعاعات النووية بالتزايد في مختلف بيئات الأرض بصورة تنذر بالخطر وذلك مع التوسع في العقود القليلة الماضية في استخدام النظائر المشعة في العديد من الأنشطة الصناعية والطبية.

والأشعة النووية لها قدرات تدميرية مهلكة للخلايا والأنسجة الحية إذا تعرضت لها بجرعات تتجاوز احتمالها، ويعتقد بأن لذلك علاقة بزيادة الإصابة بالأورام السرطانية في السنوات الأخيرة خاصة وأن أهل الأرض لم يكادوا أن يخرجوا من آثار الثورة الصناعية حتى دخلوا في حربين عالميتين كان ضحاياهما أكثر من65 مليون قتيل، غير ملايين المقعدين والمشردين والأيتام والأرامل وعشرات البلايين من الدولارات على هيئة خسائر مادية متنوعة. وانتهت الحرب العالمية الثانية بكارثتي كل من فلسطين واليابان حين سلمت المؤامرة البريطانية أرض فلسطين لغلاة الحركة الصهيونية العالمية دون أدنى حق، فأغرقوها في بحر من الدماء والأشلاء والخراب والدمار وضربت الطائرات الأمريكية مدينتي هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين بالقنابل الذرية فأبادتهما إبادة كاملة وأهلكت سكانهما وتركت الناجين من بينهم في حالات من التشوه والإعاقة المرعبين، ولوثت مختلف البيئات بآثار الإشعاع إلى يومنا الراهن. وتخزين كل من الدول الصناعية الكبرى والكيان الصهيوني الغاصب في أرض فلسطين لآلاف الرؤوس النووية ولغيرها من أسلحة الدمار الشامل بكميات كبيرة لهو من أكبر مصادر تلوث البيئة.

ولا تزال الأرض تعصف بها أعاصير الحروب الباردة والساخنة ويزداد بها مخزون أسلحة الدمار الشامل عند الدول الصناعية وأذنابها، ولا يقتصر خطر تلك الأسلحة على استعمالها، ولكن يكمن الخطر في إمكانية وقوع ثورة بركانية أو هزة أرضية أو سلسلة من العواصف والأعاصير المدمرة التي يمكن أن تصل إلى ذلك المخزون وتفجره...!!
ومن دوافع تكديس أسلحة الدمار الشامل الصراع على استنزاف ثروات الأرض وأغلبها ثروات غير قابلة للتجدد بنفس سرعات الاستنزاف. والإسراف المخل في التعامل مع العديد من هذه الثروات وهدرها في غير أوجهها الصحيحة أو تعطيلها بالكامل وكل ذلك يعرض الأرض اليوم لسلاسل من الكوارث البيئية والبشرية بالإضافة إلى الكوارث المعنوية ولذلك قال - تعالى -:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41].

وهذه الآية الكريمة من آيات الإعجاز العلمي والغيبي في كتاب الله لأنه لم يكن لأحد من الخلق إمكانية تصور الواقع الحالي البئيس للأرض من قبل ألف وأربعمائة من السنين. وهذا السبق الإخباري وأمثاله في القرآن الكريم مما يشهد له بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) وحفظه حفظاً كاملاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وتعهد بهذا الحفظ إلى ما شاء الله - تعالى - فالحمد لله على نعمة القرآن والحمد لله على نعمة الإسلام وصلى الله وسلم وبارك على النبي الذي تلقاه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

35 - ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42]

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في مقدمة النصف الثاني من سورة «الزمر»، وهي سورة مكية، وآياتها (75) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لإخبارها بأن الناس سوف يصنفون يوم القيامة إلى عدد من الزمر التي منها زمر المتقين السعداء المكرمين من أهل الجنة، وزمر العصاة الأشقياء المهانين من أهل النار. ويدرو المحور الرئيس للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، شأنها في ذلك شأن كل السور المكية. وقد سبق لنا استعراض هذه السورة المباركة، وما جاء فيها من ركائز العقيدة والإشارات الكونية في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم (6)، ولذلك سوف نركز هنا على الدلالات اللغوية والعلمية للآية الكريمة التي اتخذناها عنواناً لهذا المقال.

من الدلالات اللغوية للآية الكريمة:

(الوفاة) في اللغة وجمعها (وَفَيَات) هي قبض الروح لحظة الموت، عند انتهاء الأجل، وهي لفظة مستمدة من (الوفاء) و(التوفي) أي الوصول إلى التمام وبلوغه، بمعنى أن الميت إذ فارقته الروح وفقد أسباب الحياة الدنيا فقد بلغ تمام أجله الذي حدده له الله - تعالى - في علمه الأزلي، وأنزل أمره به، وكل إنسان لا يزال جنيناً في بطن أمه، وذلك انطلاقاً من قول رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن**

أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد».

ولكن القرآن الكريم يسمي النوم أيضاً (وفاة) تقبض فيها الروح قبضاً مؤقتاً، وتبقى متعلقة بالجسد برباط خفي حتى تعود إليه في لحظة اليقظة، ولذلك عرف النوم باسم «الموتة الصغرى» تمييزاً له عن «الموتة الكبرى» عند انتهاء الأجل وانقطاع الحياة.

وجاء ذكر «الموتة الكبرى» في كتاب الله - تعالى - بتعبير (الموت) بمشتقاته المختلفة في مئة وخمسة وستين (165) موضعاً. وفي اللغة يقال للشخص إنه (مات) (يموت) (موتاً)، أو (مات) (يميت) (ميتاً) إذا فارقت روحه جسده وانقطعت عنه أسباب الحياة. وعلى ذلك فإن تعبير (الوفاة) هو أعم من تعبير الموت لأنه يشمل كلاً من النوم والموت، وإن سمي الأول باسم «الموتة الصغرى» وسمي الثاني باسم «الموتة الكبرى» للتفريق بينهما.

وجاءت الإشارة إلى الموت بتعبير (الوفاة) بمشتقاته المختلفة في كتاب الله أربعة وعشرين (24) مرة فقط ليعبر عن «الموتة الكبرى» التي عندها تفارق الروح الجسد مفارقة دائمة إلى يوم البعث، وتنقطع عن الجسد أسباب الحياة، ويبدأ في التحلل، ولذلك يعجل بدفنه في قبره ليعود إلى أصله الترابي، عبر سلسلة من المراحل المعاكسة لمراحل خلقه الأول. فعند الموت يتصلب الجسد كأنه تمثال من صلصال كالفخار، ثم يبدأ في التحلل فيتحول إلى صلصال من حمأ مسنون، ثم إلى طين، ثم إلى طين لازب، ثم إلى تراب يحوي (عجب الذنب) الذي سوف ينبت منه كل مخلوق كما تنبت البقلة من بذرتها عقب إنزال ماء خاص من السماء في يوم البعث، وقد أخبر بذلك رسول الله ﷺ في أحاديثه عن (عجب الذنب) وعن البعث، وقال - تعالى -: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: 25]. وقال - عز من قائل -: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 57].

النفس والروح في القرآن الكريم:

جاءت كلمة (نفس) بمشتقاتها المختلفة في كتاب الله في مئتين وخمسة وتسعين

(295) موضعاً، بينما جاءت لفظة (روح) بتصاريفها المختلفة أربعة وعشرين (24) مرة فقط.

وقد اختلف العلماء في التمييز بين الروح والنفس فمنهم من اعتبرهما شيئاً واحداً، ومنهم من مايز بينهما دون تحديد واضح، ولكن استقراء آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ تشير إلى أن الروح من الأمور الغيبية التي لا يعلم سرها إلا الله - تعالى - القائل:

1 - ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

2 - ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 28 - 29].

3 - ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: 71-72].

4 - ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: 7 - 9].

5 - ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أيها الناس إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد، فيقبضها الله إذا شاء، ويرسلها إذا شاء**».

واستقراء آيات وأحاديث الروح يؤكد أن الروح غير الحياة، وأنها حقيقة غيبية لا يعلمها إلا الله - تعالى - الذي شرف بها الإنسان، ويفهم من هذه النصوص أن الروح إذا أمر الله - تعالى - بدخولها إلى جسد الآدمي - سواء كان طيناً كحال أبينا آدم، أو نطفة في رحم الأم كحال نسله من بعده - صارت هذه الروح نفساً، تزكو بالعمل الصالح عند بلوغ صاحبها سن الرشد، أو تدنس بالإغراق في الخطايا والآثام، وذلك لأن الإنسان قد

جعله الله - تعالى - ذا إرادة حرة، ليحاسبه على أعماله في الحياة الدنيا إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ومن آيات النفس في القرآن الكريم نختار ما يلي:

1 - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

2 - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: 98].

3 - ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: 7-10].

4 - ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ﴾

[البَقَرَة: 286].

5 - ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281].

6 - ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: 27-30].

7 - ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ﴾ [آل عمران: 30].

المقابلة بين كل من النوم والموت واليقظة والبعث في القرآن الكريم:

جاءت لفظة (النوم) بمشتقاتها في القرآن الكريم تسع (9) مرات، وجاءت الإشارة إلى النوم بتعبير (السِّنَة) مرة واحدة بمعنى الغفوة الخاطفة الفاترة التي تأتي قبل النوم أو في أوله فتؤدي إلى غياب محدود عن الواقع المحسوس، مع بقاء شيء من الإدراك. واللفظة

(سِنَة) هي مصدر من الفعل (وَسِنَ) (يوسن) (وسناً) و(سنةً). وجاء التعبير القرآني عن (النوم) مرتين بكلمة (النعاس) وهو النوم غير العميق، وبلفظة (السكن) ومشتقاتها سبع مرات، وبكلمة (السبات) مرتين، وهو النوم العميق، وجاء التعبير عن (النوم) بوقته أو مكانه من مثل كلمتي (البيات) و(القيلولة)، أو عن الرؤى التي ترى خلاله بتعبير (المنام) كما أشار القرآن الكريم إلى نوم كل من أهل الكهف والموتى بتعبير (الرقود) من الفعل (رقد) (رقداً) و(رقوداً) و(رقاداً). ومن هذه الآيات نختار ما يلي:

1 - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: 47].

2 - ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبإ: 9 – 11].

3 - ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم: 23].

4 - ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: 11].

5 - ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: 154].

6 - ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 96].

7 - ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النمل: 67].

8 - ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: 4].

9 - ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255].

والإنسان - كغيره من مختلف صور الحياة الأرضية - محتاج إلى النوم لأن بناء

جسده لا يتحمل مواصلة اليقظة وإلا هلك، ولذلك فهو محتاج دوماً إلى أن ينام بالليل لتعويض ما يفقده جسده من خلايا أثناء ساعات اليقظة، وترميم ما تلف منها - خاصة الروابط العصبية - ولتجديد وإصلاح كل ما يحتاج جسده إليه من تجديد وإصلاح، وقد ثبت بالتجربة أن الحمل الأكبر من الإجهاد الجسدي يتحمله الجهاز العصبي خاصة المخ، ولذلك يصبح أكثر أجزاء الجسم حاجة إلى النوم. وانطلاقاً من ذلك يمن علينا ربنا - تبارك وتعالى - بأن جعل لنا الليل للراحة والسكن، ولتجديد نشاط الذهن والبدن، وجعل لنا النهار للكدح والعمل عبادة لله - تعالى - بما أمر، وجرياً وراء اكتساب المعايش، وطلباً للعلم، وسعياً لإقامة شرع الله وعدله في الأرض، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: 71-73].

وقد ثبت علمياً أن أجهزة جسم الإنسان تنشط أثناء النهار، فتزداد حاجة الجسم إلى الكربوهيدرات، وفي مقدمتها السكريات، كما يزداد تحلل البروتينات والدهون فيه من أجل إعطائه الطاقة اللازمة لحركته ونشاطاته، كما يزداد إفراز كل من الهرمونات اللازمة لنشاطه، والمحفزات المعينة على تحقيق ذلك.

وفي الليل ينعكس هذا النشاط فيتوقف إفراز كل من الهرمونات المنشطة للجسم والمحفزات المعينة على إفرازها، ويحل محلها إفراز الهرمونات التي تستدعي أجهزة جسم الإنسان إلى الدعة والراحة والاسترخاء، كما تنشط دفاعات الجسم الذاتية وأجهزة المناعة دفاعاً عن الجسم في ساعة استرخائه.

ويقوم بتنظيم نشاط جسم الإنسان بالنهار، وتثبيطه بالليل مركز خاص في المخ يقع فيما يعرف باسم «النواة فوق التصالبية» وتنتشر من هذا المركز الأوامر إلى مختلف خلايا الجسم باليقظة والنشاط، أو بالسكينة والنوم، ولذلك يطلق على هذا المركز اسم «الساعة الحياتية»، ويتحكم فيها أربعة من المورثات (الناسلات أو الجينات) تتأثر بتبادل

كل من الليل والنهار، أو الظلام والنور، كما تتأثر بالسكون والضوضاء، وبذلك تتحكم في ساعات المنام واليقظة عند كل إنسان.

والنوم كظاهرة حيوية هو من أعظم نعم الخالق ﷻ على الإنسان، لأنه ضرورة لازمة لحياته يفقد أثناءه جزءاً من إدراكه، فتنقطع حواسه عن محيطه انقطاعاً مؤقتاً، بينما تظل أجهزته الداخلية في العمل بالقدر الذي يسمح لها باستمرار الحياة، وبذلك يظل النائم حياً إلا أنه يفقد الإرادة والإدراك والتعقل، والشعور، والانفعال، والإحساس بالزمن، فيأخذ كل من عقله وقلبه وبقية أعضاء جسمه قسطاً من الراحة وبذلك تعود إليه حيويته، ويسترجع قدراته، ويستعيد نشاطه بعد يقظته مما يجعله قادراً على مواجهة مسؤولياته في الحياة إلى آخر النهار حين يعاود النوم ليغالبه من جديد فينام.

وانطلاقاً من حتمية هذه الدورة بين اليقظة والنوم لحياة الإنسان، وما يتعرض له من تحول في الانتقال من إحداهما إلى الأخرى قارن القرآن الكريم النوم بالموت، واليقظة منه بالبعث، حتى يرسخ حتمية هذين الأمرين في أذهان الناس بعد أن اجتالتهم شياطين الإنس والجن بدعوى استحالة ذلك، علماً بأن الشبه بين النوم والموت كبير، ولذلك سماه العلماء باسم «الموتة الصغرى». وفي تبادل كل من النوم واليقظة، وفي تكرار وقوع الموت في كل لحظة تأكيد على حقيقة الخلق، وعلى حتمية البعث، وقد جادل فيهما أهل الكفر والضلال عبر تاريخ الإنسان الطويل، ولا يزالون، انطلاقاً من خطأ القياس على الله - تعالى - بمعايير البشر، وقدرات المخلوقين لا يمكن مقارنتها بقدرات خالقهم أبداً.

وفي التأكيد على المقابلة بين النوم والموت من جهة، وبين اليقظة والبعث من جهة أخرى يقول ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: 60-61].

وقال - عز من قائل -:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ

عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42].

وفي ذلك أيضاً يقول المصطفى ﷺ: «**كما تنامون فكذلك تموتون، وكما توقظون فكذلك تبعثون** كما تنامون فكذلك تموتون، **وكما توقظون فكذلك تبعثون**».

ويقول - صلوات الله وسلامه عليه -: «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخِلَةَ إزاره فلينفض بها فراشه وليُسمِّ الله فإنه لا يعلم ما خلفه بعده على فراشه، فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شِقِّهِ الأيمن، وليقل: سبحانك الله ربي بك وضعت جنبي، وبك أرفعه. إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**». وزاد الإمام الترمذي: «**وإذا استيقظ فليقل: الحمد لله الذي عافاني في جسدي، ورد علي روحي وأذن لي بذكره**» [البخاري ومسلم].

وقال حذيفة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده، ثم يقول: «**اللّهم باسمك أموت وأحيا**». وإذا استيقظ قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**» [البخاري].

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

من دلالات الآية الكريمة رقم (42) من سورة «الزمر» والتي اتخذناها عنواناً لهذا المقال أن النفس (روح الفرد منا) تغادر جسد النائم مغادرة مؤقتة، مع بقاء صلة غيبية معه، ثم تعود إليه مباشرة عند اليقظة من النوم، وأنها تغادر جسد الميت مغادرة دائمة إلى يوم القيامة ثم تعود إليه في لحظة البعث.

وقد لاحظ دارسو ظاهرة النوم في الإنسان العديد من التغيرات التي تطرأ على النائم ومن أبرزها: الرؤى والأحلام التي يرى فيها النائم - وهو مغمض العينين وغالبية حواسه غائبة عنه - يرى انتقاله إلى أماكن سبقت له رؤيتها أو لم يسبق له أن رآها، وقد تبعد هذه الأماكن عنه آلاف الأميال، وعلى الرغم من ذلك فإنه يرى فيها من التفصيلات الدقيقة للأماكن ومحتوياتها، ومن الأشكال، والألوان، والأشخاص، والأصوات، والروائح، والطعوم، والمذاقات، والمشاعر، والأحاسيس، والانفعالات، ومن الأحداث القديمة، والنبوءات المستقبلية، ومن الشعور بالسعادة والرضا، أو بالفزع والخوف

والهلع، ومن الإحساس بالحياة أو الموت ما يبقى مطبوعاً في ذاكرته بعد يقظته من نومه واقعاً محسوساً مدركاً بغير الحواس التي يستخدمها الإنسان في أحوال يقظته، كأنه عاش طوال نومه في عالم آخر غير العالم المدرك المحسوس الذي يعيشه في حال يقظته، ولا يمكن أن يتحقق له ذلك إلا بقوة خفية فيه كالنفس التي تفارقه أثناء نومه، متجاوزة حدود المكان والزمان منطلقة إلى كون الله الفسيح، مع الإبقاء على نوع من الصلة الخفية بجسده الذي تنقل إليه ما ترى فيما وصلت إليه من أرجاء الكون، ولا بد وأن يتم ذلك بطاقات وقدرات مغايرة لما يملك الإنسان في حالات يقظته.

ولم تتجاوز كل الدراسات التي أجريت على الإنسان في حالة النوم من تسجيل بعض التغيرات في كل من النشاط الكهربي للمخ، ونبض القلب، وسرعة التنفس، وفي نشاط بعض عضلات الجسم. ومن التسليم بأن وسائل استقبال النائم لما يراه في منامه من الرؤى الصادقة والأحلام المزعجة لا بد وأن تكون مغايرة مغايرةً كاملة لجميع وسائل حسه المعروفة في أحوال يقظته لأن هذه الحواس تكون معطلة في أثناء النوم؛ ومع التسليم بأن وسائل استقبال الرؤى والأحلام هي وسائل شخصية محددة لكل فرد نائم، حيث قد يتجاور اثنان في غرفة واحدة أو في سرير واحد في نفس الوقت ويرى كل منهما من الرؤى والأحلام ما لا يراه جاره، أدركنا ومضة الإعجاز العلمي في قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42].

فالرؤى الشخصية المحضة التي تتجاوز حدود المكان والزمان وحدود الحس المدرك، لنائمين متجاورين في المكان وفي نفس الوقت لا يمكن تفسيرها إلا بمغادرة قوى غيبية من داخل جسد كل منهما مع بقاء ارتباطها به بقوى غيبية كذلك، سماها القرآن الكريم «النفس»، أو «الروح الذاتية» لكل شخص، وهي غيب لا يعلمه إلا الله ﷻ، وجوهر مغاير لكل ماديات الحياة، فإذا أطلقها الله الخالق من عقال الجسد الطيني الذي أودعها فيه لتسبح أثناء النوم في ملكوت الله الواسع، رأت بما وهبها من ملكات وقدرات ما لا يمكن لها أن تراه وهي حبيسة ذلك الجسد الطيني أثناء اليقظة.

وتظل «الروح الذاتية» لكل شخص (أو نفسه) والسابحة في ملكوت الله إلى حيث استدعاها بارؤها على صلة بجسد صاحبها النائم بوسيلة لا يعلمها إلا الله، فتنقل إليه ما

قدر لها أن تراه بصورة واضحة جلية، أو بصورة مجردة رمزية، ولعل هذه الرؤى والأحلام التي يراها الإنسان النائم هي أحد أسباب التغيرات التي سجلها الدارسون على عدد من النائمين من مثل النشاط الكهربي الزائد للمخ، وتسارع نبضات القلب، والتهاث النفس، والعديد من الحركات غير الإرادية للأطراف ولعدد من العضلات، ومنها الحركات السريعة لإنساني العينين في مختلف اتجاهات وجفون العينين مغمضة بشكل كامل، مما يحدد مرحلة خاصة من مراحل النوم تعرف باسم «مرحلة الحركة السريعة للعينين» . (The REM Phase = The Rapid Eye Movement Phase).

ومن المعتقد أن هذه المرحلة مرتبطة بما يراه النائم من رؤى ومن أحلام.

وفي سلسلة من التجارب المتكررة أثبت الأستاذ الدكتور «آرثر أليسون» (Prof. Dr. Arthur Allison) رئيس قسم الهندسة الكهربائية والإليكترونية بجامعة لندن أن هناك قدراً من الطاقة يغادر جسد الميت مغادرة كاملة لا يعود بعدها إليه، بينما نفس القدر تقريباً من الطاقة يغادر جسد النائم منذ لحظة نومه، ثم يعود إليه عند لحظة يقظته، وعندما أخبره أحد طلابه من المسلمين بهذه الآية الكريمة من سورة «الزمر» أذهله مضمونها ودفعه إلى قراءة معاني القرآن الكريم مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، وشجعه على التقدم ببحث عن نتائج دراسته إلى مؤتمر الإعجاز الطبي في القرآن الكريم والذي عقد بمدينة القاهرة سنة (1985م) وأعلن إسلامه على الملأ أمام جموع الحاضرين للمؤتمر تأثراً بما جاء به القرآن الكريم من حق علمي في هذه الآية الكريمة وفي العديد من الآيات الأخرى التي نوقشت في المؤتمر، وهكذا الحق دائماً يعلو ولا يعلى عليه والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

36 - ﴿... وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ...﴾ [النساء: 119]

هذا النص القرآني الكريم جاء في مطلع الثلث الأخير من سورة «النساء»، وهي سورة مدنية، وآياتها مائة وستة وسبعون (176) بعد البسملة، وهي رابع أطول سور القرآن الكريم بعد كل من سورة «البقرة»، و«الأعراف»، و«آل عمران». وقد سميت السورة بهذا الاسم لكثرة ما ورد فيها من الأحكام الشرعية التي تتعلق بالنساء، ولذلك يطلق عليها أحياناً اسم «سورة النساء الكبرى» في مقابلة مع «سورة النساء الصغرى» وهي تسمية تستخدم أحياناً لسورة الطلاق.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضايا التشريع لكل من المرأة، والأسرة، والبيت، والمجتمع، والدولة (وعلاقاتها الداخلية والخارجية). ومن أبرز القضايا التشريعية في هذه السورة المباركة تشريعات الزواج، والمواريث، والعبادات، والجهاد في سبيل الله.

وقد سبق لنا استعراض سورة «النساء»، وتلخيص كل من التشريعات الإسلامية التي جاءت بها، وركائز العقيدة التي أكدتها، والإشارات الكونية التي أوردتها في كتاب «خلق الإنسان» المقال رقم (7) وسوف أقصر حديثي هنا على نقطة واحدة من هذه الإشارات الكونية تفيد بأن الشيطان سوف يغوي الإنسان بتغيير خلق الله، وقد حدث ذلك بالفعل مرات عديدة من قبل، كما يحدث اليوم في محاولات الاستنساخ الراهنة.

وفي ذلك تقول الآية الكريمة رقم (119) من سورة «النساء» على لسان الشيطان:

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: 119].

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

هذا النص الكريم هو من نصوص الإعجاز الإنبائي للقرآن العظيم الذي أنبأ من قبل ألف وأربعمائة سنة بأن الشيطان سوف يزيغ قلوب عدد من بني آدم عن طاعة الله، وسوف يلقي في عقولهم وصدورهم الأماني الباطلة الميسرة لمعصية الله وذلك بمحاولات العبث بخلقه أملاً في تغييره. وقد فُسِّر ذلك في القديم بمحاولات خصي بعض بني الإنسان المستعبدين، ومحاولات خصي العديد من الحيوان، أو استخدام الوشم، أو العلامات المختلفة في الوجه، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الوشم خاصة في الوجه.

كذلك فسرت محاولات الشيطان بالإيعاز إلى بعض بني الإنسان بتغيير خلق الله بأنها تغيير لدين الله استناداً إلى الحديث الشريف الذي يقول فيه المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه -: «**قال الله ﷻ: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم** (أي: صرفتهم عنه)، **وحرمت عليهم ما أحللت لهم**»[1]. ولكن أبلغ ما توصف به محاولات الشيطان لإغواء عدد من بني الإنسان على تغيير خلق الله - تعالى - هو ما يجري الآن على الساحة الدولية تحت مسمى الاستنساخ (**Cloning**).

ما هو المقصود بعملية الاستنساخ؟

الاستنساخ لغة هو: التقدم بنسخ الشيء، مثل نقش الخاتم في الشمع، وهو الأمر بالنسخ والإثبات، وهو أيضاً المحو والإزالة، يقال: (نَسَخَتْ) الشمس الظل و(انْتَسَخَتْه)، أي: أزالته، و(نَسَخَتْ) الريح آثار الديار، أي: غيرتها. و(نَسخَ) الكتاب و(انْتسخَه) و(استَنْسخه)، أي: عمل منه نسخة مطابقة للأصل. و(النسخة) اسم كل من (المنتَسِخ) منه و(المنتَسَخ). و(نَسْخُ) الآية بالآية إزالة حكمها بحكم يتعقبها. و(المناسخة) في الميراث هي أن يموت ورثة بعد ورثة والميراث قائم لم يقسم. (وتناسخ) الأزمنة والقرون هو مضي قوم بعد قوم.

---

(1) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 17/ 360) و (الحديث: 17/ 263).

والقائلون (بالتناسخ) قوم ينكرون البعث على ما أثبتته الشريعة، ويزعمون أن الأرواح تنتقل إلى الأجسام على التأبيد، وهو زعم باطل لا أساس له من الصحة.

و(الاستنساخ) علمياً هو محاولة إيجاد نسخ متشابهة من الخلايا الحية أو الكائنات الحية الكاملة من خلية حية سابقة أو من عدد من الخلايا، أو من كائن حي. وهو نوع من التكاثر تقوم به معظم النباتات والحيوانات البسيطة ويعرف باسم التكاثر الخضري أو الجسدي أو غير الجنسي لأن عملية الإخصاب تتم فيه ذاتياً. وفي بعض هذه الكائنات البسيطة قد تتبادل عمليتا التكاثر غير الجنسي والجنسي بطريقة دورية أو شبه دورية تعرف باسم «**ظاهرة تبادل الأجيال الجنسية وغير الجنسية**». فالنباتات - على سبيل المثال - منها نباتات وحيدة المسكن تنتج أزهاراً تحمل الأعضاء الذكرية والأنثوية معاً، ومنها نباتات ثنائية المسكن يحمل بعض أفرادها الأزهار الذكرية، ويحمل البعض الآخر الأزهار الأنثوية. كذلك تستطيع بعض النباتات والحيوانات إتمام عملية التكاثر بالانشطار أو التبرعم، أو الانقسام، أو بتكوين أنواع غير جنسية، وعلى الرغم من ذلك فقد يمر معظم هذه الكائنات بدورة تكاثر جنسي أيضاً.

أما الكائنات العليا من عالم الحيوان - باستثناء أنواع قليلة من الأسماك والبرمائيات والزواحف - فإن الخالق ﷻ قد هيأها للتكاثر الجنسي فقط، وكذلك الإنسان. فالقاعدة التي وضعها الخالق ﷻ لتكاثر الإنسان هي التزاوج، ولذلك جعل الخلايا التناسلية تحمل نصف عدد الصبغيات المحددة لنوع الإنسان حتى إذا التقى الحيمن (النطفة الذكرية) مع البييضة (النطفة الأنثوية) ليكونا النطفة الأمشاج أي: المختلطة (اللقيحة=**zygote**) فإن عدد الصبغيات يكتمل إلى (46) صبغياً في (23) زوجاً وهو العدد المحدد لنوع الخلية الحية البشرية. وبذلك يحصل الجنين لكل صفة فيه على مورثين: أحدهما مستمد من الشيفرة الوراثية للأب وأسلافه، والآخر مستمد من شيفرة الأم وأسلافها، وبذلك يأتي الأبناء على قدر من التشابه مع الوالدين والاختلاف عنهما، وتعرف هذه الظاهرة في علم الوراثة باسم «**التنوع مع الوحدة (Diversity in unity)**».

والمورثان المختلفان للصفة الواحدة يكون أحدهما أقوى من الآخر فيسود (**Dominant Character**) ويستتر المورث الآخر لتظهر صفاته في أجيال قادمة أو لا تظهر (**Recessive Character**).

وعلى الرغم من وضوح الحِكَم الإلٰهية العديدة من فرض التكاثر الجنسي على الإنسان وعلى العديد غيره من الكائنات الراقية إلا أن الشيطان ظل يوسوس للإنسان بإمكانية

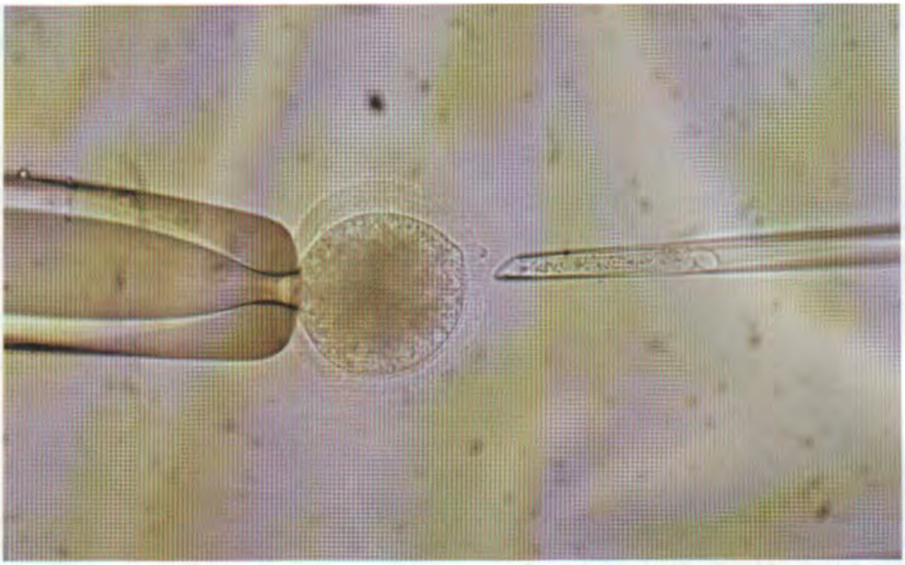

وضع خلية جسدية مع بييضة منزوعة النواة لتكوين بييضة مخصبة من أجل تحقيق عملية الاستنساخ.

تطبيق التكاثر غير الجنسي على ذاته وعلى غيره من المخلوقات الراقية. وبالفعل نجح عدد من العلماء في استنساخ ضفدعة في سنة 1952 م. واستعصت الحيوانات اللبونة (الثدييات) على الاستنساخ حتى قام فريق علمي إسكتلندي بقيادة الأستاذ إيان ويلموت (Professor Ian Wilmut) من معهد روزلين (Roslin Institute) بمدينة (إدنبره) بإعلان ميلاد أول نعجة بعمليـة استنساخ من خلية عادية نامية، وهي النعجة المسماة باسم دوللي (The Sheep Dolly) وذلك في سنة 1996 م.

وتم ذلك بأخذ خلية جسدية بالغة من ضرع إحدى النعاج (أ)، ووضعها مع بييضة جنينية نزعت نواتها من نعجة أخرى (ب) في مجال كهربي قوي لتحفيز اندماجهما وبذلك تم تكوين بييضة مخصبة أخذت وزرعت في رحم نعجة ثالثة (ج)، وبعد إتمام فترة الحمل جاءت النعجة المستنسخة دوللي شبيهة بالنعجة (أ) صاحبة النواة الجسدية الحاملة للصبغيات. وقد نجحت هذه التجربة بعد فشل حوالي280 محاولة سابقة على مدى عدة سنوات.

وبعد هذه التجربة تم استنساخ مئات من الثدييات من مثل الخراف، الماعز، البقر، الأرانب، القطط، الفئران، الخنازير، وغيرها، إلا أن محاولات استنساخ حيوانات مثل الخيول، القردة، الكلاب، والدجاج قد باءت كلها بالفشل.

كذلك لوحظ في حالات نجاح عملية الاستنساخ أن نسبة سقوط الأجنة تفوق بشكل مفزع

نظائرها في حالات الحمل بالتزاوج، والغالبية العظمى من الأجنة المستنسخة التي وصلت إلى مرحلة الولادة عانت من تشوهات خلقية عديدة. وكان أبلغ مثال على ذلك «**النعجة دوللي**» ذاتها التي تم إعدامها بعد حوالي ست سنوات من ميلادها لاكتشاف إصابتها بسرطان الرئة، وبمرض روماتيزم المفاصل الذي أصابها بالشلل الكامل، وغير ذلك من الأمراض التي جعلتها تبدو أكبر من سنها بكثير. ولذلك اتخذ المسؤولون في معهد «روزلين» القرار بإعدامها بعد إنجابها ستة من الحملان، وتم ذلك في14 من فبراير سنة 2003 م.

النعجة الأكثر شهرة في مجال الاستنساخ «دوللي» نفقت بعد حقنها بمادة قاتلة بسبب إصابتها بمرض رئوي مستفحل.

من أخطار عملية الاستنساخ:

1 - إن العملية مكلفة جداً، وعواقبها غير مضمونة، وغير مأمونة.

2 - أكثر من90% من عمليات الاستنساخ تفشل قبل أن تتم، وأن نسبة النجاح فيها لا تتعدى 1% إلى 2%.

3 - إن النسبة الضئيلة من الحيوانات المستنسخة تعاني من نقص في جهاز المناعة مما يزيد من فرص تعرضها للإصابة بالأمراض بشكل ملحوظ، ومن أخطرها الأورام السرطانية، والتشوهات الخلقية من مثل تشوهات القلب والكبد وغيرهما من أعضاء الجسم، ولذلك فإن الحيوانات المستنسخة لا تعمر لأنصاف متوسط الأعمار المعروفة لها.

4 - لوحظ أن غالبية الحيوانات المستنسخة تولد بأحجام أكبر بكثير من متوسط

رسومات تخطيطية تشرح خطوات استنساخ النعجة «دوللي».

أحجامها، ويموت أغلبها في سن مبكرة جداً، وبصورة مفاجئة ومريبة.

5 - لوحظ في أغلب الحيوانات المستنسخة أن هناك عدداً من المورثات التي تعمل بطريقة شاذة توحي بنوع من التشويه في الشيفرة الوراثية.

6 - في حيوانات التجارب لا يمكن الحكم على آثار الاستنساخ السلبية في كل من القوى العقلية والجوانب النفسية.

7 - تشير جميع التجارب التي تمت لاستنساخ الحيوانات أن العملية لا تزال محاطة بالعديد من حجب الغموض والأسرار التي لم يتم فهمها بعد، وأنها لا تزال محاطة بالمخاطر من كل جانب.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن الشيطان لا يزال ينفث إغراءاته وسمومه في أذهان العديد من بني الإنسان من أجل الدخول في محاولات تحقيق الاستنساخ البشري مهما كلف ذلك من تدمير وتشويه للأجنة التي يعبث بها، ورغم التحذيرات العديدة، والنداءات العالية من علماء الدين، والاجتماع، والقانون، والطب، والوراثة بضرورة تحريم هذه التجارب التي تحول الإنسان - ذلك المخلوق المكرم - إلى حقل تجارب يفقده ذاته بتغيير خلقة الله فيه، وذلك بدعاوى تحسين النسل، أو إنتاج أطفال حسب مواصفات محددة، أو ليكونوا قطع غيار لغيرهم، أو ليشكلوا جنوداً لا تقهر، أو بدعوى الاستغناء النهائي عن نظام الأسرة حيث تستطيع المرأة أن تحمل دون رجل، وكذلك يستطيع الرجل أن يحمل بالاستنساخ في تجويف بطنه دون أنثى، أو بدعوى إنتاج صبغيات بشرية قادرة على علاج العديد من الأمراض المستعصية من أجل تقليل الشيخوخة أو منعها، وغير ذلك من الخيالات التي يمنيهم بها الشيطان ويضللهم بواسطتها، وهذا نذير بهلاك العالم. ولذلك يقرر علماء الشريعة الإسلامية أن استنساخ البشر محرم شرعاً، ولا يجوز بأي حال من الأحوال الخوض في تجاربه لأنه يؤدي إلى اختلاط الأنساب، وهدم الأسرة، وزوال العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع، ومن أهمها علاقات الآباء بالأبناء وعلاقات الأبناء بوالديهم، وعلاقة الأخوة في الأسرة الواحدة، وعلاقات المصاهرة بين الأسر المختلفة، وإلا فأين يتربى الطفل المستنسخ في غير محضن الوالدين ورعايتهما وعطفهما وحنانهما..؟ وكيف يعيش وينمو ويتعلم ويتزوج وينجب؟ وما هي حقوقه الاجتماعية والقومية والقانونية؟ ولمن يكون ولاؤه وهو لا يعرف له أباً ولا أماً، ولا أخاً ولا أختاً، ولا عماً ولا خالاً، ولا جداً ولا جدة؟ ولمن تكون الحقوق وعلى من تكون الواجبات في مجتمع منهار مخلخل كمجتمع المستنسخين الذي انمحت فيه صلات الرحم؟

هذه بعض نفثات الشيطان في عقول وقلوب الداعين إلى استنساخ الإنسان والتي حذَّر القرآن الكريم منها من قبل أربعة عشر قرناً بالحديث على لسان الشيطان حيث يقول:

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ...﴾ [النساء: 119]

ثم يقول ربنا - تبارك وتعالى - في نفس الآية الكريمة:

﴿... وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾

[النِّساء: 119]

ومع إيماننا بأن القرآن الكريم قد حضَّ على اكتساب العلم النافع حضاً، ودعا إلى التأمل في النفس الإنسانية وفي الآفاق من حول الإنسان بإلحاح شديد، وأمر باكتشاف سنن الله في الكون، وتوظيفها في عمارة الحياة على الأرض، وأن رسول الله ﷺ قد أثر عنه قوله الشريف: «**الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أولى الناس بها**»[1].

ومع تسليمنا بأن علوم الهندسة الوراثية لها فوائد جمة إذا استخدمت في أطرها الصحيحة من مثل العلاج بإصلاح الشيفرة الوراثية والمعروف باسم «**العلاج الجيني**»، وفي استنساخ أنسجة وأعضاء بشرية تعويضية عن طريق الخلايا الجذعية المأخوذة من المرضى أنفسهم، أو من سقط المواليد الجدد، وفي الكشف عن الأمراض الوراثية وعلاجها أثناء الحمل وبعد الولادة، وفي تطوير وتحسين التقنيات المساعدة على الإنجاب بالطرق المشروعة، وفي التعرف على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في خلق الإنسان، وفي غير ذلك من الأنشطة المباحة شرعاً، والخالية من الإضرار بالإنسان.

ومع إيماننا بكل ذلك تبقى الأصوات الهامسة بضرورة الاستنساخ البشري نذير شر على البشرية جمعاء، ودعماً للدعوة الشيطانية التي تبنَّتها مؤتمرات الأمم المتحدة للسكان، والإيواء، والمرأة، والتي عقدت في السنوات القليلة الماضية في كل من مصر وتركيا والصين على التوالي، وبث فيها عدد من الدعاوى الخبيثة التي تدعو إلى انفلات المرأة، وإلى الاعتراف بالشذوذ الجنسي وإقرار حقوق للشواذ، وإلى تدمير مؤسسة الأسرة، ويأتي معول الهدم الأخير لتلك المؤسسة الأسرية ممثلاً في الاقتراح باستنساخ الإنسان واستخدام مظلة الأمم المتحدة لفرض هذه القيم الهابطة على دول العالم الثالث بالقوة.

ويأتي التحذير من هذه الهمزات الشيطانية الخبيثة - كما عرضتها على لسان الشيطان الآية (119) من سورة «النساء» - إعجازاً إنبائياً سبق به القرآن الكريم أحداث هذا الزمن بأكثر من أربعة عشر قرناً، ولا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدراً لهذا التنبؤ الدقيق في هذا الزمن السحيق غير الله الخالق، فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على بعثة خير الأنام سيدنا محمد بن عبد الله - صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفا» (1/ 435).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

37 - ﴿... أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرّعد: 16]

هذا النص القرآني الكريم جاء في بداية الثلث الثاني من سورة «الرعد»، وهي سورة مكية/مدنية، وآياتها ثلاث وأربعون (43) بعد البسملة، وبها سجدة تلاوة واحدة، وقد سميت بهذا الاسم لإشارتها إلى أن (الرعد) - كغيره من الظواهر الكونية - يسبح لله الخالق سبحانه وتعالى الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: 44].

ويدور المحور الرئيس لسورة «الرعد» حول قضية العقيدة الإسلامية.

وتبدأ سورة الرعد بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرّعد: 1].

و﴿الٓمٓر﴾ من الحروف المقطعة التي جاءت في مطلع عدد من سور القرآن الكريم، وتعتبر من الأسرار التي حاول عدد من المفسرين تأويلها وأوكلتها الغالبية إلى علم الله، وتؤكد هذه الآية الكريمة لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن القرآن الكريم الذي أنزل إليه من ربه هو الحق، وإن كانت غالبية الناس لا يؤمنون به جهلاً أو ضلالاً أو استكباراً.

ثم تعرض الآيات التالية لعدد من حقائق الكون الدالة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق، وعلى أن مبدع ذلك كله قادر على إفنائه ثم بعثه، وكانت قضية البعث - عبر التاريخ - هي حجة الكافرين والمتشككين والضالين لعجزهم عن تصور إمكانية البعث بعد تحلل الأجساد وتحولها إلى تراب، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد: 2-5].

وتذكّر الآيات هؤلاء الكافرين أن الكفر بالبعث كفر بالله - تعالى - وتكذيب بكتبه ورسله، وإنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، ومنكره كافر جاحد مطرود من رحمة الله.

وتعجب الآية التالية من استعجال الكافرين لعذاب الله، وكأنهم لم يعتبروا بما حدث للكفار والمشركين من قبلهم فتقول مخاطبة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرّعد: 6].

وتؤكّد الآية اللاحقة أن الكافرين كانوا يستعجلون رسول الله ﷺ في نزول المعجزات الحسية، وكأن القرآن الكريم - مع عظم قدره - لم يكن كافياً لإقناعهم بصدق نبوته فتقول:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: 7].

وتعاود السورة الكريمة إلى التأكيد على شمول علم الله - تعالى - وعلى إحاطته بكل

شيء وعلى أن كل شيء عنده بمقدار، وأنه - تعالى - هو الذي يحفظ خلقه بملائكته إلى أن يأتي أمر الله فتقول:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: 8-11].

وبعد ذلك تستعرض السورة الكريمة مرة أخرى عدداً من آيات الله في الكون مؤكدة أن جميع ما في الوجود يسجد لله طوعاً وكرهاً وحتى ظلالهم - في تحركها بالغدو والآصال - تمثل صورة من صور الخضوع لله بالطاعة وفي ذلك تقول:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: 12-15].

ثم توجه الآيات الخطاب إلى رسول الله ﷺ ليسأل هذا السؤال مستنكراً شرك المشركين وضارباً عدداً من الأمثال وذلك بقوله تعالى:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ

مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: 16، 17].

وهاتان الآيتان الكريمتان تعيبان شرك المشركين واتخاذهم أولياء من دون الله، وهؤلاء الأولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولم يخلقوا شيئاً فـ ﴿. . . ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:16] وتتساءل الآيات: هل يستوي الأعمى والبصير؟ أم هل تستوي الظلمات والنور؟ وتشبه باطل الكافرين بالزبد الطافي على وجه السيل، أو الخبث الطافي على وجه ما يصهر من خامات المعادن الفلزية النفيسة والنافعة، وتشبه الحق الذي أنزله الله - تعالى - بما يمكث في مجاري السيل وتحت خبث الفلزات المصهورة من نفيس المعادن ونافعها.

وبعد ذلك تتحدث الآيات عن صفات كل من المؤمنين والكافرين ومصائرهم في الآخرة واصفة بالعمى كل من لا يؤمن برسالة النبي الخاتم ﷺ وبما أوحي إليه من القرآن الكريم، مؤكدة أن الله - تعالى - يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا لمن أحب، فلا يتخيل كافر أو مشرك أعطي في الدنيا حظاً من مادياتها أن في ذلك شهادة له، لأن فرحه في الدنيا والاغترار بها هو من قبيل الاستدراج لأنه حتماً سوف يتركها وراءه بالموت، فالدنيا - مهما دامت - متاع مؤقت جداً نهايته الموت، والآخرة خلود بلا موت، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ
جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾
أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ
بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ
وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ
سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن
صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم
بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: 18-24].

وفي المقابل تعاود الآيات وصف الكفار والمشركين، والملاحدة المفسدين في الأرض والذين اشتهروا عبر التاريخ بنقض العهود والمواثيق فتقول:

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)﴾ [الرعد: 25-27].

وهنا يتكرر تساؤل الكافرين عن المعجزات الحسية لرسول الله ﷺ وترد عليهم السورة الكريمة بأن الله - تعالى - يضل من يشاء ممن أراد الضلالة، ويهدي من يشاء ممن طلب الهداية، وتعاود سورة الرعد إلى الحديث عن أهل الإيمان وصفاتهم فتقول:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)﴾ [الرعد: 28،29].

ثم توجّه الآيات في سورة «الرعد» الخطاب مرة أخرى إلى رسول الله ﷺ في مواساة كريمة من الله - تعالى - لخاتم أنبيائه ورسله، مؤكداً نبوته، ورسالته وعبوديته لرب العالمين، وجميل توكله عليه، ومعظماً شأن القرآن الكريم وناعياً كفر الكافرين وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)﴾ [الرعد: 30-32].

وهنا تثبّت الآيات رسول الله ﷺ أمام كفر الكافرين وشرك المشركين وتطاول الأقزام

من المتطاولين بأن الرسل من قبله قد استهزئ بهم، وأن الله - تعالى - قد أخذ الذين استهزؤوا برسله أخذاً وبيلاً، وأن عذابهم في الآخرة أشد وأبقى، وأن ليس لهم من واق من عذاب الله - تعالى - أبداً.

ومرة أخرى تسخر السورة الكريمة من شرك المشركين على الرغم من مراقبة الله - تعالى - لهم، وتؤكد عذابهم في الدنيا والآخرة، وفي المقابل تمتدح المتقين وتصف جانباً من نعيمهم في الآخرة فتقول:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: 33-35].

والآيات تؤكد أن الله - تعالى - قائم على كل نفس بما كسبت، وأنه - سبحانه - يجازي كل نفس بعملها، وتنعي الآيات على المشركين شركهم وسفههم وفسادهم، كما تنعي على الكافرين كفرهم وضلالهم، ومكرهم، ولذلك أضلهم الله وعذبهم في الدنيا وأعد لهم من العذاب - في الآخرة - ما هو أشق ولن يجدوا لهم واقياً من عذاب الله أبداً.

وتقارن الآيات في سورة «الرعد» بين عذاب الكفار والمشركين في النار والنعيم الذي أعده الله - تعالى - للمتقين في الجنة، وتشير إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بما أنزل من القرآن العربي وهو الصورة النهائية من وحي السماء التي تكاملت فيها كل الرسالات السماوية السابقة، وإن كفر بذلك أعداد من الأحزاب الضالة والجاحدة للحق، وتأمر الآيات رسول الله ﷺ أن يعلن بأنه مأمور بعبادة الله - تعالى - وحده، وألا يشرك به شيئاً وأن يدعو إليه موقناً بحتمية الرجوع إليه، وحذره من اتباع أهواء الكافرين، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك اسمه -:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ

حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد:36،37] .

وتستمر الآيات في توجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ قائلة له: وإذا كان المشركون يثيرون العجب من أن لك أزواجاً وذرية، ويطلبون من المعجزات الحسية ما هو غير القرآن الكريم، فلقد أرسلنا من قبلك رسلاً لهم أزواج وذرية، وليس لنبي أن يأتي بمعجزة على هواه أو على هوى قومه، لأن الذي يحدث المعجزات هو الله ﷻ وأن لكل مدة مضروبة كتاباً مكتوباً، أو لكل كتاب أجل محدود وأن الحساب على الله - تعالى - وأنه ما على الرسول إلا البلاغ، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: 38-40] .

وتشير الآية التالية إلى إنقاص الأرض من أطرافها كإحدى حقائق الكون الشاهدة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة فيه، والمهيمنة عليه، والمؤكدة على أن الله - تعالى - هو رب هذا الكون ومليكه وأنه - تعالى - سريع الحساب، وفي ذلك تقول الآية:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرّعد: 41] .

وتختتم سورة «الرعد» بالإشارة إلى مكر الكافرين والمشركين من أبناء الأمم السابقة، مؤكدة أن لله المكر جميعاً، ومستنكرة فعل من جاؤوا بعدهم من إنكار لبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فالله - تعالى - يشهد بصدق بعثته ونبوته ورسالته، كما يشهد بها كل من له علم من الكتاب، وهذا يكفيه عن كل شاهد، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ

لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: 42، 43].

من ركائز العقيدة في سورة «الرعد»:

1 - التسليم بصدق الوحي بالقرآن الكريم، وأنه الحق المطلق الذي أنزله رب العالمين بعلمه على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وهو الحق الوحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم وعلى ذلك فالباطل لا يأتيه أبداً على الرغم من جهل أكثر الناس به، وإنكارهم لصدق وحيه.

2 - الإيمان بالله - تعالى - رب السمٰوات والأرض، ورب كل شيء، رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه ولا حاجة له إلى الصاحبة أو الولد، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين؛ والخالق منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله. وهو - تعالى - خالق كل شيء ومدبر كل أمر، الواحد القهار، الذي يفصل الآيات لعل الناس بلقاء ربهم يوقنون، أي: يؤمنون بالبعث والحساب والجزاء والجنة والنار. وهذا الإلٰه الخالق، البارئ، المصور يعلم ما تكسب كل نفس، وهو - تعالى - غفار الذنوب للتائبين، وهو في نفس الوقت سريع الحساب، شديد العقاب، وهو ﷻ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، وكل شيء عنده بمقدار، وليس للخلق من دونه من وال، وله دعوة الحق، وهو شديد المحال أي: عظيم القدرة على التدبير المحكم الدقيق، وعلى الكيد والمكر، والإهلاك وإنزال العذاب.

3 - اليقين بأن العقل من أعظم النعم التي منَّ بها الله - تعالى - على الإنسان، وأن من قبيل الشكر على هذه النعمة العظيمة استخدامها إلى أقصى حد ممكن لها في التفكر والتدبر والتعقل في كل شيء وفي كل خلق من الأنفس إلى الآفاق للتعرف على شيء من صفات الخالق العظيم.

4 - التصديق بحقيقة البعث وضرورته، وبحتمية الحساب والجزاء، وبكل من الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، وضرورة الاستعاذة بالله من شرورها وأخطارها، واليقين بأن الحياة الدنيا ليست إلا متاعاً مؤقتاً يعقبه الموت، إذا ما قورنت بديمومة الآخرة وخلودها بلا موت.

5 - الإيمان بحقيقة النبوة والرسالة، وبالأخوة بين الأنبياء، وبوحدة رسالة السماء التي هي بيان من الله - تعالى - للإنسان في كل عصر وفي كل مكان بياناً ربانياً خالصاً بتفاصيل ركائز الدين (التي هي إما من صميم الغيب المطلق الذي لا سبيل للإنسان في الوصول إليه، كقضية العقيدة أو هي من الأوامر الإلٰهية الخالصة كتفاصيل العبادة والتي لا يجوز للإنسان أن يتدخل فيها أو هي من ضوابط السلوك؛ والتاريخ يؤكد لنا عجز الإنسان دوماً عن وضع الضوابط الصحيحة لسلوكه)، والتأكيد على أن دور الأنبياء والمرسلين هو الإنذار والبلاغ.

6 - اليقين بأن الله - تعالى - يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وأنه قد أوكل بكل عبد من عباده ملائكة يحفظونه حتى يأتي أمر الله، وأنه - تعالى - يطالب عباده دوماً بضرورة التحسين من أحوالهم، والانتقال من حال إلى حال أفضل ولذلك قال - تعالى -:
﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ...﴾ [الرعد: 11].

7 - التصديق بأن كل ما في الوجود يسجد لله ﷻ ويسبح بحمده عبادة فطرية تسخيرية لغير المكلفين، أو اختيارية إرادية للمكلفين، فإن أبى مكلف السجود لخالقه سجدت ذرات جسده وسبحت في عبادة قهرية إجبارية رغم أنفه، وحتى ظله يسجد بالغدوّ والآصال، ولذلك فإن قلوب المؤمنين المكلفين لا تطمئن إلا بذكر الله.

8 - التسليم بأن دعاء كل من الكفار والمشركين في ضلال، لأن الشرك بالله - تعالى - هو كفر به، والله (لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء).

9 - حتمية الإيمان ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وبجميع ما بعث به من الكتاب والسنة النبوية المطهرة، دون أدنى مماحلة أو تشكيك.

من ركائز العبادة في سورة «الرعد»:

1 - إقامة الصلاة.

2 - إيتاء الزكاة، والإنفاق في سبيل الله سراً وعلانية.

3 - الوفاء بعهد الله وعدم نقض المواثيق، ودرء السيئة بالحسنة.

4 - وصل ما أمر الله - تعالى - به أن يوصل.

5 - تقوى الله ﷻ وخشيته، والخوف من سوء الحساب، والصبر على ذلك ابتغاء وجه الله.

من الإشارات الكونية في سورة «الرعد»:

جاء في سورة «الرعد» إشارات إلى عدد من حقائق الكون وظواهره نوجز منها ما يلي:

1 - رفع السمٰوات بغير عمد مرئية.

2 - تسخير الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، والعلوم المكتسبة تثبت اليوم أن الشمس تفقد من كتلتها على هيئة طاقة ما يساوي 4,6 مليون طن من المادة في كل ثانية مما يشير إلى أنها إلى زوال. وتثبت العلوم المكتسبة كذلك أن القمر يبتعد عن الأرض بمعدل 3 سم في كل سنة فهو أيضاً حتماً إلى زوال. وكل من الشمس والقمر لن ينتهيا بهاتين السنتين الدنيويتين لأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا تماماً، ولكن أبقى الله - تعالى - هاتين السنتين شاهدتين على أن لكل من الشمس والقمر أجلاً مسمًى.

3 - الإشارة إلى كل من مدِّ الأرض (بمعنى تكويرها لأن المد إلى ما لا نهاية هو قمة التكوير)، وخلق الجبال رواسي فيها، وعلاقة ذلك بتكوين الأنهار وربطه بتدفقها بالماء الذي أنزله الله بقدر، ودفعه في الأودية بقدر كذلك وبمشيئة الله وإرادته.

4 - التنبيه إلى أن الله - تعالى - خلق الثمرات النباتية (كما خلق كل شيء) في زوجية واضحة حتى يبقى ربنا - تبارك وتعالى - متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

5 - الإشارة الضمنية الرقيقة إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس بتعبير إغشاء الليل بالنهار.

6 - الإشارة إلى أن بالأرض قطعاً متجاورات، مما يتضمن تمزيق الغلاف الصخري للأرض، بشبكة هائلة من الصدوع إلى عدد من الألواح المتجاورة، والتي تتجاور في كل منها صخور متباينة في صفاتها الطبيعية والكيميائية والمعدنية، ومن ثم في أنواع التربة الناتجة عن تحلل كل منها (بواسطة عوامل التعرية المختلفة ومنها التجوية والتحات) وفي تباين كل من ذلك في ظروفه البيئية (المناخية والتضاريسية) وفي قدرته على الإنبات.

7 - خلق جنات من أعناب في الأرض، وخلق الزرع والنخيل وكل منها يأتي من أصل واحد ومن أصول متفرقة، يسقى بماء واحد، ويفضل الله - تعالى - بعضها على

طبقة النهار المحيطة بنصف الأرض المواجه للشمس وباقي الأرض غارقة في ظلام السماء، مما يؤكد كروية الأرض ودورانها حول محورها.

بعض في الأُكل، وفي ذلك إشارة إلى تنوّع المجتمعات النباتية على التربة الواحدة، التي تسقى بماء واحد، في الظروف البيئية الواحدة، مما يلمِّح إلى ما أودعه الله - تعالى - من أسرار في كل نبتة من نباتات الأرض (من مثل الشيفرة الوراثية والقدرة على اختيار أنواع محددة من عناصر ومركبات الأرض) وانعكاسات ذلك على الاختلاف في الطعوم والألوان والأشكال والأحجام.

8 - الإشارة إلى تحول أجساد أحياء الأرض إلى تراب بعد الموت، وإلى حقيقة إخراجها من هذا التراب في يوم البعث.

9 - التأكيد على علم الله - تعالى - بما تحمل كل أنثى، وبما تغيض الأرحام وما تزداد وأن كل شيء عنده بمقدار.

الشيفرة الوراثية لكل نبتة تؤثر في اختلاف لون وطعم ورائحة وشكل كل منها وهي تسقى بماء واحد.

10 - الإشارة إلى تكون الرعد، وإرسال الصواعق، وربطها بإنشاء السحاب الثقال.

11 - ذكر سجود كل من في السمٰوات والأرض لله - تعالى - طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال.

12 - المقابلة العلمية الدقيقة بين الظلمات والنور.

13 - تشبيه الحق بما يمكث في الأرض وينفع الناس من الثروات المعدنية التي تحملها السيول، وتشبيه الباطل بالزبد الطافي على وجه السيل، أو بالخبث الذي يطفو فوق أسطح الفلزات النفيسة حال صهرها لتنقيتها مما تحمله من شوائب.

14 - الإشارة إلى حقيقة إنقاص الأرض من أطرافها، والعلوم المكتسبة تؤكد أن الأرض الابتدائية كانت أكبر في حجمها من الأرض الحالية بمائة ضعف على أقل تقدير. ولهذه الحقيقة عدة تفسيرات علمية أخرى مقبولة.

15 - التأكيد على قيمة العقل في حياة الإنسان، وعلى حتمية توظيفه في التفكير الجاد وفي دراسة الأنفس والآفاق، وفي التحقق من البشارات بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فيما بقي من حق في ذكريات وآثار الكتب السماوية السابقة على بعثته الشريفة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها ولذلك سوف أقصر حديثي هنا على النقطة المتعلقة بمحاولة شياطين الإنس تقليد خلق الله - تعالى - بعبثيات ما يعرف اليوم باسم محاولات الاستنساخ البشري دون جدوى حقيقية للإنسان أو للعلم.

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

يقول ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه: ﴿. . . أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: 16]

هذا النص القرآني الكريم من صور الإعجاز الإنبائي في كتاب الله الذي أخبر من قبل ألف وأربعمائة سنة بمحاولات الإنسان لتقليد خلق الله. وتتمثل هذه المحاولات في الجهود التي بذلت من أجل إيجاد الخلية الحية وباءت كلها بالفشل الذريع، وذلك بسبب ما ذكرناه من قبل من أن الخلية الحية في جسم الإنسان، والتي لا يتعدى متوسط قطرها 0,03 مم تبلغ من تعقيد البناء ما لم تبلغه أكبر المصانع التي أنشأها الإنسان، بل التي رسمها في خياله ولم يتمكن من إنشائها بعد. وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن هذه الخلية الحية المتناهية الضآلة في الحجم قد أعطاها الخالق ﷻ القدرة على إنتاج أكثر من مائتي ألف نوع من أنواع البروتينات التي تعجز أضخم المنشآت التي أقامها الإنسان عن إنتاجها، وتتم الخلية الحية ذلك في زمن قياسي يكاد ألا يقاس. كذلك تكفي الإشارة إلى الشيفرة الوراثية في داخل نواة الخلية الحية والتي تتكدس على ذاتها لتشغل حيزاً أقل من جزء من المليون من المليمتر المكعب، ولكنها إذا فردت يقارب طولها المترين، وعلى هذا الطول يتوزع 18,6 بليون جزيء كيميائي من جزيئات القواعد النيتروچينية والسكر والفوسفور في ترتيب محكم دقيق يعطي لكل فرد منا - بل لكل فرد من أفراد الحياة - بصمة وراثية خاصة تميزه عن غيره، ولو اختل وضع جزيء واحد أو ذرة واحدة في هذا البناء المعجز فإنه إما أن يشوه أو ألا يكون. وبعد فشل كل محاولات العلماء من

أجل تحضير الخلية الحية مختبرياً لجأوا إلى اللعب بالشيفرة الوراثية فيما تبلور اليوم في تجارب الاستنساخ.

(الاستنساخ) بمعناه اللغوي:

(الاستنساخ) في اللغة هو التقدم بنسخ شيء قائم من مثل نقش الخاتم في الشمع، وهو كذلك الأمر بالنسخ والإثبات أو بالمحو والإزالة، لأن الكلمة مما يحمل المعنى وضده.

يقال: (نسخَتِ) الشمس الظل و(انتسخَته) أي: أزالته، و(نسخَت) الريح آثار الديار، أي غيرتها. ويقال: (نسَخَ) الكتاب و(انتسَخه) و(استَنْسخه)، أي: عمل منه نسخة مطابقة للأصل. و(النَسْخة) اسم لكل من (المنتسَخ) منه و(المنتسِخ)، و(نَسْخ) الآية بالآية إزالة حكمها بحكم يتعقبها، و(المُناسَخة) في الميراث هي أن يموت ورثة بعد ورثة، والميراث قائم لم يقسم. و(تناسخ) الأزمنة والقرون هو مضي قوم بعد قوم. والقائلون بـ (تناسخ الأرواح) قوم ينكرون البعث على ما أثبتته الشريعة، ويزعمون أن الأرواح تنتقل من جسم إلى جسم آخر على التأبيد، وهو زعم باطل لا أساس له من الصحة.

الاستنساخ بمعناه العلمي (Cloning):

تعرف عملية الاستنساخ العلمي بمحاولة إيجاد نسخ متشابهة من الخلايا أو الأنسجة أو الكائنات الحية الكاملة من خلية حية سابقة أو من عدد من الخلايا، أو من كائن حي كامل عن طريق استكمال عدد الصبغيات في بييضة منزوعة النواة بدمجها مع خلية جسدية تحمل العدد الكامل من تلك الجسيمات الصبغية تحت تأثير مجال كهرومغناطيسي شديد.

والاستنساخ العلمي في حقيقته هو محاولة تقليد نوع من التكاثر الذي تقوم به معظم النباتات، كما تقوم به الصور البسيطة من الحيوانات ويعرف باسم **التكاثر (الخضري) أو (الجسدي)** أو **(غير الجنسي)**، وذلك لأن عملية الإخصاب تتم فيه ذاتياً. وفي بعض الحالات قد تتبادل عملية التكاثر الجنسي وغير الجنسي بطريقة دورية أو شبه دورية في النوع الواحد من الأحياء، وتعرف هذه الظاهرة باسم **ظاهرة تبادل الأجيال**.

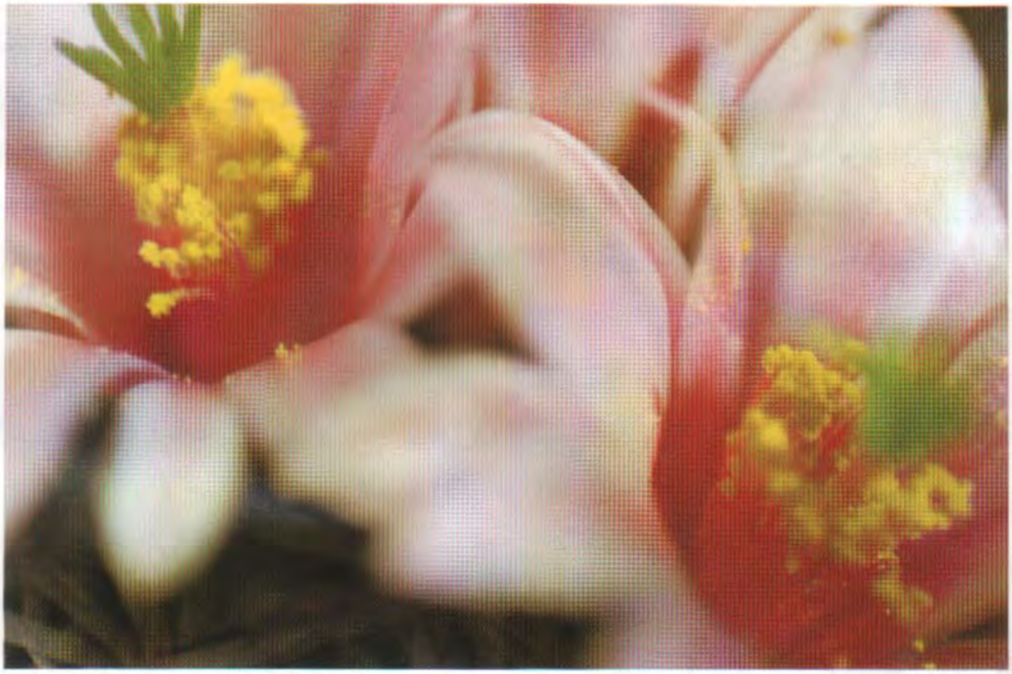

صورة حقيقية لزهرة الصبار وهي من الأزهار التي تحمل الأعضاء الذكرية والأنثوية معاً.

فالنباتات - على سبيل المثال - منها ما هو (**وحيد المسكن**) أي ما ينتج أزهاراً تحمل الأعضاء الذكرية والأنثوية معاً وبذلك يقوم بتلقيح بيضاته عن طريق أعضاء التذكير فيه، ومنها ما هو (**ثنائي المسكن**) بمعنى أن بعض أفراده يحمل أزهاراً مذكرة، ويحمل البعض الآخر أزهاراً مؤنثة وفي هذه الحالة يقوم كل من الرياح والحشرات والطيور أو الإنسان بإتمام عملية التلقيح. كذلك تستطيع بعض النباتات والحيوانات إتمام عملية التكاثر بالانشطار أو التبرعم أو الانقسام أو بغيرها من الوسائل غير الجنسية، وعلى الرغم من ذلك فقد تمر معظم هذه الكائنات بدورة تكاثر جنسي أيضاً لتحقق ظاهرة تبادل الأجيال.

أما الكائنات العليا من عالم الحيوان - باستثناء أنواع قليلة من الأسماك والبرمائيات والزواحف - فإن الخالق سبحانه وتعالى قد فطرها على التكاثر الجنسي وهيأها للتزاوج بين ذكر وأنثى، وكذلك الإنسان ذلك المخلوق المكرم.

الحكمة من التزاوج:

قدَّر الخالق سبحانه وتعالى أن تحمل خلايا التكاثر (النطف) نصف عدد الصبغيات التي تحملها

الخلايا الجسدية، ليكتمل عدد تلك الصبغيات إلى العدد المحدد للنوع بالإخصاب الذي ينتج عن عملية التزاوج بين ذكر وأنثى. ففي الإنسان مثلاً إذا التقى الحيمن (**نطفة الرجل Sperm**) وبه 23 صبغياً مع **البييضة** (**نطفة المرأة Ovum**) وبها 23 صبغياً، وأخصبها (بإذن الله) نتج عن ذلك **النطفة الأمشاج** أي المختلطة أو ما يعرف علمياً باسم البييضة المخصبة أو اللقيحة (**Fertilized ovum or zygote**) والتي يكتمل عدد الصبغيات فيها إلى (46) وهو العدد المحدد لنوع الإنسان.

وبعملية الإخصاب تلك يجتمع للقيحة في شيفرتها الوراثية مورثان لكل خاصية من الخصائص، أحدهما مستمد من مخزون الشيفرة الوراثية للأب وأسلافه إلى أبينا آدم عليه السلام، والآخر مستمد من شيفرة الأم الوراثية وأسلافها إلى نفس المصدر، وبذلك يأتي الأبناء على قدر من التشابه مع الوالدين والاختلاف عنهما، وتعرف هذه الظاهرة في علم الوراثة باسم **التنوع في الوحدة** (**Diversity in Unity**). ولولا هذا التنوع لأصبح الخلق كلهم نمطاً واحداً في الشكل والصفات، ولأصبحت الحياة مملة كئيبة لا تطاق.

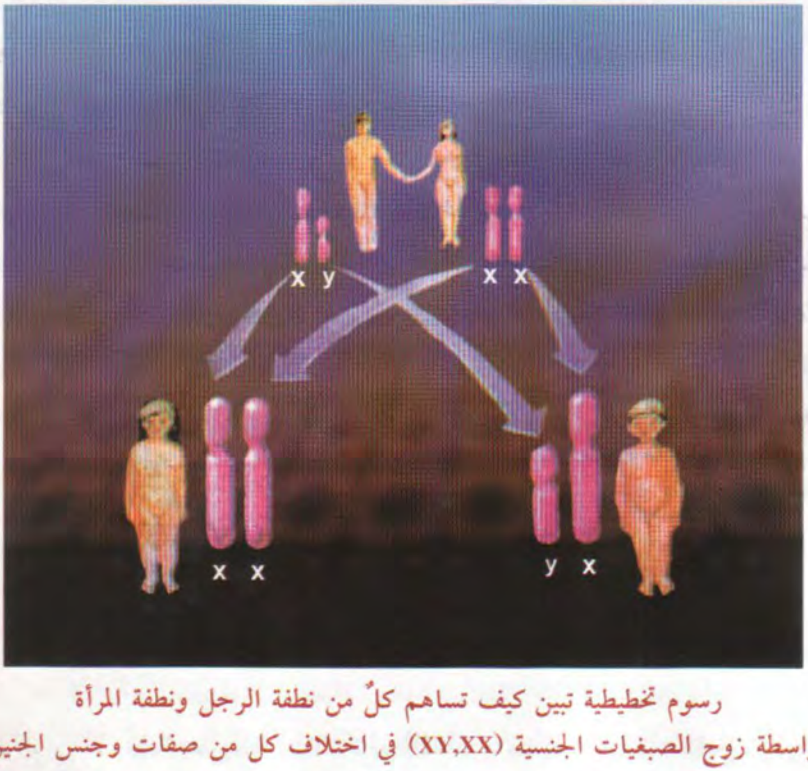

رسوم تخطيطية تبين كيف تساهم كلٌ من نطفة الرجل ونطفة المرأة بواسطة زوج الصبغيات الجنسية (XY,XX) في اختلاف كل من صفات وجنس الجنين.

كذلك فإن المورثين اللذين يتحكمان في الصفة الواحدة إذا لم يختلفا أضر ذلك بالجنين ضرراً بالغاً، وإذا اختلفا فإن الصفة الأقوى تسود وتظهر بينما الصفة الأضعف تنتحي كي تختفي وتستتر لتظهر في الأجيال التالية أو لا تظهر، وبذلك يصح الجنين، ويتمايز الأفراد، وتتنوع الخليقة، ويصبح لكل فرد من بلايين الأفراد التابعة لكل نوع من أكثر من مليون ونصف المليون من أنواع الحياة التي يعرفها الإنسان اليوم والتي يتوقع أن يزداد عددها إلى خمسة ملايين نوع حسب معدلات الكشوف الحالية، يصبح لكل فرد من بلايين البلايين من هذه الأفراد شيفرته الوراثية الخاصة المميزة له لتنطق بإحاطة علم الله وشموله على كل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود.

صرعة الاستنساخ:

على الرغم من وضوح الحكم الإلٰهية العديدة من فرض **التكاثر الجنسي** على الإنسان وعلى العديد من غيره من المخلوقات إلا أن الشيطان ظل يوسوس للإنسان ليغويه بمحاولة تطبيق **التكاثر غير الجنسي** على نفسه وعلى غيره من مخلوقات الله ليخدعه بأنه قادر على الخلق علماً بأن الاستنساخ ليس إيجاداً من العدم ولكنه عبث بخلق قائم فعلاً، وعبث قد ينتهي بالحياة إلى الدمار. وبالفعل نجح عدد من العلماء في استنساخ ضفدعة في سنة 1952م، واستعصت الحيوانات اللبونة (ذات الأثداء) على الاستنساخ حتى أعلن فريق علمي إسكتلندي بقيادة الأستاذ إيان ولموت (**Prof. Ian Wilmut**) من معهد روزلين (**Roslin Institute**) بمدينة إدنبرة تحقيق ميلاد أول نعجة بعملية استنساخ من بييضة منزوعة النواة، خلية عادية نامية من ضرع النعجة، **فجاءت النعجة المسماة باسم دوللي** (**The Sheep Dolly**) وكان ذلك في سنة 1996م، بعد محاولات فاشلة عديدة. ومن سفه الإنسان وجهله، ومن عبث الشيطان بعقله أن تخرج مجلة نيوزويك (**News week**) الأمريكية وعلى غلافها جملة شيطانية ترجمتها «ولموت الخالق» (**Wilmut,The creator**) - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -.

وبعد هذه التجربة تم استنساخ مئات من الثدييات من مثل الخراف، والماعز، والبقر، والأرانب، والقطط، والفئران، والخنازير، إلا أن محاولات الاستنساخ قد فشلت تماماً في حالات الخيل، والقردة، والكلاب، والدجاج.

كذلك لوحظ أن نسبة سقوط الأجنة في حالات الاستنساخ تفوق نظائرها في حالات الحمل بالتزاوج عشرات المرات، كما أن الأجنة المستنسخة ولدت في أغلب الأحوال

مشوهة تشويهاً خلقياً مفزعاً، وحتى الذي نجا من تلك التشوهات أصيب بالعديد من الأمراض، فالنعجة دوللي ذاتها تم إعدامها في 14 من فبراير سنة 2003م. بعد ست سنوات من ميلادها لاكتشاف إصابتها بعدد من الأمراض منها سرطان الرئة، وروماتيزم المفاصل الذي أصابها بالشلل الكامل مما عجل بقرار إعدامها بعد أن أنجبت ستة من الحملان، لا يعلم إلا الله ما قد تجمع في شيفراتها الوراثية من مسببات الأمراض.

وعلى الرغم من هذه المخاطر، فإن الشيطان لا يزال ينفث إغراءاته المسمومة في أذهان العديد من بني آدم من أجل تنفيذ محاولات الاستنساخ البشري على الرغم من النداءات العديدة من كل من علماء الدين، والاجتماع، والقانون، والطب، والوراثة بضرورة تحريم تلك التجارب، ومن أضرارها ما تم تلخيصه في مناقشة النص القرآني الكريم المروي على لسان الشيطان الرجيم حيث قال متحدياً بني آدم: ﴿... وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ...﴾ [النساء: 119].

ومن هنا أيضاً جاء عتاب ربنا - تبارك وتعالى - للكفار والمشركين من خلقه المكلفين فقال - عز من قائل -:

﴿... أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرّعد: 16].

ويأتي هذان النصان ومضتان من ومضات الإعجاز الإنبائي والعلمي في كتاب الله تنبئان عن حدث لم يقع إلا بعد أكثر من أربعة عشر قرناً، ولو أن معناهما فهم في القديم على أنه يتحدث عن الأصنام والأوثان التي أشركها بعض أهل الجزيرة العربية في عبادتهم لله، إلا أن الأحداث قد جاءت في ختام القرن العشرين لتؤكد محاولات الإنسان لتقليد خلق الله بالاستنساخ، ولا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدراً لهذا العلم غير الله العليم الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة سيد الأنام، سيد الأولين والآخرين، وسيد الخلق أجمعين، سيدنا محمد بن عبد الله الذي ختم الله ببعثته النبوات، وأكمل برسالته الرسالات، وأتم على خلقه النعم والرحمات فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

خاتمة

جاء ذكر «الإنسان» في القرآن الكريم في أكثر من ثمانمائة وواحد وثلاثين (831) موضعاً على النحو التالي:

1 - بلفظ (**إنسان**) ومشتقاتها إحدى وتسعين (91) مرة، منها ثمانية عشرة (18) مرة بلفظة (إنس)، وخمسة وستون (65) مرة بلفظة (إنسان)، وخمس (5) مرات بلفظة (أناس)، ومرة واحدة بكل من الألفاظ الثلاثة: (أناسي)، (إنسياً)، و(مستأنسين).

2 - بتعبير (**الناس**) في مائتين وواحد وأربعين (241) موضعاً.

3 - بلفظة (**بشر**) وتصريفاتها في سبعة وثلاثين (37) موضعاً.

4 - بتعبير (**آدم**) والنسبة إليه بـ(**بني آدم**) في سبعة وخمسين (57) موضعاً.

5 - بلفظة (**المرء**) وتصريفاتها في أحد عشر (11) موضعاً.

6 - بتعبير (**امرأة**) وتصاريفها في ستة وعشرين (26) موضعاً.

7 - بلفظة (**رجل**) وتصريفاتها في سبعة وخمسين (57) موضعاً.

8 - بتعبير (**النساء**) و(**نسوة**) وتصاريفهما في تسعة وخمسين (59) موضعاً.

9 - بلفظة (**النفس**) وتصاريفها في مائتين وخمسة وتسعين (295) موضعاً.

وقد تناولنا في مجلد سابق واحداً وثلاثين (31) من هذه النصوص القرآنية الكريمة التي عرضت قضية خلق الإنسان بشقيها: خلق كل من أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام بالأمر الإلٰهي: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117]

ثم خلق ذراريهما بالبلايين التي عاشت وماتت، والبلايين التي تملأ جنبات الأرض اليوم، والبلايين الذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة بسنّة التزاوج والإنجاب عبر مؤسسة الأسرة التي شرعها الله - تعالى - لعباده، والتي تحاول الحضارة المادية المعاصرة هدمها انطلاقاً من عدائها لقضية الإيمان بالله الخالق، ومحاولة التنكر لجلاله والكفر أو الشرك به.

وتحت عنوان «خلق الإنسان في القرآن الكريم» أوضحت مناقشة هذه النصوص الواحدة والثلاثين استحالة الخلق الأول بغير أمر من الله - تعالى - كما أكدت أن وصف القرآن الكريم لمراحل الجنين في الإنسان يبلغ من الدقة والشمول والكمال ما لم يبلغه العلم الحديث وهو اليوم في قمة من قمم عطائه العلمي والتقني.

وسبق القرآن الكريم بوصف هذه المراحل وتسميتها بدقة بالغة، وبعضها لا يتعدى في طوله الجزء من المليمتر، في زمن لم يتوافر لأهله أي من وسائل التكبير أو التصوير أو الكشف والفحص المتوفرة لنا اليوم لمما يثبت لكل ذي بصيرة بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بصدق النبوة وربانية الرسالة.

وفي هذا الكتاب المعنون «الإنسان في القرآن الكريم: من الميلاد إلى البعث» تناولنا سبعة وثلاثين (37) من النصوص القرآنية التي أشارت إلى هذا المخلوق المكرم نوردها فيما يلي:

1 - ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ. . .﴾ [الأحقاف: 15].

2 - ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ. . .﴾ [البقرة: 233].

3 - ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: 14].

4 - ﴿. . . هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . . .﴾ [هود: 61].

5 - ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾﴾
[نوح: 17–18].

6 - ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ . . .﴾ [النمل: 64].

7 - ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه:55].

8 - ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ . . .﴾ [الملك: 2].

9 - ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾
[الواقعة: 60].

10 - ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾
[القيامة: 3–4].

11 - ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾
[الملك: 23].

12 - ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾
[يس: 41].

13 - ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11].

14 - ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: 50].

15 - ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ
قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

16 - ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۖ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يس: 68].

17 - ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران: 36].

18 - ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى . . . ﴾ [البَقَرَة: 222].

19 - ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾

[الرحمٰن: 1–4].

20 - ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾

[لقمان: 28].

21 - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98].

22 - ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾ [الزمر: 62].

23 - ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [قٓ: 4].

24 - ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝٢٢﴾ [الروم: 22].

25 - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ . . . ﴾ [فاطر: 28]

26 - ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾

[الكهف: 11].

27 - ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ﴾

[الكهف: 18].

28 - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا
غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56].

29 - ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: 16].

30 - ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا
لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

31 - ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . . .﴾ [الأحزاب: 4].

32 - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا
وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النحل: 81].

33 - ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4].

34 - ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي
عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41].

35 - ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي
قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42].

36 - ﴿. . . وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ. . .﴾ [النساء: 119].

37 - ﴿. . . أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: 16].

ومن الحقائق العلمية التي سبقت بها هذه الآيات القرآنية الكريمة جميع المعارف المكتسبة ما يمكن إيجازه فيما يلي:

1 - التأكيد على حقيقة الخلق، وعلى أن الله - تعالى - خالق كل شيء، وعلى أنه - سبحانه - يبدأ الخلق ثم يعيده [الزمر: 62، النمل: 64، الروم: 11].

2 - أن حمل الأم لجنينها عملية صعبة تستنزف من دم الأم وأجهزتها وأعصابها وباقي

جسدها الشيء الكثير ومن هنا كانت التوصية بالأم والإشارة بفضلها [لقمان: 14، الأحقاف: 15].

3 - التأكيد على أن أقصر مدة للحمل هي ستة شهور [لقمان: 14، الأحقاف: 15، البقرة: 233].

4 - التأكيد على أن آدم عليه السلام خُلِقَ عالماً عابداً، وأن الله - تعالى - علَّمه الأسماء كلها، وأن الله تعالى هو الذي علَّم الإنسان اللغة والبيان والدين، والكتابة بالقلم، وعلمه ما لم يعلم [البقرة: 31، الرحمٰن: 1 - 4، العلق: 1 - 5].

5 - أن الله - تعالى - خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيُّهم أحسن عملاً [آل عمران: 145 - 168، المؤمنون: 12 - 16؛ الواقعة: 57 - 62، الملك: 2].

6 - أن الله تعالى خلق الإنسان من الأرض، ثم يعيده فيها بعد موته، ثم يخرجه منها تارة أخرى عند بعثه [آل عمران: 59؛ الأعراف: 11، 12؛ هود: 61؛ طه: 55؛ الحجر: 26 - 33؛ المؤمنون: 12 - 16؛ السجدة: 7 - 9؛ الرحمٰن: 14؛ الروم: 20 - 27؛ صٓ: 71 - 67؛ الحج: 5 - 7؛ الكهف: 37؛ نوح: 17، 18؛ النجم، 32؛ الصافات: 11].

7 - التأكيد على أذى المحيض والتحذير منه [البقرة: 222].

8 - الإشارة إلى إبداع الله تعالى في خلق حواس الإنسان، وجعلها وسيلة لكسب المعارف والمهارات، ولفهم رسالة الإنسان في هذه الحياة، وتمكينه من تحقيقها، والتأكيد على سبق السمع على كل من الأبصار والأفئدة، وذكره بالإفراد وذكر الأبصار والأفئدة بالجمع [النحل: 78؛ السجدة: 97؛ المؤمنون: 78 - 80؛ الملك: 23].

9 - التأكيد على دورة حياة الإنسان من ضعف ثم إلى قوة ثم إلى ضعف وشيبة [يسٓ: 68؛ الروم: 54].

10 - الإشارة إلى آيات الله في النفس الإنسانية [الذاريات: 21].

11 - الإشارة إلى تسوية بنان الإنسان كإحدى إبداعات الله في الخلق والشهادة له - تعالى - على أنه كما خلق فهو قادر على الإفناء والبعث [القيامة: 3، 4].

12 - الإشارة إلى دور الناصية في اتخاذ القرار [العلق: 15، 16؛ هود: 56؛ الرحمٰن: 41].

13 - التأكيد على دور الآذان كأول حاسة من حواس السمع وعلى أنها آخر حاسة تغيب عن النائم ولذلك فإن الضرب عليها أو إغلاقها هو العامل الأول في استغراق النائم في نومه [الكهف: 11].

14 - التأكيد على دور الجلد في الإحساس بالألم [النساء: 56].

15 - الإشارة إلى ضرورة تقليب النائم لفترات طويلة على جنبيه حتى لا يصاب بالتقرحات الجلدية ولما دون الجلد والمعروفة باسم «التقرحات السريرية» [الكهف: 18].

16 - الإشارة إلى أن القلب يعقل كما يعقل المخ [الحج: 46].

17 - التأكيد على استحالة أن يكون للرجل قلبان في جوفه، وإن تيسر ذلك للمرأة في حالات الحمل [الأحزاب: 4].

18 - الإشارة إلى خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم إلى تهدم هذا البناء بالتدريج مع تقادم العمر أو استمراء المعاصي ومفارقتها بلا انقطاع عنها [التين: 4 - 6].

19 - الإشارة إلى اختلاف ألوان الناس وألسنتهم وإلى ارتباط ذلك باختلاف الأجواء والتربة والصخور والنباتات والحيوانات، والتأكيد على ما في ذلك من إشارة إلى طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق [الروم: 20-27؛ فاطر: 27-28].

20 - التأكيد على أن الفساد قد عمَّ كلاً من البر والبحر بما كسبت أيدي الناس [الروم: 41].

21 - الإشارة إلى أن اختلاف ألسنة وألوان الناس وهم أبناء أب واحد وأم واحدة، هو من أدلة طلاقة القدرة الإلٰهية التي أبدعت قوانين الوراثة.

22 - تشبيه النوم بالموت، واعتباره موتة صغرى وجعله تذكرة للناس بآجالهم المحددة [الزمر: 42].

23 - التأكيد على حتمية الآخرة وما فيها من بعث وحشر وحساب وجزاء، والاستدلال على ذلك ببقاء فضلة من الهيكل العظمي للإنسان لا تبلى أبداً يعاد بعثه منها بإنزال مطر خاص من السماء فينبت كل مخلوق من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من حبتها كما وصف المصطفى ﷺ ومن هنا كان تشبيه البعث بالإنبات [طه: 55؛ قٓ: 4؛ نوح: 17-18؛ الحج: 5 - 7؛ المؤمنون: 12-16؛ القيامة: 36-39؛ النجم: 45-47].

24 - الإشارة إلى نعمة الظل وهي من نعم الله على خلقه [النحل: 81].

25 - الإشارة إلى المحاولات الفاشلة من أجل تقليد الخلق بما يعرف اليوم باسم: «الاستنساخ البشري» [الرعد: 16، النساء: 119، 120].

26 - التأكيد على الأصل الواحد لجميع بني آدم، وعلى أن وسيلة التفاضل بينهم هي تقوى الله - تعالى - وعلى أن الله - تعالى - جعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويتعايشوا في سلام [الأنعام: 98؛ الأعراف: 189؛ لقمان: 28؛ الحجرات: 13؛ الزمر: 6].

27 - التأكيد على أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء [الزمر: 62].

28 - التأكيد على أن الله - تعالى - هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده [النمل: 64].

هذه هي بعض الحقائق المستقاة من عدد من الإشارات القرآنية الكريمة إلى الإنسان من لحظة ميلاده إلى لحظة بعثه، وهذه الحقائق لم تكن معروفة لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون عديدة من بعده، وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي - ﷺ - وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين بهذه الصياغة المعجزة لغوياً ودينياً وعلمياً لمِمَّا يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً وحفظه في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - في الوقت الذي ضاعت فيه أصول الرسالات السابقة جميعها، وحفظه على مدى يزيد على أربعة عشر قرناً في صفائه الرباني وإشراقاته النورانية، دون أن يضاف إليه أو أن ينتقص منه حرف واحد، وتعهد ربنا - تبارك وتعالى - بهذا الحفظ إلى ما شاء الله حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق بأنه كلام الله الخالق، وشاهد بهذا الحفظ للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت بالمصادر والمراجع

أولاً: علوم القرآن الكريم والسنة المطهرة:

1 - ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل (ت 774هـ): «تفسير القرآن العظيم»، الأجزاء 1 - 4؛ مطبعة الاستقامة - القاهرة (ط 2) 1373هـ/ 1954م.

2 - الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666هـ/ 1267م). «مختار الصحاح» عني بترتيبه السيد محمد خاطر، وزارة المعارف العمومية - مصر (1322هـ/ 1904م) طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية - بولاق - القاهرة الطبعة العاشرة (1384هـ/ 1964م).

3 - الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت 503هـ/ 1108م): «معجم مفردات القرآن الكريم»: تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكاتب الغزلي، (1392هـ/ 1972م).

4 - الراغب الأصفهاني، «المفردات في غريب القرآن» تحقيق وضبط محمد خليل عيتاني، دار المعرفة - بيروت - لبنان. (1418هـ/ 1998م).

5 - الصابوني، محمد علي (1397هـ/ 1976م). «صفوة التفاسير» الأجزاء 1 - 3؛ دار القرآن الكريم - بيروت.

6 - الصابوني، (1402هـ/ 1981م): «مختصر تفسير ابن كثير» (الأجزاء 1 - 3)؛ دار القرآن الكريم - بيروت.

7 - عبد الباقي، محمد فؤاد (1364هـ/ 1945م): «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»؛ دار ومطابع الشعب - القاهرة - مصر.

8 - قطب؛ سيد، (ت 1965م/ 1385هـ): «في ظلال القرآن»؛ الأجزاء 1 - 6؛ دار الشروق (1393هـ/ 1973م).

9 - الكتب الستة (1420هـ/ 1999م) «موسوعة الحديث الشريف»؛ دار السلام للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية.

10 - كنعان، محمد أحمد (1404هـ/ 1984م): «قرة العينين على تفسير الجلالين»، المكتب الإسلامي - بيروت.

11 - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (1393هـ/ 1973م): «المنتخب في تفسير القرآن الكريم» ط 3؛ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (لجنة القرآن والسنة) - القاهرة - مصر.

ثانياً: المراجع العربية:

1 - البار، محمد علي، (1401 - 1112هـ/ 1981 - 1992م): «دورة الأرحام»؛ الدار السعودية للنشر والتوزيع، ص 1 - 93.

2 - البار، محمد علي، (1420هـ/ 2000م): «التارات السبع: من الطين إلى الجنين، أطوار الخلق في القرآن والسنة المطهرة»، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ص: 1 - 68.

3 - البار، محمد علي، (1423هـ/ 2002م): «خلق الإنسان بين الطب والقرآن»، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ص: 1 - 528.

4 - جور نجر، ج. س؛ عبد المجيد الزنداني، مصطفى أحمد (1408هـ/ 1987م): «علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة»، من أبحاث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، (إسلام آباد - باكستان 25 - 28 صفر 1408هـ/ الموافق 18 - 21 أكتوبر 1987م).

5 - حامد، حامد أحمد (1417هـ/ 1996م): «الآيات العجاب في رحلة الإنجاب» دار القلم، دمشق، ص: 1 - 335.

6 - حامد، حامد أحمد (1423هـ/ 2002م): «رحلة الإيمان في جسم الإنسان»؛ دار القلم، دمشق، دار البشير - جدة، ص: 1 - 548.

7 - حسنين، كريم (1420هـ/ 2000م): «دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن»؛ «نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع»، ص: 1 - 231.

8 - دياب، محمود (1408هـ/ 1988م): «الإعجاز الطبي في القرآن الكريم» مطابع دار الشعب بالقاهرة، ص: 1 - 94 (مع الترجمة إلى اللغة الإنجليزية).

9 - الديب، صفوت (بدون تاريخ): «الإعجاز العلمي في القرآن: نظرة على علم الأجنة» (بدون ناشر).

10 - الشريف، عدنان (1416هـ/ 1997م): «من علم الطب القرآني: الثوابت العلمية في القرآن الكريم»؛ دار العلم للملايين - بيروت (لبنان)؛ ص: 1 - 336.

11 - العطيفي، محمود (1416هـ/ 1997م): «القرآن الكريم والحروق» من أعمال مؤتمر جراحة التجميل والحروق الدولي بالبحرين، ص: 1 - 9.

12 - عيد، محمد السقا (1418هـ/ 1998م): «مختارات من الإعجاز الطبي في القرآن»؛ طبعة خاصة بدون ناشر ص: 1 - 180.

13 - فياض، محمد (1420هـ/ 1999م): «إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان»، دار الشروق، ص: 1 - 141.

14 - كورباليس، مايكل (2006): «نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم»: ترجمة محمود ماجد عمر، المعرفة (325) ص: 1 - 320.

15 - الهلالي، صادق؛ حسين اللبيدي (1414هـ/ 1993م): «الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم»؛ هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص: 1 - 56.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

1 - Abrahams P.H.; S.C. Marks Jr. & R.T. Hutching (2003): Mc Minn's Colour Atlas of Human Anatomy; MOSBY, An Imprint of Elsevier Science Ltd., 378 pp.

2 - Corballis, Michael C. (2002): "from Hand to Mouth: the Origins of Language" Princeton University Press.

3 - Gianaroli, Luca; Michelle Plachot& M. Cristina Magli (2000): "Atlas of Embryology"; Human Reproduction vol. 15 (Suppl. 4), December 2000, European Society of Humam Reproduction and Embryology ESHRE; Oxford University Press, pp. 1 - 79.

4 - Jirasek, Jan E. (2001): "An Atlas of the Human Embryo and Fetus" A Photographic Review of Human Prenatal Development (The Encyclopedia of Visual Medicine Series); The Parthenon Publishing Group. U.K., PP. 1 - 144.

5 - Moore, Keith l. (1973 - 1982): "The Developing Humam: Clinically Oriented Embryology"; 3rd edtion with Islamic Additions by Abdul - Majeed A zzindani; Dar Al - Qiblah, Jeddah, Saudi Arabia with special permission from W.B Saunders Company, pp. i xvii + 1 - 479

6 - Moore, Keith L. & T. V. N. Persaud (1998):" The Developing Human: Climically Oriented Embryology"; W.B. Saunders Campany; pp. i xii + 1 - 563.

7 - Nilsson, Lennart (2002): "Borders of Science" Biblotheca Alxandrina, 77 pp., Alexandria, Egypt.

الدكتور زغلول راغب محمد النجار

أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والغربية
زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها
ورئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية
بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة

دار المعرفة

للطباعة والنشر

هاتف: 834301 - 834332 - 858830(01) فاكس: 835614(01)

ص.ب: 11/7876 بيروت ـ لبنان ـ البريد الإلكتروني info@marefah.com :e.mail

http://www.marefah.com

ISBN 9953-85-139-5

9 789953 851396 >